مؤلفات ثروت أباظة

ابن عمّار
هارب من الأيام
قصر على النيل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦



الطبعــة الثـــانية

ابن عمّار
هارب من الأيام
قصر على النيل

ابن عمار

١ - عودة

أهكذا يعود ! يالها من آمال عراض تلك التى صحبها يوم تــرك موقفه هذا منذ سنين ••• انه لم ينس بعد تلك الأمانى العذبة التى كانت تزحم نفسه يوم ضاق به العيش فى بلدته « شلب » فنزح عنها وفى نفسه آمال ، وفى قلبه أمان ، وفى صدره عزم ، وفى كل دمائه شعر ••• لقد ترك بلدته مهد ميلاده ومدرج طفولته ومغنى شــبابه ليدور بشعره على الملوك يسترفد مالهم بما يرفده عليهم من شعره ولقد دار ، ولقد مدح • فبالغ فى المديح ، ولقد كذب على الحق فأوغل فى الكذب ، ولقد أمات ضميره ليجعل الظالم منهم عادلا والمجنون فيهم حكيما ، ، ولقد محا من ذاكرته كل ما يعرفه عن هؤلاء الملوك من شر ، ولقد أنمى بشاعريته كل ما كان يعرفه عنهم من خير ••• ثم هو زاد عليه ، ثم هو أنشأ لهم الخير ثم هو قلب مقابحهم أفضــالا ثم مدح ثم مد يده وثناها ••• ألا ما أبخس ثمن الضمير فى رحاب الملوك ••• انه ليفكر أنال كفء ما أعطى ؟ أكانت تساوى هذه الدريهمات خروجه ودورانه وكذبه واختلاقه ؟ ••• بل أتعدل هذه الدريهمات أن يترك بلده الحبيب ••• ان يكن ضاق به فها هى ذى الدنيا جمعاء تضيق به ••• ولكن أضاقت الدنيا أو ضاقت « شلب » به هو أم أنها ضاقت

ببضاعته ... وكيف تضيق ؟؟ أنه يبيع شعرا ... انه يهب لمادحه فكرا انتظم فصار شعرا ... أهذا قليل ! ما شأن ممدوحه ان خالج هذا الفكر شعور أو لم يخالجه .. ألم ينظم شعرا .. ألم يحسن ما نظم فما هذه الدريهمات الضئيلة التى يصيبها ! فأين هذا العدل الذين يزعمون وجوده فى الدنيا ؟! وأى دنيا تلك التى تجعل الشاعر العبقرى يتمسح بأبواب الجهلة من الملوك والوزراء ! يسكب عليهم شعره فلا يصنيب منهم غير هاته الضحكة البلهاء التى تلتصق بشفاههم يحاولون بها افهامه أنهم يفهمون ما يقول ، ويحاولون بها أن يصدقوا هم فى أنفسهم أن هذا المديح الذى يسمعون حق لا رياء فيه ولا كذب ، ثم هو لا يصيب من بعد الا هذه الدريهمات يلقونها اليه القاء ! ولو تجسمت السعادة التى يحسونها بالمديح ولو وضعت مجسمة فى كفة لما عادلها مال العالم أجمع ولكنهم مع هذا يبخسونه حقه واهمين أن ما قاله لا يعدو الحق فى شىء فهو لم يخلق جديدا ، ولم يمت ضميرا، ولم ينشىء فضلا ، ولم يقلب القبح حسنا ، وهو لا يستحق الا هذا القليل .

هكذا كان يفكر ابن عمار وهو واقف بأبواب « شلب » عائدا اليها من سفره هذا الطويل وقد تضاءلت آماله ، فبعد أن كانت تهفو الى الغنى والشهرة والجاه العريض ، أصبحت تحوم حول حفنة من الغلال يقيم به أود نفسه وأود حماره الذى أضناه السفر فى تحقيق الآمال .

دخل ابن عمار « شلب » راكبا حماره الهزيل يفصله عن ظهره خرج قديم قذر كان هو كل ما يلبسه الحمار . أما هو ... أما أبو بكر محمد بن عمار فقد كان يضع على نفسه بضعة أخلاق من الثياب ان اختل نظام واحدة منها وضحت من تحتها عظام الشاعر بارزة تكاد تطل من جسم صاحبها ، وكان يضع على رأسه قلنسوة صغيرة يكاد شعره

أن يلقى بها • دخل ابن عمار شلبا لا يقصد فيها الى أحد فلقد ربى وشـب فى قرية من أعمالها وان كان قد تلقى علومه فى شـلب على « ابن الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم » الا أن أستاذه هذا قد مات ومات معه أغلب من كان يعرفهم ابن عمار من الأساتذة والباقى منهم لا يجرؤ ابن عمار أن يقصد اليه ليطلب فجميعهم فقير ، فلم يبق أمام ابن عمار الا أن يكافح وحده ليرد جوع نفسه وجوع حماره الذى أضناه •

سار ابن عمار يتلفت فى ذلة الجائع وفى عزة الشاعر فلا يجد وسيلة الى أحد ممن يرى ، وكان الناس ينظرون اليه على حماره هذا الهزيل فتبدو على وجوه بعضهم الشفقة والاشفاق على هذا الهزال المركب وتبدو على وجوه أخرى السخرية من تلك الأسمال التى تكاد تلتئم جنباتها جميعا من شدة هزال صاحبها والتى كانت تبدو وكأن أحدا لا يلبسها ، وانما هى منتصبة بقدرة معجزة ، وكانت السخرية تتضح وتستبين حين تنصب عين الساخر على الحمار المضنى من كثرة المشى لا من الحمل الذى يحمل فهو لا يحمل شيئا •••

ولكن ابن عمار كان مشغولا عن هذا كله بجوعه وجوع حماره الذى تركه يسير لم يوجهه وجهة معينة بل ترك له حق القيادة ، والحمار لا يعرف طريقا الى بيت ، ولا سبيلا الى مرتع ، وانما هو يرى طريقا فيسير، ولقد يعوج الطريق أو يعتدل فيعوج معه ويعتدل، حتىاذا وجد طريقين عليه أن يختار بينهما • اختار دون أن يكون لعقله وازع فى هذا الاختيار فهو حمار يسير لا يدرى لماذا يسير ولا أين الطريق ••• وطال الأمر على ابن عمار والحمار ، فالطريق طويل على من لا يعرف مقصدا ، ولقد مالت الشمس للغروب وكادت أن تغيب وكاد أن يغرب معها أمل ابن عمار الأخير الذى تضاءل حتى أصبح حفنة من غلال •

وفجأة أشرق سوق الغلال فى عين ابن عمار فوقف الحمار من

تلقاء نفسه على مبعدة قريبة من السوق ، وأخذ ابن عمار يفكر فى وسيلة ينال بها أمله الأخير هذا .. أيسأل تاجرا أن ينسئه حفنة غلال يرد له ثمنها عند ميسرة ، ولكن ما الذى يدعو التاجر الى ائتمانه وهو لا يعرفه ، وهل هو نفسه يأتمن نفسه ، وأين هى تلك الميسرة التى يريد أن يرد فيها الثمن .. لا .. لا فائدة من النسيئة .. أيستجدى التاجر ؟ .. لا ودون هذا موته وموت الحمار جميعا .. فكر ابن عمار فأطال التفكير ثم وثب الى ذهنه خاطر .. آخذ يقلبه على أوجهه.. لماذا لا يمدح هذا التاجر بشىء من الشعر ! .. نعم انه لم يمدح غير الملوك والسراة . من القوم ولكن ما البأس فى أن يمدح هـذا التاجر ، لقد كان يمدح الملوك والسراة ليصيب منهم مالا يشترى به غلالا .. لقد كان الملوك والسراة طريقا له الى هذا التاجر وأمثاله .. وقد مدح هو الطريق ليصل الى المقصد فماله لا يمدح المقصد بعد أن خذله الطريق ، ولكن أيفهم التاجر الشعر ؟ وحينئذ ضحك ابن عمار فى نفسه فأغرقت نفسه فى الضحك .. وهل فهم الملوك والسراة جميعهم الشعر .. سوف يمدح التاجر فانه بهذا ينال ما يصبو اليه وانه بهذا سيدخل الى نفس هذا التاجر فرحا لم يتوقعه فى يوم من الأيام ، وعزم ابن عمار وبدأ فى التنفيذ وآخرج من جيبه قرطاسا وخط عليه فى سرعة بضعة أبيات ثم هم أن يدع ظهر الحمار ويسعى الى التاجر ولكنه عاد الى نفسه وخجل أن يفعل فهو لم يعود وقفه فى السوق وهو لم يعود أن يرى ممدوحه معه على الأرض ، بل كان يراه دائما على ذروة عرشه .. فكر ابن عمار فى وسيلة يبلغ بها قرطاسه الى التاجر ، وبينما هو حائر ، مر به غلام استوقفه ابن عمار ، وطلب اليه أن يبلغ ورقته وفيها شعره الى التاجر الذى استوجهه ابن عمار وكان الغلام طبعا فأخذ الورقة وقصد بها الى التاجر ، فأخذها وألقى اليها نظرة كانت كافية لأن يغمر السرور وجهه فلقد أصبح ممدوحا يقال فيه الشعر ويرجى لديه النوال ، ولم يفهم التاجر من الشعر شيئا غير أنه شعر

وغير أن هذا الشعر لا يمدح به غير الملوك والسراة .. ولما كان التاجر واثقا أنه ليس ملكا فلا بد اذن أن يكون من السراة وهكذا أسرع الى مخلاة لديه وأراد أن يملأها برا (١) ولكن غريزة التاجر فيه ردت يده فى سرعة وألقت بها الى الشعير فملأ المخلاة منه وأعطاه الى الغلام ثم التفت الى غلاله يجمعها يريد أن يبلغ بيته فيفهم زوجه التى لا تنى عن ايذائه أنه أصبح ممدوحا وأنه من السراة .

وانكفأ الغلام الى ابن عمار يحمل اليه المخلاة بحملها الجـديد ففرح ابن عمار ورأى فى هذه المخلاة آماله قد تحققت بل ان آمال حماره أيضا قد تحققت معه ولم يبق له الا أن يفكر فى مثل هذه الآمال لغده الذى ينتظره والذى يتربص به ليفعل به مثلما فعل الأمس، ومثل ما يفعل اليوم ، ومثل ما تفعل كل اخوان هذا الغد من ذاهب وحاضر فى ابن عمار فويل لابن عمار من غده .. أو ويل للغد من ابن عمار .

(١) البر بضم الباء : القمح .

٢ ـ عهد الملوك

لم يمكث ابن عمار فى شلب فقد أصبحت فى عينيه مثل سائر البلدان التى مر بها فى تطوافه وان تكن فى نفسه مهد طفولة ومدرج صبى ومعهد ذكريات •

كان لا بد لابن عمار أن يأكل ، وكان لا بد لحماره أن يأكل معه ، ولم يكن فى مقدور ابن عمار أن يقصر شعره على التجـار ، وما كل تاجر مثل ذلك الرجل الكريم الذى وصله ، وان تكن آمال ابن عمار تضاءلت الا أنها فى البعيد البعيد من نفسه ما زالت وهى هى وما زالت تلقى به الى كل متجه يرجى فيه خير •

وكانت الأندلس فى ذلك الحين مقسمة الى دويلات على كل منها حاكم وقد أصر هؤلاء الحكام أن يسموا دويلاتهم ممالك حتى يتسنى لهم أن يسـموا أنفسـهم ملوكا ولقد كثر بينهم التنازع ولكنهم لم يتنازعوا فى هـذه التسمية قط. فقد اعترف كل منهم للآخر بها حتى يضمن اعتراف هـذا الآخر لنفسـه ولكن التـاريخ أبى أن يعترف باعترافاتهم هذه ولم يقبل أن يطلق عليهم ملوكا ، ثم يسكت عنهم ، وانما أطلق عليهم اسم « ملوك الطوائف » ، فكانت هذه التسمية من التاريخ دليلا على أن هذا التاريخ قد يصدق فى بعض الأحايين •

كان بنو عباد هم أقوى أسرة حكمت فى عهد ملوك الطوائف هؤلاء ، وقد كانت اشبيلية هى مقر حكمهم ، وقد تحدر الملك فى بنى عباد حتى وصل الى « أبى عمرو عباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد » • وقد ولى الحكم بعد أبيه وأطلق على نفسه اسم المعتضد ، وكان أبوه القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل من خيرة الملوك الذين حكموا فى هذا الزمان ، وقد سار المعتضد فى طريق أبيه قليلا فكان يستشير ويعدل ، ثم مال عن هذا الطريق فاستبد بالحكم وحده، ولم يكن عهده كله شرا فان التاريخ ليقول عنه كثيرا من الخير ، ولكنه كان سفاكا باطشا ، ولعل النقائض لم تجتمع فى شخص كما تجتمعت فى المعتضد ، فهو قاس غليظ القلب ، ولكنه فى مجالسه رقيق الحاشية ، حسن الذوق ، شاعر محب للشعر ، وقد كان مستمعا للشعر خيرا منه ناظما له •

سمع ابن عمار عن المعتضد وعن حبه للشعر ، فشد اليه الحمار عساه أن يجد لنفسه متسعا فى الزحام ووقف ابن عمار الى المعتضد وقد جلس الى جانبه ابنه المعتمد وقد كان من أحسن شعراء عصره •• وقف ابن عمار وألقى قصيدته التى أضنى ذهنه فى اعدادها فقد كان يعلم أن آمال المستقبل أجمع رهينة بأبياته هذه قال ابن عمار :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى	والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافورة	لما استرد الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره	وشيا وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زها بورد رياضه	خجلا ، وتاه بآسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم	صاف أطل على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله	سيف ابن عباد يبدد عسكرا
عباد المخضر نائل كفه	والجو قد لبس الرداء الأغبرا
ملك اذا ازدحم الملوك بمورد	ونحاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الأكباد من قطر الندى	وألذ في الأجفان من سنة الكرى

يختار أن يهب الخريدة كاعبا ... والطرف أجرد، والحسام مجوهرا
قداح زند المجد، لا ينفك عن ... نار الوغى الا الى نار القرى (١)
لا خلق أفرى من شفار حسامه ... ان كنت شبهت المواكب أسطرا
أيقنت أنى من ذراه بجنة ... لما سقانى من نداه الكوثرا
وعلمت حقا أن ربعى مخصب ... لما سألت به الغمام الممطرا
من لا توازنه الجبال اذا احتبى ... من لا تسابقه الرياح اذا جرى
ماض وكف الرمح يكهم، والظبا ... تنبو، وأيدى الخيل تعثر فى الثرى
من كل أبيض تقلد أبيضا ... عضبا ، وأسمر قد تأبط أسمرا
ملك يروقك خلقه أو خلقه ... كالروض يحسن منظرا أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمته ... فرأيته فى بردتيه مصورا
وجهلت معنى الجود حتى زرته ... فقرأته فى راحتيه مفسرا
فاح الثرى متعطرا بثنائه ... حتى حسبنا كل ترب عنبرا
وتتوجت بالزهر صلع هضابه ... حتى ظننا كل هضب قيصرا
هصرت يدى غصن الندى من كفه ... وجنت به روض السرور منورا
حسبى على الصنع الذى أولاه أن ... أسعى بجد أو أموت فأعذرا
يا أيها الملك الذى حاز المنى ... وحباه منه بمثل حمدى أنورا
السيف أفصح من زياد خطبة ... فى الحرب ان كانت يمينك منبرا
ما زلت تغنى من عنالك راجيا ... نيلا ، وتفنى من عتا وتجبرا
حتى حللت من الرياسة محجرا ... رحبا وضمت منك طرفا أحورا
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد ... الا اليهود وان تسمت بربرا (٢)
أثمرت رمحك من رءوس كماتهم ... لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء ملوكهم ... لما علمت الحسن يلبس أحمرا
نمقتها وشيا بذكرك مذهبا ... وفتقتها مسكا بحمدك أذفرا
من ذا ينافحنى وذكرك صندل ... أوردته من نار فكرى مجمرا

---

(١) ما يقدمه الضيف لضيفه .

(٢) كانت هذه القصيدة على أثر وقعة انتصر فيها المعتضد على البربر .

فلئن وجدت نسيم حمدى عاطرا   فلقد وجدت نسـيم برك أعطرا
واليكها كالروض زارته الصـبا   وحنا عليه الطـل حتى نـورا

وان فى هذه القصيدة أبياتا تظهر فى جلاء كيف تمتزج الوحشية بالجمال فالرمح على سنانه الرأس هو — فى رأى ابن عمار — غصن مثمر ، والسيف خضبه الدم هو الحسن الذى يلبس أحمر ولعل ابن عمار قصد الى اجتماع القسوة والجمال فى نفس المعتضد أو لعله لم يقصد ... ولعله حينما أمات ضميره ومدح جاءت هذه الأبيات فى زحمة المديح ورأى نفسه يمدح شخصا لأنه قتل فأراد أن يعتذر عما فعل ويعتذر للممدوح عما قتل فكانت هذه الأبيات ... لعله ، ولعله لم ... أيا يكون الأمر فقد ألقى ابن عمـار قصـيدته ثم خرج من الديوان لينتظر ما قد يجود به عليه المعتضد ، ولقد انتظر ابن عمار فطال به الانتظار ، حتى رأى بقاءه بعد هذا عبثا لا طائل تحته وحاول أن يصبر نفسه ولكنه أحس أن آماله فى جائزة خيال ، فقام من جلسته وفى نفسه حسرة لاعجة ، فقد كان كل مناه أن يقيم بهذا الرحاب غير نازح وها هو ذا يخرج منه حتى بغير الجائزة التى كان ينالها من الملوك الذين لا يفهمون الشعر ولا يقدرونه ... لقد علق مناه بقصيدته وكم يخذل الشعر أصحابه .. ليخرج اذن من القصر فلا يقيم .. بل ليخرج من غير جائزة وحسبه أنه خرج سالما ان كان فى السلامة مع التشرد احتساب لمحتسب ... خرج ابن عمار الى حماره الذى تركه خارج القصر وسار الى حيث ترك الحمار ولكن يا للمصيبة النازلة ! لم يكن الحمار هناك . بحث ابن عمار حول القصر وأطال البحث فلم يهتد الى حماره الأثير فلجس على سور القصر وفى نفسه ألم وحسرة وأخذ يفكر فى حماره الذاهب .. لقد صحبه منذ سنين ولقد رأى معه مر الحياة وحلوها ... وماذا ؟! .. حلوها !؟ ... أين حلو الحياة هذا الذى ذاقه معه الحمار .. انه لم يعرفه .. لا بأس لقد كان اذن حمارا صبورا احتمل مر الحياة وحده فلم يطالب بحلوها .. ولكن أكان

يستطيع أن يطالب لقد كان صامتا لأنه مرغم على الصمت ثم من أين يدرى أنه سرق الآن لعله هو الذى هرب وحده دون سارق .. انه هو هذا الخائن لم تكد بارقة أمل تلوح له فى هذه المدينة الضخمة حتى ترك صاحبه أحوج ما يكون اليه ليبحث عن صاحب آخر .. لم يكن وفيا ذلك الحمار ... ولعله أيضا كان نحسا على صاحبه فان خيرا ما لم يصب ابن عمار وهو راكبه .. أكان نحسا حقا ابن عمار أم أنك تصبر نفسك على ما أصابها . فكر ابن عمار فأطال التفكير ، وقد انتهى الى أن هذا الحمار كان نحسا عليه ، فمس قلبه طيف من الراحة لم تتركه نفسه دون أن تفسده عليه فحادثت صاحبها هازئة : « أكان الحمار نحسا أيها الشاعر فانظر اذن أى خير سيصيبك من بعد ذهابه .. لم تعد لك حجة فى فقرك أيها الشاعر ان كان الحمار هو حجتك » فغضب ابن عمار من نفسه هذه المتشائمة وهب يريد أن يسير وهم أن يبحث عما يركب ولكنه تذكر أن حماره قد سرق فعلم أن نفسه على حق فى سخريتها وامتطى قدميه وهم بمسير .. لم يكد ابن عمار يخطو متباعدا عن القصر حتى لحقه من ينادى به فكذب أذنيه أول أمره ولكن النداء ألح فالتفت الى من ينادى فاذا هو خادم من القصر يسعى اليه ، فانبثق فى نفسه وامض أمل غشته سحابة خوف ولكن صوت الخادم ما لبث أن علا طاغيا على هواجس نفسه طالبا اليه أن يعود الى القصر .

ورجع ابن عمار الى القصر الذى ترك فيه رماد أمل ضخم من آماله ولكن ما لبث هناك أن رأى هذا الرماد من الأمل قد تجسم فصار الأمل حقيقة واقعة يكاد لا يصدقها لطول عهده بالآمال المحترقة ولا يستطيع أن يكذبها لأنها قائمة أمامه وهو يقظان غير نائم ، وهو مفيق غير مخمور بغير هذه النشوة التى انسابت فى احساسه لأول مرة فى حياته .. لقد تحقق أمل . أمر المعتضد أن يكافأ ابن عمار فتجزل له المكافأة وأمر له بملبس فخم وبمركب فاخر ، جعل ابن عمار

يلعن حماره وأيامه النكدة وكل هذه الأعطيات لا تساوى شيئا فى نظر ابن عمار اذا قاسها بالأمر الأخير الذى قضى بأن يكتب اسمه ضمن شعراء القصر •

أصبح ابن عمار اذن من شعراء القصر •• لقد آن للشريد فى أقطار الأرض أن يراح الى ملجأ وأن يهدأ الى مستقر •• يتلقى ابن عمار ذلك الخبر ويهم بأن يذهب الى الحجرة التى خصصت به ، لكن خادما يأتى اليه ويخبره أن مولاه المعتمد يطلبه فيجف قلبه ! وكيف لا؟؟ المعتمد شاعر رقيق غزل لم يقل الشعر فى يوم تكلفا ولم يقله محتاجا وانما أحسه فقاله وابن عمار لم يقل الشعر الا صناعة •• وكيف لا ؟ وهو قد تلقى هذا الخير جميعه ولا بد لشر أن يلحق بالخير ، ولا بد للمعتمد أن ينتقد ، وتقد الأمير شتيمة قد تصل الى ما هو أدهى •

يذهب ابن عمار الى حيث يدله الخادم فاذا هو يجد ثلة من القوم ليس بينهم من هو أفضل من الآخر وقد افترشوا جميعا وسائد على الأرض ، ويبحث بينهم عن المعتمد الذى رآه فى مجلس أبيه فلا يجده فيلتفت الى الخادم يسأله عن المعتمد ولكن الخادم كان قد انصرف ، فيعيد وجهه الى القوم فاذا هم مشرئبون اليه واذا واحد منهم كان قد رآه حين أنشد قصيدته يقوم اليه ويقدمه الى الجالسين ويفهمهم أنه أصبح منهم ، فيعلم ابن عمار أن هؤلاء هم شعراء القصر فلا يحتشم منهم شيئا ، فقد كان يعلم أنه خير منهم صناعة وأنه أكبر منهم نفسا •• يجلس اليهم فيقولون ويقول ، ويسمرون فيسمر ، فاذا هو أكثرهم دعابة واذا دعاباته تنطلق على طبيعة مواتية لا أثر فيها للكلفة فقد رأى كثيرا وتعلم •• ولقد اختلط بأقوام كثيرين وعلم أن المرح هو خير عون له بعد الشعر وعرف أيضا أن هذا المرح ان شابه تكلف أو صناعة أصبح ثقلا لا يحتمله أحد ، وكان من حسن طالعه أن روحه كانت صافية بطبيعتها ، فهو ينطلق على سـجيته ، فيجد الجالسين

يميلون اليه بحديثهم ، ويؤثرونه بالتفاتهم ، واذا هو روح المجلس المنطلقة الجميلة ..

وبينا ابن عمار منطلق في دعاباته ، اذا بالمجلس قد غشيه الوقار فجأة ، واذا بالمنطرحين الى الأرض قد نفروا جميعا وقوفا ، فيعجب ابن عمار عجبا يقطعه صوت جديد عليه يلقى السلام الى من بالحجرة، ويلتفت ابن عمار فيجد المعتمد داخلا اليهم من باب لم يكن ظاهرا فيرى ابن عمار تلك الأبواب السرية التى كان يسمع عنها وان كان لم ير داعيا لهذا التخفى الذى اتخذه المعتمد وهو يدخل اليهم .. يدخل المعتمد وعينه على ابن عمار ثم هو يطلب من الشعراء أن يتخذوا مجالسهم ، فيتخذوها متوقرين ويلتئم الجمع حول المعتمد ، فيلتفت الى ابن عمار ويقول له :

— هيه يا ابن عمار لو أن الشعراء فعلوا ما فعلت اليوم ما ربح أحد منهم شيئا .. أتمشى أيها الرجل قبل أن تنال جائزتك .

فيقص ابن عمار على المعتمد كل ما لاقاه فى يومه هذا من آمال خابت وحمار سرق ثم يكمل القصة بهذا الخير الذى سكب عليه .. وكان ابن عمار يقص فى انطلاقة لم يعهدها المعتمد فيمن يحادثه وفى مرح طرب له المجلس وعلى رأسه المعتمد .. وابن عمار جذلان بما يلاقى كلامه من استحسان يشجعه على المضى فى حديثه علمه أن الأمير يشتهى دائما أن يسمع الحديث عبيطا لا أثر فيه لتنميق لكثرة ما يسمع من التنميق ، ويشجعه من قبل ذلك الضحك الذى يستقبل به ، وهكذا عرف ابن عمار كيف ينفذ الى المعتمد فيصل الى نفسه من الطريق القريب وهو طريق الطبيعة العارية التى لا تحب التعمل ولا التكلف ، وهو الطريق الذى عمى عنه كل من صاحب المعتمد من قبل ، فان أقرب الطرق دائما هى أبعدها عن الذهن المحدود .

سر المعتمد بالشاعر الجديد وقربه الى مجلسه ثم حادثه عن قصيدته التى ألقاها فى أول الليل فاذا هو معجب بها فيجيب ابن عمار .

ـ وأين هذا يا مولاى من قصيدتك التى تقول فيها :

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر

وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر

وان يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مرد لما يأتى به القدر

وان تكن كبوة فى الدهر واحدة
فكم غزوت ومن أشياعك الظفر

كم زفرة فى شغاف القلب صاعدة
وعبرة من شئون العين تنحدر

واصبر فانك من قوم أولى جلد
اذا أصابتهم مكروهة صبروا

لم أوت من زمنى شيئا أسر به
فلست أعهد ما كأس وما وتر

ولا تملكنى دل ولا خفر
ولا سبى خلدى غنج ولا حور

رضاك راحة نفسى ـ لا فجعت به
فهو العتاد الذى للدهر أدخر

لا زلت ذا عزة قعساء شامخة
لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر

قال ابن عمار هذه الأبيات وهو يترنم بها ترنم المعجب المخمور بما ينشد والمعتمد يستمع وعلى وجهه تتوالى موجات من السخط والرضى، فليس يدرى أيها أولى بالظهور وأيها أدعى الى الاستخفاء ، حتى اذا انتهى ابن عمار من الأبيات التى يحفظها تغلب السخط على الرضى فى نفس المعتمد وان السخط لغالب دائما فى نفس الملوك .. انتفض المعتمد صارخا .

ــ أتذكرنى بموقعة هزمت فيها وباعتذار عن خذلان !! لبئس ما اخترت لى يا ابن عمار ولبئس ما شاء لك حظك .

ــ بل نعم ما اخترت لك ونعم ما اختار لى حظى أيها الشاعر .. أنا لا أعرفك فى موقعــة وأنا لا أعرفك أميرا وانما أنا أعرف فيك الشاعر الرقيق وأعرف فيك المعتمد بمجده الذى أنشــأه هو بقلمه لا بمجده الذى أنشأه له أبوه وأجداده .

وفكر المعتمد قليلا ثم هز رأسه وقد أعجبه الكلام فكل جديد جميل وقال لابن عمار :

ــ لقد أجبت أيها الشاعر فأحسنت .

ــ بل ليس بعد يا مولاى فان لى مآخذا على شعرك هذا الذى ذكرت .

وبهت المعتمد فهو لم يسمع كلمة المآخذ هذه لاحقة بكلام يقوله أبدا ولكن ابن عمار لم يحفل دهشة المعتمد وأكمل ما يقول .

ــ لقد قلت فى بيتك الثانى : وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها .. انك لتخاطب أباك فى قصيدتك تعتذر له عن هزيمتك وأنا لا أظن أن أباك بكى بل لو كان بكى لكان عليك أنت أن تكتم الأمر فلا تبين عنه أما أن تقوله شعرا فهذا مالا أرضاه لك شاعرا أبدا .

سمع المعتمد الحديث ووعاه وأصابته وخزة النقد ولكنه وجد لها مسا رقيقا حلوا لم يعهده من قبل فى المديح الذى يسمع ، لقد أحس صدقا فى حديث ابن عمار وهو لم يعهد الصدق فى كل من يخاطبونه ، بل كان يشعر بفراغ ضخم من الناس ، فقد كانوا جميعا يتملقونه فهم فى عينه لا يمـلأون الفـراغ الذى أتاحه الله لهم فى الدنيا .. بل انهم يزيدون هذا الفراغ فراغا .. سمع المعتمد وفرح بما يسمع ثم هب فى الجالسين :

ــ أسمعتم أيها الشعراء .. ان فى العالم صدقا .. لقد مكثتم السنين تستمعون وتعجبون ألم أقل شيئا ينتقد فى يوم من الأيام ؟ ومن أنا أيها الشعراء أكنت الله يرسله تنزيلا ولكن صدقا انبثق فى القصر .. فأهلا .. أهلا بالصديق الذى طال عنه البحث .

مال المعتمد الى ابن عمار يذاكره شعره وابن عمار يمدح فى تحفظ وينقد فى أدب ووضوح ، وحين يجد المعتمد معجبا بنفسه يشجعه على اعجابه ، فهو يلاينه ويشعره أنه يقسو عليه ، وهو يمدحه ويجعله يحس أنه ينقده .. حتى انتهى الليل ودارت الرءوس تهفو الى النوم فانفض السامر وافترق الشاعران الصديقان وقد اعتزما لقاء فى يومهما التالى بل لقد اعتزما لقاء فى كل أيامهما التالية .. فهلمى أيتها الأيام وأرينا ما الذى تخفينه لصداقة جديدة وعهد جديد .

٣ - عهد جديد

انصرف ابن عمار الى غرفته معجبا بنفسه ، فقد سارت الخطة فى الطريق الذى رسمه لها ، ولقد ظفر بالمعتمد وقد عرف من أين يذهب اليه ، وقد لاقاه وأمسى أو هو أصبح وقد حقق لنفسه من الأمنيات ما ظن أنه لن يتحقق فى يوم من الأيام ، فلقد أصبح شـاعر الملك المعتضد وقد أصبح قريبا الى نفس المعتمد ولى العهد الشاعر الذى يحب الشعراء • ويفكر ابن عمار فيما كان بينه وبين المعتمد حين أفهمه أنه ينقده وأنه مخلص له •• فكر ابن عمار فى هذه الخطة التى رسمها لنفسه يوم كان فقيرا ويوم كانت آماله تصبو الى يومه هذا •• فقد كان حينذاك يفكر فيما يلقاه هؤلاء الأمراء من تزلف وتمليق ، وكان يفكر فى غباء هؤلاء المتملقين المتزلفين كيف يفوت عليهم أن الأذكياء من الأمراء يضيقون أحيانا بكثرة المديح كما يضيقون من كثرة النقد •• وكان يفكر كيف يجب أن يضع المتقربون الى الأمراء مدحهم فى قالب من النقد حتى يخيل للأمراء أنهم يستمعون الى صادق •• انه لم ينقد المعتمد اعتباطا ، ولم تكن سرعة خاطر ولا حدة بادرة ، وانما هى خطة نظمها فى نفسه منذ آماد بعيدة غاية فى البعد ورأى الفرصة أمامه فاهتبلها ، ولقد نجحت الخطة وقفز وثبا الى الهـدف الذى

تقطعت أنفاس الكثيرين ممن يحيطون بالمعتمد ليصلوا اليه فما بلغوا مما بلغ ابن عمار شيئا •

وأغفى ابن عمار يؤرقه شوقه الى الغد بعد أن كان يؤرقه خوفه من هذا الغد •• وهكذا ذاق حلو الحياة ابن عمار حليف البؤس وأخو الطريق •

حتى اذا أقبل الصبح وكاد أن يغدو ظهرا دلف الى حجرة ابن عمار خادم من القصر يوقظه وما أسرع ما تيقظ وما أجمل ما سمع •• فقد جاء الخادم يدعوه الى المعتمد •

ووضع ابن عمار على نفسه تلك الحلة الجديدة التى أنعم عليه بها المعتضد فى ليلته الذهبية ثم نظر الى المرآة فوجد شيئا •• ولم يكن قد نظر الى المرآة منذ كان طفلا وما كان بحاجة لينظر اليهـا وما كانت حاجته الى هذه النظرة !! أما وجهه فهو يعلمه ، وأما الأسمال التى كانت عليه فهو ضيق بها يريد أن تغرب عن وجهه فهو يدعو الله أن يعفيه منها أو يعفيها منه •• أما اليوم فهو ينظر الى المرآة ويجد شيئا •• يجد انسانا فى وجهه حمرة من أثر الفرح ، وفى عينيه حمرة من أثر السهر ، وفى ملبسه فخامة من عند الملك •

سعى ابن عمار الى المعتمد ومكثا معا وتحادثا وكانا كلما فعلا اقترب ابن عمار الى نفس المعتمد ، فهو يقص عليه ما رآى وما سمع ، ويقص عليه ما أصابه به الدهر ، حتى اذا حس ابن عمار نفسه وكأنه يكلم شخصا يعرفه منذ زمن بعيد تجرأ فسأل المعتمد عن دخوله بالأمس من باب سرى وأوشك أن يأخذ هـذا على المعتمد ولكنه لم يكد فان المعتمد أسكته وطلب اليه أن ينتظر حتى يقبل المساء •

وأقبل المساء والأمير والشاعر متلازمان وسأل ابن عمار الأمير أن يجيب عن سؤاله الذى أبداه فى صدر النهار فاذا الأمير يقف ويأخذ

بيد ابن عمار الى حجرة ليس بها من شيء غريب ، فهى حجرة ذات باب وبها بعض الستائر تزين جدرانها ولكن الأمير يزيح ستارا منها فيرى ابن عمار من خلفه ثقبا فى الحائط ويسأل الأمير عنه فيطلب اليه الأمير أن ينظر من الثقب فيفعل فيرى مجلس الشعراء الذى كان فيه بالأمس وقد التأم لا ينقصه غير نفسه وغير المعتمد .. ويستوضح الأمير فيخبره أنه يريد أن يرى الشعراء وهم جالسون فى الغــرفة الأخرى دون أن يحسوا به فيتاح له أن يراهم فى مباذلهم من غير هذه الكلفة التى يصطنعونها فى مجلسه . فلقد ضاق بهم أمام الأمير وأراد أن يراهم أمام أنفسهم فيسأل ابن عمار :

ـــ فاذا مسك أحدهم بما لا تحب .

ـــ ان أحدا منهم لا يجرؤ فكلهم عين على كلهم وهم يخشون على أنفسهم من أنفسهم .

ـــ فلماذا أريتنى هذه الحجرة ؟

ـــ لأننى أحسست فيك الصدق ولقد رأيتك بالأمس من هذا الثقب وأنت لا تعلم ، ثم رأيتك تتكلم أمامى فما رأيت اختلافا بين الحديث والحديث ، بل رأيتك فى كل مجالسك تطلق نفسك على سجيتها فهذا الثقب لا أحتاج اليه معك .

ـــ والباب لماذا جعلته مختفيا ؟

ـــ حتى لا يحاول واحد منهم فتحه ليعرف أن وراءه حجرة .. انهم يظنون حين أدخل منه أنه مفض الى دهليز من دهاليز القصر .

وهكذا تكشفت الحقيقة لابن عمار وهى فى تكشفها جعلته يحس أنه صار أقرب الناس الى المعتمد ويفتح المعتمد الباب المختفى ويمضى الى المجلس ومن خلفه ابن عمار .

ويرى الجالسون ابن عمار مصــاحبا للأمير فتشتعل نفوســهم غيرة ولكن النار التى بقلوبهم ما تلبث أن تنقلب تملقا لابن عمــار وتوسيعا له فى المجلس وفى الحديث فقد صار القريب الى المعتمد .. وناهيك بقريب الى المعتمد . ومرت الأيام فكان الشاعر يلازم الأمير لا يفارقه بل ان الامير لم يعد يطيق أن يفارق الشاعر لحظة من حياته فهو معه طول يومه وليله لا يفارقه الا لهجعة فى أصيل ، أو نومة فى مساء .. بل لعله كان يلازمه عند الأصيل أيضا ويكتفى المعتمد بضجعة يتخذها ويبيح للشاعر أن يتخذ لنفسه الجلسة التى يريدها .. ومرت الأيام سريعة على المعتمد بصداقته الجديدة بعد أن كانت بطيئة ثقيلة لا يحس لها جمالا ولا رواء ، وهى ان كانت تسرع على المعتمد فهى تومض ومضا لابن عمار لا يكاد يحسب أنها أيام مثل تلك الأيام التى مرت به وبحماره حتى لقد كان يخيــل اليه أن الدهر قد تغير فأصبح يلد أياما جديدة لا صلة لها بتلك الأيام البائسة النكدة التى قاساها .

وانقطع المعتمد عن مجلس أبيه وفرغ لابن عمار فى الصباح ثم لشعرائه جميعا منذ صدر الليل حتى يشارف نهايته وهو يخلو بعدئذ الى ابن عمار وهــكذا حتى لم يصبح له لحظة يخلو فيها لأبيه أو لمجلسه ، وأحس الوالد بانقطاعه هذا وقد كان يعلم أن ابنه شاعر وقد كان يعلم أنه يحب الشعراء ويهفو لمجلسهم ، ولكنه مع هذا كان يراه خاليا اليه حينا ، والى مجلسه أحيانا ، فأحس الوالد أن ثمة جديدة فى حياة ابنه استقصاها فعرف أنها ابن عمار ، وأنه قد زاد على الشعراء فالتهم وقت ابنه الذى كان يبقيه له هؤلاء الشعراء ، وما كان المعتضد ليسكت عن هذا فهو يحب الشعر ويحب المجلس المرفه ولكنه يحب ملكه أولا وهو يخشى أن يصر المعتمد على شعره وشــعرائه فلا يصبح الملك الذى يرجوه الغد ويرنو له العرش .

لم يسكت الملك عن هذا الأمر ، ولكنه خشى أن يلوى ابنه فى عنف ، أو يزجره فى قسوة ، فينفلت الزمام من يده ، فهو يعلم أن ابنه ذو روح شاعرة طليقة لا تطيق القيد ولا ترضاه حتى ولو كان هذا القيد ملكا ، فهو يدعو ابنه ويبصره فى روية ويسايره فى الحديث والرأى أول الأمر ليصل به الى رأيه الذى يريده له فى آخر الأمر ، فهو يقول عن نفسه انه شاعر وانه يحب الشعراء ويقربهم وأنه ليترسل مع ولده فى الحديث حتى ينتهى به الى تلك الأبيات التى قالها فى صدر شبابه :

قسمت زمانى بين كد وراحة   فللرأى أسحار وللطيب آصال
اذا نام أقوام عن المجد ضلة   أسهد عينى أن تنام بى الحال
وان راق أقواما من الناس منطق   يروق .. بدامنى مقال وأفعال

وان المعتضد ليطلب الى ابنه أن يقسم زمانه بين شعر وامارة ولكن المعتمد لا يقطع برأى بل يلف مع المقال ويدور فى طاعة من الحديث وعصيان عن الوعد ، والمعتضد ذكى يعلم ما يجول بخاطر ابنه ، ويعلم أنه يخشى من وعد يقطعه ثم لا يطيق أن ينفذه ، ويترامى الحديث ويطول فلكل احراج من المعتضد مخرج عند المعتمد حتى اذا أحس المعتضد أنه مفض الى اخفاق فيما يريد صارح ابنه أنه سيوليه امارة شلب فيستهول الولد الخطب ويهم بأن يستقيل أباه ، فهو شاعر لا شأن له بالامارة ، فان تفض اليه فى غد له بعيد فهو سيصاب بها مرغما لأنه لا يطيق لها دفعا ، أما أن يصاب بها وأبوه على قيد حياة وهو بعد ما يزال غارقا فى الشعر وابن عمار ، ودون أن يرى داعيا لتلك الاصابة فهذا ما لا يطيق ، ويقرأ المعتضد هذه المعانى على وجه ابنه وفى عينيه فيشير الى ابنه أن يسكت قبل أن ينطق ثم يبدأ فى حديث آخر نابع من القلب :

ــ وبعد يا بنى أتعين الدهر على فلقد أصابنى بأخيك الأكبر

أرغب ما يكون فى الخلافة وأعجل ما يكون اليها حتى لقد هم بقتلى ليعتسفها منى قبل أن يتيحها له موتى •• وقتلته ، وقتلت به شطرا من نفسى وجانبا كان فى حياتى اشراقا حين ميلاده فاذا هو السواد الحالك •

ثم صرت أنت الأكبر والأمل فاذا أنت أزهد ما تكون فى الخلافة وأقعد ما تكون عنها فلا والله لن يصاب ملك فى ملكه وأولاده كما أصاب فبالله الا أعنتنى على الدهر وأعيذك أن تكون عونا له •

واغرورقت عينا المعتضد بالدمع وهمت أن تفيض به لولا أن أمسكه عزة الملك وقبول الابن •

٤ - صداقة وحب

شلب اذن هى الامارة التى اختارها المعتضد لابنه المعتمد .. بلد ابن عمار ومهبط رأسه ، ومكان تعلمه ، ومغنى شبابه ، ومصدر فقره ، وأيام شقائه ، لقد علم ابن عمار أن المعتمد راحل الى شلب ليكون بها أميرا ، هو يعلم أن المعتمد لم يعد يطيق الحياة من غيره ، فهو اذن راحل مع المعتمد وما أطيب هذا .. سوف يدخل شلبا هذه المرة وهو الصديق الأول لأميرها ومن يعلم أى غد ينتظره هناك فقد أصبح الغد ينتظره دائما بالخير .

وسافر المعتمد الى شلب ، وسافر فى صحبته ابن عمار ، وأقبل المعتمد على امارته كارها ، وحاول أن يصرف أمورها ، ولكن أى أمور تلك التى يراد به أن يراودها انه شاعر لماذا لا يريدون أن يفهموا هذا .. انه شاعر يحب شعره أما الامارة فانها مشقة سوف يتحملها فى حينها .. ان أحدا لا يريد أن يفهم عنه هذا الا صديقه الأثير ابن عمار .. هو وحده الذى يعلم ما يعتمل بنفسه .. وهكذا يقبل المعتمد على شئون الامارة اقبالا خيرا منه الاحجام فما يكاد يقطع فى أمر حتى يهرع الى ابن عمار ويتناشدان ثم هو يضيق بتلك الفترة الوجيزة التى يبت فيها فى أمور الحكم ، فهو يطلب الى ابن عمار أن يجلس

معه حين تعرض عليه الأمور فيفعل ابن عمار متثاقلا أو مظهرا للتثاقل. مخفيا للرغبة العنيفة فى هذه الجلسة ، متحرقا شـوقا اليهـا فى بعيد نفسه .. ويجلس ابن عمار وتعرض الأمور فيسكت بعض الحين ولكن المعتمد لا يريد أن يراه سـاكتا فهو يلتفت اليه ليشركه فى الحديث اشراك المجاملة .. فما كان ليدرى عنه خبرة فى غير الشعر .. يلتفت المعتمد الى ابن عمار يطلب منه رأيا عابرا فاذا ابن عمار ينبثق متفجرا واذا هو ثاقب النظرة خبير بدقائق ما يقول .. فانها بلدته وانه ابن عمار ذلك الرجل الذى دار على قصور الملوك فرأى وفهم ما رأى، ثم هو حليف الطريق الطويل فما أكثر ما خلا به وبحماره هذا الطريق، فكان يفكر ويمحص ويتعمق الأمور حتى يبلغ أعمـاقها وهو يقرأ فيصل الى أغوار ما يقرأ فما هو اذن بالشاعر الهاذر الذى يمد يده ليثنيها الى فمه فلا يفكر فى غير مد وانثناء .. وما هو بالذى يغبى عن فهم الأمور الجلائل فقد عاصرها مشاهدا ، وان تكن الحياة النكدة لم تتح له أن يعاصرها عنصرا فيها ، فها هو ذا المعتمد ينتقم له من تلك الحياة ويوسع لخبرته بالتفاتته تلك ، وها هو ذا يتدفق فى تبصر ويرشد فى خبرة ويهدى فى مران والمعتمد يستمع عاجبا معجبا وقد وسع ما بين هدبيه ، فما دار له بخلد أن ابن عمار يفهم شيئا غير الشعر وغير تلك الأحاديث الطلية التى كان يترسل فيها ولكن ها هو ذا يتضح عن رجل مارس السياسة ومارسته فليكن صديق الشعر هو هو صديق السياسة وما أجمل أن يكون هذا الصديق الدائم ابن عمار .

ولكن ابن عمار الذى سعى الى صداقة المعتمد والى مجالس شعره لا يطيب له أن يشارك هذا المعتمد فى الامارة وقد كان يعلم أن ابعاد المعتمد عن شئون الامارة أمر ما أيسره ولكنه يتعجل ولا يطيق الانتظار أكثر مما انتظر .

لا يطول التفكير بابن عمـــار فهو يعلم أن المعتمد عازف عن شئون الامارة وهو يعلم أنه يحب الشعر ومجالس النساء ، فما أسرع ما يعقد ابن عمار هذه المجالس وما أجمل ما ينضدها فيقبل عليهـــا المعتمد لا يفيق ويتظاهر ابن عمـــار أنه مقبل معه .. وتملأ هذه المجالس وقت المعتمد فهو يترك شئون الامارة شيئا فشيئا لابن عمار حتى يستقل بها لا يشاركه فى ذلك المعتمد ، بل ان المعتمد ليغتبط بهذا التوفيق الذى هيأه الله له فى ابن عمار فجعل منه شاعرا فذا ومنظما عبقريا للجلسات الممتعة ثم شاء تبارك وتعالى أن يتوج هذا كله بخبرة نابغة فى السياسة وشئون الحكم .

وتسير الحياة طيبة للصديقين فأما الأمير فيمرح مع الشـــعراء والحسان ، وأما الشاعر فيصرف شئون الامارة وينظر فى كل شئونها كبر هذا الشأن أو صغر ولكنه مع هذا يفكر فى أمره وأمر المعتمد فيجد نفسه هو السيد بغير لقب وبغير وظيفة رسمية فان وظيفة شاعر الأمير لم تكن فى يوم من الأيام منفذا الى شئون الحكم .. لا بد اذن من وظيفة ولم لا وقد أصبح المعتمد خطرة منه ولم يكن من دأب ابن عمار أن يقف تفكيره عند التفكير أبدا بل انه دائما يتبع الفكر بعمل .

وجلس ابن عمار الى المعتمد وامتلك ابن عمار عنان الحديث ودار به ولاب ، حتى انتهى الى الامارة فهو يذكر للمعتمد ما يشقى به فيها ، ثم هو يتكلم مترسلا مظهرا للمعتمد أنه لا يقصـــد الى غير الترسل فى الكلام فيعرض الى المخالفات التى تقع من صغار الموظفين وكيف أنه لا يملك أن يردهم عنها ، ويفهم المعتمد مرمى الحديث وهدفه فلا يصبح الصباح الا وابن عمار قد أصبح وزير المعتمد فى امارة شلب .

هكذا أصبح ابن عمار في بلدته .. بلدته تلك التى لفظته شابا ، ثم

أقفلت أبوابها دونه كلما حاول أن يلجأ اليها .. لقد صار فيها وزيرا .. وزيرها الذى يحمل وحده عبئها فلا يعرف أميرها من أمرها أمرا ، غير أن ابن عمار هو المتصرف فيها ...

هيه ابن عمار ما أحسب أيامك الخالية أتاحت لك أن تتخيل هذا الذى تمرح فيه اليوم من سعادة .. فهل تقف بك آمالك ابن عمار عند حد تنتهى اليه ، أم رأيت من الأيام لينا فأنت توغل غير ناكص .. شأنك والأيام ابن عمار .. شأنك واياها .

ظلت هكذا حياة الأمير ووزيره الشاعر .. ولم يكن المعتمد رغم ما هيأه له ابن عمار من حسان وشعراء ليستطيع أن يتخلى عن جلسات صديقه ، فهو يتوق اليه منفردا يتطارحان الشعر أو يجيزانه فان ضاقا بالقصر وشلب خرجا متنكرين الى اشبيلية يمرحان فيها ما وسعهما المرح ، وقد كانت المدينة مهيأة لهذا المرح أحسن تهيئة حتى اذا ضاقا بصخبها خرجا الى « مرج القطة » على ضفاف الوادى الكبير فيجلس ابن عمار الى المعتمد فى هذا المنفسح العريض من الخضرة يحف به نهر صاف يكمل الجمال الذى يشيع فى الروض .

جلس المعتمد الى ابن عمار وقد اقتعدا السندس يرنوان الى ذلك النهر تمسه نسمات من الهواء فتجرى مياهه فى تموج رجراج كأنه شعر غانية ترسله ، وان الشاعرين لينعمان بتلك النسمات تنفح وجهيهما بهواء لين كأنما هو القبلات الرقيقة تغمر به الحبيبة وجه من تحب ، واذا الشاعران يصمتان تائهين تيه المخلوق أمام روعة الخالق، ولكن المعتمد كان أسبق من ابن عمار فى التخلص من انسانيته ليرف الى شاعريته ، فهو يتكلم دون أن يلتفت الى ابن عمار ، وانما هو ناظر الى النهر لا يريم ، يقول المعتمد :

ـ أجز يا ابن عمار .

ترقرق الماء بهفهاف النسـيم واطرد

يالوحة أبدعها بفنـه الفرد الصمد

ولكن ابن عمار يغرق فى صمته وتخشعه ويهم بأن يسأل المعتمد أن يعفيه من اكمال الأبيات ، ويهم بأن يعتذر بروعة المنظر المسكتة عن عجز فهو يعرف أن أى كلام مهما يكن شعره هو أو شعر المعتمد لن يحيط بهذه الفتنة التى تحيط بهما ••• يهم ابن عمار أن يفعل ، ولكن صوتا رقيقا عذبا ينساب من قريب يخاله الشـاعر نسيما من النسيم ، أو خفقة من النهر ، أو صوتا للكون الطروب حولهما قد انبعث يكمل البيتين ببيتين •• ويلتفتان الى الصوت فيجدان حورية قد جلست منهما غير بعيد رانية الى النهر غير ملتفتة الى الصاحبين وانما هى تنشد شعرها وكأنما تنشده لنفسها ، وينظران الى جانب وجهها فيريان جمالا لم يرياه من قبل وهما المعتمد وابن عمار ، ثم يسمعان شعرا لم يسمعاه من امرأة قبل وهما المعتمد وابن عمار ، قالت الفتاة :

أجمـل بهـا يـوم الوغى	لو أن ذا المـاء جمـد
تخالهـا منسـوجة	مـن حـلق ومـن زرد

ويقفز الشاعران من مكانيهما ويهفوان الى تلك الحورية التى انبعثت لا يدريان من أين ، ويسرع المعتمد اليها فيضـع يده على جسمها ، فقد خشى أن يكون الخيال قد خلق ما يريان ولكن الحورية تلتفت اليه وفى فمها ضحكة ، وفى وجهها بشر ، وفى عينيها وميض ، ثم هى تقول :

ــ بل هى حقيقة أيها الأمير •• بل هى حقيقة •

ويضطرب المعتمد من ذلك الجمـال الذى شع فى عينيه فهو يقول :

ــ وتعرفينني •

— ومن لا يعرف الأمير الشاعر وصاحبه الوزير ؟
— فمن أنت اذن ؟
— أنا روميكا .
— أشاعرة أنت ؟
— بل جارية .
— بل أميرة .. دونك والقصر .

وتذهب روميكا الى القصر ويشتريها المعتمد من صاحبها ويتزوجها ويبدأ حب فى قصر المعتمد هو حبه الأول والأخير ، فقد عرف النساء من قبل جوارى ولكنه لم يعرفهن حبيبات ولا شاعرات .

ويغير المعتمد اسم روميكا فيصير « اعتماد » . وابن عمار يرى هذا فيفرح به ، فقد سقط عن كاهله تدبير المجالس والنساء وفرغ للامارة وحدها لا يشغله عنها الا أن يجلس أحيانا الى المعتمد . فلا يسمع من المعتمد الا عن اعتماد ان كان شعرا فشعر أو يكن حديثا فحديث ، وابن عمار فى الحالين يشجع المعتمد أن يسير فى حبه فما الشباب الا حب وما الشعر الا خفقة القلب صيغت ، والمعتمد يقبل على هذا الحديث اقباله على حب اعتماد والامارة بين حديث ابن عمار وفراش اعتماد ضائعة لا تعرف أميرا غير وزيرها ، فالوزير منفرد بالأمر .. ولم يكن الوزير ذا ضمير مرهف ، ولم يكن ذا مال ، ولا هو بذى قناعة .. وقد عرفت يده كيف تمتد بعد شعر المديح يقوله لسانه فهى اليوم تعرف كيف تمتد بعد شعر المديح تسمعه اذنه ؛ وان لم يكن لهذا سعى الى الوزارة . فلماذا ؟؟ فما هو بالوطنى الصادق الوطنية لوجه الشرف ، ولا هو بالوفى الخالص الوفاء لآل عباد ، ان ابن عمار لم يكن صادق الوفاء ولا خالص السعى الا لابن عمار وحده . وبهذا المبدأ الواقعى سار ابن عمار فى وزارته وسارت به الأيام حتى اذا فاض المال لديه علا رنينه . وللمال الحرام رنين

ضحم لو أن آذان المعتمد خلت لحظة لصكها ، ولكن من أين لها وهى تمتلىء بحديث الحب فى المساء وبالحديث عن الحب فى الصباح ٠٠ ولكن الرنين يعلو وتتواكب أصداؤه حتى تبلغ آذان المعتضد ذاته فى اشبيلية فيثور ٠

ويصبح المعتمد ذات صباح فيقصد الى الايوان ويرسل فى طلب ابن عمار ولكن الحاجب يستأنيه حتى يرى رسـول أبيه ، ويدخل الرسول فاذا هو يحمل ورقة يأمره أبوه فيها أن ينفى ابن عمار من شلب ويسأل الرسول تفسيرا لما يحمل فما يحير الرسول بجواب ، فهو لا يعرف ماذا يحمل ، ويعود الأمير الى الورقة فيجد الأمر قاطعا أبكم لا يبين بغير الأمر وحده ٠٠ فتدمع عين المعتمد ، ويعود الى طلب ابن عمار فيأتى الوزير ويهم بأن يفسح للحديث ما كان يفسح ولكن المعتمد مقطب الوجه مغـرورق العينين مكروب النفس ، فلا يسأله ابن عمار عما به فقد تعود أن تتهدى اليه نفس المعتمد دون أن يسعى اليها ٠٠ ولا يطول الصمت بالمعتمد بل هو يفضى لابن عمار بما حمله الرسول فيخفف ابن عمار عن المعتمد وان يكن الخبر قد أكربه الا أنه يعلم من أين يلج الى النفوس ، ويعلم أنه لو أثار المعتمد على أبيه فانه قد يثور لحظة ثم تمسك به بنوة ويهبط به ايثار لسلامة٠ فهو اذن يحاور المعتمد ويسوق اليه أن أباه لم يرد الا خيره وأنه انما أمر ليتيح للمعتمد أن يقوم بأمر الامارة وحده بغير معين حتى يمرن على الحكم ويحسن الدربة ٠ ويصل هذا الحديث الى نفس المعتمد فيخفف مما يحس ثم هو يلتفت الى ابن عمار ليقول له :

ــ أنا أعلم أنك احتملت عبء الوزارة فلم تصب منه مالا فحتى تجهز أمرك أكون قد دبرت لك ما يعينك فى غربتك ، وانى سأظل على وصلك ما دمت بعيدا حتى يقضى الله أمرا وألقى أبى فأترضاه وتعود الأيام صافيات كما كن ٠

وقد استطاع ابن عمار وهو يســمع هذا الحديث أن يحدر دمعتين بدتا نابعتين من القلب وان يكن ابن عمار نفسه قد عجب كيف بدرتا من العين .

وخرج ابن عمار يستهدف أقاصى الأندلس وحاول من تركهم فى « شلب » أن يفضحوا أمره للمعتمد فراحوا يتحسسون نفس المعتمد ليروا أى اللونين تقبل أهو مديح ابن عمار أم هجاؤه فرءوا المعتمد باكى النفس على فراقه دامع القلب لهذا الأمر الأصم الذى صكه من أبيه ، فاذا هم يحيدون بمــا كانوا ينتوونه من ذم واغل الى مديح مفرط لابن عمار يتقربون به الى المعتمد ، فتتفتح آذان المعتمد لهذا المديح ويزيد حبه له ان كان ثمة مكان لزيادة ، وهكذا يظل ابن عمار فى نفسه هو الصديق المخلص وهو الوزير الأمين وهو كل شىء فى حياته ما خلا اعتماد .

٥ - الى الطريق

الى الطريق عاد صديقه .. ولكن أى عودة .. لقد تركه على حمار متهالك لا يجد قوته ثم عاد اليه يمتطى صهوة حصان صافن أصيل أجرد شبعان .. وقد تركه وهو أشعث أغبر لا يستر جسده الا أخلاق بالية مركبة عليه تركيبا وهو يعود اليه أنيقا وضيئا ملبسه من ثمين الخز ورقيق الحرير وقد فصل عليه تفصيلا .. وقد تركه وهو شاعر خامل لا يكاد يحس به حماره الذى يحتمله وعاد اليه الوزير الفذ والشاعر الضخم صديق الملوك ورفيق المعتمد .. ابن عمار .

عودة ميمونة تلك التى يعودها ابن عمار الى الطريق فهو اليوم ملىء الجيب آمن عوادى الطريق والتواءات الملوك وارتفاع الأنوف.. فلقد أصبح هو نفسه ممن يسمعون شعر المديح فيلوون رءوسهم من الكبر ، وترتفع أنوفهم من العظمة .. فليعد اذن ولكن وزيرا يعود .

ذهب ابن عمار الى أقصى الأندلس ومن هناك أرسل شعره الى المعتمد ليصل مستقبله بمستقبل أمير اليوم وملك الغد وليعرف المعتمد أين استقر بشاعره المقام فيصله ان أراد وصله أو يطلبه ان عفا عنه أبوه .. أرسل اليه قصيدة من خير قصائده يقول فيها :

على والا ما بـكاء الغمـائم وفىّ والا ما نـواح الحمائم
وعنى أثار الرعد صرخة طالب لثأر وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهرالنجوم حدادها لغـر ولا قامت له فى مآتم

ثم هو يميل الى المعتضد يمدحه وان له فى مدحه لمذاهب فهو يترضاه وهو يظهر للمعتمد خضوعه مهما يفعل به المعتضد وهو يمدح الأب لابنه عالما أن مدح الجريح لجارحه يعلى من شأن المادح فهو يتقرب من نفس الابن ويرضى فيه حبه لأبيه ويبدى مشاركته له فى هذا الحب •• يقول ابن عمار عن المعتضد :

أبى أن يراه الله الا مقلدا حميلة سيف أو حمالة غارم

وتصل القصيدة الى المعتمد فيبكى مع الغمائم الباكية ويكاد ينوح مع الحمائم لولا الرجولة والشهود ويعلم من الرسول أين مكان ابن عمار فيصل بكل ما يستطيع أمير صديق أن يصل ويعود الرسـول يحمل الى ابن عمار المال خير دليل على حب مقيم وصداقة ما زالت أصيلة الجذور فى نفس المعتمد يعلم الله وحده مدى ما تأدت اليه فى نفس ابن عمار • ويعود ابن عمار فيكتب شعرا جديدا يبدأه بغزل رائع ويرسل بالقصيدة •

جاء الهـوى فاسـتشعروه عاره ونعيمـه فاسـتعذبوه أواره
لا تطلبوا فى الحب عزا ، انمـا عبدانه فى حـكمه أحـراره
قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم يا حبـذاه وحبـذا اضراره
قلبى هو اختار السقام لجسـمه زيا فخلوه ومـا يختـاره
عيرتمونى بالنحـول وانمـا شرف المهنـد أن ترق شـفاره
وشـمتم لفراق من آلفتـه ولربما حجب الهـلال سراره
أحسبتم السـلوان هب نسـيمه أو أن ذاك النـوم عاد غـراره
ان كان أعيا القلب من حر الجوى خذلته من دمعى اذن أنصـاره

والقصيدة بعد ذلك مفضية الى مدح المعتضد وما يكاد المعتمد يقرأها حتى يجن بها ويرتاح الى هذه الخطة التى انتهجها ابن عمار فى مدح أبيه ويمتد آمله الى صفح أبيه عن ابن عمار ان هو قرأ هذا الشعر فهو يعلم أن أباه يطرب للشعر الجميل ويرتاح اليه ويدعو المعتمد رسولا يهم أن يبعث به الى أبيه حاملا القصيدة ولكنه ما يكاد حتى يسمع ضجيجا عاليا وصخبا يقترب من حجرته الى أن يبلغهـا ويفتح الباب ويدخل رسول من عند المعتضد يلهث يخبر المعتمد أن أباه قد اشتد به المرض وأنه يدعوه فيقوم المعتمد من مجلسـه الى حصـانه فلا يتزود بشىء حتى ولا بنظرة من اعتمـاد ويغمز المعتمد الحصان ويصل الى أبيه فيجده ينتزع أنفاسه الأخيرة فيمثل أمامه فيوصى الأب ابنه بما يوصى به الملك خليفته ويموت الملك المعتضد ويصير الملك الى الملك أبى القاسم محمد بن عباد المعتمد آخر ملوك بنى عباد .

٦ - عند قوم

عاد ابن عمار الى الملك المعتمد وقد أمن الدهر وعواديه واطمأن الى المقام فى اشبيلية عاصمة الملك ... وعادت الليالى وضاء كما كن وأصبح ابن عمار وزير دولة بنى عباد أجمع وقد أراد ابن عمار أن يفعل شيئا عقب توليه الوزارة فزين للمعتمد أن يفتح قرطبة ففتحها فكان هذا بداية رائعة لعهد حافل بالأحداث .

ويرى الوزير الجليل أن القصر لم يصبح بالمكان الذى يليق به فى منصبه الجديد فقد كان هذا القصر يصلح حين كان شاعر المعتضد أو صديق المعتمد أو وزير شلب ، أما وهو وزير الدولة المدلل فلا بد للوزير من بيت فقد أصبح الوزير ذا عائلة وأولاد أنجبهم من الجوارى اللواتى أنعم بهن عليه المعتمد فلا بد اذن من بيت ولا بد لبيت الوزير أن يكون ضخما شاهقا متسع الجنبات ... فانه الوزير .

وقد اتخذ الوزير مسكنا وسمى باسمه وأحس ابن عمار بحلاوة الجرس الذى لم يسمعه قط فقد أصبح الناس يقولون « بيت الوزير » أو « بيت ابن عمار » وقد كان كل مناه أن يسمع اسم الحجرة يضاف الى اسمه ... انه لم يسمع « حجرة ابن عمار » الا حينما

تعلق بصلة من القصر • ثم ها هو ذا أصبح لا يرضيه قولهم « حجرة» ولا قولهم « جناح ابن عمار » فأصبح له بيت بأكمله ذو حجرات وأجنحة •

ان يكن الوزير قد ابتنى بيتا فأصبح بيت ابن عمار الا أن ابن عمار لم يكن يلم ببيته هذا الا المامة العاجل التى لا ريث بها ولا هدوء فأغلب أوقات صباحه بين الديوان ومجلس المعتمد وهو فى أغلب لياليه مع المعتمد يقضيها سمرا ولهوا أو يقضيها نوما فى القصر •• هو لم يطلب البيت لمبيت وانما طلبه ليتصل اسمه ببيت وقد اتصل ••

وأقبل المعتمد يوما على ابن عمار وطلب اليه أن يعد له ليلة من ليالى شلب ، تلك التى كانت قبل أن يعرف اعتماد ويذعن ابن عمار ويعد الليلة فى خبرة ودربة ومران ويقبل المعتمد على المرح فيشيع السرور فى الجلسة ويغبط المعتمد نفسه بما أنعم به الله عليه من حب وفى هو اعتماد ومن صداقة مخلصة حكيمة هى ابن عمار ويشيد المعتمد بقدرة ابن عمار النابغة فى السياسة وفى الشعر وحتى فى تهيئة الليلة الأنيسة ويبالغ المعتمد فى تلك الاشادة ويقرب ابن عمار أكثر مما تعود أن يفعل وكلما دارت الخمر برأسه رفع من شأن ابن عمار حتى أذن الليل بزوال فاذا المعتمد وقد أصبح ثملا واذا هو قد أبلغ ابن عمار ذروة السها وينفض المجلس ويوشك ابن عمار أن ينصرف الى بيته ولكن المعتمد يمسك به ويقسم أيمانا مغلظة أن يبيت ابن عمار معه على وسادة واحدة ويتحرج ابن عمار أول الأمر لكنه لا يملك من أمر نفسه أمرا فهو يتبع المعتمد فرحان جذلان الى حجرة أعدت للنوم ويستلقى المعتمد ويطلب الى ابن عمار أن يستلقى الى جانبه على أن يضع رأسه معه على وسادة واحدة ويهمان بحديث ولكن السهر والخمر والتعب ما لبثت أن عقدت أجفانهما •• نام ابن عمار يكاد صدره يتفجر بالسرور ازدحم به وان تكن اليقظة قد هيأت له

هذا السرور الا أن النوم أبى أن يسكت عنه •• فان الأحلام لتتواكب أمام ابن عمار ثم تنشق عن رجل أشيب جليل ناصع الاشراق يومیء الى ابن عمار ويتحدث في هدوء فيقول زائر الحلم :

ــ هيه يا ابن عمار •• هل أمنت كيد الملوك استراح بك المقام ووثقت من المعتمد فأنت اذن تمرح في سرور مطمئن ونشوة صافية•• أفق أيها المخمور لذ بنفسك ان المعتمد سيقتلك •• نعم هذا الصديق الحبيب •• نعم هذا الذي انتشلك من على ظهر الحمار الى دست الوزارة •• هو نفسه سيقتلك •••

وفزع ابن عمار من نومه وقد أرسى في نفسه انذار الحلم وقد شعشعت في رأسه خمور أمس فهو يتسلل من الغرفة خائفا ويمشي في دهاليز القصر قاصــدا الى الباب الخارجي ، ولكنه ما يلبث أن يقف باهتا حين يقرع صوت المعتمد أذنيه •

تقلب المعتمد في فراشه ووضع يده حيث طلب من ابن عمار أن يلقي بنفسه ولكنه لم يجد ابن عمار فقام من فوره ونادى بالخدم وسألهم عنه فما علم أحد عنه شيئا فطلب مصباحا وخرج الى دهاليز القصر يتوكأ على سيفه يبحث عن ابن عمار ومن خلفه حاشيته أجمع وطال بهم التطواف بغير جدوى فوقف المعتمد يتساءل فيدير خدمه رءوسهم ويضربون أكفهم بأكفهم ، وبينما هم كذلك اذا بحصــير يتزحزح من مكانه فانعقدت ألسنتهم واتجهت رءوسهم الى حيث كان الحصير قد وقف وامتنعت أكفهم عن ضرب نفسها وامتلأت نفوسهم بالذعر •• الا أن المعتمد قد كره أن يظنوا به خوفا وما هو بالجبان فهو يقصد الى الحصير ويرمى السيف من يده ويطبق على الحصير فيجد بداخله أعضاء آدمي ما يلبث أن يصيح « عفوك يا مولاى » ••

فيصيح به المعتمد •

ــ من ؟؟

فيتخلص صاحب الحصير منه واذا هو ابن عمار عاريا لا يكسوه غير فضلة من ثياب فيصيح المعتمد مرة أخرى صيحة داهشة عاجبة من ذلك الذى آثر الحصير على فراش الملك •

ــ ابن عمار •

ــ نعم مولاى ابن عمار •

فلا يملك المعتمد من نفسه الا أن يضحك لصديقه ويفرح ان وجده فكأنما هو عائد من سفر بعيد ثم يسأل ابن عمار فى غبطة :

ــ ما الذى فعلت بنفسك ؟؟

ــ عفوك يا مولاى فقد زارنى فى النوم طائف حذرنى منك وقال انك قاتلى فقلت أهرب وكفانى ما لاقيته عندك من الخير ومن أيام ان جعلتها زاد حياتى من السعادة كنت أسعد من ولد ومن هو فى مطوى الغيب سعيد • لقد رأيت منك الرضى وأخشى أن أرى الغضب ولقد بلغت عندك الذروة وليس بعد الذروة الا المنحدر والملوك مولاى لا يستقرون على حال فلو أنك انتقمت منى للسعادة التى أشهدتنيها لكان انتقامك فوق الشدة •

فتترقرق الدمعة فى عين المعتمد ويربت كتف ابن عمار ويهدأ روعه ويقول له فى صوت متهدج بالبكاء :

ــ يا أبا بكر انك أخو شبابى ومجلى شعرى وشقيق حياتى وخدن حاضرى •• عرفتك وأنا بعد فى زهرة الشباب وصحبتك منذ عرفتك حتى بلغت الكهولة أو كدت ••• أأقتلك !! أرأيت شخصا يقتل شبابه وشعره وماضيه وحاضره •• أفق ابن عمار انها لآثار نوم وخمار •• فوالله لو شهدت هــذا الزائر الذى بث اليك الخــوف لقتلته أن أقلق منك مضجعا وخوف منك آمنا ••

ثم يلتفت الى حاشـيته يأمرهم أن يحضروا قـدـطا من اللبن فيحضرون ويسقيه لابن عمار ويذهب به الى الوسادة ويناماه .

نومة لم تكن هادئة تلك التى أصابها ابن عمار فقد أصبح من نومه ولا هم له الا أن يباعد بينه وبين المعتمد قليلا حتى يطمئن ما أثير بنفسه ويهدأ ما اضطرب من خاطره ولكنه لم يسـتطع أن يسوق الى المعتمد ما يعتمل بنفسه فى صباحه هذا فتريث حتى نسى المعتمد ما كان من أمر الحلم والهاتف ثم تقدم متوددا وقال له :

ــ مولاى .. بقيت .. فانى لأطلب منك الكثير وأنت تجيب حتى لقد غدوت أخشى الاثقال عليك .

ــ الا ان من وراء قولك لمطلبا ..

ــ هو ذاك يا مولاى .

ــ فقله

ــ حتى تقسم

ــ بصداقتنا

ــ أريد ولاية شلب .

فيألم المعتمد لهذا الطلب ويبادر ابن عمار :

ــ أملالة يا أبا بكر .

ــ لا عشت اذن .. ولكننى يا مولاى شهدت نفسى بشلب هذه وأنا فقير وربيت بها وأنا لا أملك شيئا حتى لقد تركتها وخرجت أطوف بالملوك أمدحهم فما أصبت من ذلك شيئا ثم عدت اليها عودة لا كانت لقد شهدت نفسى هناك جائعا على حمار جائع عريان على حمار متهالك حتى لقد أسمحت لى نفسى أن أمدح تاجرا لأصـيب منه حفنة من

شعير .. ثم تعلقت أسبابى بك .. وللنفس بدرات .. ان نفسى لتشتهى اليوم أن تشهد نفسها هناك وفى هذا البلد واليا عليها من قبلك وان آمالى ـ لاعدمتك ـ تظل آمالا حتى تلقى بين يديك فاذا هى حقيقة ، وأن أمانى لا تزال أمانى حتى تنتهى اليك فاذا هى واقع .

وهكذا غدا ابن عمار واليا على شلب مهد طفولته ومدرج حياته ومغنى شبابه ، وأيام فقره فاليها اذن يعود ... واليا يعود .

٧ - ... وعودة

الى شلب عاد ابن عمار .. لم يعد الشاعر الطريد ، ولا راكب الحمار المتهالك ، ولا مادح التاجر ولا مستجدى القمح ، وانما عاد الأمير الخطير صديق الملك .. عاد وهو صاحب الموكب الضخم يتبعه الخدم والحاشية وتنســاق من قبله الطوالع والأعلام وتدق الطبول ويعلو الزمر .. ووقف أهل شــلب الذين نظروا اليه على حمــاره يسخرون أو يشفقون أو يتعجبون ، وقفوا اليوم يرحبون ويكبرون ويعجبون ، ولم يدر بخلد الناظرين أن صاحب الحمار هو صاحب الموكب ، بل ان صاحب الحمار هذا لم يجر على ذاكرتهم فهم لم ينعموا النظر فى الحمار أو راكبه وانما كانوا يعبرونه بنظرتهم أو يعبرهم هو بحماره فما أدركوا من ملامحه شيئا . ولو أن واحدا منهم كان قد أنعم النظر ثم أنعمه حتى عرف ملامح ابن عمار أجمع فان هذا الواحد لا يجرؤ بحال أن يذكر ابن عمار والحمار فى هذا الموكب الضخم . وأين ذلك النضو القمىء من هذا الأمير العظيم ، وأين ذلك الحمار المتهالك من هذا الموكب الضخم ، وأين هذا الطيف الذى مر رهوا لا يحس به أحد من هذا الذى أقام المدينة وما زالت قائمة .. لا .. لا صلة بين الشخوص ولا نسب .

ان يكن أهل شلب جهلوا الصلة بين صاحب الحمار وصاحب الموكب فان ابن عمار يدرك هذه الصلة تماما ، وهو ان يكن اليوم فى هذا الموكب الضخم الأنيق من الطبول والزمور فهو لم ينس هذا الموكب الضخم الحقير من الفقر والعوز الذى تسلل به الى شلب وكل أمانيه أن تعمى العيون حوله وأن يصيب حفنة من غلال .. لم ينس ابن عمار الحمار والتاجر والشعر والصبى والشعير ، بل انه أخذ نفسه أن تذكر هذا الذى كان فيه حتى يحمد ما هو اليوم فيه ، فهو يحمل معه ذلك الكيس الذى أنقذه وأنقذ حماره من جوع بما حمله من شعير .. هو يحمل الكيس معه لم يفقده فى كل مناصبه التى تولاها ولم يفقده فى الذروة التى اقتعدها وانما أبقى عليه ليشكر به من أنقذ .. فما يكاد يجلس على كرسى الامارة حتى يرسل من يبحث عن التاجر فيجده ويعلم ابن عمار أن الخشية قد تولت هذا التاجر حين علم أن الأمير يبحث عنه ، فيشفق عليه أن يستقدمه ويكتفى بأن يرسل اليه الكيس وقد ملأه فضة وأوصى من يحمل الكيس الى التاجر أن يقول له .. « لو كنت ملأته برا لملأناه تبرا » .

وتشيع قصة الكيس بين أهل شلب فيكبرون ابن عمار ويرون فيه رجلا لم يتنكر حاضره لماضيه ولم تزهه الامارة أن يذكر ذلك الماضى العريق فى هذا البلد وكان أهل الأندلس فى ذلك الحين قوما ذوى حس مرهف يقدرون اللفتة الكريمة ، ويكبرون النفس العالية، ويعجبون بالخلق المكتمل وقد كان ابن عمار يعرف فيهم هذا وكان يعرف تماما أخلاق أهل شلب خاصة ، فهو خبير بما يرضيهم عالم بما يجلب له السمعة الطيبة والاسم الكريم ، وهو ان كان قد نال من مالهم حين كان وزير المعتمد لديهم الا أن الأمر قد اختلف اليوم تمام الاختلاف ، فابن عمار الوزير كان يعمل باسم المعتمد فما أيسر أن يلصق بالمعتمد التهم أما ابن عمار والى شلب فلا يحمل غير اسم نفسه فان أساء فهو انما يسىء الى هذا الاسم وحده ، وقد كان ابن

عمار يحب ألا يسيء الى هذا الاسم ، وابن عمار الوزير كان فقيرا أو هو فى الحق جديد على الغنى يحب أن يستكثر من المال خشية من الغد وقد كان محقا فى تفكيره هذا اذ سرعان ما حققته الأيام وأمر به المعتضد فنفى . أما ابن عمار والى شلب فغنى قديم فى الغنى آمن الغد وما بعده من أيام مهما يشتد بها السواد . وابن عمار الوزير جديد فى المنصب الكبير لا يهمه أن تصل السمعة السيئة الى اسمه فهو حتى ذلك الحين لم يكن يحمل اسما ، أما ابن عمار والى شلب فذو اسم وذو ماض يهمه أن ينفى السيىء منه فلا يبقى غير الحسن فهو يأمل أن يحسن السيرة فى شلب عساه أن يجعل عارفيه فى الوزارة يحسنون به الظن وهكذا سار ابن عمار فى طريقه على خير ما يسير وال فى ولايته فهو عادل أمين حصيف عالم بدقائق الأمور .

وقد تحادث الناس بسيرة الوالى الجديد وتسامعوا عنه خيرا وارتقت سيرته الى المعتمد ففرح بصديقه وبما يبنيه لنفسه من مجد ولم يهمه أن الوالى الجديد كان يقوم بأمر ولايته دون أن يرجع اليه فى جلائل الأمور ، ولم يهمه أنه استقل بالأمر وحده وأصدر الاوامر باسمه .. لم يهمه هذا لأنه كان يحب ابن عمار ويثق به مطمئنا أنه مهما يستقل بالأعمال فانه لن يستقل بعواطفه وسيظل هو هو الصديق الوفى والأخ الحبيب .

لم يهمه شيء من هذا ولكن شوقه الى ابن عمار ولياليه هو الذى يهمه فهو يضيق باشبيلية من غير ابن عمار حتى ليرسل اليه الشعر يخفف من بعض شوقه .. أرسل اليه يوما قصيدة يقول فيها :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر (١)
وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

---

(١) كناية لابن عمار .

وسلم على قصر الشراجيب (١) عن فتى
له أبــدا شــوق الى ذلك القصر

منــازل آســاد ، وبيض نواعــم
فناهيك من غيل • وناهيك من خدر

وكـم ليـلة قد بت أنعـم جنحهـا
بمخصــبة الأرداف ، مجــدبة الخصر

وبيض وســمر فاعــلات بمهجتى
فعال الصفاح البيض والأســل السمر

وليـل بســد النهـر لهـوا قطعته
بذات ســوار مثـل منعطف البـدر

نضــت بردها عن غصــن بان منعـم
تضــير كما انشــق الكمام عن الزهر

وقد كان ابن عمار يستقبل هذه الأبيــات جامد الحس هادىء الشعور فى داخله •• وكان يستقبلها فى بشر عريض وفرح غامر فى ظاهره •

ولم يطل الأمر بالمعتمد وشوقه ولم يطق أن يظل البون شاسعا بينه وبين الف روحه وشقيق فنه ابن عمار •• فأرسل اليه يستقدمه فقدم الى اشبيلية وعوضه المعتمد عن منصبه الذى فقده خيرا فعينه كبيرا لوزراء الأندلس فرضى نفسا ونسى ما كان من أمر الحلم القاتل واطمأن جانبه الى المعتمد وعادت الأيام تصــل ما انقطع وتســعى بالصديقين الى مزيد من الصــداقة للمعتمد ومزيد من ارتقاء لابن عمار •

---

(١) قصر الامارة فى شلب وهو غاية فى الروعة •

٨ ـ دهاء الوزير

لم تكن الأندلس فى ذلك الحين خالصة الحكم لملوكها فلقد كانوا أضعف من أن يقوموا بالأمر وحدهم وقد انتهز الافرنج هذا الضعف فراحوا يهددونهم فى ديارهم ويفرضون عليهم الجزية لقاء سكوتهم عنهم • ولقد أذعن الملوك لهذا التهديد فدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون فما كان الخلف بينهم ليترك لهم سانحة يفرغون فيها من عدوهم المشترك ولو كانوا قد تضامنوا لتغلبوا عليه •• لكن من أين لهم وقد تقطعت بينهم السبل فأصبح ما بينهم وبين بعضهم خراب بلقع لن يعمره الشر الذى يحيق بهم ولن يصله العدو الذى يتنمر لهم •

ولقد كان هذا العدو حصيفا فهو لم يهجم لأنه يعلم أن جيوشه لا تكفى فهو يهدد فى تبجح فتهلع نفوس الملوك فهى خائرة ، وهو يطلب الجزية فتمتد بها أيدى الملوك صاغرة ذليلة •

ولم يكن حال المعتمد خيرا من حال اخوانه وان يكن هو أقواهم وأعزهم جانبا الا أن أمواله كانت جميعها منزوفة على مطالب

اعتماد وقد كانت لا تنتهى والقليل الباقى لم يكن كافيا لاقامة جيش لكنه كان كافيا لأن يدفع الجزية فهو يدفعها •

وكان الأذفونش كبير ملوك الفرنجة فى ذلك الحين هو الذى يتقاضى الجزية من المعتمد ومن ثم كان على صلة وثيقة بابن عمـــار وقد كان الأذفونش معجبا به كل الاعجاب ، حتى لقد أطلق عليه اسم « رجل الجزيرة » فكان كلما مر اسم ابن عمار فى حديث يسمعه الأذفونش قال عنه « هو رجل الجزيرة غير منازع » وقد علم ابن عمار بما يقوله عنه ملك الفرنج فارتاحت نفسه اليه وكان يخرج اليه بالجزية فعرف عاداته وعرف ما يحب وما يكره وعرف هواياته فما غفل شيئا مما يحيط به •

ولكن هذا الاعجاب الضخم الذى يكنه الأذفونش لابن عمار لم يمنعه يوما أن يأخذ الجزية كاملة بل انه زاد على ذلك ••

أحس الأذفونش أن مملكة المعتمد فى حال ضعف شديد وكان هو قد تكاثر المال لديه فانتوى فى نفسه أمرا ولم يسكت عند النية ••

وبينما كان المعتمد فى اشبيلية على حاله لا يفيق من حب اعتماد الا ليجلس الى ابن عمار وبينما كانت الدولة جميعها مشغولة لاعتماد تنفذ مطالبها وتحقق رغباتها كان الأذفونش يقوم بعمل أكثر قيمة وأجل منفعة •

وفى يوم نظرت اعتماد من شرفتها فرأت فتيـــات يملأن الجرار فحدقت مليا ثم همت بزوجها تريد أن تراه فى سريع حاسم من الأمر ويسارع الخدم ومن خلفهم الجوارى يسألون عن الملك ، وكان المعتمد جالسا الى حفنة من وزرائه يبحث معهم فى حاجة الدولة الى المال ولكن هذا لم يقف بالخدم أن يقتحموا المجلس ويطلبوا اليه أن يسارع الى اعتماد فيسارع واذا هى تطلب اليه أن يجعل لها ما تملأ منه الجرار فقد

اشتهت أن تفعل مثلما يفعل أولئك النسوة وينشىء المعتمد معجنة من المسك ومن ماء الورد تكلف الدولة ما كانت ستبذله لتقوية الجيش فلا يبقى بالخزانة الا القليل .

كان هذا فى أندلس الاسلام حين كان الأذفونش يبذل من المال فوق ما تحتمل موارده جميعا ليقيم شيئا آخر غير معجنة المسـك ، وليرضى غايات أخرى غير نفس امرأة .

وفى يوم بينما المعتمد جالس الى النافذة يرنو الى اعتماد ترفع ذيل الثوب عن أرجل ناعمات غائصات فى المسك وماء الورد وبينما المعتمد منتش بما يرى يستخفه الفرح ويصفق قلبه بين ضلوعه كأنه طائر يحوم حول من يحب .. وبينما السرور يشيع فى أجواء المعتمد اذا بوزير من وزرائه يدخل فلا يحتشم من مقاصير الحريم شيئا وانما هو يقصد الى المعتمد لا يريم واذا هو يصيح به .

ـــ أدركنا يا مولاى .

فينتفض المعتمد فما كان بيده حينئذ آن يدرك أحدا وما كان يتوقع أن يتجاوز رجل مهما يكن وزيرا أعتاب اعتماد .. انتفض المعتمد من الدهشة ومن الغضب واذا هو يقول للوزير بصوت يخنقه كل ما يثور بنفسه من اضطراب :

ـــ ماذا أبا القاسم .. ماذا بك ؟

فيجيب الوزير هالعا ملتاعا .

ـــ لقد هاجمنا الأذفونش بجيش أوله هنا وآخره لم يظهر حتى الآن .

ـــ وأين هو ؟

ـــ فى ظاهر المدينة .

ـــ ومتى رأيته ؟

ـــ لقد رآه من رآه فى باكر الصباح وما زال يتقاطر حتى الآن •

ـــ ويحك وماذا نفعل ؟ •

ـــ أمرك يا مولاى •

ـــ على بابن عمار •

وما أسرع ما يجىء ابن عمار وما أروع ما يرى من ملك مضطرب ووزير هالع فاذا هو يشرق بينهم كالأمن يشيع فى النفس واذا هو هادىء أهدأ ما يكون المرء وكأن ما يلقى اليه بشريات لا أثر فيها للحرب فالقتل فالخراب والدمار ودولة تهوى وعرش يزول •• كأن شيئا من هذا لم يلق الى ابن عمار فهو يتكلم فى هدوء وهو يهدىء الروع الثائر ولكنه يقول عجبا •• يقول ابن عمار :

ـــ مولاى •• انى مخلص الأندلس والاسلام من كل ما تخشاه •• كل ما أرجوه منك أن تفعله هو شطرنج •

فيذهل المعتمد ويسأله وكأنه لم يسمعه •

ـــ ماذا ؟

ـــ شطرنج

ـــ أتقصد الشطرنج الذى يلعب به ؟

ـــ نعم أقصد الشطرنج الذى يلعب به •

ـــ أتهذى ؟؟!!

ـــ بل أجد •

ـــ وماذا أنت فاعل به ؟؟

ـــ هذا سرى يا مولاى •• فابقه على أبقاك الله •

ـ وكيف تريده أن يكون ؟؟

ـ أريده أفخم ما يكون الشطرنج •• أريده من خالص الذهب ومن خالص الفضة وأريد أمهر الصناع أن يتركوا أعمالهم جميعا فلا يفعلوا شيئا الا أن يتقنوا صناعة هذا الشطرنج •

ـ يسير مطلبك يا ابن عمار •• يسير مطلبك •

ويأمر المعتمد فيمتثل الصناع أمره ويفرغون للشطرنج حتى يفرغوا منه •• ويخرج ابن عمار الى خيام الأذفونش فيلتقى بقادته والمقربين اليه ويتكلم معهم حديثا جاريا لا يقصد ظاهره الى هدف ولا يهدف فى لفظه الى غاية •• يتكلم ابن عمار فاذا حديث الشطرنج وصفاته واتقان صناعه حديث شائع بين خيام الأذفونش واذا القوم لا يتكلمون فيما بينهم الا عن الشطرنج حتى يرتقى حديثهم الى الأذفونش واذا الأذفونش وقد أصبح كل همه أن يرى هذا الشطرنج فهو يستدعى ابن عمار ويسأله :

ـ أصحيح ما يقال عن الشطرنج يا رجل الجزيرة ؟

ـ وما الذى يقال يا مولاى ؟

ـ يقولون ان الصناع قد أبدعوه ابداعا فهو ما لم ير الأوائل ولا الأواخر •

ـ ليس السماع كالعيان يا مولاى •

ـ فمتى أراه ؟

ـ متى تحب •

ـ فهاته الآن •

ـ أحضره الآن •

ويقوم ابن عمار الى الشطرنج فما هى الا بعض ساعة حتى يكون الشطرنج بين يدى الأذفونش يقلبه بين يديه عاجبا معجبا مادحا كل قطعة فيه ويرى ابن عمار اعجابه فيسكت ولكن الملك لا يطيق السكوت .

ـ كيف السبيل الى مثله يا رجل الجزيرة .

ـ ليس الى مثله من سبيل يا مولاى .

ـ وكيف ؟؟ اننى أبذل لنيله ما تشاء من المال .

ـ ان المال لا يعوق يا مولاى .. غير أن الصناع الذين قاموا بصناعته قد ماتوا جميعا ولن يقدر على ابداع مثله صناع اليوم ...

ـ فليس من سبيل الى مثله .

ـ الى مثله لا سبيل .. أما اليه .. فلعل هناك سبيلا .

ـ وما هو ؟

ـ أراهنك عليه .

ـ علام ؟

ـ ألاعبك به فان غلبتنى فهو لك وان كانت الغلبة لى فان لى عندك مطلبا .

ـ وما مطلبك ؟

ـ لا أقوله حتى تكون الغلبة لى .

ـ ولكنك تعلم أن أحدا لا يتقن لعب الشطرنج مثلما أتقن .

ـ وأعلم ذاك .

ـ ولكنك لا تبين عن مطلبك .

ـ حتى يتم النصر لى .

ـــ لا أظننى أرضى بهذا فأنا لا أعرف مدى قدرتك فى اللعب وأنا لا أعرف مطلبك وأخشى أن يكون عسيرا .

ـــ ولكنك يا مولاى تتقن اللعب اتقانا فما خشيتك ؟

ـــ ان الذى عند الملك كثير فأخشى أن يكون مطلبك كثيرا .

ـــ أمرك اذن يا مولاى .

ـــ أنظرنى الى الغد .

وخرج ابن عمار من عند الملك واجتمع بقواده المقربين اليه كل على حدة وأغراهم أن يطمعوا الملك باللعب وألقم من يمد يده ذهبا وأفهم من لا يمدها أن الملك لا يجمل به أن يتراجع وهو اللاعب الحاذق .. وانتقل الاغراء الى الملك ألقاه اليه أصحابه مظهرين له أنهم ينصحونه وأنهم يخشون أن يتسامع الناس بتقهقره .

ويطلع الصباح فاذا الملك قد انتصح بنصح قواده واذا هو يرسل من يدعو ابن عمار فيجىء فيخبره الملك أنه قبل الرهان .

ويبدأ اللعب وقواد الأذفونش شهود فما يلبث ابن عمار أن يتغلب على الأذفونش غلبة واضحة لا سبيل الى نكرانها . فيعترف الأذفونش بها ويغتصب ابتسامة يلصقها بفمه ويسأل ابن عمار .

ـــ فما مطلبك يا رجل الجزيرة ؟

ـــ لا شىء الا أن يتفضل مولاى فيأخذ جيوشه ويعود بها من حيث أقبل .

يسمع الأذفونش هذا الحديث فتصبح ابتسامته تشنجا مرتعشـــا ويصيح بابن عمار :

ـــ ويحك أجاد فيما تقول ؟!

ـ ليس لى مطلب آخر يا مولاى .

فيعلم الأذفونش أن الوزير قد أحاط به فيلتفت الى قواده ثائرا بهم .

ـ أرأيتم ما نصحتم به .. أرأيتم ما أوقعنا فيه الرجل ... ولكن لا .. لا يمكن أن يصبح الهذر جدا .

فيجيب ابن عمار :

ـ ان هذر الملوك جد يا مولاى

فيعود الملك الى وزرائه يكاد يقتلهم من شدة غيظه فيتركه ابن عمار ثائرا هائجا ويخرج ولكنه لا يترك الخيام قبل أن ينتظر القواد مرة أخرى فيلقمهم مالا أو يلقنهم أن كلام الملوك لا يمكن أن يتراجع فانه كلام الملوك .

ويترك القواد ملكهم ليلتهم هذه ثم يصبحون اليه فيقولون له انه وعد ووعد الملك تنفيذ ولا بد أن يقوم بما طلبه اليه ابن عمار ايفاء للرهان فما يصبح اليوم التالى حتى يكون الأذفونش قد دعا ابن عمار فيذهب اليه فيقول الأذفونش .

ـ لقد أوقعتنى يا بن عمار وان أنساها لك .

ـ أسيئة تحتسبها لى يا مولاى أم حسنة ؟

ـ ويحك أتريدنى أن أعتدها لك حسنة .

ـ ومالك لا تفعل يا مولاى ألم أخدم بها ملكى وبلادى .

ـ ويحك قد يعتدها غيرى حسنة لك يا ابن عمار أما أنا فلا .. لا يا ابن عمار .

ـ بل سوف تفعل يا مولاى حين يهدأ ثائرك .

ـ والآن .

ــ والآن يا مولاى .

ــ لا أترك بلادكم حتى أنال الجزية مضاعفة هذا العام .

ــ أمرك يا مولاى .

وينصرف ابن عمار ليعود الى الأذفونش بالجزية مضاعفة فيأخذها الملك مزمجرا ولكن ابن عمار يتقدم اليه بشيء كان قد لفه فهو لا يظهر ويسأله الأذفونش :

ــ وما هذا ؟

ــ فليزل مولاى عنه لفافته .

ويفعل الملك فيجد الشطرنج فيقول ابن عمار :

ــ هدية خالصة متواضعة من ابن عمار .

فيسر الملك من هذه اللفتة ويكاد ابن عمار أن يعود الى سابق مكانته فى نفس الأذفونش ويعود الأذفونش الى بلاده ويعود المعتمد الى نافذته يرنو منها الى اعتماد وذيل ثوبها قد رفع وقدماها قد غاصتا فى المسك وماء الورد .. الا أنه فى هذه المرة لم يكن وحده بل كان ابن عمار الى جواره يرنو هو أيضا الى جواريه يغصن بأقدامهن مع الملكة فى المسك وماء الورد .

٩ - صفقة .. أهى رابحة !؟؟

أحس ابن عمار بعد أن خلص البلاد من خطر الغزو أنه أصبح دعامة هذه البلاد وأحس أنه داهية فى السياسة يتلاعب بالملوك ويرد بدهائه الجيوش عظيمة ما عظمت تلك الجيوش ... ثم أحس بعد فترة من الوقت أن ذكاءه لا بد أن يجد شيئا ينشغل به فما تعود أن يراح الى هدوء ، وما كانت النساء مأربا لحياته وهو لم يصطنع الخمر والجلسات المازحة الا ارضاء للمعتمد .. ووافت ابن عمار أنباء عن مرسية المجاورة لاشبيلية والمستقلة عنها فى الحكم ، وكان مؤدى هذه الأنباء أن مرسية تفتقر الى الجيش .. وان حاكمها على غناه لا يملك خيلا ولا رجلا .. وكان ملك مرسية فى ذلك الحين هو «أبو عبدالرحمن ابن طاهر » ينتمى الى أصل عربى ويملك أموالا ضخمة لم تلهه عن ثقافة واسعة فكان حصيف الرأى قويم الفكرة ، وكان أيضا ضعيف الجيش منكسر الشوكة .

وكان يقيم بجوار مرسية « كونت » يدعى « الكونت دى برشلونة ريمون بيرنجيه » وكان ذا قوة وأيد وكان صديقا لابن عمار .. وهكذا تهيأ لابن عمار أن يدعى أنه ذاهب لزيارة هذا الكونت وكان لا بد له أن يمر بمرسية فى طريقه الى الكونت .. فلم يكن غريبا اذن

أن يظهر ابن عمار فى مرسية .. وان يكن رأى فيها بعض من يريدون خيانتها وان يكن قد رشاهم فقبلوا الرشوة الا أن هذا لم يكن الا تحت ستار كثيف من الكتمان لم تخترقه أعين « أبى عبد الرحمن بن طاهر » .

وقصد ابن عمار الى الكونت وأجرى الحديث فجرى الى حيث يريد فاذا الكونت يتحدث عن مرسية وعن ضعفها واذا ابن عمار يظهر فى الحديث اغضاء يكاد فى ظاهره أن يصل الى الملالة ثم لا يلبث أن يميل الى الحديث رويدا ثم هو يشـارك فيه ويشجع عليه فينطلق الكونت وينطلق ابن عمار حتى اذا رأى منفذا الى غايته نفذ فعرض على الأمير أمرا .

ـ ما دمت يا مولاى ترى هذا الأمر فما حبسك عن أن تعتسف هذه المملكة وانها لثمرة ما تحتاج منك لغير أصبع تمدها .

ـ ومن أين لى المال يا ابن عمار ؟

ـ أيمنعك المال أيها الأمير ؟

ـ والله يا ابن عمار ان شئت الحق فان المال وحده لم يكن ليمنعنى ولكننى أخشى أن أثير فى الدول الاسلامية الأخرى حفيظة لا أريدها أن تثور .

ـ لقد أصبت فاصلا من الأمر ولكن ماذا تراك تقول لو أن دولة عربية اسلامية هاجمت مرسية فاحتلتها وتصيب أنت ربحا وأنت فى مكانك لا تريم .

ـ أكاد أفهم ما تريد

ـ بل انك لتفهمه .

ـ فزده ايضاحا .

ـ أجيئك بالمال وتمدني بالجيش •

ـ أليس الجيش دماء تراق فعائلة يتبدد شملها ، فزوجا أيما ، وابنا يتيما ، وأما ثكلى •

ـ ولكنه المال •• والحاكم ـ بعد ـ ينظر للمصلحة العليا فشأنه الملك وما شأنه زوجا ولا طفلا ولا أما •

ـ وهل الملك يا ابن عمار الا هذه الزوجة وذلك الطفل وتلك الأم •

ـ ولكنك تريد مالا •

ـ وأريد رجالا •

ـ الرجال كثير ولكن المال •• المال •

ـ كم تدفع ؟

ـ كم تقبل ؟

ـ عشرة آلاف مثقال ذهبا •

ـ فان كانت خمسة ؟؟

ـ عشرة

ـ قبلت

ـ ومن يضمن لى أنك سترسل المبلغ •

ـ ومن يضمن لى أنك سترسل الجيش •

وحينئذ اقتحم الغرفة ابن أخى الكونت فكأنما وجد الكونت طلبته فهو يلتفت الى ولد أخيه ويطلب اليه أن ينتظـر ريثما ينتهى حديث ويخرج الفتى ثم يلتفت الى ابن عمار قائلا :

ـ ابن أخى

ـ مرحبا به

ـ ألا تسأل من يضمن لك ارسال الجيش ؟؟

ـ أجل

ـ وأنا أقول ابن أخى .

ـ ماله ؟؟

ـ يضمن لك

ـ وكيف ؟

ـ تأخذه رهينة

ـ وماذا تريد منى رهينة ؟

ـ أريد ابن المعتمد

وأخذ ابن عمـــار بهذا المطلب ولكن تردده لم يطل فقد كانت القيمة المتفق عليها حاضرة عند المعتمد ، ثم ماله لا يتصرف فى أولاد المعتمد وقد تصرف فى المعتمد نفسه وما البأس الذى يخشاه ... لا بأس عليه اذن ولكنه عاد يسأل :

ـ وكيف يجىء اليك ؟ ان أباه لن يرضى كما تعلم . وأنا لن أخبره أن ابنه سيصبح رهينة لديك .

ـ ألن ترسل المال فى موعده ؟

ـ بلى

ـ اذن فأخبر المعتمد أن ابنه سيتولى قيادة الجيش حتى يمرن على الحرب والقتال .

ـ لقد قبلت .

ـ وقد قبلت .

وخرج ابن عمار من عند الكونت وهو يعتقد أنه غلبه على أمره والكونت يعتقد أنه غلب ابن عمار على أمره وشاع فى نفسيهما الفرح بصفقة يعتقد كلاهما أنها الرابحة .

١٠ - مع الملك

عاد ابن عمار الى الملك يقص عليه ما قام به فى رحلته تلك من أعمال والمعتمد يستمع وكله اعجاب بوزيره العظيم وكيف لا وابن عمار لا يقص غير ما يرضى المعتمد فهو لا يروى له عن الرهينة التى ستكون ولده ، وهو لا يقص له غير أن عشرة الآلاف مثقالا ذهبا سوف يقدمها لريمون لينال بها ملكا جديدا ، وفتحا مبينا ، ونصرا مؤزرا ومجدا سامقا .

سر المعتمد بهذا الاتفاق وعاهد ابن عمار أن يجهز الجيش وعاهده كذلك أن يؤدى المـــال الى ريمون فى الموعد المضروب ولقد دهش المعتمد بعض الوقت حين وجد ابن عمار يحذره أن يتأخر فى أداء هذا المال .. دهش أن وجده يحذره من تأخير يوم واحد فما كان ليدرى سببا لذلك ومن أين له أن يدرى .. !!

وحين حاول الشك أن يسرى الى نفس المعتمد مال الى ابن عمار يسأله عما يضمن له أن « ريمون » سيوفى بوعده فأطلق ابن عمار بسمة ساخرة وقال للمعتمد :

ـــ مولاى أتعتقد أن ابن عمار يفوته مثل هذا الأمر .

ــ حسبتك فعلت .

ــ بل لا يا مولاى ولهذا ..

ــ ولهذا ؟

ــ أحضرت معى ابن شقيق ريمون رهينة عندى

ــ بوركت ابن عمار .. بوركت .

وسد سبيل الشك فى نفس المعتمد وأصبح واثقا أن الأمر سيدين له ..

تلفت الملك حواليه يبحث عن قائد للجيش وما كان بحاجة لهذا التلفت فهو يعلم أين هو ولكنه أغضى .. نعم هو يعلم أن ابن عمار خير من يقود الجيش ولكن كيف له أن يصبر عن بعده مدة أطول من تلك التى قضاها فى السفر !! ولكن ابن عمار يحتال وما أيسر ما يحتال ابن عمار على المعتمد ويتولى قيادة الجيش .

تهيأ ابن عمار للخروج من اشبيلية وأوصى المعتمد أن يرسل المال بمجرد وصول رسول منه يخبره أن ريمون أوفى بوعده وأن الجيوش من قبل ريمون قد اتحدت مع جيش المعتمد .. ولم ينس ابن عمار أن يحتال مرة أخرى فينال اذنا من المعتمد بأن يصحب « الراشد » ولده ليمرن على الحرب وقيادة الجيوش .. وما كان المعتمد ليمنع ابنه عن ابن عمار فما تعود أن يمنع عن ابن عمار شيئا حتى وان كان ابنه ..

واتفق المعتمد مع ابن عمار أن يلاقيه فى مرسية وضربا لذلك موعدا وقال المعتمد لابن عمار انه سيصحب ابن شقيق ريمون معه الى مرسية ليسلمه من ثم الى عمه .

خرج الجيش اذن وقائده الراشد بن المعتمد شكلا وأميره فى

الواقع هو ابن عمار وكان ابن عمار فرحا أن وصل الى ما قدر لنفسه أن يصل فابن المعتمد معه ووعد المعتمد بأداء المبلغ وعد مؤكد موثق .

وما هى الا أيام حتى اتحد جيش ريمون وجيش المعتمد ... وأرسل ابن عمار رسـوله بذلك الى المعتمد ووعد ريمون أن المبلغ سيصل فور عودة الرسول من اشبيلية ..

وفى انتظار الرسول زحف الجيشان على ولاية « مرسية » ولكن أيام الزحف طالت .. أو أن ريمون فى الواقع شاء لها أن تطول فان المال لم يكن قد وصله بعد وهو لا يريد أن يفقد المال والرجال فى وقت معا .

وكان المعتمد فى طريقه الى مرسية ليلاقى ابن عمار كما اتفقا وجاءه الرسول من ابن عمار ينبئه أن الجيشين قد اتحدا وأنه لم يبق غير أن يؤدى المعتمد المال .. ولكن اخراج المال عسير فى كل وقت وما كان المعتمد ليعرف خطر تأخره رغم تحذير ابن عمار .. فان ابن عمار لم يبن لتحذيره عن غاية .. تراخى المعتمد فى أداء المال ... ولعله أزمع فى نفسه أن يؤدى هو المال بيده حين يصل الى مرسية .

وما كانت هذه الفكرة لتصل الى ذهن « ريمون » الذى رأى أن تأخر المال دليل على شر يبيت له ورجح لديه أن ابن عمار خدعه وكبر عليه أن يخدع فما أسرع ما أمر جيشه أن ينسلخ عن جيش المعتمد .. وحين حاول ابن عمار أن يستمهله أمر بالقبض عليه وعلى الراشد بن المعتمد معا .. وحاول الجيش .. جيش المعتمد أن يذود عن أميريه ولكنه ما لبث أن هزم .

تم هذا جميعه والمعتمد فى طريقه ــ ما زال ــ الى مرسـية يبنى فى نفسه الآمال الـكبار عن مدينة جديدة يضـمها الى ملكه سيجدها مفتحة الجوانب له ولحاشيته ثم ما يلبث ذهنه أن يأخذ به

الى ابن عمار فيشكره فى نفسه أن مهد له هذا الفتح المبين وما أكثر ما يشكر المعتمد ابن عمار فى نفسه •

وأراد المعتمد أن يطيل الأمد لهذه الفرحة التى تغمر نفسه وهو فى طريقه الى مدينته الجديدة فهو يبطىء فى السير •• فما يرى خميلة الا وقف لديها وما يرى واديا الا بات فيه ليلة أو أكثر وما زال كذلك حتى بلغ ضفاف « الوادى اليانع » وكان وصوله فى موعد فيضان النهر فأقام لديه حتى ينحسر الفيضان فيعبر النهر •

ولكنه لم يكد يضرب الخيام حتى شق الماء اليه بقية جيشه الهزيم يصحبهما فارسان من فرسان ريمون ألقيا اليه النبأ جميعه فانشطر فؤاده حزنا على ولده الواقع فى أسر وحاول أن يخفف من بعض حزنه فوضع ابن أخى ريمون فى الحديد ولكن هيهات ما كانت نفسه لتهدأ بمثل هذا •

حينذاك فقط عرف المعتمد لماذا أوصاه ابن عمار أن يؤدى المال فى الموعد وعرف لماذا اصطحب ابن عمار ولده •• عرف كل شىء ولكن لات حين •• فما يغنيه اليوم أسفه وما يغنيه اليوم غضبه على ابن عمار •

يعود المعتمد الى اشبيلية وتصيبه وجمة تظل رانية عليه عشرة أيام لا يدرى من أمر نفسه أمرا • ولكن ابن عمار الذى ألف الصعاب وعركها كان سريع البديهة حاضر الذهن فما أسرع ما يلجأ الى أحد أمراء الأندلس من أصدقائه ويرسل اليه أنه لائذ به فيتشفع هذا الأمير لدى ريمون فيفك اسار ابن عمار ويبقى على الراشد بن المعتمد حتى يضمن وصول المال •

ويقصد ابن عمار الى المعتمد يكاد أن يلوى به الخوف ولكنه لا يضعف اليه بل يقصد الى اشبيلية وحين يصل الى أبواب القصر

يعاود قلبه طائف خوف أن يكون المعتمد شديد الغضب عليه فيترك القصر الى بيته ومن هناك يرسل الى المعتمد قصيدته الضخمة :

أأسلك قصدا أم أعوج عن الركب
فقد صرت من أمرى على مركب صعب

وأصبحت لا أدرى أفى البعد راحتى
فأجعله حظى أم الحظ فى القرب

اذا انقدت فى أمرى مشيت مع الهوى
وان أتعقبه نكصت على عقبى [1]

على أننى أدرى بأنك مؤثر
ــ على كل حال ــ مما يزحزح من كربى

أهابك للحق الذى لك فى دمى
وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى

أيظلم فى وجهى لذا قمر الدجى
وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب

حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه
وليس له غير انتصاحك من حسب

وما جئت شيئا فيه بغى لطالب
يضاف به رأى الى العجز والعجب

سوى أننى أسلمتنى للمة
فللت بها حدى وكسرت من غربى

وما أغرب الأيام فيما قضت به
ترينى بعدى عنك آنس من قربى

---

(١) يقصد أنه اذا اتبع القلب قصد الى المعتمد ولكنه ان فكر قليلا تخلف ونكص على عقبيه ٠

أمـا انـه لـولا عـوارفك التى
جرت جريان المـاء فى الغصـن الرطب
لمـا سـمت نفس ما أسـوم من الأذى
ولا قلت ان الذنب فيمـا جـرى ذنبى
سـأستمنح الرحمى لديك ضراعـة
وأسـأل سـقيا من تجـاوزك العـذب
فان نفحتنى من سـمائك حـرجف
سـأهتف يا بـرد النسـيم على قلبى

وهكذا أنشأ ابن عمار قصيدته تتسابق فيها السياسة مع الشعر فلا تدرى لأيهما السبق فهو يمهد بالاعتذار والتودد والتخوف وهو يذكر بالحب والصداقة وهو يوحى الى المعتمد أنه صافح مؤثر مايزحزح كرب ابن عمار .. ثم هو فى لباقة معجزة يحمل المعتمد العبء فيما وقع بل هو يزيد فيعتب عتبا رقيقا فيذكره أنه أسلمه لملمة فلت سيفه وحطمت سلاحه ولا ينسى ابن عمار أن يقول انه لم يأت وزرا وأنه ما فعل الا ما يظنه الخير وأنه ما جاء شيئا فيه بغى ولا ظلم وبعد هذا الدوران السياسى البارع يعود فيستمنح الرحمى ويسأل السـقيا من الصفح الجميل والمعتمد ـ قبل ـ شاعر يصل القصيد الى قلبه أسرع ما يصل ويفهم الخافى منه على أوضح فهم فهو يحس ما فى قصيدة ابن عمار من خشية واعتذار وتذكير بصداقة ويحس أيضا ما فيها من توجيه اللوم المهذب مشفوعا بالعتاب ثم يمس قلبه بعد هـذا طلب الصفح وتدمع عينه حين يعجب ابن عمار من الأيام فيما قضت به فأرته البعد عن المعتمد آنس من القرب اليه فلا يملك نفسـه أن يتنـاول قرطاسا ويكتب به الى ابن عمار :

لدى لك العتبى تـراح من العتب
وسـعيك عنـدى لا يضـاف الى ذنبى

واعزز علينـــا أن تصـيبك وحشـة
وأنســك ما نــدزيه فيــك مــن الحب

فدع عنك ســـوء الظن بى وتعده
الى غيره فهــو الممــكن فى القلب

قريضــك قد أبدى توحش جــانب
فراجعت تأنيســا وعلمــك بى حســبى

تكلفته أبغــى بــه لك ســـلوة
وكيف يعــانى الشــعر مشترك اللب

وهكذا جاء الصفح أروع وأجمل ما يكون الصفح بل انه ليزيد فيعترف بالخطأ منه حتى اذا فرغ ما يجيش بنفسه نحو اعتذار ابن عمار عاد الى حزنه المقيم ذاكرا لابن عمار أنه لم يكتب هذا الشعر على سجية مواتية وانما هو يتكلفه تكلفا يبتغى به ســلوة لوزيره وصديقه فما كان لمشــترك اللب الحيران القلق على ولده أن يكتب الشعر أو يعانيه •

يهدأ روع ابن عمار ويقصد الى المعتمد فيلاقيه وقد بدت عليه علائم فرح يغشيه الحزن ولكن ابن عمار يسرع فيدبر الأمر والمــال الذى يطلبه ريمون ويرســله اليه ليفك ابن المعتمد من أسره ولكن ريمون يطمع فلا يقبل أن يفك الأسير بالآلاف العشرة التى انتهى اليها الاتفاق وانما هو يزيدها الى ثلاثة أضعاف فيطلب ثلاثين ألفا من خالص الذهب •

وحين يبلغ هذا الطلب مســمع المعتمد ينشــق قلبه من الغيظ والاشفاق على ابنه فان هــذا القدر من المال لم يكن موجودا لديه وانما الموجود لديه هو ابن عمار رجل الملمات •

ولا يطول التفكير بابن عمار بل هو يأمر فتضرب مســكوكات

جديدة مزيفة ليس فيها من الذهب الا القليل النادر الذى يكفى ليجعل ريمون يظنها ذهبا وما هى من الذهب الا فى اسمها .

وتجوز الحيلة على ريمون فيطلق الراشد من أسره ويعود الى أبيه فرحا انه كان ذا أهمية غير شاعر بما كان فى نفس أبيه من ألم وحسرة وخوف .. ويعود ابن عمار الى معتمده صديقين أخلص ماتكون الصداقة فرحين بحيلتهما التى خالت على ريمون يوهم كل منهما الآخر أن النصر كان فى جانبهما فهكذا النفس ان رامت أمرا كبيرا ولم تنل منه الا القليل أو ما هو أقل من القليل حاولت أن تقتنع أن ما نالته كان النصر مؤزرا ، وما أكثر ما تخادع نفسها النفس .

١١ ـ قمة المجد

لم يكن ابن عمار ليغبى عن فهم الأمر فهو على يقين أنه قد هزم ولكن لا بد له أن يظهر للمعتمد أنه انتصر حتى يهدأ طائره وتطمئن نفسه .. أما ابن عمار فانه يعلم الحق من الأمر ولكنه لم ييأس الى الهزيمة بل انه ليصر فى بعيد نفسه أن ينال مرسية وقد خشى ابن عمار أن يظهر اصراره هذا للمعتمد فيغضب فأخذ يعمل وحده مستخفيا مرسلا الرسل الى مرسية متنطسا أخبارها وقد خشى ابن عمار أن يعرف المعتمد بما يفعله فلم يجد وسيلة خيرا من الاغراق فى الخمر والتظاهر بهذا الاغراق ما وسعه التظاهر حتى تناقل الناس عنه ذلك وحتى بلغته قالة الناس فاذا هو ينظم أبياتا ثلاثة يكتبها فلا يظهرها لغير المعتمد حتى يثق المعتمد أن ابن عمار قد عاد الى ما كان عليه من خمر وشعر بعيدا عن السياسة وطموحها :

نقمتم على الراح أدمن شربها
فتى وقلتم راح وليس فتى مجد

ومن ذا الذى قاد الجياد الى الوغى
سواى ، ومن أعطى كثيرا ولم يكد

فديتكمو لم تفهمـــوا السر انمـا
فليتكمو جهدى فأبعدتكم جهـدى (١)

يظهر ابن عمار المعتمد على هذه الأبيات مبديا فيها كرهه للناس ولا يخشى أن يغضب عليه المعتمد لأنه باظهارها له يستثنيه من هؤلاء الذين قلاهم فأبعدهم . فقد كان ابن عمار يعلم أن هذه الأبيات لا بد واقعة فى يد المعتمد وخشى أن يظن نفسه ضمن هؤلاء الناس ... فابن عمار يسارع بقراءتها عليه لهذا جميعه وليفتح للمعتمد بابا يقول فيه الشعر بعد أن ثاب اليه ولده فعاد اليه لبه غير مشترك فعساه اذن أن ينشغل بمعالجة الشعر عن متابعة ابن عمار .

ويفرح المعتمد بعودة ابن عمار الى الشعر والخمر ويفرح أيضا ببغضه للناس فانه بهذا سيفرغ له فيرتاح نفسا ، ويهدأ خاطرا ، فقد كان يخشى طموح ابن عمار فهو يعلم أن آماله لن تقف به الى حد ينتهى اليه ... وهو يعلم أن آمال ابن عمار هذه محفوفة بالأخطار فهى تمتد الى الفتوح الجديدة والى الممالك بأكملها وكان لا بد لفتح الممالك من الجيوش والأموال والرجال .. وكان لا بد أيضـا أن يتعرض ابن عمار فى هذه الفتوح الى الأخطار المحدقة وهو لا يكتفى بأن يقدم نفسه بل هو يزيد فيحيط أبناء المعتمد أنفسهم بما يخشاه المعتمد عليهم ..

كان المعتمد يعلم هذا جميعه وكان يعلم أيضا أنه لا يستطيع أن يرفض مطلبا لابن عمار فهو يخشى أن تظل هذه الآمال تداعبه فيطلب الجيوش والأموال ويضطر المعتمد الى أداء هذه المطالب وهو كاره وانما يؤديها حبا لابن عمار لا لشىء آخر .. كان المعتمد يتمنى أن يفتح الممالك وأن تنضم الى ملكه ولكنه يريد ذلك بغير عناد ولا مشقة فانما لا يزهيه من هذا الاتساع الا أن يقول الشعر ويفخر بمجده

---

(١) قليتكم أى كرهتكم شديد الكره فهو يباعد ما بينه وبينهم .

ومجد وزيره .. أما اذا كانت الفتوح تكلفه عنتا من أمره فبحسبه المجد الذى تم له وهو غنى كل الغنى عن فتوح أخرى . وهكذا فرح المعتمد أن ابن عمار عاد الى الخمر والشعر وأغضى عن آماله الواسعة ..

ويحس ابن عمار بهذه المعانى التى تدور بنفس المعتمد فينكب على الشعر والخمر متحينا الفرصة ليعود الى ما كان يطمع فيه واثقا أن المعتمد لن يخذله .. ويزيد ابن عمار من اظهار ميله هذا للخمر ومجالس الغناء حتى انه لا يكتفى بتلك المجالس التى يفسحها له المعتمد بل هو يقبل دعوة من دعاه الى مثلها فهو يقصد الى بيوت خاصة أصدقائه فيشرب ويسمع ويبلغ هذا المعتمد فيشتد يقينه أن ابن عمار لن يعود الى السياسة أبدا .

وقد حدث يوما أن أرسل اليه أحد خاصته يدعوه الى ليلة من تلك الليالى وكان هذا الصديق شاعرا فكتب الى ابن عمار يقول :

ضمان على الأيام أن أبلغ المنى
اذا كنت فى ودى مسرا ومعلنا

فلو تسأل الأيام من هو مفرد
بود ابن عمار لقلت لها أنا

فان حالت الأيام بينى وبينه
فكيف يطيب العيش أو يحسن الغنا

ووصلت الرقعة الى ابن عمار وهو فى زاوية من بيته يتسقط أنباء مرسية من عيونه بها فلم يستطع أن يترك هذا الأمر الجليل من أجل اتقان تظاهره فأغضى عن الدعوة وظل ليلته فى شغل عنها خطير حتى اذا طلع الصبح كتب الى هذا الصديق يقول له :

هصرت لى الآمـــال طيبــة الجنى
وســـوغتنى الأحـــوال مقبلة الدنا
وألبســتنى النعمى أغض من الندى
وأجمل من وشـــى الربيع وأحسنا
وكـم ليـــلة أحظيتنى بحضـــورها
فبت ســميرا للســـناء وللســنا
أعلل نفسى بالمــكارم والعـــلا
وأذنى وكفــى بالغنـــاء وبالغنــى
ســأقرن بالتمويل (١) ذكرك كلمــا
تعــاورت الأســماء غـيرك والكنى
لأوســعتنى قولا وطـولا كلاهمــا
يطـوق أعنــاقا ، ويخـرس ألســنا
وشرفتنى من قطعــة الروض بالتى
تنــاثر فيهــا الطبــع وردا وســوسنا

وهــكذا وفق ابن عمــار بين التظــاهر بالمجون وبين العمــل الجليل الذى يقوم به ولكنه فى هذه الليلة كان قد سمع أنباء ضخاما وكان لا بد له أن يتهيأ للعمل بعد أن طال به الهجوع الى الخمر والغناء والرقص •

كانت الأنباء تقول ان مرسية قد حان قطافها ولكن ابن عمار لم يشأ أن ينقلب فجأة أمام المعتمد من مخمور لاه الى رجل عمل •• فهو يتقدم الى المعتمد ليتحدث عن ولده الأمير الراشد الذى أصبح أميرا على قرطبة ثم هو يطيل من الحديث عنه ليثير شوق المعتمد اليه حتى اذا وصل الى غايته قال للمعتمد ان الأمير أرسل يطلبه ليقضى عنده بعض ليلة يسرى عنه فيها فيفرح المعتمد لاخلاص ابن عمــار ويسأله أن يبلغ تحياته الى ابنه •

(١) التمويل الاكثار •

ويذهب ابن عمار من فوره الى الراشد بقرطبة ويجلس اليه يروى له من شعره وشعر غيره حتى اذا دارت الكأس وانتشى الراشد نظم ابن عمار أبياتا فى جلسته تلك يقول :

ما ضر ان قيل اسحاق وموصله
ها أنت أنت وذى حمص واسحاق

أنت الرشيد (١) فدع ما قد سمعت به
وان تشابه أخلاق وأعراق

لله درك ... داركها مشعشعة
واحضر بساقيك ما قامت بنا ساق

تمتد الجلسة الى الصباح والجالسون لا يحسون بليل ينحسر ونهار يشرق حتى يأتى خادم فيؤذن سيده أن الاصباح قد أقبل فاذا ابن عمار ينطلق ناظما موجها كلامه الى الخادم والخادم مبهوت لا يفهم شيئا مما يلقى اليه :

« ليلة ضمنت معانى السرور — وأضاءت بنور وجه الأمير
وغدا الليل كالضحى بمحيا — ه وبالبشر غامرا والحبور
ليلة كلها صباح وضى — أين منه نور الصباح المنير
أتقول الصباح ويحك يا أحـ — ـمق ان الصباح وجه الأمير »(٢)

وهكذا مكث ابن عمار لدى الراشد يظهر أنه يسليه وهو فى الواقع يستطلع أنباء مرسية التى كانت قريبة اليه حتى اذا علم أن الوقت قد حان أرسل الى المعتمد يخبره أن مرسية ثائرة على حاكمها « ابن طاهر » وأن زعماءها قد كتبوا اليه يريدون جيشا من المعتمد

---

(١) يقصد بهذا المقابلة بين الراشد والرشيد وقد كان الراشد يدعى بالرشيد أحيانا.

(٢) هذه الأبيات لم يعثر عليها منظومة ولكن معناها ورد فى أصول الافرنجية وقد تفضل بنظمها الاستاذ العوضى الوكيل .

يفتحها ويلح ابن عمار فى خطابه ولا يفوته أن يذكر أن ليس ثمة رهينة ولا اتفاق فليس ثمة خشية .. ومرة أخرى يصدق المعتمد أقوال ابن عمار فيرسل الجيش على أتم أهبة ويتولى ابن عمار قيادة الجيش ويأخذ سبيله الى أقرب حصن وهو حصن « بلج » وكان زعيم الحصن رجلا يدعى « ابن رشيق » ما ان يسمع بقدوم ابن عمار حتى يخرج اليه ليستقبله ويدعوه للنزول فى قصره فيقبل ابن عمار الدعوة ويفسح له الضيف مكانا رحيبا ويسكب عليه من الحفاوة والتكريم ما لم يكن ابن عماره ينتظره .. وامتحن ابن عمار « ابن الرشيق » فعرف أنه يستطيع أن يثق به فحادثه فى أمر « مرسية » وطريق فتحها فاذا ابن رشيق على أتم معرفة بحالة مرسية وبالوسيلة التى تصل بهما الى الفتح وهكذا وجد ابن عمار عونا من حيث لا يحتسب وما هى الا بعض الساعة حتى كانت حامية حصن بلج تحت قيادة ابن رشيق قد مشت مع جيش ابن عمار فى طريقهما الى مرسية .

كانت بلدة « مولا » هى طريق المؤن الى مرسية وليس غيرها من طريق فحاصرها ابن عمار وابن رشيق حتى وقعت فى أيديهما فأصبحت مرسية فى حال من الضنك شديد ... وفرح ابن عمار بفتحه هذا ولم يطق صبرا .. فترك ثلة قليلة من فرسانه فى مولا وسارع الى المعتمد ليزف اليه البشرى وليمحو أثر الهزيمة الأولى وليتقبل من مولاه التهنئات .. و .. ولشىء آخر يرجو مولاه أن يحققه له .. انه يريد أن يكون حاكما على مرسية ان هى وقعت له ... وما كان المعتمد ليمنع عنه مرسية أو غيرها فهى له ..

وتلقى ابن عمار أنباء من عونه ابن رشيق يقول فيها ان وجوه مرسية من ذوى السطوة والسلطان قد خرجوا اليه يسألونه أن يأذن لهم أن يعاونوه فى فتح مرسية وطلبوا ازاء ذلك بعض المال والهدايا ولا ينتظر ابن عمار حتى يستأذن المعتمد بل هو يرسل الى

ابن رشيق أن أقبل ما يعرضون ثم هو يلتفت الى من معه فيقول « ان هو الا يوم أو بعض يوم حتى توافينا الأنباء بفتح مرسية » •

وما هو الا يوم أو بعض يوم حتى فتحت مرسية أبوابها بأيدى الخونة الذين ما لبثوا أن مدوا أيديهم هـذه ليتلقوا بها الهـدايا والأموال •

وما هو الا يوم أو بعض يوم حتى كان ابن عمار فى مرسية ومعه الكثير العديد من الهدايا الفخمة الجميلة فان أملا ضخما فى حياته قد تحقق وما أهون ما يبذله فى سبيله وان غلا •

لم يكن ابن عمار قد تهيأ لدخول مرسـية بموكب فخم فكان دخوله لها على غير انتظار من أهلها ولكنه فى صباح وصوله أعد لنفسه استقبال الملوك الغزاة الفاتحين بل انه لبس مثل ما يلبس الملوك فوضع على رأسـه تاجا كتاج المعتمد الذى يتخذه حين يجلس الى استقبال •

وكان « ابن طاهر » حاكم مرسية المعزول قد استكان الى كسرة من بيته يبكى ملكه الضائع وأراد ابن عمار أن يبدو لأهل مرسية كريم النفس عف الخصومة فأرسل الى ابن طاهر بضعة حلل فاخرة ليختار منها ما يريد هدية خالصة من ابن عمار ولكن ابن طاهر أبى أن يجود عليه ابن عمار الذى يعرفه ويعرف خرجه وحماره وأخلاق ثيابه •• ولم يرد ابن طاهر أن يرد الثياب دون أن يخز ابن عمار وخزة تريح بعض ما فى نفسه فاذا هو يقول لمن يحمل اليه الحلل •• « ارجع الى مولاك ابن عمار فقل له ان ابن طاهر لا يريد من الثياب غير جبة طويلة خلقة من خشن الصوف الناحل ، وغير قلنسوة قذرة ، فان سألك مولاك عنهما فقل له انك أنت أعلم الناس بهما » •

وعاد الرسول يحمل الحلل والرسالة •• وأحس ابن عمار وخزة

الحديث ولكنه لم يرد أن يفسد فرحه بمثل هذه القالة فكتمها فى نفســه وقد أزمع ردها حين يفرغ الى ابن طاهر .. ثم التفت الى أفراحه القائمة .. لقد أصبح ملكا .. فان مرسية لم تكن مدينة فحسب كبلدته « شلب » ولكنها كانت مملكة تتبعها مدن وولايات ..

انها القمة ابن عمار .. فانظر الى قدميك واحذر .. احذر .. فما وراء القمة غير الهاوية .

١٢ ـ بين مرسية وأشبيلية

أقام ابن عمار بمرسية حاكما مطلق اليد يأمر فأمره تنفيذ ، ويشير فاشارته أمر فأصبح بعد أن لبس التاج واستبد بالسلطان لا يحس بالمعتمد فى شىء فأخذ يصدر الأوامر ويمهرها بخاتمه هو لا بخاتم المعتمد ، وأمر فأنشىء جامع وأطلق عليه اسم نفسه دون المعتمد وتبلغ هذه الأنباء آذان المعتمد فيقول قول كثير :

هنيئا مريئا غير داء مخـــامر
لعزة من أعراضنا ما استحلت

ولكن ابن عمار لا يرعوى ولا يلتوى به فضل من المعتمد يطوق عنقه وكان ابن عمار فى ذروة مجده حين نما اليه أن فئة ممن لا يزالون على ولائهم لابن طاهر يدبرون أمرا فيما بينهم وأنهم حادثوا ابن طاهر أن ينتزعهم وحينئذ تذكر ابن عمار ما كان قد نسيه من أمر ابن طاهر وتذكر أنه اغتمزه فذكره بملبسه فأمر ابن عمار بابن طاهر فســجن بقلعة يطلق عليها قلعة « منتاجو » .

وكان لابن طاهر صديق اسمه (ابن عبد العزيز) وكان حاكما على (بلنسية القريبة من مرسية . ، .. فأرسل هذا الصديق الى ابن

عمار يرجوه أن يطلق ابن طاهر ولكن ابن عمار أبى واستكبر فقد خشى أن يخرج ابن طاهر من سجنه فيؤلب عليه الأعداء .. فلما يئس ابن عبد العزيز من ابن عمار أرسل يستنجد بالمعتمد فى أشبيلية وألح عليه حتى أرسل المعتمد الى ابن عمار يأمره باطلاق أسيره ولكن ابن عمار لم يلتفت أمر المعتمد كما لم يلتفت الى رجاء ابن عبد العزيز وأبقى على ابن طاهر فى سجنه .

واغتاظ المعتمد من ذلك .. وكان الذين حوله فى القصر قد أوغرت صدورهم على ابن عمار فاهتبلوا فرصة غضب المعتمد ، وأخذوا يكيلون التهم لابن عمار يتزعمهم فى ذلك أبو الوليد ابن زيدون ابن شاعر الأندلس الأشهر ابن زيدون وكان آنذاك ذا نفوذ فى قصر المعتمد يلى نفوذ ابن عمار وقد أحب ألا يلى هو أحدا فينفرد وحده بجاه الملك وجبروته فحق له اذن أن يقدح فى ابن عمار ويتسقط مظاهر خروجه على المعتمد ويرويها له مضيفا اليها ما يزيدها بشاعة حتى فاضت الكأس بالمعتمد لكنه أراد أن يجرب تجربة أخيرة قبل أن يقطع صداقة حياته فأراد أن يرسل الى ابن عمار رسولا آخر يأمره أن يطلق سراح ابن طاهر ولكن الأخبار وافته أن ابن طاهر قد تمكن أن يهرب من قلعة منتاجو وأنه قصد الى ابن عبد العزيز ونزل بقصره ضيفا كريما وكانت هذه الأخبار حقا كلها .. ونزلت على المعتمد بردا وسلاما فقد كفته مؤونة التجربة واستراح وأوهم نفسه أن ابن عمار قبل أن تدبر هذه المؤامرة تحت عينيه فهرب الأسير بدلا من أن يطلق فيحفظ بها على نفسه كرامتها أمام من يحكمهم ويطيع فى الوقت ذاته أمر المعتمد اليه ..

هكذا اعتقدت نفس المعتمد الصافية ولكن الحقيقة أن هروب ابن طاهر والتجاءه الى ابن عبد العزيز نزل على ابن عمار نزول الصاعقة فأصبح كالمجنون يبحث عن وسيلة ينتقم بها من ابن طاهر وابن عبد العزيز معا حتى اذا ضاقت لجأ الى سلاحه القديم الذى

أوصله الى ما هو عليه الآن وأخذ يكتب القصائد الطوال فى هجاء ابن عبد العزيز ولم يكن ابن عمار كريما فى هجائه بل كان ثائرا لا يدرى ماذا يقول فكتب يهجو زوجة ابن عبد العزيز ويحرض أهل بلنسية أن يثوروا بصاحبهم .

وبلغت هذه القصائد مسامع المعتمد فعرف أن حسن ظنه بابن عمار كان أوهاما واغتاظ أن يكتب ابن عمار هذه الأبيات فيشهر للملأ أنه كان يعارض المعتمد فى اطلاق ابن طاهر وغاظه أن يتهجم ابن عمار وهو من هو على أقدار أمثال المعتمد من الملوك الكابرين .. اغتاظ المعتمد وأراد أن يحارب ابن عمار بذات سلاحه فأمسك بقلم وأخذ ينظم .. ماذا ينظم .. ! لقد أخذ المعتمد بعد صداقة خمسة وعشرين عاما لابن عمار ينظم قصيدة فى هجاء ابن عمار .

وبلغت القصيدة ابن عمار وكان فى أوج مجده وكان الذين حوله يوهمونه أنه الفرد العلم فتمكنت نشوة المديح من رأسه وأنسته ماضيه وعقله وكياسته وأنسته كل ما تعلمه من تدبر للأمور بل أنسته كل ما سكبه عليه المعتمد من فضل .. بل نسى أن هذا المديح الذى يسمع هو نتيجة لفضل من أفضال المعتمد عليه وخيل اليه أنه هو صاحب الفضل على المعتمد وأنه هو الذى أدى اليه من الخير ما لم يستطع أحد أن يؤديه له .. نسى ابن عمار كل هذا وخيل اليه أنه غدا ملكا مثل المعتمد وقابل قصيدة الهجاء من المعتمد بقصيدة هجاء من ابن عمار ولم لا وكلاهما شاعر .

ولكن ابن عمار لم يكن فى مثل شجاعة المعتمد فهو فى عميق نفسه يحس ــ ما زال ــ بأنعمه وهو يعرف تماما الفارق بين المفضل والمفضول فهو يلقى القصيدة فيمن ظنهم خاصته وكان من بينهم يهودى من عيون ابن عبد العزيز استطاع أن ينال ثقة ابن عمار فما ان سمع القصيدة حتى أبدى اعجابه الضخم بها ثم طلب خمرا ليستمع اليها

مرة أخرى وهو مخمور فتزداد نشوته وجاءت الخمر فأخذ اليهودى يشرب حسوا فى اقلال ورزانة بينما يعطى ابن عمار الكئوس دهاقا مليئة حتى دار رأس ابن عمار فسرق اليهودى القصيدة منه مكتوبة بخط يمينه وأرسل رسولا الى ابن عبد العزيز فى مرسية وما لبث هذا أن أرسلها الى المعتمد فى أشبيلية وقرأ المعتمد .. ولأول مرة بعد خمسة وعشرين عاما من صداقته لابن عمار قصيدة يهجوه فيها ابن عمار .. بل انه لم يهجه وحده وانما زاد فهجا « اعتماد » وسخر من حب المعتمد لها وزاد فذكر بنياته وأهل بيته بشر .

سفر العداء اذن وصرح الشر وتقطعت السبل بين الصديقين فما لاصلاح من سبيل وملأ الغيظ قلب المعتمد فأخذ يدبر للانتقام .

ولها ابن عمار عما يدبر له والتفت الى ما يحيط به من مجد وقد استقر لديه أن الأمور قد أسلست قيادها له .

نسى ابن عمار أن الذى فتح له مرسية يستطيع أن يثيرها عليه .. نسى ابن رشيق صاحب حصن بلج الذى عاونه .. نسيه وهو فى أوج مجده وفى غمرة ملكه فما التفت اليه وما أناله مما كان يطمع شيئا .. ويل المديح انه يعمى أشد الناس ذكاء عن أبسط الأمور وأقربها الى الذهن .. لقد استطاع أن يعمى حتى ابن عمار فما عاد يلتفت الى تلك الأشياء الدقيقة التى ما كانت لتفوت عليه قبل أن يصل الى الملك .

لقد وجد ابن رشيق أن لا غناء عند ابن عمار وعرف بقصيدة المعتمد ثم بقصيدة ابن عمار فعرف أن المعتمد يريد الانتقام فشد اليه الرحال وعرض بين يدى الصديق الذى يريد أن ينتقم لصداقته ، والزوج الذى يريد أن ينتقم لزوجه ، والأب الذى يريد أن ينتقم لولده ، وصاحب الفضل الضائع الذى يريد أن ينتقم لفضله ... عرض بين يدى المعتمد وسيلة الانتقام .

كان ابن عمار لا يزال فى بلهنيته ليس يدرى بأمر أعدائه الذين

ألبهم هو على نفسه .. خيل اليه أن ابن عبد العزيز وابن طاهر لن يمدا اليه يدا بشر وخيل اليه أن ابن رشيق لن يهم به فهو صـــديقه وحسب ابن رشيق فخارا أن يكون صديقا لابن عمار .

خيل اليه هذا كله فانصرف الى مادحيه ، وبينما ابن عمار فى هالة من صحابته اذ سمع أصوات ضجيج وصخب وصراخ تتقارب نحو قصره فقام الى الشرفة فوجد جموعا حاشدة تدنو وما هى الا لحظات حتى استبان صراخهم .. لقد كانت الثورة به .. لقد جاء الجنود يطالبون بمرتباتهم ويهددون بالويل العظيم ان هم لم ينالوا ما يريدون .. أدرك ابن عمار حينئذ أنه وقع فريسة خيلائه ويهم أن يلوذ بسهم أخير فيخطب الجموع انه سيسأل المعتمد أن يرسل اليه المال فيعطيهم رواتبهم ولكن قبل أن يفعل هتف به نائب الجنود من أسفل الشرفة :

ــ هيه ابن عمار أحسبت أن تقطع عنا رواتبنا ونسكت عنك .. هيهات .. لقد أقسمنا فيما بيننا قسما غليظا ان لم تسلمنا حقنا سلمناك للمعتمد من فورنا .. الى المعتمد يا ابن عمار أتعلم من هو المعتمد اليوم .

كان القول حاسما .. نعم ان ابن عمار يعلم من هو المعتمد اليوم انه النقمة التى كانت خيرا .. وانه الذل الذى كان مجدا .. وانه النار التى كانت ندى ورحمة وبرا .. عجز ابن عمار الذى احتال على الملوك والوزراء والكابرين .. عجز عن أن يحتال على ثلة ليست من الملوك ولا الوزراء والكابرين وانما هم أصحاب حق يطالبونه به .. مهما تكن الأيدى التى حركتهم قد ابتعثها الحقد والانتقـــام والبغض الشديد الا أن هذا لا يغير من موقفهم شيئا .. انهم أصحاب حق يطالبونه به .

لم يبق أمام ابن عمار الا أن يفلت بحياته فهو يتكلم لا ليدافع

ولا ليطلب من القوم الريث فقد رأى منهم عزما واصرارا ••• انه يتكلم فلا يقول شيئا الا

ــ أيها الجند ••• ان هى الا بعض الساعة حتى تكون رواتبكم بين أيديكم ••• ويدخل ابن عمار الى القصر لا ليؤدى الرواتب فما كان بخزائنه شيء فلقد اشترى المديح الذى تهدى اليه بكل المــال الذى كان لديه ••• يدخل ليجمع ما يطيق أن يحمل ••• ومن باب سرى .يخرج ابن عمار من القصر فلا يراه الجنود ويظل مستخفيا حتى يخرج من مرسية جميعها الى ••• الى الطريق •

سلام اذن يا قصر الملك ، وسلام أيتها الأحلام التى ما تحققت حتى انهارت ، وسلام أيها المديح الذى ما قيل حتى هوى بالممدوح•• سلام على كل هذا والى •• الى الطريق •

١٣ ـ الى أين ٠٠ ؟

حار ابن عمار ٠٠٠ أين يولى وجهه وضاقت به السبل وطال الطريق عليه مرة أخرى فذكر حماره وذكر أيامه الأولى وما تبعها وذكر صداقته للمعتمد ثم خيانته له وذكر ٠٠ وذكر ٠٠ ثم أخذ يورد بذهنه كل الأصدقاء الذى أتيح له أن يعرفهم عساه أن يختار من بينهم من يلجأ اليه ٠٠ فكر فى ملوك الأندلس المسلمين الذين يعرفهم أجمعين ولكنه خشى أن ينصرفوا عنه بل انه عزف عن الالتجاء اليهم فقد كان فى قصر أعظمهم شأنا وأعزهم سلطانا فعرف أنه لن يرضى بالأدنى بعد أن ترك مجدالمعتمد وقصوره ٠٠ وانتقل ذهنه على غير ارادة منه الى ملوك الفرنجة فى الأندلس ٠٠ وفكر فى ريمون صديقه ولكنه لا بد قد اكتشف زيف الذهب الذى أرسل اليه فدية ٠٠ ثم فكر فى الأذفونش ٠

أجل الأذفونش ولم لا ٠٠٠ لقد ترك أعظم ملوك الأندلس العربية فما له لا يذهب الى أعظم ملوك الأندلس الافرنجية ٠٠٠ تذكر الشطرنج ولكنه تذكر أيضا أنه أهداه للأذفونش وتذكر أن الرجل يقدره فيطلق عليه « رجل الجزيرة » وأن قصة الشطرنج فى ذاتها لدليل على ذكاء ابن عمار وان يكن الأذفونش هو ضحيته فيها الا أنه سيقدر الذكاء

ـ لا شك ـ لأنه رجل ذكى وسيقدر الولاء الذى عمل به ابن عمار من أجل المعتمد وسوف ينتظر نفس هذا الولاء من ابن عمار له اذا عمل به من أجله ... وان يكن ثمة غضب ما زال فى نفس الأذفونش فلا شك أنه سيكون غضبا هينا غشت عليه السنون يستطيع ابن عمار ببعض كياسته أن يزيله .

واتجه ابن عمار الى « ليون » عاصمة الأذفونش وألقى رجاءه ببابه ولكن ويح الأيام .. هيه ابن عمار لقد بدأت هبوطك الى الهاوية فلات حين صعود .. لقد رفض الأذفونش ايواء ابن عمار وكان قد علم بكل ما حدث فى بلنسية فبدأ ابن عمار بقوله :

ـ أنت سارق يا ابن عمار .. سرقت الملك من ابن طاهر على يد ابن رشيق فليس ظلما أن يسرق منك الملك بنفس اليد التى سرقته لك .

وخرج ابن عمار من ليون ولم يبق له الا أن يرتمى بأبواب الملوك العرب مرة أخرى ولكنه فى هذه المرة لا يعرض شعرا يقوله خامل ذكر لا يعرفه أحد وانما هو يعرض ابن عمار بتاريخه كله الذى لا يجهله أحد .. يعرض ابن عمار الوزير الداهية والسياسى البارع والقائد الصنديد .

يذهب ابن عمار الى « سرقسطة » وهى مملكة أندلسية عربية يقوم عليها أحد ملوك الطوائف يطلق على نفسه اسم الملك «المقتدر» وكانت هذه المملكة هينة الشأن صغيرة الرقعة ففرح صاحبها أن يكون بين رجاله وزير المعتمد الأول ومن كان صديقه الأثير .. يأوى المقتدر ابن عمار ويوليه بعض شئون الدولة ولكن هذه المملكة الصغيرة التى تتضاءل أمام اشبيلية فحسب بل انها لتتضاءل أمام مرسية مملكته .. هذه البلدة .. سرقسطة لا تتسع له فهو لا يطيق العيش فيها فيزعم ابن عمار للمقتدر أنه لم يعد يطيق العيش فى زحمة الناس انه يود

لو أتيح له أن يذهب الى مملكة بعيدة منقطعة عن الناس الذين كرههم جهده والذين يريد أن يباعدهم جهده فيسأله المقتدر عن المكان الذى يريد فيجيبه ابن عمار أنه يتوق أن يذهب الى « لاردة » التى يحكمها « المظفر » أخو « المقتدر » ويقبل المقتدر آسفا ويذهب ابن عمار الى « لاردة » فيستقبله « المظفر » أحسن استقبال وينزله بأكرم مكان ويفرح ابن عمار بما لقى وتعود اليه بعض ثقته بنفسه ولكنه لا يلبث أن يضيق بهذه العزلة التى فرضها على نفسه فيرجو المظفر أن يسمح له بالعودة الى سرقسطة ويزعم له أنه اشتاق أن يرى أخاه « المقتدر » ويصدق المظفر قوله كما كان المعتمد يصدق قوله ويأذن له بالذهاب ولكن ابن عمار يعرف وهو فى الطريق الى سرقسطة أن المقتدر قد مات وأن ابنه « المؤتمن » قد قام على الملك من بعده فيواصل طريقه كأن لم يسمع شيئا انه يريد أن يذهب الى سرقسطة لا يهمه ان كان عليها المقتدر أو المؤتمن أو من يكون .

ويصل ابن عمار الى سرقسطة وينزله المؤتمن منزلة كريمة ويستشيره فى أمور مملكته فيصرفها ابن عمار وكأنها شئون ضيعة صغيرة لا مملكة ذات ملك ووزير ويضيق ابن عمار بتضاؤل أعماله فما هى مهما تعظم فى سرقسطة بشىء يذكر الى جانب أعماله فى اشبيلية أو مرسية أو حتى شلب .

وتلوح لابن عمار فرصة يعمل فيها فيهتبلها .. فقد جاء الى المؤتمن من يخبره أن أحد أصحاب القلاع التابعين لسرقسطة قد خرج عن طاعة المؤتمن فيعرض ابن عمار على المؤتمن أن يذهب هو لاخضاع هذا الخارج فيقبل المؤتمن فرحا ويسأل ابن عمار :

ــ كم جنديا تريد ؟

ــ اثنين .

ــ أسألك كم جنديا تريد لتحارب القلعة ؟

ـ أريد اثنين ـ جنديين •

ـ ولكنك تمزح لا شك •

ـ بل أجد •

ولكن المؤتمن لا يصدق هذا القول ويأبى الا أن يرسل جندا كثيفا فيصر ابن عمار على أن يكون جيشه مكونا من اثنين حتى اذا طال النقاش وقفا عند أواسط الأمر فقبل ابن عمار أن يصحب كوكبة صغيرة من الفرسان •

ويصل ابن عمار الى مكان قريب من القلعة فيأمر الكوكبة أن تختفى وراء الجبال ويصطحب هو جنديين يقصد بهما الى القلعة ثم ينادى ابن عمار على صاحبها المتمرد فيجيبه فيقول ابن عمار :

ـ هلا نزلت الى أحدثك حديثا قصيرا ؟

وينظر صاحب القلعة فلا يجد الا ثلاثة أشخاص فلا يرهب منهم شيئا وينزل الى ابن عمار فيستقبله خارج القلعة ويأخذ بيده ليعود به اليها فاذا بالجنديين يطعنان الرجل طعنا متلاحقا دراكا فيسقط فى مكانه وقد فارق الحياة ويرى جنود القلعة ما حدث لقائدهم فتملك الخشية نفوسهم ويستسلمون ويعود ابن عمار وقد نجحت حيلته ويستقبله المؤتمن والفرح يغمره فيذكر ابن عمار كيف كان يستقبله المعتمد حين كان يعود اليه بعد أن يوقع أعداءه فى الأشراك فتدمع عيناه ولكن لات حين •••

وثق المؤتمن فى ابن عمار بعد حيلته تلك وكان المؤتمن يفكر أن يحقق أمنية أبيه فيستولى على قلعة « شقورة » وهى قلعة حصينة لا تتبع لسرقسطة وان كانت قريبة منها فطلب الى ابن عمار أن يستولى عليها بنفس الطريقة التى استولى بها على القلعة المتمردة ولم يكن ابن عمار يدرى أن أهل هذه القلعة قوم أذاقهم هو مر العذاب فى مرسية

... ولم يكن يدرى أن الطريق اليها وعر لا يستوى ولا يعتدل ولكنه كان يدرى أنه يريد أن يعمل وكان يدرى أنه لا يطيق الخمول .

تزعم ابن عمار بضعة من الفرسان وكما فعل فى المرة الأولى فعل فى هذه المرة فأمر الجنود بالاختفاء واصطحب اثنين وعمد الى القلعة لا يريم ونادى ابن عمار فلم يجبه أحد فاقترب ونادى فلم يجبه أحد حتى أصبح ملتصقا بجدران القلعة فاذا حبل قد أحاط بوسطه واذا هو معلق فى الهواء صاعدا الى أعلى لا يدرى من يجتذبه حتى بلغ نافذة للقلعة فأدخل منها وألقى الى الأرض ثم عاجله القوم بالقيود فأحاطوا بها معاصمه وأقدامه ..

وقع ابن عمار أسيرا فى يد أعدائه وحاول من معه أن ينقذوه فحين رأوا مناعة القلعة أصبح كل همهم أن ينقلبوا الى ذويهم سالمين فانقلبوا .

ماذا يفعل صاحب القلعة بابن عمار .. انه يدخل عليه فيجبهه .

ــ ألم تر الى نهايتك يا رجل الجزيرة .. ماذا تريدنى أن أفعل بك .. لست من أهل السراء حتى أصطنعك لتقول فى شعر المديح ... ولست ذا ملك حتى أجعلك وزيرا .. نعم انك وزير حصيف لا شك أنك بضاعة رائجة يا ابن عمار .. سأعرضك فى سوق الملوك فمن يغلى الثمن كنت له .

فيجيبه ابن عمار والغضب آخذ منه كل مأخذ :

ــ الا والله ما نلتنى الا بالختل القذر ولا والله ما كنت لأمدح مثلك وان كنت أكبر الملوك .

ــ أتتحدث عن الختل يا ابن عمار .. يالك من جرىء وقح .. على أننى لن أقتلك كما فعلت أنت بصاحب القلعة .. بل أنا سأبيعك يا أخى الى الملوك .. لتعود وزيرا كما كنت .. ألا تشكرنى اذن .

وخرج الرجل وترك ابن عمار •

لم تكن اجابة ابن عمار الجريئة عن شجاعة خالصة بل انه أدرك أن الرجل يجد فيه بضاعة رائجة فأدرك أنه لن يمسه بسوء حتى يتمكن من بيعه بثمن كبير •

بقى ابن عمار فى سجنه وانسابت الى ذهنه الذكريات وتطلع الى القابل من الأيام فوجد نفسه يعود الى أسوأ مما كان فى شلب يوم عاد اليها على الحمار فهو اليوم يباع كعبد رقيق وهو لم يكن عبدا فى يوم من الأيام •• نعم كان عبدا للتملق والخداع •• كان عبدا لرغباته ومطامحه •• كان عبدا للمديح الذى أحاط به ولكنه لم يكن عبدا فى سوق الرقيق فهو يقول دون أن يفارقه كبره :

أصبحت فى السوق ينادى على
رأسى بأنواع من المال

والله ما جار على ماله
من ضمنى بالثمن الغالى

ثم ينظر حوله فيجد حجرته فى قلعة شقورة تلك صغيرة ويجد القيد فى يديه وقدميه فتدمع عينه وينتظم البيتان فى ذهنه :

بؤسى شقورة عندى   أربى على كل بوسى(١)
فقدت هارون فيها   وظلت أطلب موسى (٢)

---

(١) البوسى : كنعمى وهى البؤس •

(٢) يعنى أنه لفقد النصير اشارة الى قوله تعالى (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى اشدد به ازرى) وهو يطلب موسى أى الذى يتشفع له •

١٤ ـ سحيق الهاوية

ابن عمار فى السوق سلعة لمن يغلى الثمن والمعتمد ممن عرض عليهم الشراء فمن يشترى ويغلى ثم يغلى اذا لم يكن المعتمد ..

انه يشترى صداقة خمسة وعشرين عاما .. انه يشترى شبابه جميعا .. شباب أمير شاعر ملك .. انه يشترى نفسه فى أمتع فترات نفسه .. وماذا للشاعر الشيخ غير شبابه وشعر شبابه ... ان كل لحظة من شبابه لم يدربها الفلك الا وابن عمار قطب فيها ... لماذا لا يغلى المعتمد .. انه يشترى فى ابن عمار مرآة أنضر ملاوة (١) من حياته .

ثم يشترى من بعد أبغض فترة فى حياته .. يشترى الصداقة الخائنة .. يشترى العهد المضاع .. يشترى الأخوة الخادعة ... يشترى من هدم الصروح الشوامخ من ثقته وحبه ووفائه .. يشترى ذلك الذى سود الدنيا فى عينيه فبعد أن كانت اشراقة حب وضياء ووفاء أصبحت ظلام خيانة وليل خداع .

---

(١) الملاوة القطعة من الزمن .

اشتراه المعتمد اذن وأرسل بابنه الراضى ليأتى به وأوصى ابنه أن يحذر من خداعه وأن يكثر عليه الأحراس ..

وأخذ الراضى صديق أبيه وسار الركب حتى بدت طوالع قرطبة فتذكر ابن عمار وما كان بحاجة الى قرطبة ليتذكر فهو لا ينسى أبدا.. لا ينسى كيف فتح قرطبة هذه فى أول عهد المعتمد .. ولا ينسى كيف كان يدخل قرطبة بعد ذلك تحف به المواكب الضخام وترنو اليه العيون والسعيد السعيد من يلمس حوافر خيله والسعيد الأسعد من يلم بطرف ردائه ، لا ينسى ابن عمار .. لا ينسى ..

وبلغت طوالع موكب الأسير ظاهر قرطبة فاذا هناك حشد كبير .. لم يجتمع لتحية ابن عمار .. ولم يجتمع لاكرامه .. وانما جاء يشهد القمة تنحط الى الهاوية ، والمجد ينحدر الى الحضيض .

والناس للدنيا تبع ولمن تحالفه شيع

ونزل ابن عمار من فوق الحصان الذى كان يمتطيه ومشى الى حيث يمشون به .. يا لسخرية الأقدار .. انه سيركب حمارا ... حمارا مرة أخرى .. نظر ابن عمار الى الحمار فلم يتمالك نفسه من الضحك رغم هذا الضنك الذى يحيط به .. حمار .. أبعد كل هذا السفر الطويل فى مدارج المجد وعليا المراتب يعود الى الحمار .. ويح الأقدار .. بل ان الحمار ليشبه ذلك الذى سرق أو انسل فى اشبيلية عند قصر المعتضد .. انه ليكاد أن يكون هو نفسه يحمل خرجا كذلك الذى كان يحمله حماره بل انه ليكاد أن يكون نفس الخرج وان كانت جنباته قد ملئت اليوم تبنا بدلا من تلك الكسرات التى كانت فيها .. عود على بدئه يرجع بل الى شر من بدئه لا بأس اذن فمن على ظهر الحمار صعد الى القمة فعلى ظهر الحمار ينحدر الى الهاوية .

لقد كان المعتمد هو الذى مهد سلم المجد لابن عمار فصعد وهو هو نفسه من يمهد له الطريق الى الهاوية .. هو الذى أوصله وها هو ذا يعيده .. وعلى الحمار يعود .

ركب ابن عمار الحمار وهم بمسير ولكنه رأى عن بعد رجلا يركب حصانا يعدو اليه ناهبا الطريق نهبا .. فسارع ابن عمار ومد يده الى عمامته ورفعها عن رأسه وألقى بها الى الأرض وكان راكب الحصان قد وصل فوقف حائرا لا يدرى ماذا يفعل .. فسأل ابن عمار واحد ممن يحيطون به ماذا فعلت حتى جعلت الرجل يقف باهتا ؟

فقال ابن عمار :

ــ لقد كان هذا الراكب قادما من عند المعتمد ليرفع عمامتى من على رأسى ويلقى بها الى الأرض امعانا فى تحقيرى والنيل منى فسبقته الى ما يريد أن يفعله فبهت كما ترى .

ونظر السائل الى راكب الحصان فاذا هو يؤيد ابن عمار فيما قال معجبا من ذكاء الوزير ودهائه وهكذا لم تتخل الومضة النافذة عن ابن عمار حتى وهو فى أحلك أوقات حياته .

سار موكب الخزى يطوف بأنحاء قرطبة . فلم يبق من أحد فيها الا وقد رأى ابن عمار على مطيته الجديدة القديمة الا المعتمد الذى كان فى قرطبة وأبى أن يرى ابن عمار ..

نعم ابن عمار الذى كان كل ما يخشاه أن يبعد عنه لحظة من زمن .. هو نفسه من يأبى رؤيته اليوم .. بل يأمر المعتمد أن يسير الركب الى اشبيلية فيدخلها ابن عمار كما دخل قرطبة ثم يلقى به فى السجن .. فكان ما أمر به المعتمد واستقر ابن عمار فى السجن .

ومن هناك أخذ ابن عمار يستشفع بكل ذى أكرومة أن يطلب الصفح من المعتمد والمعتمد يزجر كل محاول فتتكسر على أبوابه

الشفاعات حتى اذا ضاق بكثرتها نادى ابن عمار وذكره •• ذكره المعتمد بملابسه القذرة التى دخل بها القصر ••• وذكره بليلته الأولى بين شعراء القصر •• ذكره بنفسه وزيرا فى شلب •• ثم أميرا لشلب ثم قائدا للجيش •• ثم ملكا أو شبه ملك لمرسية •• ذكره فما ألفاه ناسيا •• ثم ذكره بخروجه عليه فى مرسية •• وذكره بقصيدته التى هجاه فيها •• ذكره فلم يلفه ناسيا •• فهب المعتمد فى وجهه •

ـ فماذا تريد اذن •• لقد أفقدتنى شبابى وهيهات أن يعود •• ألا لعن الله يوما عرفتك فيه اذن لأبقيت لنفسى ذكرياتى نقية منك •

وعاد ابن عمار الى السجن وأخذ يكتب الى أصحابه أن يعاودوا الشفاعة وهو يكتب الى أصدقائه ينظم أنته شعرا عساها أن تريح بعضا مما يجد فيقول لأحدهم :

أدرك أخاك ولو بقافية	كالظل يوقظ نائم الزهر
فلقد تقاذفت الركاب به	فى غير موماة ولا بحر
طاحت صحابته بلا سنة	وتساقطوا سكرا بلا خمر
بمعارج أدت الى جرد	حتى مَنَ الأنواء والقطر
عال كأن الجن اذ مردت	جعلته مرقاة الى النسر
وحش تناكدت الوجوه له	حتى استربت بصفحة البدر
متحير سال الوقار على	عطفيه من كبر ومن كبر
ملكت عنان الريح راحته	فجيادها من تحتها تجرى
مأوى العزيز وقد نصحت فان	يهمل فقد أبليت فى العذر
واصلت خدمة قاطع سببى	وأطعت أمر مضيع أمرى
دع ذا وصلنا غير مؤتمر	مستأثر بالحمد والشكر

وهكذا يبلغ اليؤس بابن عمار حتى انه ليبحث عمن يحادثه أى حديث ولو كان هذا الحديث مكتوبا •

ويلح ابن عمار في رجائه ويرسل به الى شتى الناس فيضيق المعتمد بكثرة الشفعاء فيه فيأمر أن تمنع عنه الأوراق فتمنع .. ثم يزيد المعتمد قسوة عليه فيخرجه في الحفلات التي كانت تقام في القصر ويجعل منه سخرية للجواري والخدم فيبصقون في وجهه ويفتنون في اهانته وابن عمار صامت ذاهل لا يدري أفي حلم بشع هو ، أم في حقيقة ملموسة .. هذه الطنافس ، هذه المقاعد ، تلك البسط ، هاته الثريات ، هذه الأقداح ، هؤلاء السقاة أولئكن النسوة ، انه يعرف جميع هذا .. ويعرف أنه كان ريحانة هذا المكان .. أهكذا يفعل الدهر بأعدائه .. ويل لأعداء الدهر .. ويعود ابن عمار الى سجنه شر ما يعود عائد الى السجن .

وفي يوم يطلب ابن عمار ورقا ويلح في الرجاء ويسأل الخدم المعتمد فيأذن في ورقتين لا تزيدان ورقة ويأخذهما ابن عمار ثم ينشيء قصيدته الخالدة :

سجاياك ان عافيت أندى وأسمح	وعذرك ان عاقبت أجلى وأوضح
وان كان بين الخطتين مزية	فأنت الى الأدنى من الله أجنح
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع	عداتي وان أثنوا علي وأفصحوا (١)
وماذا عسى الأعداء أن يتزايدوا	سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لي ذنب !! غير أن لحـلمه	صـفاة يزل الذنب عنها فيصفح
وان رجائي أن عنـدك غير ما	يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة	يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهبني قد أعقبت أعمال مفسـد	أما تفسد الأعمال ثمت تصـلح
أقلني بما بيني وبينك من رضـا	له نحـو روح الله باب مفتح
وعف عـلى آثار جـرم جنيتـه	بهبة رحمى منك تمحو وتصفح

(١) يقصد ان تظاهروا بمدحي ثم اوغلوا في ذمي .

ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم	فكل اناء بالذى فيه يرشح
وما ذاك الا ما علمت فاننى	اذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
وقالوا سيجزيه فلان بفعله	فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا ان بطشا للمؤيد يتقى	ولكن حلما للمؤيد أرجح
وبين ضلوعى من هواه تميمة	ستنفع لو أن الحمام مجلح (١)
سلام عليه كيف دار به الهوى	الى فيدنو أو على فينزح
ويهنيه ان مت السلو فاننى	أموت ولى شوق اليه مبرح

ويرسل ابن عمار بخالدته الى المعتمد فيقرأها فيطرب ثم ينشدها على الجالسين مترنما وقد هملت عبراته وكان بين السامعين أبو الوليد ابن زيدون فحاول جهده أن يجد لنفسه مأخذا الى القصيدة فتأبت عليه ولكنه استطاع آخر الأمر أن يقول :

ــ ما أتفه قول الخائن :

وبين ضلوعى من هواه تميمة ستنفع لو أن الحمام يجلح

وما يهمنا نحن بما بين ضلوعه ولماذا لم يرع لهذه التميمة حرمة ولكن المعتمد عاجله :

ــ بل انه واللهلم يفقد الذكاء وحسن الاشارة •• انه ابن عمار وان خان ، لقد قصد الى بيت الهذلى :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وهكذا استعصت القصيدة حتى عن ذم الكارهين •• وحركت فى نفس المعتمد ذكريات قديمة وكان قد تهيأ لجلسة خمر فأرسل الى ابن عمار أن يأتى وطلب ممن أرسله ألا يراه أحد وهو قادم بابن عمار •• وأخلى المعتمد القاعة وانفض القوم وهم لا يعلمون بما أسره للخادم

(١) مجلح اى متحسر او متفى •

ويجيء الصديق الشاعر ويجلس الى المعتمد ويتذاكران ويتناشـــدان حتى لتكاد النفوس أن تصفو ويشرق الصباح فيقول المعتمد لابن عمار :

ـــ اياك .. اياك ابن عمار أن تقول لأحد عن جلستنا تلك .. اياك ابن عمار والا ...

ولا يكمل فقد كان ابن عمار يعرف تمـــاما ما بعدها وينصرف المعتمد الى جناح نومه ويعاد ابن عمار الى السجن والفرحة تكاد تنفجر من فؤاده فلا يملك نفسه أن يمسك الورقة الثانية الباقية لديه ويكتب الى الراضي بن المعتمد يخبره أن أباه قد صفح .

وتصل الورقة الى الراضي وهو جالس بين صـــحاب فيهم من يبغض ابن عمار ويحقد عليه ولا يكتم الراضي ما جاء به الخطاب بل هو يذيعه .

ويصحو المعتمد فاذا سر الأمس هو حديث اليوم فيذهب الى ابن عمار فى سجنه :

ـــ أأذعت ما حذرتك أن تذيع .

ـــ بل لا و ..

ـــ وحقى

ـــ ... وحقك

ـــ اذن فأين الورقة الثانية

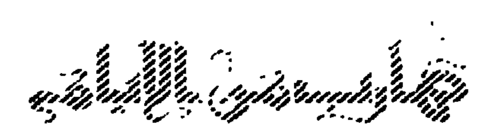
ـــ أى ورقة

ـــ لقد أرسلت اليك ورقتين كتبت فى احداهما القصيدة فأين الثانية ؟

ـ لقد .. لقد .. لقد سودت بها القصيدة .

ـ فهات التسويدة .

وتنغلق الطرق على ابن عمار .. فيبلغ الغيظ أقصـاه بالمعتمد فيمسك بقطعة من حديد ذات مقبض كان قد أعدها ويهوى بها على رأس ابن عمار ثم لا يزال يضرب ويضرب حتى يموت ابن عمار بيد المعتمد .. بيد صداقة خمسة وعشرين عاما بيد المجد الذى اقتعده .. بيد القمة التى ساورها ..



هارب من الأيام

الإهداء

إلى أبي إبراهيم دسوقي أباظة باشا

أبي

أحس يدي تقوى على أن ترفع هذا الكتاب إلى أعتابك. فعند أعتابك أضعه وحسبه من مكان.

ثروت

١

في فرحة غامرة واستبشار بيوم جديد ، وفي تكاسل رخى وبطء هادىء ، تحرك الشيخ زيدان أبو راجح عمدة قرية السلام ، ونزل عن سريره لينادى الخادمة :

ـــ يا فاطمة ٠

وسرعان ما رجع النداء بصوت الخادمة :

ـــ نعم يا سيدى ٠

وصاح الشيخ فى تظاهر بالغضب يصحبه هدوء مستريح :

ـــ يا بنت هاتى ماء الوضوء ، الفجر سيفوتنى !

وفى هذه المرة رجع النداء بالخادمة نفسها تحمل ابريقا وطستا ، وأخذ العمدة يتوضأ والخادمة تصب الماء ، ولكن العمدة لم يطق أن يتوضأ فقط ، وانما هو ـــ على عادته ـــ يسأل الخادمة عن أفراد البيت فردا فردا ، فتختلط ألفاظ الوضوء بألفاظ الأسئلة :

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم ، نويت فرض الوضـــوء ٠٠ أين ستك ؟

فتجيب الخادمة وهى تصب الماء :

ــ نزلت عند الفرن •

ــ اللهم اجعلنى أمسك كتابى بيمينى •• وأين ستك درية ؟

ــ تعد لك الفطور •

ــ اللهم ولا تجعلنى من أهل اليسار ، وماذا عندكم اليوم فى الفطور ؟

ــ عندنا يا سيدى ما يرضيك ان شاء الله . عندنا فول وقشدة وعسل • الخير كثير والحمد لله •

ــ اللهم ثبت قدمى اليمنى على الصراط المستقيم ، الحمد لله ، هذا شىء عظيم • أسأل عنى أحد اليوم ؟

ــ لا •

ــ ألم يحضر صالح أبو سعد الله فراخا ؟

ــ يا سيدى اننا ما زلنا فى الفجر •

فيجيب العمدة فى شبه غيظ :

ولكنه مدين يا فاطمة •• الدين يا بنتى •• أينسى أحد دينه ؟

وتسأله فاطمة ذاهلة :

ــ وهل اقترض صالح منك يا سيدى ؟

فيجيب العمدة وهو ينزل أكمام جلبابه بعد أن أتم وضوءه :

ــ نعم •

وتسأل فاطمةوهى لا تزال فى ذهولها :

ــ هل اقترض منك فراخا يا سيدى ؟

ويطلق العمدة ضحكة صغيرة ساخرة من غفلة خادمته ، ثم يقول وهو يثبت قلنسوته على رأسه ٠

ـ يا مغفلة أرأيت أحـدا يفترض فراخا من العمـدة ؟

ـ أنا الأخرى أتعجب يا سيدى !!

ـ لقد حكمت له فى قضـية أمس فأقسم أن يحضر لى فراخا اليوم .. اليوم فجرا ، وها هو ذا الفجر يولى وهو لم يجىء . كم أنت ثرثارة يا فاطمة ! الفجر سيفوتنى . الله أكبر .. الله أكبر .. أصلى الصبح ركعتين فرضا حاضرا لله العلى العظيم .. الله أكبر .

وتركت فاطمة العمدة يقيم الصلاة ، وخرجت هى لتجد البيت وكأنما هو آلة زر ادارتها هو نداء العمدة « يا فاطمة » . فالسيدة الكبيرة تعد الفرن للعيش ، والسيدة الصغيرة تعد الفطور للأب ، وان كلا من السيدتين لفرحة غاية الفرح بهذا العمل الذى تقوم به ، وان كلا منهما لتصرخ بأعلى صوت لها ، فكلما ارتفع الصوت كان العمل الذى تقوم به ضخما يحتاج الى مجهود كبير ، وعمل كثير ، وصوت جهير ، وسعى حثيث ، وكر وفر .

والعمدة فرح بهذه الأصوات التى تنبعث الى حجرته ، فكلمـا ارتفع الضجيج ازدادت أهمية العمدة فى بيته .. والا فمن أجل من تقوم هذه القيامة ؟ ومن أجل من يعد العيش والفطور ، ويعلو الصراخ ويحث السعى ويكر ويفر أليس كل هذا من أجله هو ؟ رجل البيت وعمدة البلد على رغم كل سن ورمح يمكن أن يتعرض له . وينتهى العمدة من صلاته ، ويرتفع صوته فى شبه غضب ولكن فى هدوء تماما كما كان ينادى فاطمة ، ولكن ـ دون أن يحس ـ خالجت الصوت نبرة من حنان وحب لا يطيق الأب كتمانهما حين ينادى ابنته :

ـ يا درية .

وتجيب الابنة فى فرح ولكن فى تظاهر بالعمل :

ـ حالا يا أبى .

وما هي الا لحظات حتى تدخل درية حاملة طعام أبيها ، ويستقبلها الأب في عطف بالغ ..

ـ ما هذا الجمال يا بنت ؟ من أين تزيدينه كل يوم ؟

وتجيب درية في خجل فرحان :

ـ طبعا يا أبي .. ان لم تشهد لي أنت فمن يشهد ؟

ولم يكن العمدة كاذبا في هده المرة ، فقد كانت درية جميلة حقيقة ، فهي بيضاء صافية اللون ، الا من حمرة وردية تخالط بياضها بمقدار ما يجعل جمالها حيا متوثبا ، وهي ذات شعر ذهبي مسرح في تموجات ثائرة معربدة ، وانها لتشجع هذه العربدة من شعرها فهي لا تكبح جماحه بمنديل أو شريط ، وانما تتركه على هواه فيلتوي حيث يطيب له أن يلتوي ويسيل حين يطيب له أن يسيل ، وهو على الحالين جميل رائع الجمال ، وان لها جبهة طاب للشعر أن يأخذ مكانا كبيرا منها فأخذ دون رادع ، ولم يترك الا ومضة ضيقة يتبعها حاجبان مرسومان في دقة رائعة ، يعلوان عينين خضراوين ينبعث منهما نور فيه ذكاء لماح وجمال آسر ، يعقبهما فم ما هو بالصغير ولا هو بالكبير ، وانما هو شفتان فيهما غلظة رقيقة ، تزيدهما جمالا تلك النثلة التي تصل الشفة العليا بالأنف الصغير ذي الأرنبة المتوثبة . والوجه في مجمله يكاد يستدير لولا ذلك الذقن الصغير الذي أبى الا أن ينفر نفورا منعه الجمال أن يشتط ، تتوسط خدها الأيمن تلك النونة الصغيرة التي تزداد وضوحا عندما تضحك درية ، وكم كانت تضحك درية . كل هذا الجمال يعلو رقبة تلعاء تفضي الى صدر ينهد الى باكر الشباب ، حيران بين الظهور الواضح والاستخفاء الخجلان ، ودرية فارعة الطول هيفاء غيداء ، متوثبة الى الفرح سريعة الى الضحك ، تستعجل الأيام والأشخاص والأشياء ، لا تطيق أن ترى الايام تمضي مكتملة جميعا . تتمنى لو أن النهار أومض ثم أعقبه آخر . ثم هي تكلم الناس جميعا

فلا يشعرون أنها مغرورة بجمالها هذا ، وانما هى تغمرهم بفيض من حنان فيحسون وكأن درية يهمها من أمرهم ما يهم أصدقاءهم الأقربين ..
لم تكن درية تستثنى من عطفها هذا شخصا أو شيئا ، نعم فان من الناس أشياء ، وهل كان كمال الا شيئا ؟ حتى هذا الشىء كانت درية تبذل له من كريم عطفها ما جعله يحس أن له وجودا ولا وجود له ، أو أن له كيانا ولا كيان له .. لقد كان العمدة محقا اذن حين فرح بابنته عندما قدمت اليه بالفطور فى باكر الصباح ، وكان محقا فى تدليلها ، فانه هو لا شأن له بتربيتها فما كان يفهم فى أصول التربية الا أن يقول ما يراه ، وهو يرى ابنته جميلة غاية الجمال ، ويرى الناس من حوله وحولها يحبونها . ولا يهم العمدة ان كان حب الناس لدرية مبعثه أنه عمدة أو أنها تستحق هذا الحب ، انما كل شأنه أنهم يحبونها . ولو أن درية تركت لتدليل أبيها لكانت الطامة الكبرى ، ولفقدت هذا الحب الذى يحبوها به الناس ... لم يكن تدليل أبيها وحده هو قوام أخلاقها ، وانما كانت أمها من ورائها تشتد حين ترى لين الأب مائعا ، وتقسو حين ترى البنية تنحرف عما تريده لها الأم .

أفطر العمدة فى يومه هذا ، ، وهم بأن يغير ثياب نومه ليخرج الى الناس ، حين سمع صوتا يعلو بجانب شباكه . ولم يسأل من ذاك فقد عرف الصوت وصاحبه .. كان ذاك هو كمال أبو منصور ذلك الشىء الذى ينطلق مع الفجر يلتمس رزقه بالدعاء للناس ، وما هو بالشيخ العجوز الذى يقعده الكبر ، ولا بالمريض المقعد الذى تحتجزه العلة ، ولا هو بالعاطل المتبطل الذى يفقره العجز ، وانما هو شاب فى ريعان الفتوة مكتمل الجسم موفور الصحة . وما له لا يكون وهو على كل مائدة واجد زاده !! وهو ـ بعد ـ صاحب صنعة تجمع بين نقيضين ، فهو رجل الأحزان والسعادة ، وهو نجم المآتم والفرح ، وهو الناعق عند الفراق الذى لا لقاء بعده فى الدنيا ، وهو البشير بلقاء يرجى فيه الاتصال .. انه عمود الوفيات فى قريته ، فما لاقى انسان ربه الا كان

كمال هو ناقل نبأ هذا اللقاء الى أهل القرية ، حتى يبادروا الى القيام بواجب العزاء ورد الجميل السابق ، ومساندة أهل الذاهب ، الحزين منهم والمتظاهر بالحزن •

وما لاقى انسان زوجته الا كان كمال أبو منصور هو الزغرودة•• زغرودة الرجاء التى تنطلق مبشرة باللقاء ، على حب كان هذا اللقاء أو على طمع فى مال أو جاه ، أو كان على ظروف اقتضت فتحكمت فكان الزواج •• لا شأن لكمال بشىء من هذا . وانما كل شأنه أن يعلم بالوفاة أو الزواج فيهب الى طبلته يعلقها الى رقبته ويمسك بعصاه الخيزران الغليظة بعض الشىء ، ويطوف بالقرية • ولن يسمع أهل القرية نغمة حزينة أو فرحة ، وانما هى دقات تصاب بها الطبلة فتطلق لها صوتا ضخما يصيب بدوره آذان الآمنين من قرية السلام • نعم لقد كان كمال أبو منصور طبالا •• فهو اذن ليس متبطلا • ولكن قرية السلام قرية لا تزيد ، ولن تجد بالقرية ملاقيا لربه أو لعروسه فى كل يوم • وقد تتباعد الأيام بين كل لقاء ولقاء . ولكن مواقيت الغذاء لا تتباعد ، والبرد يأتى فى موعده المعلوم • وكمال يعتقد أن الكرامة كل الكرامة هى أن يحصل على قوت يومه ليس يعنيه أى سبيل يسلكه الى هذا القوت • فما البأس به لو أنه طاف بالأغنياء من قريته يطلب أن يعوضوه خيرا عما يفوته عليه عدم انتظام الوفاة أو الزواج ؟ ولا بأس عليه ما دام قد فكر فى الأغنياء أن يكون فى مقدمتهم عمدة القرية وعميدها ، لا بأس عليه نعم •• ولكن أكان عدم البأس وحده هو الذى ساق كمالا الى موقفه هذا ، أم أن هناك سببا آخر ؟ •• ويحك يا كمال ! ماذا تراه يكون السبب ؟ •• حذار أن تفكر •• حذار أن تهمس نفسك ولو الى نفسك •• ولكن لتقل الحق ، وما ضرك أن يقال وهو مجرد أحلام ؟ وهل تملك يا مسكين الا هذه الأحلام !؟ •• نعم ان كمالا ليقصد الى بيت العمدة لينال من بر العمدة ، وليفتتح يومه بنظرة كريمة طيبة متفضلة تلقيها اليه دربة مع ما تلقيه اليه من

طعام •• وهو لا يطمع فى غير تلك النظرة ، وانه ليعتدها كرما منها يتخاذل ازاءه كل كرم يلقاه من أى كريم ، وانه ليعتدها زاد الدنيا الذى به يعيش الى أن تتحقق له آمال وأحلام • وكم فكر فى هذه النظرة اذا ما خلا بسغارته ! وكم وقفت هذه النظرة حائلا دون أفكاره العاتية أن تنثال فى ذهنه ! ولكنه مع هذا لا يطيق الصبر عليها ••• لا بأس اذن بكمال أن يقف دون الشباك فى باكر الصباح داعيا الى الله :

ــ أن يطيل عمرك يا حضرة العمدة •• ويبقيك لنا •• يارب •

ويجيب العمدة فى فرح مبتسم ، سعيدا أنه مقصـــد يدعى له ويسعى اليه •

ــ خيبك الله يا ولد يا كمال •• يا بنى الفجر حاضر لا يزال •• ألا تنام يا ابن الملاعين ؟

ويجيب كمال فى تظاهر بالعبط والسذاجة السعيدة بهذه المداعبة :

ــ أطال الله عمرك يا حضرة العمدة ، ولا أرانا فيك سوءا أبدا •• والله صحوت وجئت اليك لأنى أستبشر بوجهك يا حضرة العمدة •

ــ تعنى أنك تريد أن تجد مأتما بعد أن تشوفنى ؟

ــ العفو يا حضرة العمدة ، انما وجهك كله أفراح •• اللهم أطل عمرك يا رب أنت وستى درية •• الأميرة المؤدبة ••

ويسارع بالاستدراك •

ــ وستى الحاجة •• يا رب •

ــ طيب •• طيب •• انتظر حتى تحضر لك فاطمة لتفطر •

ويجيب كمال بالدعاء مترسلا ، ويترك موقفه من الشباك ويذهب الى الباب الخلفى لينتظر ما سيجود به العمدة • وتمر به درية فيسارع منتهزا الفرصة السانحة ••

ــ صباح الخير يا ستى درية .

ــ صباح الخير يا كمال .. كيف حالك .. ألم تحضر لك فاطمة الفطور ؟

ــ ستحضره يا ستى .. لا تتعبى نفسك .. اللهم أطل عمرك يا رب .

وتنصرف عنه درية الى شئون المنزل ويظل هو حيث هو ، ان رأى عينا تطل عليه أمعن فى الدعاء للعمدة ولزوجته وابنته ، وان أمن كيد العيون صـمت وظل ينظر الى الخير الذى يرتع فيه العمدة ، فيرى الدجاج الكثير معه الوز والبط ، ويلقى بنظرة الى مرتع الماشية فيرى عددا وفيرا من الجاموس والبقر والثيران والحمير والخيل .. ويل للأيام ! أكل هذا الخير فى بيت واحد تنعم به أسرة واحدة .. ؟! أهذا عدل يا رب ؟ وياليته جمع ما جمع من الطريق الحلال ! بل هو النصب والسرقة والرشوة ... عدلك يا رب ... هذا العتل الغليظ يتمتع بكل هذه الخيرات وأنا لا أملك شيئا .. ما ذنبى ان كان أبى طبالا فكنت مثله ؟ وكان أبوه عمدة فهو مثله .. ! أأنا الذى خلقت أبى وجدى ومن سبقهم وقلت لهم كونوا طبالين فكانوا . ؟! أى ذنب جنيته ؟! آه لو تحقق حلمى .. ! اللهم حقق أملى يا رب .. شىء تافه ذلك الذى أرجو أن أحصل على ثمنه .. أو أجده .. أو حتى أجد فرصة لأسرقه ..

وتنقطع آمال كمال عندما تأتى فاطمة وفى يدها الطعام ، ويسارع كمال داعيا لها ممازحا :

ــ اللهم أطل عمرك يا فاطمة أنت وسيدى وستى ...

ــ يا أخى كل .. مالك كثير الكلام !!؟ أتظننا فارغين مثلك ؟! كل بسرعة .

ولا يمنع هذا الرد الجاف كمالا من أن يصل مزاحه :

ـــ اللهم لا تحرمني من يديك الكريمتين . تتزوجيني يا فاطمة ؟

وتغضب فاطمة من هــذا المزاح الثقيل ، وتثور أن ينطق كمال ـــ وان كان مازحا ـــ بمثل هذه الكلمة ، فما كانت لتظن أن يخطر بباله هذا الفكر . وان كان مازحا فهي تسارع مجيبة وقد دقت صدرها بيمناها وبدا الحنق على وجهها :

ـــ هل جننت يا ولد ؟! ألم يبق الا أنت يا طبال حتى تقول هذه الكلمة ؟! والله ان لم يبق في الدنيا كلها الا أنت لما قبلت أن أسمع منك هذه الكلمة .

ولا يعجب كمال من ردها هذا فقد كان يعلمه ، ولكنه يسارع ملاطفا في ضحكة ما زالت مازحة :

ـــ أعرف يا فاطمة .. لكنني كنت أمزح .

ـــ ولو .. لكل شيء حد .. ! أيصل بك المزاح الى هذا ؟

ـــ لا تغضبي يا ستي فاطمة ، أنا غلطان .

ـــ طيب ، كل وأسرع .

ـــ اللهم أطل عمرك يا فاطمة أنت ..

وتتركه فاطمة وتنصرف الى عملها ، ويفكر هو فيما كان بينه وبين فاطمة غير غاضب ، فهو قد تعود أن تصده الألسنة وتعود أن يحتملها . ولكنه يخاف أن يبلغ الغضب بفاطمة حدا تبلغ معه سيدها بما كان من أمره وأمرها ، ولكنه لا يلبث أن يصرف هذا الخاطر عن ذهنه فهي تعلم أنه كان يمزح ولن تذكر من الأمر شيئا ، ففاطمة عاقلة ، وهي تأبى أن يرتبط اسمه باسمها وان كان يمزح .

يخرج العمدة الى شرفة منزله فيستقبله شيخ الخفراء بالتحية والود ، ثم يسأله العمدة :

ـ هل أرسلت أحدا ليحرث الفدانين كما قلت لك أمس ؟

ويجيب شيخ الخفراء فى فرح :

ـ نعم يا حضرة العمدة .. لقد ذهب اليهما عبده أبو مسعود بعد صلاة الفجر مباشرة .

ـ وهل اتفقت معه على الأجر ؟

ـ خيرك سابق يا حضرة العمدة .

ـ لا .. أنا لا أقبل هذا أبدا .

ـ لا تقبل ماذا يا حضرة العمدة ؟

ـ أيريد أن يرشونى أبو مسعود ؟

ـ لا .. ومن قال هذا لا سمح الله .. ؟ انما هو يقدم خدمة خالصة لوجه الله .

ـ آه .. ان كان هذا فلا بأس .

ـ وسيزورك الليلة ان شاء الله .

ـ زيارة لوجه الله أيضا ؟

ـ طبعا .. طبعا يا حضرة العمدة ، لكن فقط ..

ـ ماذا ؟

ـ له مسألة بسيطة .

ـ ما هى ؟

ـ عبد الحميد جاره منع عنه المياه .

ــ ابن الكلب ! والله لأمنعنه هو أن يروى أرضه ، وأجعلن الماء يمر فى أرضه الى عبده أبو مسعود .. ألم يأت صالح حتى الآن ؟

ــ لقد رأيته راكبا حماره فى الفجر ، يمر بالبيوت ليشترى الفراخ التى طلبتها منه سعادتك .

ــ أنا ! .. أطلب ؟ أتعقل هذا يا عبد الجليل .. ؟ أليس هو الذى قال انه سيحضر لى فراخا اليوم ؟! وحين أقسمت أن يأخذ ثمنها أقسم هو بالطلاق أنه سيحضرها هدية فى مقابل تعبى فى قضيته التى كانت بينه وبين امرأته ؟ سبحان الله يا أخى .. أأرفض الهدية وأطلق المرأة من زوجها ؟ ألم تكن شاهدا ؟

ــ نعم يا حضرة العمدة ولكنى نسيت . ولكنك يا حضرة العمدة

ــ باسم الله ما شاء الله ــ تتذكر كل شىء .. هذا ما كان والله !

ــ وأنت ماذا تنتظر ؟ ألم تذهب لتراقب الأولاد وهم يجمعون القطن ؟

ــ لقد جئت يا حضرة العمدة من أجل هذا .

ــ من أجل ماذا ؟

ــ أريد أن أجمع القيراطين اليوم ، وأريد أن تمنحنى اجازة .

ــ ماذا جرى يا عبد الجليل ؟ أتطلب الاجازة اليوم ؟ وتريدها اليوم ؟ لماذا لم تقل بالأمس حتى أرسل غيرك ؟

ــ والله يا حضرة العمدة نسيت .

ــ دائما تنسى .. ولكن لماذا تجمع القطن اليوم .. ؟ لمـــاذا لا تنتظر الى الغد ؟

ــ لقد ذهب الأولاد فعلا الى الأرض .

ـ اجعلهم يذهبوا الى أرضى اليوم ، وغدا اجمع قطنك .

ـ أمرك يا حضرة العمدة .

ـ وما أجر الولد عندك ؟

ـ مثلما تعطيهم يا حضرة العمدة .

ـ عظيم .. لقد خفت أن ترفع أجورهم فيتركونى اليك .

ـ وماذا يفعلون عندى .. ؟ سعادتك عندك الأرض واسعة ، أما أنا فثلاثة أفدنة .. أيتركون الدائم للعاجل .. ؟ أهم مجانين ؟

ويضحك العمدة ملء شدقيه بهـذه المقارنة التى جعلته يزداد احساسا بمكانته ، ويأمر شيخ الخفراء بالانصراف ليشرف على جنى القطن ونقل الأولاد من غيط الى غيط ، ويكاد شيخ الخفراء يفعل لولا خفير التليفون الذى يأتى مهرولا مقبلا من حجرة التليفون التى كانت أمام الشرفة .. ويصيح الخفير :

ـ انتظر يا شيخ الخفراء .

ويسأل العمدة فى قلق :

ـ ماذا جرى لك يا ولد يا عبد الهادى ؟

ـ المأمور يا حضرة العمدة .

ـ ماله يا ولد ؟

ـ يجىء الآن .

ـ الآن يا ولد ؟!

ـ الآن يا سيدى .

فيلتفت العمدة الى شيخ الخفراء فى اهتمام :

ـ عبد الجليل .. أين الخفراء ؟

ــ فى الغيط •

ــ اجمعهم وأسرع •

ــ أمرك يا حضرة العمــدة •• ولكن ألا تعرف لماذا ســيأتى المأمور ؟ •

ــ علمى علمك يا عبد الجــليل •• اذهب أنت الآن وأحضر الخفراء •

ولكن عبد الهادى خفير التليفون لا يجعله يذهب ، فكأنما أقسم فى صباحه هذا أن يثير الرعب والقلق فى نفس العمدة •

ــ بل انتظر يا عمى يا عبد الجليل •

فيقول العمدة فى ثورة مكبوتة :

ــ ماذا تريد أيضا يا عبد الهادى ؟

ــ سعادة البك المأمور يريد مشايخ البلد •

ــ أيضا ؟

ــ أيضا •

ــ ومن أين آتى بهؤلاء •• ما هذا النهار الأسود ؟

ولكن شيخ الخفراء يسارع الى نجدة عمدته •

ــ وما يهمك يا حضرة العمدة • ؟ سنخبر الذى نجده ، ومن لا نجده نخبر المأمور أنه ذهب الى البندر لأنه لم يكن يعلم بمجيئه •

ــ وهو كذلك •• اذهب اذن فادع من تجده ، ومر الخفراء أن يلبسوا ملابسهم الرسمية ويقفوا على طول الطريق من عند المفارق حتى البلد ليؤدوا التحية •

ويذهب شيخ الخفراء ، وينتقل العمدة الى منزله فى حيرة واهتمام بالغين مناديا زوجته :

ـ يا صفية .. يا صفية .

وتجيب زوجته من أقصى المنزل :

ـ نعم .. نعم .

فيسارع اليها العمدة حيث هى ويصرخ فى وجهها :

ـ المأمور يا صفية ، المأمور !

ـ ماله المأمور ؟

ـ وصلت الينا اشارة تليفونية الآن أنه ..

ـ مات ؟

ـ لا .. سيجىء .

ـ أكل هذا لأن المأمور سيجىء ؟ .. أهذه أول مرة يزورك فيها المأمور ؟ .. انك منذ عشرين سنة عمدة ، وفى كل يوم يأتيك مأمور .

ـ نعم ، ولكن هذا مأمور جديد ، ويقولون عنه انه شديد جدا .

ـ انهم فى كل مرة يقولون ان المأمور الجديد شديد ، ثم يأتى . وما ان تصل اليه الفراخ والسمن والديوك حتى يصبح لينا لطيفا كالخراف التى تذهب اليه تماما .

ـ هذا صحيح ، ولكن لا بد لنا من جس النبض أولا .

ـ اذهب واطمئن ، وكل شىء سيكون على ما يرام .

ـ الفطور يا صفية .. هذه أول مرة يزورنا فيها المأمور الجديد .

ــ ألم أقل لك اطمئن .

ويذهب العمدة مهرولا ليرى كيف دبر شيخ الخفراء الأمر ، ولكن الوقت لم يتسع بعد لأن يصل شيخ الخفراء الى أول خفير ، ولا بد من الانتظار .. انتظارا قلقا مليئا بالأفكار السوداء .. أى داهية ستحط على دماغه اذا جاء المأمور ولم يجد ممن طلب أحدا .. لا شك أنه سيقفه عن العمودية ، ومن يدرى من أى حزب هذا المأمور ؟ لعله من الحزب المناوىء ؟! ولكن ما يهم ؟ ان جميع المآمير ينتمون الى الحزب الحاكم ، والحزب الحاكم هو حزب العمدة والحمد لله .. لعله اذن شريف . يا للخراب لو كان شريفا ! . اذن فهو لن يقبل أن يتناول الفطور ، واذن لن يقبل الهدايا التى سيقدمها له . ولكن كيف يكون مأمورا شريفا ؟! انه مأمور .. ثم هم يقولون انه مأمور قديم .. أى أنه ظل مأمورا مدة طويلة من الزمان وهل يعقل أن يظل مأمورا مدة طويلة من الزمان ويظل شريفا .. ؟ لو أنه كذلك لكان قد فصل منذ زمن بعيد !! أو كان على الأقل قد نقل الى وظيفة أخرى .. ! ولكن هب يا حضرة العمدة أنه صغير فى السن ، وأن تلك الأنباء التى وصلت اليك كاذبة ، وأنه ما زال طائشا مجنونا يعتقد فى الشرف ويتمسك بأهداب الفضيلة .. اذن فهو متعجرف ولن يمكن لك يا حضرة العمدة أن تتفاهم معه ، واذن فهو سيقفك ، بل لعله يفعل ما هو أدهى .. لعله يفصله عن العمل . يا للخراب النازل !! .. يفصله من العمودية .. تلك الوظيفة التى ظل فيها عشرين عاما .. وأى مصير سيصير اليه ؟ وكيف تتزوج درية اذن ؟ ومن ذلك الذى سيتزوج ابنة عمدة مفصول ؟ .. نعم ان عنده خمسين فدانا ، ولكن ما خمسون فدانا بالنسبة للعريس الذى يرجوه لدرية ؟ .. انه يريد شابا من كبار الأثرياء ، ابن أحد الباشوات ، فان تواضع فابن أحد البكوات . وما الذى يدعو مثل هذا الشاب الى الزواج من ابنة عمدة مفصول . لا يملك من حطام الدنيا الا خمسين فدانا لن تزيد ؟ ومن أين لها أن

تزيد وقد فصل صاحبها من العمودية ؟! ويل لدرية من الأيام اذن لو كان المأمور شريفا !!

بل ويل لى أنا حضرة العمدة اذا كان المأمور شريفا .. ماذا أفعل ؟ .. أينقل هذا التليفون الذى ظل ببابى عشرين عاما ؟ .. ألا يدعونى أحد اذن ياحضرة العمدة ؟ .. ومن ذلك الذى سيعين عمدة بدلا منى ؟ .. لعلهم ينتخبون ذلك الرجل الخرف عبد الرحمن السلامى . ذلك القزم القمىء .. ذلك الرجل النحيل ، الفقير .. نعم فقير .. انه لا يملك غير عشرين فدانا ، ولكنه أغنى فرد فى البلدة بعدى .. ويل لى اذن .. لكن مالك قد يئست الى هذا المصير الأسود؟ انك بعد لم تر المأمور .. آه ان المصيبة هنا .. اننى لم أر المأمور حتى الآن .. أكان لا بد أن أكون مريضا حين دعا المأمور العمدة للاجتماع به ؟ أما كنت أستطيع الذهاب ؟ .. وكيف ؟! أكنت أريد المأمور أن يرانى متوكئا على عصاى ، ضعيفا لا قوة بى ولا هيبة ؟ ماذا كان سيظن حينئذ ؟ لقد كان جديرا اذن أن يظننى ضعيفا غير حازم ، لا أستطيع معالجة الأمور الجلائل التى تتعرض لها العمودية . كان لا يمكن الذهاب ولكننى أرسلت تلغرافا .. أجل .. اننى بهذا التلغراف أعلنت الى المأمور الجديد أننى رجل أحترم اجتماع العمد ، كما أننى غنى لأنى أرسل تلغرافا لا خطابا مع خفير . كما أننى كريم لأننى لم أبخل بثمن التلغراف المطول الذى أرسلته اليه .. أجل لقد كانت فكرة طيبة فكرة التلغراف هذه ، وكان أسلوبه أيضا عظيما .. هذا الولد ابن الشيخ حسن يكتب كتابة عظيمة .. ولد طيب فخرى ابن الشيخ حسن هذا . لقد اهتم بالتلغراف اهتماما بالغا .. أكانت فكرته .. أم كانت فكرتى ؟ لا انها فكرتى .. نعم هو فكر أولا ولكننى نفذتها . أجل ، ألست أنا من أرسل التلغراف .. ؟ ألست أنا من دفع أجره ؟ ولكن لا ، انه هو الذى دفع الأجر . !! نعم وهو الذى كتبه . ولكن .. ولكن ألست أنا على أى حال من وقعه ؟! ولكن التوقيع لا يصل مع

التلغراف . !! نعم ولكنه كان باسمى .. النهاية كانت فكرة عظيمة أقول فى التلغراف .. أعنى أن فخرى يقول باسمى : لمرض فاجأنى واضطرنى ألا أنال شرف ..

وحينئذ يسمع نفير سيارة قادمة من قريب .. أى نهار أسود هذا ! لقد وصل المأمور ولم يصل المشايخ .. ولا حتى الخفراء . وما هى الا لحظات حتى كان المأمور يترجل سيارته ذات الصندوق الضخم الرمادى اللون أمام بيت العمدة .. الحمد لله ان المأمور كبير السن .

ــ أهلا وسهلا سعادة البك المأمور .

ــ أهلا بك يا عمدة .

ــ شرفت يا سعادة البك .. نورت يا سعادة البك .

ــ شكرا يا عمدة .

يا عمدة .. من غير حضرة .. النهاية .. اللهم اجعله خيرا .

ــ لم تصلنا الاشارة الا الآن يا سعادة البك ، وقد أرسلنا فى طلب المشايخ .

ــ أنتظر اذن .

ــ أظن أن سعادة البك لم يتناول فطوره بعد .. الفطور جاهز يا سعادة البك .

ــ وما لزوم التعب يا حضرة العمدة ؟

لقد جاءت حضرة أخيرا .. يومنا لبن ان شاء الله .. يسارع العمدة بالاجابة :

ــ تعب يا سعادة البك ؟ .. تعب ؟ .. فطور سعادتك تعب ؟!

هذا شرف يا سعادة البك •• هذا تنازل يا سعادة البك •• يا ولد يا عبد الهادى •

ويأتى عبد الهادى مهرولا •

ـ نعم يا حضرة العمدة •

ـ الفطور يا ولد لسعادة المأمور •• أسرع •

ـ دقيقة واحدة يا حضرة العمدة •• دقيقة واحدة •

وينصرف عبد الهادى يتعجل الفطور ، ويجلس العمدة الى المأمور يبالغ فى التحية ويمعن فى التبجيل ، والمأمور يقبل فى عظمة متواضعة وفى خجل متكبر ، ثم هو يقول وكأنما تذكر شيئا قد نسيه :

ـ آه •• لقد كنت ناسيا •• لقد •

ويسارع العمدة :

ـ خير يا سعادة البك ؟

ـ لقد نسيت أن أقول لك : الحمد لله على سلامتك •

ـ سلمك الله وعافاك يا سعادة البك •

ـ مم كنت تشكو يا حضرة العمدة ؟

ـ الروماتيزم يا سعادة البك •

ـ آه ، هذا مرض ثقيل ؟

ـ أى والله يا سعادة البك •• وليس أثقل منه الا المأمور الذى كان قبل سعادتك •

ويظهر الغضب على وجه المأمور ، ويثور بالعمدة ثورة جامحة :

ـ ماذا تقول يا عمدة ؟ •• أهذا يليق ؟

اذن فقد طارت حضرة مرة أخرى •

ـ العفو يا سعادة البك ، أستغفر الله •

ـ أهذه هى الطريقة التى تتكلم بها عن رؤسائك ؟

ـ .. يا سعادة البك .. يا ..

ـ ألا تعرف أن المأمور الذى كان قبلى أخى الأكبر ؟

ويقول العمدة فى نفسه :

ـ أنا عارف انه نهار اسود .

ثم يسارع الى المأمور قائلا :

ـ من تقصد سعادتك ؟

ـ محمد علاء الدين .

ـ ولكن .. ولكن يا سعادة البك أنا أقصد .. أنا أقصد الذى كان قبله .. ذلك الرجل الغاضب دائما .. فرق كبير بينك وبينه يا سعادة البك . أما أخوك ـ حماه الله ـ لقد كان رجلا بمعنى الكلمة .. والله لقد حزنا لنقله حزنا عظيما .. الله شهيد .

ـ آه ، انت تقصد عبد السميع بك ؟

ـ آه ، هو هذا .

ـ أعرفه .. رجل ثقيل ..

وينشرح صدر العمدة ، ويحمد الله فى نفسه ، فقد أصبح اليوم لبنا مرة أخرى ، ويقول للمأمور :

ـ ثقيل ؟! .. ثقيل فقط ياسعادة البك .. أعوذ بالله .. سعادتك تعرفه اذن ؟

ـ أعرفه .. كان رئيسا على .. انت محق يا حضرة العمدة .

اذن فقد عادت حضرة .. أهلا بها .. ولكن مشكلة جديدة بسبيلها الى الظهور .. اللهم نجنا مما نخاف .. ألم يجد صالح الكلب وقتا للفراخ الا الآن .. طارت حضرة .. لا بل طارت الفراخ

يا أخي الفراخ في داهية ، المهم الآن هو العمودية .. مصيبة لو كان هذا المأمور شريفا .

ويقبل صالح في اعجاب شديد بنفسه أن أوفى بعهده وأحضر ما وعد به العمدة من فراخ سمان .. وما ان يبلغ صالح مجلس العمدة والمأمور حتى يتخفف من القفص الذي يحمله بأن يضعه في زهو أمام الجالسين ..

ــ الفراخ يا حضرة العمدة .

ــ أي فراخ يا ولد ؟

ــ الفراخ التي ..

ويقاطعه العمدة في سرعة خائفة ملتاعة :

ــ اذهب الآن يا صالح .. سعادة المأمور هنا ولن أشترى فراخا في وجوده .

وينقذ المأمور الموقف في كياسة مرنة وفي دربة واعية :

ــ والله فراخ عظيمة فعلا يا حضرة العمدة .

وكأنما كان العمدة في غمرة من بحر متلاطم ثم وجد نفسه فجأة على الشاطىء الأمين ، فهو يسارع قائلا لصالح :

ــ ضع هذه الفراخ في سيارة البك المأمور يا صالح .

ولكن المأمور يستر الموقف في غضبة واضحة الاصطناع ، يتقنها منذ تعود أن يقبل هذه الهدايا :

ــ لا .. لا يا حضرة العمدة .. والله لا يمكن .

ــ زوجتي طالق ان لم تقبل هذه الهدية .

ــ يا رجل اتق الله .. حرام يا رجل .. الأمر لله .. الأمر لله .

وبين هذه الايمان المتبادلة كانت الفراخ قد أخذت مكانها المستقر في السيارة ، وكان الفطور قد أعد ، وكانت نفس العمـــدة قد هدأت بعد اضطراب ، فقد رضى الله عنه وأرسل اليه مأمورا طيبا مثـــل كل مأمور عرفه قبل اليوم ، والحمد لله من قبل ومن بعد .

دخل العمدة وراء المأمور الى المنزل ، ونبت من مكان خفى ذلك الشيء كثير الدعاء كثير الحقد « كمال » ، بعد أن رأى المسرحية منـــذ بدئها حتى أنزل عليها الستار فى حجرة الطعام .. وســـار كمـــال فى طريقه وهو يردد :

ـ يا رب أهو كثير ما أطلب ؟ . مجرد مسدس يا رب أو ثمنه .. من أى مكان .. مسدس يا رب .

٢

للكتاب فى القرية أثر بعيد ، فمن بين جدرانه المتهالكة ومن تحت فلقة الشيخ العنيفة ، يخرج الى الحياة صبيان تعلموا الجهل فأحسنوا تعلمه . فكل ما يعرفون من الثقافة قراءة عاجزة ، وكتابة أكثر عجزا ، وهم وان كانوا قد أخذوا على الشيخ القرآن فحفظوه الا أنهم أبدا لم يفهموه ، وما كان لهم أن يفقهوا منه شيئا والشيخ نفسه أكثر جهلا به منهم . ويخرج هؤلاء الصبيان الى الحياة وينظرون حواليهم فيجدون أنفسهم أكثر ذويهم علما وأكثرهم معرفة ، فيدخل الى نفوسهم الغرور، ولا يزال بهذه النفوس حتى يملأها لا يترك فيها مكانا لتواضع ، أو منفذا لبعض حياء . وللغرور فى هذه النفوس أشكال وأوضاع . فمن كان منهم ذا يسار ونعمة يرتكن الى أب ذى مكان بعض ملحوظ ، فغرره اذن متفجر واضح لا يبقى ولا يذر ، فهو هو الأستاذ الغنى والعالم القدير .

ومن كان منهم غير ذى يسار ، ولكنه ذو أصل دارس وغنى تشتت فأصبح فقرا فبيته دوار وان كان خاليا ، وأبوه محترم وان كان

فقيرا ، وأمه لا تخرج بالجرة وانما ترسل أخته .. ان كان الفتى كذلك فغروره اذن صمت ، واستعلاؤه بعد عن سائر الفتيان .

وأما من تخرج فى الكتاب فلم يجد وراءه أصلا ، ولم يجد أمامه مالا ، فكبره اذن خبيث ، يؤديه اللفظ اللين الناعم يغلف به السم الناقع المتراكم فى نفسه ، وكبره أيضا حقد مستعر وكره للعالم كله متمثلا فى قريته ، يخص منها ذوى اليسار وذوى الأصل ، وذوى المكان وذوى الثقافة .

ولا ينكسر الغرور فى واحد من هؤلاء الا اذا تقدمت به السن أو أتاحت له الحياة أن يكمل تعليمه ، فانه حينئذ يدرك مقدار ما كان يجهل ، ويرى من حوله القوم متساوين معه ان لم يكونوا أحسن منه حالا ، فيصاب غروره برعدة ، ثم لا يلبث أن ينقشع عنه .

وقد كان كمال من هذا الصنف الأخير من المتكبرين . وقد رأينا بعض كبره عند العمدة ، فما كان تزلفه الحقير الا كبرا ، فهو يعتقد أنه بألفاظه تلك قد طوى العمدة وضحك منه ، وأنه ببعض ألفاظ لا تكلفه شيئا — فما كانت الكرامة عنده شيئا — قد بلغ من مال العمدة ما قدر لنفسه أن يبلغ فى يومه هذا .

سار كمال فرحا بنفسه وبذكائه ، متحسرا فى الوقت نفسه على هذا الذكاء الذى أبت الدنيا الا أن تعطله ولا تتيح له مجالا يسعى فيه ، حاقدا على هذه الدنيا البخيلة ، أشد حقده على ذلك العمدة الذى يهدى الفراخ السمان ليضمن لنفسه البقاء فى منصبه .

ولم يطل بكمال المسير فسرعان ما التقى بفئة من القرية لا تحس به ، الا أنه هو يعتقد أنها تبغضه وتحقد عليه لأنها تخافه وتخشاه ، تلك هى فئة التلاميذ أولاد المدارس .

لقد كان كمال يعتقد أن هذه الفئة تحس بمبلغ علمه وتعرف أنه

يزاحمها فيما تعلموه في المدارس ، وأنه بذكائه وحده غني عن تلك الكتب التي يحبسون فيها عقولهم ، وهم ينفسون عليه هذا الذكاء المتوقد الذي لم يمنعه من الظهور الا زمن غادر ،وفقر مرير .

وهكذا شاء كمال أن يسخر من تلك الفئة المتعالمة ، فما ان رآها حتى قصد اليها في استرخاء ساخر ، وعلى فمه ابتسامة تعلم أن يضعها على فمه منذ رأى شيخ الكتاب يستعملها ان أراد سخرية ، وفي لسانه لفظ تعلم أن يديره منذ اتخذ الاستجداء وسيلة الى الحياة .

ــ أطال الله عمركم ، وأخذ بيدكم وجعل النجاح نصيبكم .

وشاء أحد التلاميذ أن يتبسط مع كمال :

ــ شكرا يا أبا كمال شكرا .

ولكن تلميذا آخر يسرع بالاجابة :

ــ ولكن شكرا هذه لا تنفع يا أبا كمال ، والذي ينفع ليس معنا

ويدرك كمال ما يقصد اليه التلميذ فهو يقول :

ــ فهل أنتم مفلسون ؟

ــ يا رب كما خلقتنا .

ــ فاشرحوا لي آية من القرآن فأكون قد أفدت منكم علما ما دمت لم أفد مالا .

ــ الله .. أبا كمال .. وهل نحن فارغون لمسامرتك ؟

ــ أنا لا أراكم تعلمون شيئا ؟

ــ والله ان فراغنا أحب الينا من أن نشغله بك .

ــ خذ يا أبا كمال قرشا وتوكل على الله .. مع السلامة .

ويأخذ أبو كمال القرش وقد ازداد ايمانا أن فئة التلاميذ تخشاه وتبغضه ، ولكن لا بأس بها ما دامت تدفعه عنها بالمال مهما يكن قرشا .

ويمشى كمال ليكمل دورته اليومية ، فقد كان يأخذ نفسه بالعمل الكثير ويجرب ذكاءه يوميا على كل فئة من فئـات القرية ، وقد كان لابد له أن يدور طوال يومه حتى لا يبغته وقت الغداء خاليا بعيدا عن الناس • وكان لابد له أيضا أن يغشى الجامع ليقيم الصلاة فى موعدها مع المصلين ، فان عدم الصلاة فى القرية كبيرة من الكبائر التى لا تغتفر، وهو يحب أن يترضى عقـول القـوم وأن ينسرب الى قلوبهم من أى سبيل •• وقد كان كمال بعد هـذه الواجبات جميعا يخلو الى نفسـه منذ الأصيل الى الغروب فى مغارة فى الجبل لا يعرفها الا هو •

وقد وجد كمال أن ثمة فسحة من الوقت قبل أن تجب صـلاة الظهر ، فهو اذن يستطيع أن يعرض لقوم آخرين ، ان لم يصب منهم مالا فهو على الأقل يحتسبها عليهم مرة لم يعطوه فيها ، فيضطروا الى اعطائه فى المرة التالية •

وهكذا أخذ كمال يمر على الناس فيجد النفور والازدراء أغلب الأحيان ، أو يجد الاعطاء الشحيح بعض الحين ، أو لعله يجد ــ ولكن نادرا ما يجد ــ سماحة فى البذل،وكرما فى اللقاء • ومهما يكن اللقاء وعلى أى نوع له ، فان كمالا ينصرف ونظره الى السـماء داعيا الله • نعم • الله الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والبغى ويعظنا لعلنـا نتقى ، يجرؤ كمال أن يتجه الى هذا الرحاب ليسأله •• « مسدس » ، أداة القتل والعدوان ووسيلة المنكر والبغى •• ولكن من للشرير غير الله ؟ • سبحانه متجه القلوب جميعا •• حتى كمال •

كل أمله أن يجد هذا المسدس أو يجد ثمنه ، فان لم يتيسر فلتكن بندقية أو مقروطة ، والمقروطة بندقية جار عليها الزمن فقطعت مقدمتها فلا هى بندقية ولا هى مسدس ، ولكنها عند القتل تؤدى الغرض كما يؤديان • ثم هى تمتاز عن البندقية فى أنها تختفى فى الثياب فلا يراها أحد وعن المسدس فى أنها تحكم التصويب وتبلغ الهدف فى وثوق •

وصاحب المقروطة فخور بها أشد الفخر ، يدعي — لشعوره بنقصها — أنه قطعها خصيصا حتى يبتعد مرماها ، مخالفا فى ذلك كل ما يقول به هواة السلاح وخبراؤه • لا بأس بها أيضا لكمال ولكن •• أين هى ؟

وفى « أين هى ؟ » هذه مشى كمال يفكر ، ويمنى نفسه الأمنيات ويوسع للأحلام آفاقها ، ويمر بالفقير المعدم فينظر اليه نظرة الأخ فى الشقاء ، ويعزم فى نفسه اذا ما عثر على المقروطة وتحققت الآمال أن يجعل لهذا الفقير نصيبا من بعض ماله • ثم هو يرجع الى نفسه يسائلها ان كانت ستسمح يومذاك ؟ فاذا نفسه تجيبه فى سرعة متـوثبة أنهـا ستسمح ، فيعود اليها يسائلها : من أين لها هذا الخير الذى تصطنعه ؟ فلا تعجز نفسه عن الجـواب ، فما هو الخير الذى يدفعها الى البـذل انما هى الحاجة •• حاجة ؟ أأكون يومئذ فى حاجة ؟ • نعم حاجة الى الناس وليس الى المال •• الى الناس ! •• الى الـكثرة الـكاثرة من الناس ، فاذا سأل نفسه عن نفعها من الناس ، وماذا يفيد هو من هؤلاء الذين تريد نفسه أن يضمهم اليه ، ويبسط عليهم فضل عطفه وسـابغ رحمته ؟ • حينئذ تضحك منه نفسه الضحكة الصفراء التى عرفها لها منذ امتزجا فاتفقا ، ولا تسكت نفس كمال عن الجواب :

— ألا تعرف ماذا تريد من الناس أيهـا الغبى ؟ ألم تر منصـور الدفراوى كيف ينظر اليـه الناس نظرة احترام وتوقير وهو القـاتل السفاك ؟ ألا ترى أنهم يمتدحونه ويصفونه بالرجولة والكرم ؟ !

— وهبى ذلك صحيحا •• ما شأنى أنا بمنصـور أو مهزوم فيما نحن فيه ؟ !

— أيها الغبى ألا تعرف ان النـاس هم الذين يجعلون المجـرم محسنا ، والقاتل كريما ، وما ذاك الا لأنه يبذل لهم فنجان قهوة أو لفة جـوزة ، أو كرسى دخان ، فاذا ذكرهم واحـد منهم ان هـذا الذى

يمدحونه قاتل وان كان كريما ، سارع أكثر الجالسين ينهون ذلك المتحدث قائلين له : مالنا وماله اذا كان قاتلا أو غير قاتل ؟ المهم أنه كريم رحب اللقاء ، مفتوح البيت •• ألا ترى أن له بيتا والقرية جميعها تعرف عنه أنه قاتل ، ولكن واحدا منها لا يذكر عنه شيئا ؟ وكل من فى قريتنا هذه أو فيما جاورها اذا دعى للشهادة فى حادثة قتل ارتكبها منصور ذكر فى جرأة وثبات ان منصورا كان يتناول العشاء عنده ، وأنه سهر معهم ليلته حتى طلوع الفجر يسمعون القرآن ، ويتبادلون الحديث •

وحينئذ ينتهز كمال الفرصة ليضحك من نفسه ، فيطلقها ضحكة معربدة :

ـ أيتها النفس الغريرة أمنى تسخرين •• ؟ ألا تنظرين الى قولك هذا كم هو تافه لا يسنده منطق •• أظننت الشهادة التى يؤديها الشهود فى صالح منصور ، مبعثها حب هؤلاء الناس لمنصور ؟

ـ أعرف أيها المتذاكى العبيط • انه الخوف •

ـ نعم هو الخوف ، ولا شىء غير الخوف •

ـ أعرف ذلك وما هو عنى ببعيد ، ولكن منصورا يتيح لهؤلاء الشهود أن يتخذوا لخوفهم ستارا من الرجولة •• هو الخوف ما يرسلهم يشهدون فى صالح منصور ، ولكنهم يقنعون أنفسهم أنها الصداقة التى تربطهم بمنصور تحتم عليهم أن ينجوه عند الشدة ، ويساندوه عند الحاجة ، فهم يشهدون الزور ولكنهم يرضون الصداقة ، وهم تصطك أسنانهم خوفا منه ولكنهم يقولون: انها تصطك خوفا عليه •

ـ وما يهمنى أن يقنعوا أنفسهم أو لا يقنعوها ، ما داموا سيؤدون ما أريد لهم أن يؤدوه •

ـ هناك فرق أيها الساذج •• لو أرضيتهم • أو أرضيت غالبيتهم

أصبح لك من بينهم عيون على أنفسهم ، وأنت حينئذ تستطيع أن تتشدق في يسر ، انك تسرق ولكن المال مآله الى الفقراء وليس اليك.

ــ على أية حال أيتها النفس لا بأس عندى أن أذكر هؤلاء القوم حين يفتحها الكريم ولحصل على ..

وحينئذ وجد كمال نفسه وجها لوجه أمام الحاج ابراهيم الحسينى شيخ البلدة ، فما أسرع ما نفض كمال نفسه من حديث نفسه وفرغ الى الحاج بكله :

ــ صباح الخير يا عم الحاج ابراهيم .

ــ صباح الخير يا ولد يا كمال ..

ــ الى أين ان شاء الله ؟

ــ وما شأنك أنت ؟

ــ ان كان الطريق طويلا أقطعه معك بلسانى فأسليك وتتحدث حتى تصل .

ــ يا حول الله يا ابنى .. على كل حال قضا أخف من قضا . أنا ذاهب الى دكان الحاج على أسمع الراديو ، وكان الولد أحمد أبو خليل يريد أن يصحبنى الى هناك ولكنى هربت منه ، وها أنتذا تحل محله .. قضا أخف من قضا .

ــ لك حق يا حاج ابراهيم ، ربنا رحمك من ثقل أحمد .. ثقيل يا حاج ابراهيم ثقيل .

ــ ثقلا لا يوصف يا كمال يا ابنى .. والعجيبة انه يقول النكات ويضحك منها ، ويعتقد أن خفة ظله لم ترد على بنى آدم ، وأنا رجل كبير .. لم أعد أحتمل .. مرارتى يابنى لم تعد تحتمل .

ــ ألم يبح لك الفدان يا عم الحاج ؟

ـ أبدا .. مصمم على ألا يبيع هذا الفدان ، والفدان يا كمـال واقف فى وسط أرضى كالعقلة فى الزور .

ـ وكم عرضت عليه ؟

ـ ثمانمائة جنيه .

ـ وكم يطلب ؟

ـ ألفا .

ـ له حق .

ـ أما انك بارد يا ولد يا كمال . الفدان فى أرضى ان لم أشتره أنا فلن يشتريه أحد ، وأنا مع هذا لا أظلمه وانما أدفع له ثمانمائة جنيه بينما لا يساوى الفدان أكثر من سبعمائة ، فيستغل فرصة رغبتى فيه ويطلب ألفا .. ألفا مرة واحدة وتقول لى انت له حق . أما انك بارد مثله .

ـ يا عم الحاج انت لم تعرف قصدى .. أنا أقصد انه محق فى أن يسوق الدلال ما دمت تعرض وتساوم .

ـ وماذا أعمل ؟

ـ مر .. انت شيخ البلد .. انت والعمدة على درجة واحدة .. أرسل فيه بلاغا الى المركز ، وحين يجره العسكرى يترك أربعمائة بدلا من مائتين .

ـ أما انك شيطان يا ولد يا كمال .. أهذا معقول .. ؟ لا .. حد الله بينى وبين الفدان ..

وينقطع الحديث عند هذا الحد فقد وصل المتحادثان الى المقصد .

وقد كان دكان الحاج على أو الحاجعلى ـ كما ينادونه ـ منتدى

الصفوة المختارة من القرية ، يتحلقون فيه حول الراديو ويشـاركون ساسة العالم وساسة مصر فى تصريف الأمور ، وان تكن هذه المشاركة تقف عند منتداهم هذا الا أنها تريح أعصـابهم وتهدأ لها خواطرهم ، وتجعلهم يعتقدون أنهم أهل تصرف وقوام أمور .

بلغ الحاج ابراهيم وكمال المنتدى ، وكان الجالسون هم الحاج على الطحان ، والشـيخ رضـوان العكلى المعلم الالزامى ، وخطيب الجمعة : والشيخ عبد الودود مأذون البلدة الذى يملك فيهـا عشرة أفدنة كاملة فى طريقها دائما للزيادة . وقام الجالسون يحيون الحـاج ابراهيم ، ولكن الشيخ عبد الودود لم يقبل أن يسير الحاج ابراهيم فى صحبة كمال فهو يقول :

ــ والله طيب يا شيخ البلد .. ألم تجد غير كمال ليسايرك ؟

وغضب كمال لهذا التجريح من رجل لم يأخذ منـه فى حيـاته مليما ، ولا ينتظر أن يصيب منه فى حياته مليما .. غضب كمال وكان غضبه فى محله .. فهو لا يغضب من أحد الا اذا كان من غير المحسنين عليه ، وممن لا ينتظر أن يحسنوا اليه . وقد كان الشيخ عبد الودود من هؤلاء الذين لم تكن بينهم وبين كمال معاملة .. قال كمال :

ــ وماله كمال ياعم الشـيخ عبد الودود ؟! ان كنت لا ترحم اترك رحمة ربنا تنزل .

ــ ألا تعرف ماله كمال .. ؟ شخص ضائع بلا صنعة !

ــ سامحك الله يا شيخ عبد الودود .

ــ لا شأن لك بالله .

ــ ولماذا ؟

ــ لأن الله يحب العاملين ولا يحب المتسكعين الخاملين .

وكاد النقاش يحتدم ، وكاد يصل بالشيخ والفتى الى مالا تحمد

عواقبه ، فلم يجد الحاج ابراهيم بدا من أن يصرف كمالا فينصرف بعد أن يقول للحاج ابراهيم :

ــ والله لاجل خاطرك ياعم الحاج ابراهيم ، لاجل خاطرك فقط .

ينصرف كمال ؛ ويقبل الحاج ابراهيم على الجماعة فى اقبال على الحديث ، وعلى تصريف الأمور السياسية والاقتصادية .

يترك كمال هذا المجمع الكريم من قادة القرية وزعمائها ، معزيا نفسه أن له مجلسا آخر بين قوم آخرين يعرف لنفســه مكانا بينهم ؛ ومهما يكن هذ المكان قاصيا غير كريم الا أنه ــ على أية حال ــ مكان .

٣

فى أقصى القرية بيت قائم بذاته لا يحيط به سكن ، اختار صاحبه مكانه بعيدا عن الناس ، ولم يكن اختياره هذا عفوا أو ليفكر فى خالق الليل والنهار — كما يطيب له أن يقول — وانما اختاره خصيصا ليعصى فيه ومنه خالق الليل والنهار .. معصية لا يتوقف شرها على مرتكبها وانما هو يبيع المعصية لكل راغب فيها ، مدمن لها ، متكالب عليها .

يملك هذا البيت هلال النمرود ، وفى هذا البيت كان يتاجر فى المخدرات ، وفى هذا البيت تزوج النمرود من سلمى بعد أن أحبها ، وقد بنى لها هذا البيت من المكاسب التى سكبتها عليه تجارته .

وقد ظل النمرود يمارس تجارته فى بيته هذا بعد زواجه من سلمى وظلت أمواله تتكدس وتزيد ، ولكنه قابض يده فلا يخرج منها الا ما يبقى له ولزوجه الحياة . وكانت زوجته تحاول جهدها أن تفك يده المغلولة تلك ولكن هيهات ، فهو يحافظ على تلك الأموال حتى ينمى تجارته ، فقد كانت تجارته تلك حبيبة الى نفسه فقد أكسبته مالا وزوجة وبيتا ، بل أكسبته أيضا اسما ، فان اسم النمرود الذى أطلق عليه قد جاءه من تجارته ، ومن مهارته فى تصريف بضائعه .

لم تستطع سلمى أن تنجب لزوجها بنين أو بنات ، فكانت تجارته عنده هي البنين والبنات ، فلها وحدها يختزن المال ، ولها وحدها يسهر الليالى الطوال ويجوب المخاطر ويغشى الأهوال .

والزوجة قابعة فى بيتها فلا مال فى يدها ولا ولد لها ولا زوج بجانبها ، فسرعان ما زالت عن هلال لهفة الحب الأولى وأصبح لا يرى فيها الا امرأة عقيما لا عمل لها الا أن تفتح عليه أبواب الخراب .

وهكذا وجدت سلمى نفسها قد فقدت كل شيء ، ولم يبق لها الا تركة حواء .. امرأة .. امرأة عطشى الى الحياة .. مشوقة الى الولد .. مهجورة من الزوج .. متجردة عن الحياة .. والليل طويل والزوج بعيد والشباب فوار ، والذئاب كثير والبيت منفرد .. فخانت .

خانت سلمى زوجها .. ولم تجهد نفسها فى اختيار الرجل . الذى لا تتم الخيانة الا به ، فالبيت فى الليل مقصد زوار ، والزوار لهذا البيت لا يحتاجون الى اغراء فهم يشترون المخدرات ، وهى من تبيع لهم والحديث بينها وبين المشترى سائر لا شك الى الطريق . وقد كان المشترى يعرض وكانت البائعة تعرض عن كلامه، ولكنها حينما أرادت أن تخون أقبلت ، وأصبح المشترى يعلم — وهو يشترى — أنها تبذل له مع المخدر نفسها ، وأصبح وهو يشترى البضاعتين يدفع الثمن لكليهما جملة .. فتأخذ سلمى ثمن بضاعتها وتحفظ لزوجها ثمن بضاعته .

وظل الأمر كذلك حتى عرض لها ضمن المشترين شاب صغير . لم يقف الأمر بينهما عند البيع والشراء بل أخذ طريقه الى الاعجاب ، فأصبحت تمنحه بضاعتها بغير ثمن ، بل لقد منحته أيضا من بضاعة

زوجها دون أن تتقاضـــاه ثمنها ، وان كانت هى تعطى زوجها ماله كاملا .

وجدت سلمى فى هذا الشاب كل ما كانت تفقده ولا تجده . ووجد هو فيها كل ما كان يؤمل فيه ، فقد كان الفتى يحب أن تكون له زوجة فى المساء ان خلا المساء من العمل ، ولا يحب أن تكون له زوجة فى الصباح مهما يكن صباحه فارغا . الا أن سلمى كانت تريد لنفسها زوجا دائما لا يريم عنها فى صباح أو مساء ، فهى تطلب الى هذا الفتى أن يتزوجها فيقول :

ـ كيف ، وزوجك ؟
ـ وما شأنك ؟
ـ أيطلقك ؟
ـ وهل لا بد له أن يطلقنى حتى تتزوجنى أنت ؟
ـ اذن فما معنى طلبك هذا ؟ ألا أتزوجك أنا فى كل ليلة ؟
ـ معناه أن نعيش معا فى الصباح والليل .
ـ وأين يمكن أن نعيش معا ؟
ـ فى أى مكان .
ـ نهرب معا اذن !
ـ ولم لا ؟
ـ والله ...
ـ أنت متردد .

ـ لا أرى داعيا لهـــذا فنحن هنا مبســـوطون والحمد لله ، لا ينقصنا شىء .

ـ لا ينقصك انت .
ـ فما ينقصك أنت ؟
ـ رجل .

ـــ ألا يكفيك رجلان ؟

ـــ تقصد نفسك وزوجى ؟

ـــ ألسنا رجالا ؟

ـــ أما هو فلا وجود له على الاطلاق ، وأما أنت ..

ـــ نعم ، وأما أنا .. ؟

ـــ وأما أنت فلا تأتى الا مع الظلام ، ولا أراك الا فى نور المصباح الباهت .

ـــ وفيم تهمك رؤيتى فى نور الصباح ؟

ـــ أريد أن أملكك جميعا ، أريد كلك ، أريد أن أحس بالرجل الوحيد الذى أحببته ، أريد نفسى أن تطمئن الى هذا الركن الذى اخترته لحياتى ، أريدك .

ـــ وكيف نصل الى هذا الأمل وأنت زوجة لرجل آخر ؟

ـــ زوجة لوهم مضى وحلم تبدد ، لا أراه ـــ حين أراه ـــ الا وهو يعد نقوده ، ويسلم بضاعته ، أو يتسلمها .

ـــ ولكنك على ذمته !

ـــ وما يهمك ؟

ـــ أخاف أن يتعقبنى .

ـــ أتخاف أنت ولا أخاف أنا ؟

ـــ أنت تريديننى جميعا ، وأنا لا أريد منك الا ما أنال .

ـــ أيكفيك هذا منى ؟

ـــ وهل هناك أكثر من هذا ؟

ـــ نعم هناك .

ـــ ماذا ؟

ـــ أموال وفلوس ، نهرب معا ، ونتاجر معا .

ـــ وزوجك ؟

ـ ألا تزال خائفا ؟
ـ والله مسألة الفلوس هذه ..
ـ مالها ؟
ـ عظيمة .
ـ اذن .
ـ متى نهرب !

وهربت الزوجة مع بضاعتها جميعا من مخدرات وآدميين ، وعاد الزوج فوجد البيت خاليا . فخرج يسأل الناس عن زوجته فوجد بلاهة عن الاجابة وخوفا من الافصـــاح . وطالعه من وجوه الرجال اشفاق فيه كبر ، ومن وجوه النساء بسمة فيها اعتزاز وفيها ألم . ولكنه التقى بالاحتقار من الرجال والنســاء جميعا . ومن ضجيج البلاهة والخوف والاشفاق والكبر والعزة والاحتقار عرف النمرود الاجابة ، ولم يعد الى بيته ، بل لم يقم فى البلدة جميعا وانما تركها من فوره ، ولم يعد الا بعد ثلاثة أشهر وفى يده جريدة تتحدث عن امرأة قتيل لم تعرف شخصيتها ، وراح هو يؤكد أن هذه القتيل هى زوجته ، وأما القاتل فقد كان يترك لذكاء سامعه أن يستنتجه .

وهكذا ، جعلت هذه الأكذوبة من خزيه فخارا ، ومن خجله تبجحا ، ومن هربه عن القرية اقامة فيها مطمئنة ، يحيط به من كل مكان تملق راجف واحترام مذعور .

عاد النمرود الى بيته القائم فى أقصى القرية ، وجعل منه منتدى لأبناء الليل يجتمعون فيه على غابة تغيب بهم عن الوعى .

وكان العمدة على علم بهذا المنتدى ، ولكنه يغضى عنه عينـــا مشغولة بالأمور والمعاون والرشاوى الصادرة عنه أو الواردة اليه .

وكان منصور الدفراوى كبير مجرمى الناحية هو زعيم المنتدى، يتحلق حوله المعجبون والخـــائفون من ســـيرته ، والمتملقون الذين

يريدون أن يتقنوا فن النفاق ويمرنوا عليه • ولكن هؤلاء جميعا كانوا يلمون بالجلسة فلا يلبثون الا قليلا ثم ينفضـون عنها ، وتخلص الجلسة الى الأربعة الزعماء : منصور الدفراوى ، وهلال النمرود ، والزهار عبد السيد ، ونور الكحلة •

أما منصور فهو القاتل المحترف ، وأما هلال فهو الزوج الذى انصرفت عنه زوجته والذى ادعى أنه قتلها ، وأما الزهار ونور فنحن فى طريقنا الى الالتقاء بهما •

فالزهار فلاح قديم دخل القرعة العسكرية ، ولكنه ما لبث أن قضى فترة الخدمة العسكرية فى الحبوس ، فقد تعود منذ كان فلاحا أن يسرق المالك ما أمكنه الى ذلك سـبيل • أما اليوم وقد دخل العسكرية فانه لم يجد مالكا ليسرقه الا الحكومة والزملاء ، فسرق من كليهما وتعود الحبس • ولم يتعود من العسكرية الا اللمم ، فقد تعلم كيف يصيب الهدف ، وتعلم كيف يسير فى دقة وكيف يميل بالطاقية الصفراء وكيف يفتح الزر الأول من أزرار الجلباب ، وتعلم من العسكرية أنه لن يمسك بالفأس مرة أخرى • وتعلم من العسكرية العجز الكامل عن أى عمل يمكن أن يعهد به اليه اللهم الا الوقوف فى الطابور • ولما كان الزهار لا يجد طابورا خارج العسكرية ، ولما كان لا يجديه نفعا طاقيته المائلة أو زره المفتوح أو مشيته المنتظمة ، فانه لم يجد عملا آخر الأمر الا السرقة التى كانت عنده ــ قبل العسكرية وأثناءها ــ هواية ، فجعل منها احترافا وانضم الى جماعة المخدرات مساعدا للنمرود فى تجارته ، وعضوا فى منتداه ، ولكن تابعا وليس متبوعا ينفذ الأوامر ولا يصدرها •

وقد قامت بينه وبين سـعدية أم الخير قصة حب ، كان هو الطرف الوحيد فيها • فلم تكن الطاقية المنحـرفة ولا الزر المفتوح ولا المشية المنتظمة ولا اجادة التصويب ، لم يكن شىء من هذا ليغرى

سعدية به .. ولكنه أصر على حبها فلم تبال هى ولا أبوها اصراره ، وتزوجت من صالح أبى سعد الله .

وأما نور الكحلة فهو رجل حديث التخرج من سجن المديرية . ولقد سجن فى واحدة من جريمتين احداهما يرويها هو والأخرى ترويها ملفات القضية القابعة فى المحكمة ، والتى لا يطلع عليها الا المعنيون بالأمر . أما التى يرويها هو فهى أنه كان يحب فتاة تسكن فى جواره بالبندر ، وكانت البنت لعوبا تحب أن يعجب الناس بها ، وكان هو يرقبها ليل نهار . فحين عرف القوم أنها لا تسير الا وعينه رقيب عليها ، انفضوا عنها وتركوها خشية عيونه الرقيبة وجبروته وعنفه ، وخشية سطوته وسلطانه ، فقد كان ساعى الباشا المدير . حتى كان يوم وقعت فيه مشادة بينه وبين ولد تافه يعمل كاتب حسابات فى المديرية ، فاغتاظ منه الكاتب وأراد أن يفجعه فى أعز شىء لديه ، فتقدم للجارة يخطبها ، فلم يجد نور بدا من أن يطلق الرصاص على الكاتب ولكن الرصاصة أخطأته ، لأن السلاح كان قديما ، فحبس نور .. تلك هى رواية نور .

وأما الحقيقة فهى أن نورا كان يعمل ساعيا بمكتب المدير حقا ، ولكنه لم يحب فتاة ولم يطلق رصاصا ، وانما سرق حافظة المدير فى أول الشهر وعاش المدير شهرا يقترض . ولم يتمكن نور من اخفاء الحافظة بعد أن صرف النقود فقبض عليه وأودع السجن ، وشددت العقوبة لا لأن الحافظة حافظة المدير ولكن لأنه ساعى المدير ، وكان المفروض أن يكون أمينا على الحافظة لا سارقها .

وعاد نور الى القرية يعيش على ربع فدان وعشرة قراريط جمع ثمن أغلبها من نفحات القوم فى المديرية ، تلك التى كانت تعطى له عن كرم ، أو تلك التى كان يختلسها اختلاسا كلما غفلت عين صاحب مال عن ماله .

تلك هي الجماعة أكاد أكون قد ألممت بها جميعا لم أترك منها أحدا ، وان كنت قد تركت شيئا لم أذكره فما أظنني قد أسقطت جليلا ولا أغفلت أمرا ذا بال • وهل كانت تلك اليد الدائرة بالمخدر الا يدا تمتد عن كمية من الهمل تنظر اليها الجماعة أو لا تنظر ، فهي بقعة في الأرض لا تزيد • فأسرار الجماعة كلها تدار على مسمع من هذا الشيء يكادون لهوان شأنه لا يحسون أن معهم خامسا ، فجرائم القتل أو السرقة أو تجارة المخدرات جميعا تلقى ، ويخيل لأعضاء المنتدى أنها تلقى الى الأرض ، فما كانوا يحسون أن في وسطهم أذنا تسمع • ألم أقل لك انهم ما كانوا يحسون بصاحب الاذن جميعا فكيف بأذنه •

كان ذلك الشيء هو كمالا • وكان في جلسته تلك يقدم الى نفسه أمتع ما تتمتع به نفسه ، فلم يكن أحب اليه من تلك الجلسة يستمع فيها الى هؤلاء الجبابرة وهم يروون أفاعيلهم وكيف نجوا منها • ولم يكن كمال غبيا كل الغباء فقد كان باستطاعته أن يعرف الكذب من الصدق فيما يقولون ، ولكنه كان يطلق اعجابه الضخم بأعمالهم جميعا ما وقع منها وما لم يقع • وقد كان مديحه شيئا مفروضا في الجلسة ينتظره كل منهم ولا يجيب عليه ، وانما يستقبله في صمت فرحان ، ويمضي فيما كان يقول وكأن أحدا لم يمدح ، أو يقاطع ، أو يبذل أقصى غايات الجهد ليبلغ بنفاقه الى أروع الاتقان •

هذه هي الجماعة التي كان ينضم عليها بيت النمرود في كل مساء •

وكان قد مضى على الجماعة عدة أمسيات لم تشرف فيها بجلسة الدفراوي في صدرها • وكانت الجماعة تقول فيما بينها ان لديه مأمورية في بلدة ما •

حتى كان ذلك اليوم فاذا هم يتناقلون فيما بينهم أن الفرماوي قد قتل ، فيسأل الكحلة :

ـ قتل ؟ من قال ؟

ـ أنا كنت فى الزمارنة ، كنت أبيع بيعة الى الطحاوى وعرفت أنه قتل .

ـ اذن فالدفراوى نجح فى مهمته !

ـ وهل كنت تشك فى هذا ؟

فقال الزهار فى اعتزاز :

ـ يد الدفراوى قاعدة لا تخيب أبدا .

فقال كمال :

ـ تسلم ويسلم صاحبها البطل أ . قل لى يا زهار : من منكما أمهر فى التصويب أنت أم منصور ؟

ويقول الزهار :

ـ أظن أننى أمهر لأننى تعلمت التصـــويب على أصـــوله فى العسكرية .

فقال نور :

ـ لا بد أن الدفراوى سيأتى الليلة .

فقال النمرود :

ـ حتما ، فهو يجىء الى هنا بعد كل حادثة .

فقال الزهار :

ـ ولكن السلاح الذى يحمله فى هذه المرة ليس سلاحا رخيصا، وأخشى أن تضطره المحافظة عليه الى حمله مدة طويلة فيضبط معه .

فقال النمرود :

ـ ومن الذى يضبطه معه ؟ الحكومة ؟! ما أحب اليها أن تتخلص من الفرماوى ، والرجل الذى استأجر الدفراوى رجل يحمى رجاله .

فقال نور :

ـ لطيف بك حماه الله رجل قليل المثال ، ولكن لماذا غضب على الفرماوى ؟ ألم يكن من رجاله ؟

فقال النمرود :

ـ كان ، وكان لطيف بك يترك له ريع خمسة أفدنة . فلما قتل له بهجت الدلمونى دخله الغرور وراح يطالب لطيفا بعشرة أفدنة ، وهدده بأنه سيخبر أهل الدلمونى . لطيف بك ـ طبعا ـ لم تعجبه الحال . أرسل لصاحبنا دون أن يعلم الفرماوى .

وقبل أن يسأل نور سؤالا آخر دخل منصور الدفراوى جامد الوجه يغطى مشاعره بكثير من الزهو واللامبالاة ، واستقبله الأعضاء بكثير من الاكبار والتحايا ، وراح كل منهم يهنئه بهذا النصر الجديد الذى أحرزه ، ولكن الزهار لم ينس موضوع السلاح فهو يسأل الدفراوى .

ـ كنت فى كل مرة ترمى السلاح فى الترعة ، ولكن سلاحك فى هذه المرة من النوع الغالى .

ـ والله لم يهن على .

ـ فماذا فعلت به ؟

ـ وضعته فى التلفيعة وخبأته فى المقابر .

ـ وهل قتلت الفرماوى عند الجبانة ؟

ـ والله .. الرجل كان صيدا سهلا . طلبت اليه أن نخرج لنتمشى قليلا فقال : والله يا منصور لولا أنك أخى ولا أشك فيك أبدا ما خرجت معك . فقلت له لماذا ؟ قال الرجل ـ يعنى لطيفا بك ـ فى هذه الأيام يكرمنى اكراما غير معقول . طلبت أن يعطينى عشرة أفدنة فأعطانى خمسة عشر . طلبت جاموسة فأحضر لى جاموستين . وأنا عارفه . ويهيأ لى أن المسألة فيها شىء . فقلت له وماذا فيها ؟ ألست رجله وواجب عليه أن يكرمك ؟ .

ودار بيننا الحديث ولم يلتفت الى الطريق حتى وصـــلنا الى الجبانة ، فاذا الفرماوى يقول : الله الى أين يا منصور ؟ قلت : الى هذه . قال : وما معنى مجيئنا للجبانة يا منصور ؟ قلت له : كلنا لا بد من مجيئنا الى الجبانة يا فرماوى ، كل انسان لا بد أن تكون الجبانة آخرته . قال : لا أفهم كلامك . قلت له : أفهمك . وأخرجت المقروطة من تحت الجلباب . حاول أن يمسك بها . كنت أنا قد أطلقت العيارين فى قلبه . أراد أن يقول عملتها يا منصور فلم يكمل « منصور » وودع .

فصاح كمال على الفور وكأنما كان يضع الكلمة على شفتيه : « سبع يا ابنى سبع والله » ! وصاح النمرود : « يا سلام يا ولاد لو ذقتم لذة العيار الخارج من ماســورة بندقيتك لقلب عدوك ، يا سلام ياولاد .. مريح » .

وحينئذ رأى الزهار حشرة سوداء تمر بجانب حذائه فهم بقتلها، فسارع الدفراوى ينهاه قائلا :

ــ اتق الله يا شيخ ، ماذا عملت لك ؟ لماذا تقتلها .. ؟ اقذف بها بعيدا ولا تقتلها ؟

وتصايح الجالسون اعجابا بشفقة الزعيم الدفراوى .

ولكن نورا لا يزال يختزن أسئلة لم يفرغها فعاد يسأل :

ــ ولم يسمع أحد انطلاق البندقية ؟

فقال منصور :

ــ الطلقات كثيرة فى هذه الأيام ، فالخفراء يحرســون القطن ويطلقون الأعيرة فى الهواء لاخافة اللصوص .

فقال الزهار :

ــ والله فلوس ترمى فى الهواء ، وهل يخاف أولاد الليل من أعيرة الهواء ؟!

فقال نور :

ــ وأين قضيت ليلة البارحة ؟

فقال منصور :

ــ قضيتها فى دوار عمدة الفرايحة .

فقال النمرود :

ــ ونعم الرجل ، لا يمكن أن يعترف بشىء أبدا . لا بد أنهم سألوه اليوم .

فقال منصور :

ــ اننى قضيت اليوم كله معه .

فقال نور :

ــ فأفرج عنك فى الحال .

فقال الزهار :

ــ انهم لم يقبضوا عليه .

فقال منصور :

ــ بل قبضوا على .

فسأل النمرود :

ــ ولماذا ؟

فقال الدفراوى :

ــ المباحث سمعت من البلد أنه خرج معى ، وحاولت أن أعرف من هذا الذى أخبر المباحث فلم أستطع الاهتداء اليه ، ولكنى وراءه لن أتركه ابن الكلب . عشنا وشفنا الدفراوى يشى به الناس .

فصاح كمال :

ـ جاءك الموت يا تارك الصلاة •• انما قل لى يا أبا الرجال ، كيف ستصل الى المقروطة اذا أحببت أن تصل اليها ؟

ولم يشأ منصور أن يجيب كمالا فقد رأى أنه فى هذه اللحظة بالذات أكبر من أن يجيب أى انسان ، فما الخطب اذا كان السائل كمالا ؟ ولكن نورا أعجب بسؤال كمال فأعاده على النمرود ، فأراد أن يسكت فألح عليه نور بالسؤال ؛ فقال فى مزاح قريب كل القرب من الجد :

ـ والله يا أولاد الكلب اذا ضاعت المقروطة لألزمن ثلاثتكم بدفع ثمنها • وضحك الجميع فى فرح غامر أن منصورا يمزح • ولكن كمالا فى هذه المرة لم يضحك فقد كان ملهوفا الى سماع ما سيقوله منصور ، وتكلم منصور أخيرا ••

ـ طيب سأقدم تعميرة على حسابى لمن يقول بماذا ميزت مكان المقروطة •

واشتد السرور بالجماعة من هذا التبسط ، وراح كل منهم يعرض ذكاءه ، ولكن منصورا قال فى آخر الأمر :

ـ كلكم حمير •• ألم يتذكر واحد منكم أن أختى مدفونة فى جبانة الزمارنة • وضعت المقروطة مع أختى ، أختى الحديد مع أختى من أمى وأبى •

وانطلقت ضحكة عالية قوية من هذه المقابلة الرائعة التى افتر عنها ثغر البطل • وفى هذه المرة كانت ضحكة كمال أشد قوة وأعلى ضجيجا من ضحكاتهم جميعا • انها تحمل الكثير عن صدره وانها تبدأ به عهدا جديدا ، وانها أيضا ـ ولو أن هذا لم يصبح ذا أهمية كبيرة ـ تتملق البطل القاتل •

٤

كان الطريق الى القرية خاليا لا يسير فيه أحد ، فقد كانت الساعة الثالثة من عصر يوم حار شديد الحرارة ، ولم يكن هذا موعد عودة الفلاحين من الحقل ولا ذهابهم اليه • وكأن الشمس قد وعدت الطريق فى يومه هذا أن تريحه من دائسيه ساعات طويلة من النهار ، فهى ترسل أشعتها القاسية فتفى بوعدها للطريق • الا أن الطريق لم ينعم طويلا بهذه الدعة التى هيأتها له الشمس ، اذ ما لبث أن بدا فى أوله شاب طويل القامة يسير فى همة توشك أن تصبح لهفة ، ولا يلبث هذا الفتى أن يقترب رويدا فاذا هو متناسق القسمات ، قوى الملامح أبيض الوجه ، دقيق الفم ، وامض العينين ، ان رأيته وهو يستقبل الأفق ورأيت هذا الطيف من الابتسامة الذى يترقرق على شفتيه خيل اليك أنه فتى فى طريقه الى هواه • فان أدركت ذلك فلا تظلم ذكاءك فانك محق انه فتى فى طريقه الى هواه •

ليس هذا الفتى غريبا عليك فقد أطلعتك عليه حيرة العمدة حين كان ينتظر المأمور الجديد ، وحين كان يفكر فى تلك البرقية التى أرسل بها الى المأمور ليعتذر اليه لمرضه من عدم حضور جمعية العمد•

أذكرت الآن الفتى ؟ ما اخالك فعلت . انه فخرى ابن الشيخ حسن ..
فمن فخرى ؟ ومن الشيخ حسن ؟

الشيخ حسن رجل من وجوه القرية قريب الى العمدة كل القرب، فقد جمعتهما ملاعب الطفولة وفلقة الشيخ فى الكتاب ، ثم صحن الأزهر فى القاهرة ، ثم عودتهما دون أن ينالا شهادة . ثم جمعتهما من بعد الحياة فى القرية فكانا يواجهان الشدائد معا حتى تنحسر ، فان هى تركت عليهما بعض آثار امتدت يد كل منهما تمسح عن أخيه أثر الشدة حتى تزول . وكانت هذه اليد تمتد بطبيعة لا أثر فيها لكلفة فكأنما هى تذود عن صاحبها — لا عن صديق صاحبها — شرا وقع أو يوشك أن يقع . وكلما مر بهما الزمان توثق ما بينهما من ود ، وكم حاول ذلك الزمان بالأشرار من أبنائه أن يفسد ما بين الصديقين ولكنها صداقة تأبت على الزمان وأشراره ، وصمدت لا تلين .

وهكذا عرف الناس الشيخ حسن على أنه الصديق الأول للعمدة، فان أراد واحد من أهل القرية أن ينال العمدة بشر احتشم أن يفعل على مسمع من الشيخ حسن ، فقد تعودوا منه — اذا فعلوا — شدة فى الرد وعنفا فى الاجابة .

وكذلك كان الأمر مع العمدة ان حاول محاول أن ينال من الشيخ حسن على مسمع منه . وقد يلين العمدة ان انتقده أحد ، وقد يلين الشيخ حسن ان لامه لائم ، ولكن واحدا منهما لا يلين ولا يسكت ان ذكر الآخر أمامه بنقد أو لوم .

ولم يكن الشيخ حسن فى مثل يسر العمدة ، ولكنه كان مستور الحال له فى أرضه ما يسد حاجته وقد كان الشيخ حسن ذكيا يعرف أن ما له اذا قسم بين ولديه فهما الى الفقر ، فرأى أن يجعل الأرض من نصيب الأكبر والعلم من نصيب الأصغر ، وبرر هذا التقسيم لنفسه بأنه سينفق على الأصغر مالا جسيما مما تنتجه الأرض ، وهو فى انفاقه هذا انما يعدو على حق الأكبر فى النفقة ، فهو لذلك سيعوضه

عما فاته بأن يجعل رأس المال كله حقا مباحا له بمجرد أن يتم الأصغر تعليمه •

وقد كان صلاح هو الأكبر وفخرى هو الأصغر ، وكان فخرى هو صاحب العلم فى تقسيم أبيه • وهكذا وجد فخرى نفسه يقاد الى المدرسة منذ لا يذكر متى ، ومنذ ذلك الحين الذى لا يذكره كان يذهب فخرى الى دوار العمدة مع أبيه حينا أو مع صحابته أو منفردا • وكان يلقى هناك جمعا من الأطفال ، وقد اتخـذوا من باحة الدوار ملعبا يسع كل ما يعن لأذهانهم الطفلة من ألعاب ، فمن كرة تضرب باليد ، الى كرة تلقف ، الى كرة تتناتشها العصى المعقوفة بألوان من الزجر والضرب والالقاء ، الى جرى لا يعرف هدفا ، الى جرى هارب من الامساك ، الى وضع غمامة على عينين ، الى غير ذلك من مراح الطفولة والصبا •

ومنذ ذلك الحين الذى لا يذكره عرف فخرى درية ، ومنذ ذلك الحين أحب فخرى درية ، أكان حبا ذاك •• ؟ انه اليوم يعلم أنه الحب ، ولكن أكان اذ ذاك حبا •• ؟ لم يعد يدرى ! لقد شب هو عن مدرسة القرية وعن باحة الدوار ، فوجد نفسه يحب درية •• حبا لم يفجأه وانما وجده معه كما وجد معه عينيه وقلبه ، لا يعرف كيف بدأ ولا يذكر متى •

ولكنه يعرف أن هذا الحب عوده أن يكون السابق دائما ، فلم يكن يقبل أن تسمع درية عنه أنه تخاذل فى ميدان أو سبق فى مضمار. فهو فى دراسته أول فصله ، وهو فى احتفالات القرية خير خطبائها . وهو فى أبناء البلدة خيرهم • ان تحدث يجهد كل الجهد أن يقتسر المديح اقتسارا ، ويجهد كل الجهد أن يأخذ هذا المديح طريقه الى أذن درية •

لم يعرف عنه أحد أنه انحدر الى شر ، فان أحدق به الشباب

لينزلق به عرف كيف يمنع كل شائبة أن تلحق باسمه اذا ما ذكر اسمه عند درية •

وقد كانت درية تلقاه وقد أحاطت باسمه عندها كل هذه الهالة التى أقامها حول نفسه ، فتذكى حبها له باكبار • وكان الشباب قد حال بين اجتماعهما منفردين بعلم من الآباء والأمهات • ولكن هذا الشباب نفسه مهد لهما اللقاء المختلس فى ستار من الليل ووقار من العفة •

كانا يلتقيان فى باحة الدوار نفسها هنـــاك تحت شجرة أظلتهما وأظلت حبهما شـــابين ، والليـــل هاجع والعيون مغمضة الا أعينهما ، والرقيب بمنأى الا رقيبا أقامه فى نفسيهما أمل فى الغد والزواج ، وماض من الطفولة والملعب يحمل لهما فى طواياه أنقى الذكريات •

كان حديثه يدور عن المدرسة ثم عن الكلية ، وكان حديثها يدور عن أتراب الباحة من اللاعبين وما صارت اليه أمورهم • فكانت تجد فى حديثه الدنيا التى لم تعرف عنها الا ما تقرأه فيخيل اليها أن صاحبها أحاط بكل شىء علما ، وكان حديثها عنده أعمق من علم كل عالم عرفه أو لم يعرفه •

ثم ينتهى اللقاء بوعد على اللقاء • حتى اذا انتهت الاجازة انتهى اللقاء بوداع تشتبك فيه الأيدى وتتصافح القلوب وتتعانق الأرواح ، يفصل بين الجســـدين أمل فى الغد والزواج ، وماض من الطفولة والملعب يحمل لهما فى طواياه أنقى الذكريات •

هكذا كان فخرى يقضى أمسيات اجازاته ، وهكذا اســـتطاع فخرى أن يطـــارد الزمن فى تعليمه ، فهـــو فى الطليعة الأولى من الناجحين كل عام • حتى بلغ السنة الثالثة فى كلية الحقوق وأدى الامتحان وعاد الى القرية •

وعاد الى الأمسيات الحالية فى باحة العمدة ، الا أن الحـديث من درية لم يعد طلقا كما كان وانما تمسكه عن الجريان غصة فيه مترددة بين الظهور والاستخفاء ، يحيط بها حياء وخوف واشـفاق وهوى • ولم يكن عقله ليدرك هذه المعانى ، ولم يكن عقله بمطيق أن يصل الى منابت تلك الغصة ، ولكن قلبه أحسها حين كان كلامها يصل الى قلبه •• كان يجد بالحديث حصى وهو يعرفه صافيا ، ويجد به رواسب ألم وهو يعرفه نقيا طلقا مصطفق المجرى حلو الأرانين •

ـ درية ؟

ـ هه •

ـ أنت تخفين شيئا

ـ نعم •

ـ ولم تخفينه ؟

ـ لا بد أن يختفى •

ـ حتى عنى ؟

ـ عنك بالذات •

ـ لعلنى أدركه •

ـ ما أظن •

ـ بل انى أدركه •

ـ لا عليك •• فلنعد الى حديثنا •

ـ ويل للزمان •

ـ وما فعل الزمان ؟

ـ سرقنا •• سرق طفولتك وطفولتى ، فما عدنا نحس الأيام وهى تمضى •• غفلنا عن الأيام ولم تغفل •• أشرفت بك على النضـوج وأنا بعد لم أنل تلك الورقة التى تؤكد أننى استويت ، وأصبحت لك أهلا •

ـ لا أفهم ما تقصد اليه •
ـ ومتى جاء الخاطب ؟
ـ بل لم يخطبنى أحد •
ـ فهناك من يسعى الى خطبتك •
ـ ولا ذاك •
ـ فما الذى تخافين ؟
ـ خوف •
ـ مم ؟
ـ من الغد •
ـ وما فى الغد ؟
ـ ما أخشاه •
ـ وما يدعوك للخشية ؟
ـ حديث أبى •
ـ أبوك ! ماذا يقول ؟
ـ يقول •• ؟
ـ نعم •

ـ يقول •• يقول •• أريد يا درية أن أزوجك من ابن الحلال ، وأريده وافر الغنى ، وأريد لك بيتا بل قصرا فى القاهرة •• ما رأيك يا درية ؟

ـ وبماذا تجيبين ؟
ـ بالصمت •
ـ بالصمت ؟
ـ وماذا يمكن أن أقول ؟!
ـ لا •• أما أنت فلا تقولى شيئا •• انه أنا من سيقول ••
ـ وماذا تقول ؟

ـ غدا تعرفين •

ويقوم فخرى من مجلسه والدموع تتواثب فى عينيه ، وتنثنى درية الى حجرتها حائرة لا تدرى أأصابت أم أخطأت بحديثها •

ويصل فخرى الى منزله فيجد أباه ما زال صاحيا ويجد أمه وأخاه نائمين ، فينتهز الفرصة السانحة ويجلس الى أبيه لا ينطق ، حتى يسأله الأب :

ـ مالك يا فخرى ؟

ـ لى أمل عندك يا أبى •

ـ فقله •

ـ أريد أن أخطب •

ـ وماله •• ما أحب الى أن أراك متزوجا سعيدا فى بيتك • ولكن ألا تنتظر حتى تأخذ الشهادة الكبيرة ؟

ـ ولكن من أريدها لن ينتظر عليها الخطاب حتى أنال الشهادة: وأنا أريد أن أخطب فقط ثم أتزوج عندما أتم تعلمى •

ـ والله يا ابنى لا أرى مانعا •• ومن هذه الفتاة التى لا ينتظر خطابها ؟

ـ درية بنت العمدة •

ـ نعم من اخترت يا بنى •• انها فعلا لن تنتظر •• الحبيبة بنت الحبيب •• نعم الخيرة يا بنى •

ـ فمتى تخطبها يا أبى ؟

ـ كما تشاء •

ـ غدا ؟

ـ غدا •

ـ ولكن .. ؟

ـ ماذا ؟

ـ ألا يحسن أن تنتظر حتى تظهر النتيجة ، وأنقل الى السنة الرابعة ؟

ـ وهل فى نجاحك شك يا فخرى .. ؟ انك من الأوائل دائما .

ـ ولكن يا أبى عندما أكون فى السنة الرابعة أكون قريبا من التخرج ، وتكون مناسبة معقولة للخطبة ، وأنت تخبر عم الشيخ زيدان بنجاحى .

ـ والله يا ابنى كلام معقول .

ـ غدا سأسافر ان شاء الله ولن أعود حتى أعرف النتيجة ، وأجيئك بخبر نجاحى ان شاء الله .

ـ وهو كذلك يا ابنى .. على بركة الله .

ويقوم فخرى الى فراشه فيراح اليه يكاد لا يستقر به من فرح غامر راح يتواثب فى حنايا قلبه ، يحاول أن ينام فتذود عنه النوم تلك السعادة العنيفة التى انتهت بها ليلته ، فيدافع القلق عن عينيه بما جرى له فى ليلته تلك فلا يزيده ذلك الا قلقا ، فيقبل على هذا القلق يكاد يعانقه فرحا به هو أيضا ، فما عاد يضيق بشىء حتى بتلك العيون المفتحة وخيوط الفجر توشك أن تنسج بردها من الصباح .

ويسافر فخرى فى أول وسيلة تصل به الى القاهرة ، وتمضى أيام ثم ما يلبث أن يعود الى هذا الطريق المؤدى الى قريته فيدوسه بأقدامه، ويكسر بذلك وعد الشمس الذى بذلته للطريق ألا يدوسه أحد فى هذا الحر القائظ . ولكن ما لفخرى ولهذا الوعد !! انه عائد الى قريته

يحمل فى جنبيه أمل حيـاته .. ما مضى منها وما هو فى مطوى الغيب خبىء .

لقد نجح فخرى فى الامتحان وهو اليوم عائد لينقل بشراه الى .. الى من ؟

أيميل الى درية فيحتال للقائها بكل سبيل ثم يلقى بين يديها نبأ انتصاره ؟ أم يقصد من فوره الى أبيه فيستنهضه الى العمدة ليخطب درية ؟ . تكاد الحيرة تقلق الفرح الغامر الذى يتواثب فى كيـانه جميعا ، ولكن قليلا ما تلبث هذه الحيرة .. فقد انتصرت درية .. وهل يمكن الا أن تنتصر .

دوار العمدة صامت لا صـوت به ولا حركة حوله ، فالجميع لاجئون الى سقف يدرأ القيظ عنهم . انفتل فخرى الى باحة الدوار وأجال نظره فى مراح الصبا وملتقى الهوى ، فما وجد غير تلك الشجرة التى أظلت الطفولة والشباب ، والتى يطل عليها الشباك ذو المصراعين الخشبيين اللذين يقفلان على أعواد من الحديد الأسود .

يلجأ فخرى الى ملاذه القديم من ظل الشجرة ، وينقر الشباك نقرات لا تكاد تنتظم ولا تكاد تبين ، .. وتطل درية :

ــ من ؟ فخرى .. هل جئت ؟

ــ نعم .

ــ الدنيا نهار ، وللناس عيون !

ــ غبت عنك أياما كثيرة ، وعندي أخبار لا تعبأ بالدنيا ولا بالنهار ولا بالناس ولا بالعيون .

ــ خير ؟

ــ نجحت فى الامتحان وأصبحت فى السنة الرابعة .

ــ والنبى ؟ . مبروك .. مبروك يا فخرى .

ـ مبروك لا تكفى •
ـ وماذا تريد ؟
ـ ألا تعرفين معنى نجاحى هذا •• ؟
ـ معناه أنك أصبحت فى السنة الرابعة •
ـ ومعناه أن أبى سيجىء الى أبيك •
ـ الى أبى !
ـ نعم •
ـ ولماذا ؟
ـ لماذا ؟ ألا تعرفين ؟
ـ أظننى أعرف •

ـ فمالك لا تطيرين من الفرح ؟! مالك لا تكسرين هذا الحديد الذى يحــول بيننا •• ؟ أراك واقفــة لا تزالين •• دربة •• مالك مطرقة ؟!

ـ أخاف يا فخرى ؟!
ـ مم ؟

ـ ان أبى يحلم أحلاما كبيرة لا أريدها أن تتحقق ، ولكن أخشى أن يرفض اليوم ما نهفو اليه وينقطع ما بيننا ، وأفقد حتى الأمل الذى أحيا به •

ـ أبوك يرفض طلب أبى ! •• ألا تعرفين ما بينهما من صداقة ؟
ـ أعرف •• ولكن أخشى •
ـ فدعى الخشية الآن •• وافرحى معى •
ـ أرجو أن أفرح •
ـ فافرحى •
ـ الله لنا يا فخرى !
ـ يا شيخة •• لقد أفسدت فرحتى بتفكيرك •

ـــ أنت محق يا فخرى ، فالتفكير ــ على أى لون له ــ يفسد الأفراح •• ولكن لا عليك •• اذهب أنت الآن الى أبيك ولندع الله أن يحقق آمالنا •

ـــ ان الله أرحم من أن يفرق بيننا •

ـــ قادر على كل شيء يا فخرى •

ـــ طيب •• أشوفك فى المساء ان شاء الله •

ان شاء الله •

ويمضى فخرى الى أبيه وقد تطامنت فرحته بعض الشيء ، يفكر فى درية وفى صداقة أبيه لأبيها ، وفى نجاحه ، وفى مديح الناس له وفى المستقبل الذى ينتظره ، وفى حبه لدرية وحبها له • فاذا أراد عقله أن يجمح به الى قلة ماله رد عقله فى عنف عن هذا التفكير السخيف ، وما المال أمام الصداقة والمديح والمستقبل والحب •• ؟

٥

قام كمال من جلسته فى بيت النمرود وقد أحس أن الله أجاب سؤله وحقق رجاءه ومن عليه أخيرا بما كان منتهى آماله • فقد عرف فى هذه الليلة أين يحصل على سلاح ، وهو يعرف منذ أمد بعيد كيف يستعمل هذا السلاح ويعرف كل خطوة سيخطوها منذ أن يستعمله • وأراد كمال أن يحتفل بمستقبله الذى رسمه فى ظل السلاح الجديد وان له لمراسم خاصة لاحتفالاته ، تعود أن يقيم هذه المراسم كلما حصل على مبلغ كبير سكبه عليه فرح ثرى ، أو غفلة من صاحب مال مكنته أن يسرق هذا المال •

وكان احتفاله هذا مقصورا على نفسه ، يشاركه فيه جزء آخر من الهمل يسعى فى القرية ضالا بلا هدى ولا مأوى الا الاستجداء والالحاف فى الاستجداء •

كانت « وطنية » وذلك هو اسمها هى صديقة كمال •• نشأت من المجهول وتسير الى المجهول لا يعنيها من طريقها الا أن تسير ، ولا يعنى أحدا من أمرها آن تسير أو لا تسير • فهى بنت المجهول أبوها الليل الدامس وأمها شجرة على الطريق • عثرت بها قابلة القرية

فى ليلة حالكة السواد ، ولولا أن وطنية كانت تصرخ ما أحست بها القابلة فى ليلتها تلك ، ولولا أن القابلة كانت عائدة من ميلاد شرعى متعسر ما عاشت وطنية • وكانت البلاد فى ذلك الحين واقعة تحت موجة من موجات الوطنية التى يثيرها الزعماء فرأت القابلة أن تسمى اللقيطة وطنية • وأصبحت وطنية فى القرية أكثر شهرة من الوطنية ذاتها ، فان القرية لا تجد فى كل يوم حادثا مثل هذا يوسع لها مجالات الحديث والتخمين والاستنكار ، والتعوذ بالله من الشيطان ، واستغفار الله للجانى والجانية ، وطلب الستر على العباد الصالحين وغير الصالحين • ولكن اجماع القرية كان منعقدا على أن وطنية من قرية أخرى ، اذ لا يعقل أن تحمل فتاة من القرية دون أن ترى القرية حملها، وفتيات القرية غاديات رائحات على الملأ لا يتخفين •

وهكذا ظهرت وطنية فى القرية من ثنايا قصة خزى وعار ، وأكد الناس أنها غريبة من القرية فأصبحت تجمع الى ذل العار انكسار الغريب • وفى وسط هذه الأمواج المتراحمة من الهوان شبت وطنية تضارع بقبح وجهها قبح مكانتها فى القرية • وكأنما رفضت الطبيعة أن تهب لها شيئا تتعزى به فهى عجفاء بلا قوام على الاطلاق ، ينتهى جسمها من أعلى بكمية من الشعر الأسود القوى يتأبى على كل منديل يحاول أن يلم شعثه ، تعقبه الى أسفل جبهة ضيقة ، فعينان صغيرتان تحيط بهما مرتفعات ضخمة ، لا بد لك أن تنعم فيها النظر حتى تتبين خلالها أنف وطنية الأفطس ، وما ان تتبينه حتى تقف حائرا كل الحيرة ، باحثا عن المكان الذى يمكن أن يدخل منه الهواء أو يخرج الى ومن جسم وطنية • ثم ما تلبث أن تفيق من هذه الحيرة حين يروعك فمها ، فانك حينئذ ستدرك أن هذا الفم لا يمكن أن يمنع الهواء داخلا أو خارجا ، فهو من السعة بحيث يحتاج الى قوة عنيفة لتمسك به مقفلا يذود الهواء أو أى شيء أن يدخل أو يخرج منه • فان استطعت أن تحول عينيك عن الفم وتنحدر بهما الى أسفل الوجه ، وجدت ذقنا

، يحاول جاهدا أن يخفى ما اتسع من الفم ، فهو صغير جميل ، يفضى الى رقبة معتدلة وان كنت ــ من شدة هزال وطنية ــ تكاد تحسبها امتدادا لجسمها ، أو تكاد تحسب جسمها امتدادا لتلك الرقبة .

تلك كانت وطنية التى شبت فى بيت قابلة القرية . وقد كانت القابلة ترى فى عطفها على وطنية أمرا يزيد من عطف القرية عليها ، ويجعل لها العذر اذا هى طلبت الجدوى أن تطالب بحق اللقيطة التى تقوم على تربيتها ، وكانت لا تعدم بين الأثرياء من يمد لها يدا سخية . وهكذا أصبحت وطنية ــ وهى النقمة على نفسها ــ نعمة على القابلة التى تقوم بشأنها .

ولكن الطبيعة أبت أن تبقى لوطنية هذا الملجأ الذى كانت تتوارى فيه من خزيها وغربتها .. فقد ماتت القابلة ولم تترك وراءها شيئا .. فقد شاءت ــ غفر الله لها ــ أن تحج .. فأخذت كل مال مدخر لديها ، وباعت كل ما عندها من حلى ، وسافرت للحج .. وأعجبها الحجاز فماتت هناك ، وخلفت بالقرية بيتا متداعيا ليس فيه الا وطنية .

ولم تكن وطنية قد أخذت عن القابلة صناعتها ، فانها حين بلغت السن التى يمكنها فيها أن تتعلم شيئا كانت القابلة قد بلغت السن التى لا يمكنها فيها أن تعلم شيئا . فقد كانت ــ رحمها الله ــ فى سنيها الأخيرة راعشة اليدين بطيئة الحركة ، حتى لقد انفضت عنها المشرفات على الولادة ولم تبق لها الا العوائد التى كانت تستجديها من الأغنياء .

وهكذا أصبحت وطنية وحيدة لا معين لها ولا عائل ، الا يد تمتد وفم يستجدى .

وعلى هذا الطريق من الاستجداء اتصلت أسباب وطنية بكمال .

فكمال لا يجد حانيا عليه الا وطنية ، ووطنية لم تجد رجلا

الا كمالا • فاتصلت الحاجات وتعارف الشريدان ، وأصبحت مراسم الاحتفال عند كمال أن يقضي لدى وطنية ليلة يصيب فيها طعاما يشتريه هو وتطبخه هى • ثم يبيت عندها ليلة ويخرج قبل الفجر ، فلا يحس أحد الطبخ أو المبيت •

وهكذا خرج كمال من بيت النمرود وقد حزم أمره على أن يحتفل الليلة بمستقبله الباسم •

كان الوقت صيفا والفلاحون فى الصيف يسـمرون الى عميق الليل ، فخرج كمال قاصدا الى منزل عبد العزيز الجزار فوجده يدخل منزله بعد أن قضى سهرته مع اخوانه ، فاشترى منه رطلين من لحم الذبيحة التى ذبحها فى نهاره هذا ، وكان عبد العزيز قد تعود أن يبيعه رطلا بين حين وآخر فلم يدهش كثيرا لزيادة الكمية ، ولم يدهش مطلقا أنه جاء للشراء فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، فقد تعود أن يبيعه ــ كلما باعه ــ فى مثل هذا الموعد • ووضع كمال اللحم فى جيبه وذهب الى جنينة العمدة ، فوجد عبد الله حارس الجنينة مشعلا نارا يصنع عليها قهوة ، فاشترى منه بطاطس وطماطم وكل ما لا بد من شرائه للاحتفال ، وقصد بحمله تحت ستار الليل الى بيت القابلة سابقا وبيت وطنية حاليا ، وطرق الباب •

ــ من ؟

ــ افتحى يا بنت الكلب •

وفتحت وطنية الباب هنيهة تسرب فيها كمال الى داخل المنزل ، ثم أقفلت الباب وراحت تنظر الى ما يحمله كمال •

ــ خير •• أين كنت طول هذه المدة ؟

ــ وما شأنك أنت ؟ • انظرى •• أحضرت لك اليوم رطلين لحمة من أحسن صنف •

ـ رطلين يا ابن الكلب .. ؟ لا بد أنك قتلت قتيلا !

ـ لا . لم أقتل بعد .

ـ وهل ستقتل ؟

ـ والله .. الله أعلم .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ مالك أنت بما أعنى وما لا أعنى ؟ .. هيا اطبخى لنا هذا الطعام فانى أريدها ليلة تذكرها طول العمر .

ـ ولماذا نذكرها ؟

ـ لأننا غدا سنصبح أغنياء .

ـ أغنياء .. من ؟ أنت ؟

ـ نعم أنا .

ـ أنت يا ابن الضائعة ؟

ـ اخرسى يا بنت .

ـ أنت .. أغنياء .. ولماذا .. ؟ وهل عمى الغنى حتى يجيئك أنت .. ؟ ألم يعد يجد أحدا الا أنت ؟

ـ ومالى أنا يا بنت ؟ .. والله انى مجهول فى بلد الكلاب هذه .. ولكن لا بأس .. غدا تعرفنى البلدة وتعرف قيمتى .

ـ وما قيمتك ؟ .. أنا والله أعرف قيمتك كل المعرفة .. ضائع ابن ضائع ، لا خير فيك ولا منك .

ـ غدا حين ترين المال فى يدى تعرفين قيمتى .

ـ والله يا ابن الملاعين لو جاء المـال الى يدك ما نظـرت الى ولا عرفتنى .

ـ لماذا يا وطنية ؟

ـ يا ابنى أنا بنت حرام .. أتظن كلامك ينطلى على .. ؟!

أنا أعلم أنى لســت جميلة وأنك لا تأتينى الا لأنك لا تجد غيرى ٠

ـ لا والله يا وطنية ٠٠ الله أعلم ٠

ـ فلماذا لا تتزوجنى ؟

ـ ولم لا ؟ ٠ تتزوج ان شاء الله ٠

ـ يا أخى هيه ٠٠ النهاية ٠

وهكذا اتصل الحديث بين الشريدين على هذا النسق الأعلى من الحب ٠٠ ماذا ؟ أتظننى ساخرا ٠٠ لا وحقك ؟

فما كان الحب عندهما الا هذا السباب الذى سمعت ، وان كان كمال يجارى وطنية فى السباب على غير حب الا أن سبابها هى كان حبا دافقا عارما ٠٠ حب من لا تجد لها بين الناس الا فتاها هذا ؛ فهو عندها الاب والاخ والام والصديقة والصديق ٠

انتهت وطنية من طبخ الطعام وأكلا ، ثم انطفأ السراج على اثنين ٠٠ أما وطنية فمتوجسة شرا مما هددها به كمال من ذلك الغنى الطارىء عليه ، معتقدة فى عميق نفسها أن المال سيكون نهاية صلتها بكمال وفى هذه النهاية نهايتها هى ٠ وأما كمال فيحلم بذلك الغد القريب حين يمسك بالمقروطة ، ويسعى بها الى المجد الذى أعد لنفسه مراتبه ومراقيه ٠

٦

صحا العمدة من غفوة القيلولة وصلى فرض العصر وخـرج الى شرفة الدار ينتظر رفاق سمره الذين تعودوا أن يقصدوا اليه من قبل المغرب ، ويقيموا لديه حتى موعد العشاء ثم ينصرفوا .

أقام العمدة وحيدا فى يومه هذا بضع لحظات ، ما لبث أن أقبل بعدها الحاج ابراهيم الحسينى شيخ البلدة ، والشيخ رضوان خطيب الجامع ، والحاج على صاحب الراديو الذى يجتمعون عليه كل مساء منذ أن يتركوا العمدة حتى تنتهى الاذاعة من برامجها .

وقال العمدة :

ــ مرحبا .. ولكن أين الشيخ عبد الودود ؟ .. أتراه ذهب اليوم فى طلاق أم زواج ؟

فأجاب الحاج على :

ــ بل ذهب الى طلاق فى عزبة النمايلة .

وقال العمدة :

ــ عظيم .. انه يفرح بالطلاق أكثر من فرحه بالزواج ، فهو

يقول انه حين يطلق المرأة من زوجها يأخذ أجرا للطلاق ، ثم يزوج الرجل المطلق من امرأة ويأخذ أجرا ، ويزوج المرأة المطلقة من رجل آخر ويأخذ أجرا ، فيكسب من جراء الطلاق الواحد ثلاثة أجور بينما لا يكسب من الزواج الا أجرا واحدا .

فيضحك الضيوف الثلاثة من بعد نظر الشيخ عبد الودود ، ويبدأ الحاج ابراهيم حديثا آخر فيقول :

ــ ما رأيك يا حضرة العمدة فى الولد أحمد أبى قطران الذى يأبى الا السوء دائما ؟!

ــ ماله يا حاج ابراهيم .. ماذا عمل ؟!

ــ عمله أسود !

فقال الحاج على :

ــ يعنى ما دام يرفض أن يبيع لك الفدان يكون عمله أسود .

ــ لا والله يا حجعلى ، انما الولد لئيم وينتهز الفرص ، وطبعه شين والعياذ بالله .

فقال العمدة :

ــ قل لى ماذا فعل ؟ .

فسارع الشيخ رضوان قائلا :

ــ قل لحضرة العمدة يا حاج ابراهيم ، قل له حتى يعرف أن الولد الذى يحميه لا يستحق الحماية .

فقال الحاج على :

ــ سبحان الله يا شيخ رضوان ، أتنقلب على الوليد بهذه السرعة .. أكل هذا لأنه قال ان الحديث الذى قلته فى الخطبة غير صحيح

فصاح الشيخ رضوان غاضبا :

ــ هذا لا يليق يا حجعلى •• أنا أغضب من جاهل كهذا •• ؟ ومن أين له أن يعرف صحيح الحديث من غير الصحيح •• لا يا حجعلى •• لا يا رجل قل وغير •

فقال الحاج على :

ــ لا والله لا أغير أبدا • فأحمد أبو خليل محق ، والحديث لم يقله النبى •

ويسأل العمدة :

ــ أى حديث ؟

فقال الحاج على :

ــ نعم انك أنت من يفتينا يا حضرة العمدة •• أتعقل يا حضرة العمدة أن النبى •• النبى محمد الذى هدانا الى الصراط المستقيم ، والذى جعل النظافة من الايمان ؛ هذا النبى يقول : اذا وقع الذباب فى اناء أحدكم فغطسوه ، ففى أحد جناحيه داء وفى الآخر دواء •

وارتبك العمدة حينئذ وحاول أن يجيب ، ولكن الشيخ رضوان سارع قائلا :

ــ ان هذا الحديث وارد فى صحيح البخارى •

فقال العمدة :

ــ البخارى لا يكذب يا حجعلى •

فقال الحاج على :

ــ لعل البخارى لا يكذب . ولكن قد يكذب غيره •

فصاح الشيخ رضوان :

ـ أتقصد أننى الكذاب يا حجعلى .. منك لله يا شيخ .

فقال العمدة محاولا تهدئة الشيخ رضوان :

ـ لا تكن عجولا يا شيخ رضوان ، فالحاج على لم يقصد الى هذا ..

وقال الحاج على مبتسما وقد أحس أنه أفرط على الشيخ رضوان :

ـ لا والله يا شيخ رضوان ، أنا لا أقصد أنك كذاب ـ لا قدر الله ـ ولعلك قرأت الحديث فى كتاب غير البخارى ، نقل الحديث ونسبه كذبا الى البخارى .

وهنا صاح الحاج ابراهيم :

ـ ما هذا يا رجل ؟ أتكلم عن أحمد الكلب فتقطعون كلامى وتتشاجرون ؟

فقال الحاج على فى مزاح قريب الى الجد :

ـ أما آن لك أن تنتهى عن أحمد يا حاج ابراهيم .. ؟ الجميع يعرف أنه مختلف معك على الفدان الواقع فى وسط أرضك .

فقال الحاج ابراهيم محتدا :

ـ اسمع يا حاج على .. امرأتى طالق ثلاثا يا شيخ ، ان أنا اشتريت هذا الفدان فى الحال أو الاستقبال ، أو ان أنا جعلت أحدا من أبنائى يشتريه ودفعت ثمنه سرا .. ما رأيك ؟ .

فبهت الحاج على هنيهة ثم قال :

ـ لماذا يا حاج ابراهيم ؟ لقد كنت أمزح معك يا رجل .

فقال الحاج ابراهيم :

ـ لا يا سيدى •• أنا رجل عشت عمرى شريفا •• عينت شيخا للبلد وكلكم تعرفون أن يدى لم يصلها مليم عن طريق غير شريف •

واحمر وجه العمدة ، وواصل الحاج ابراهيم حديثه :

ـ نعم انى أريد شراء هذا الفدان •• وأستطيع أن أكتب البلاغ تلو البلاغ لأشكو أحمد أبو خليل وأقلق منامه وأجعله لا يبيت ليلة مطمئنا •• وأستطيع أن أحبس عنه المياه فلا يراها الا فى دموع عينيه •• أستطيع يا حجعلى ولكنى لم أفعل لأنى شريف •• ولكننى أيضا لا أستطيع أن أسكت عن الحرام وأغفل على الزور وأستر على الاجرام، حتى أمنع الناس أن يتهمونى بالتحيز ضد أحمد • أرض أحمد حرام على وعلى أولادى فى حياتى •• حرمتها على نفسى لأقول الحق وسأقوله •••

فقال الحاج على فى خجل :

ـ لماذا كل هذا يا حاج ابراهيم •• ؟ لماذا كل هذا ؟ لا حول ولا قوة الا بالله •

وحينئذ قال العمدة :

ـ يا سلام يا حاج ابراهيم ، لو لم تكن سريع الغضب الى هذا الحد لكملت محاسنك •• الا أن الحلو لا يكمل •• قل لنا ماذا فعل أحمد أبو خليل ؟

فقال الحاج ابراهيم :

ـ يريد أن يتزوج سعدية أم الخير •

فقال العمدة :

ـ ولكن سعدية متزوجة !

فسارع الشيخ رضوان قائلا :

ـ وهذه هى البلوى !

فعاد العمدة يقول :

ــ انها متزوجة من صـالح أبى سـعد الله ، وكانت غاضبة ورجعتها اليه .

فقال الحاج على فى ابتسامة خبيثة :

ــ نعم .. نعرف يا حضرة العمدة ... ربنا يعمر بيتك .

فقال الحاج ابراهيم :

ــ ولكن كيف تستقر المرأة فى بيت زوجهـا اذا كان وراءها ابليس يوسوس لها كل ساعة ؟ .. صالح رجل فقير لا يملك الا الخرقة التى يلبسها ويكد طول يومه ليعيش فى ستر . والولد أحمد يملك فدانين وعشرين قيراطا ، ويظل يومه رائحا غاديا أمام منزل صالح مرتديا الجلباب الحريرى ، ويا أرض انهدى ما عليك قدى . البنت جاهلة وعقلها صغير ، فهى اليوم فى بيت أبيها ، وقد صممت على الطلاق من صـالح .. قصدنى صـالح وشـكا لى الحال وقال : انه لا يملك ما يصلحها به .

فتساءل العمدة فى عجب :

ــ لا يملك ماذا ؟

فقال الحاج ابراهيم فى شىء من التحدى :

ــ ما يصلحها به يا حضرة العمدة ، فما العمل ؟!

فقال العمدة :

ــ سبحان الله يا حاج ابراهيم .. وماذا تريدنا أن نفعل ؟ امرأة تكره زوجها .. ! فكيف يصلح العيش بينهما .. ؟ هل المعاشرة تدوم بالغضب ؟

فقال الحاج ابراهيم :

ـ سبحان الله يا حضرة العمدة .. وماذا يفعل صالح .. ؟ وما ذنبه .. اذا كان فقيرا .. ؟ وهل تزوجته على أنه صاحب مائة فدان ، ثم اتضح لها أنه لا يملك شيئا ؟ .. انه صالح .. صالح نفسه الذى تزوجته لم يتغير .

ثم دس فى لهجته رنة عميقة وهو يقال :

ـ هو نفسه صالح الذى قبلت أن تصلحه أنت عليها يا حضرة العمدة .. فهل يطلقها الآن لأنه لا يملك ما يصلحها به ؟

أحس العمدة تلك الرنة التى دسها الحاج ابراهيم ، وعرف أنه يقصد الى تلك الفراخ التى كان مصيرها سيارة المأمور ، ولكن العمدة يغضى عن كل هذا الغمز ويقول :

ـ طيب يا حاج ابراهيم ، سنرسل الآن الى أحمد أبى خليل ونرى ان كان يقصد الى اثارة سعدية على زوجها ، أو أنها مجرد صدفة .

فقال الحاج ابراهيم :

ـ أى صدفة يا حضرة العمدة ؟ .. انه يرسل اليها الرسل فى كل يوم .

وقال العمدة :

ـ سنرى يا حاج ابراهيم ، سنرى ..

ثم صاح مناديا :

ـ يا عبد الجليل .. يا عبد الجليل ..

وقبل أن يأتى عبد الجليل يصعد الى الشرفة الشيخ حسن وابنه فخرى فيرحب بهما العمدة ، ثم يأتى عبد الجليل فيطلب اليه العمدة

أن يرسل خفيرا الى أحمد أبى خليل ليحضره • وينصرف عبد الجليل ويعود العمدة الى الشيخ حسن :

ــ مرحبا أبا فخرى •• تأخرت الليلة عن موعدك •• لعل المانع خير ان شاء الله ؟!

فيجيب الشيخ حسن فى فرحة غامرة :

ــ خير وأى خير •• فخرى عاد بالسلامة اليوم ، وقد نجح فى الامتحان ونقل الى السنة الرابعة •

ويصيح العمدة :

ــ الحمد لله ، مبروك يا فخرى •• مبروك يا بنى •• يا ولد هات الشربات حلاوة نجاح فخرى •

ويقول فخرى فى تلعثم :

ــ شكرا يا عمى •• بارك الله فيك يا عمى •

ويقول الشيخ حسن :

ــ أطال الله بقاءك يا شيخ زيدان ، وأدام المودة بيننا • وبارك لك فى درية وأبقاها •

وراح الجالسون جميعا يباركون لفخرى نجاحه ، وبدأ الحاج على يسأله فى القانون ويناقشه فيه ، فانتهز الشيخ حسن الفرصة وقال للعمدة :

ــ والله يا شيخ زيدان أريدك فى كلمتين على انفراد •

وقال العمدة :

ــ تحت امرك يا شيخ حسن ، باذنكم يا جماعة •

وأجابت اصوات متباينة : « تفضل » • ودخل الشيخ حسن

وراء العمدة الى الدوار ، حتى اذا استقر بهما المجلس قال الشـيخ حسـن :

ـ الصداقة التى بيننا غنية عن الذكر ..

فقال العمـدة :

ـ معـلوم .

فقـال الشـيخ حسـن :

ـ وقد عشت طول عمرى آمل أن أجعـل من هذه الصـداقة قـرابة بيننـا .

وفهم العمدة ما يهدف اليـه الشيخ حسن فسارع يقـول :

ـ والله يا شـيخ حسـن ان الصـداقة التى بيننا أقوى من كل قرابة .

وكاد الشيخ حسن يفهم أن العمدة غير متحمس لما سـيعرضه عليه ، ولكنـه قال :

ـ ولكنى أتمنى أن تقوى هـذه الصداقة بيننا برباط شرعى .. اسـمع يا شيخ زيدان .. أنا أطلب القـربى منـك .. أريد درية لابنى فخـرى ، فما رأيك ؟

فقال العمدة متلجلجا :

ـ ولكن فخرى .. فخرى .. أليس صغيرا .. وابنتى درية أيضا صـغيرة .

فقال الشيخ حسن :

ـ والله لو كنت قلت عن فخرى انه صغير وسكت لناقشتك ، أما قولك عن درية انها صغيرة ، فمعنى هذا انك ترفض يدى التى أمدها اليك يا حضرة العمدة

فقـال العمـدة :

ـ اسمع يا شيخ حسن .. ما مصير صـداقتنا اذا أنا رفضت فخـرى ؟ . أتراك تزعـل ؟

فقال الشيخ حسن :

ـ أكون كاذبا لو قلت انني لن أزعل .. سبحان الله يا حضرة العمـدة .. بالطبع أزعل يا أخى .

فقـال العمـدة :

ـ صبرك يا شيخ حسن ، المسألة مستقبل بنتى ، وأنت تعلم ما أصنعه لأجعل لهـا ثروة تغـرى بها ابن الحـلال . . أريد لها شابا من الاغنياء يسعدها فى حياتها .. فخرى شاب عظيم ، ولكنك يا شيخ حسن لا تستطيع أن تمده هـو ودرية بمـا يهيىء لهمـا ما أرجوه لدرية ... انك تفكر فى ابنـك .. أيغضبك أن أفكر فى ابنتى ؟ ...

فقـال الشـيخ حسن :

ـ أنت حر فى أن تفـكر في ابنتك كما تشـاء ، ولكنى أنا أيضـا حر فى أن أغضب يا شـيخ زيدان .. لقد علقت بالصـداقة أملا لا تحتمله الصداقة .. فلا بأس .. ولو أننى بكلمة لا بأس هذه أقتل ثلاثين عاما من سنى حيـاتى .. ولا بأس أيضـا فاننى لا أملك غيرها كلمة .. سـلام عليكم يا حضرة العمـدة .

وخرج الشيخ من الغرفة الى الشرفة فى خطـوات سريعـة غاضـبة ، وعبر الجالسين وهـو يقـول :

ـ سلام عليكم يا رجال .. هلم يا فخـرى .

وقام فخرى لا تكاد رجلاه تحملانه .. فقد أدرك المعنى الذى تحمله خطوات أبيه السريعـة وانصرافه المبـكر ، ولكنـه لا يريد أن يصدق هذا الادراك الذى لا يحتاج الى كثير ذكاء .

وقال الحـاج على :

ـ الله •• الى أين يا شيخ حسن ؟•• ألا تشرب شربات ابنك؟•

فيقول الشيخ حسن وقد ابتعـــد عن الدوار :

ـ لا عليك يا حجعلى ، اشربه انت •• هنيئا ان شـــاء الله •

ويغوص الشيخ حسن فى تيه القرية ، وبعـــد حين يخـــرج العمـــدة ، ولولا غبش المغيب وقلة الضوء لتبينوا فى عينى العمـــدة احمرارا ما عهدوه قط ، ولتبينوا أيضـــا آثار دموع فاضت عـــلى وجه العمـــدة ، فأضفت حيث فاضـــت لألاء وبريقـــا يتألقان على جانبى وجه الشيخ الذى علاه غبار السنين •

وقال الشيخ رضوان للعمـــدة :

ـ ما للشيخ حسن •• خرج وكأنه غاضب ؟!

فقال العمـــدة فى صوت عميق :

ـ لا •• ابدا •• وانما كلفته بأمر ذهب يقضـــيه لى •

قال العمدة جملته وكأنما كان قد حفظها عن ظهر قلب ، وردها كثيرا فى داخله قبل أن يقولها للقوم • وأدرك الجالسون أن العمدة لا يريد أن يفضى بشىء مما كان بينه وبين الشـــيخ حسن ، وان كان الشـــيخ رضـــوان يأبى أن يصمت فهـــو يقول :

ـ لقد رفض حتى أن ينتظر شربات ابنه •

وقبل أن يجيب العمدة يكون أحمد أبو خليـــل قـــد جـــاء فيلقى السلام ، ولا يجيبه العمدة وانمـــا هو يجـــابهه قائلا :

ـ ألم تجد غير سعدية المتزوجة لتحاول الزواج بها أيها الضائع؟

ويقول أحمد وقد ألقى على وجهه غشاء من البلاهة :

ـ أنا يا حضرة العمـــدة ؟ •• سامحك الله يا حاج ابراهيم • ان كان هذا لأجل الفدان فخـــذه بلا ثمن ••

فيقول الحاج ابراهيم : يا ابنى حد الله بينى وبين فدانك هذا ..
وان كان فدانا فى الجنة .. أجب العمدة عما سألك عنه .

فقال احمد : أنا يا حضرة العمدة لا أصلح للزواج .

فيقول العمدة ساخطا : لعن الله الزواج وسنى الزواج ..
اسمع يا ولد ، أقسم بالله العلى العظيم ، ان سمعت انك ذهبت الى الحارة التى فيها سعدية لأقطعن أسبابك بالقرية جميعا ..
أتسمع ؟ .

ويرتجف أحمد من هول الوعيد ، ويقول فى خشية :

ـ أمرك يا حضرة العمدة .

ويطرده العمدة فينصرف ، ويدهش القوم جميعا فان المقدمات لم تكن مؤدية لهذه النتائج ، ولو دروا ما كان بين العمدة وبين الشيخ حسن لعرفوا أنها ثورة لم تجد طريقا لها الا أحمد .. ولو كان صالح قد حل محل أحمد لباتت سعدية طالقا فى ليلتها تلك .

وقال الحاج ابراهيم : وماذا يفعل صالح مع زوجته ؟ .. انه لا يملك ما يصلحها به يا حضرة العمدة .

وكان العمدة فى هذه اللحظة قد يئس من أى خير يأتيه على يد صالح بعد أن عرف من الحاج ابراهيم ضيق يده ، كما أنه كان فى هذه اللحظة عزوفا كل العزوف عن المال والرشوة فقد شق عليه مصرع هذه الصداقة الطويلة ، وقد أدرك أن الخنجر الذى صرعت به هذه الصداقة لم يكن الا المال الذى تكدس عنده والذى نفر عن صاحبه الشيخ حسن .. وهكذا ألمت به لحظة روحانية قلما تواتيه . فقال للحاج ابراهيم :

ـ اسمع يا حاج .. اذهب الى سعدية الساعة وقل لها ان العمدة يهددها ان لم تبت ليلتها فى بيت زوجها ، فانه سيفعل بها الأفاعيل .. وقل لها أيضا انه لا يريد أن يسمع بغضبها مرة أخرى .. ألم يعد لنا عمل الا هى وزوجها ؟

ويقوم الثلاثة داعين للعمدة .

ويقوم العمدة الى بيته .. وتلقاه زوجته فى بشاشة وابنته فى تنظر ، ولكنهما ما ان تريا وجهه حتى تصبحا كلتاهما حزينتين ، فأما الزوجة فلأن زوجها حزين ، وأما الابنة فلأنها تدرك ما كان .

وتسأل الزوجة :

ـ مالك يا شيخ زيدان ؟ كفى الله الشر .

ويقول الشيخ زيدان :

ـ جاءنى الشـيخ حسـن اليوم يخطب درية بنتى لابنه فخرى فرفضت ، فمشى غاضبا .

وقالت درية دون أن تحس :

ـ لماذا يا أبى ؟

وفزع الأب من السؤال .

ـ لماذا ؟؟ .. وأنت التى تسـألين .. لماذا .. ؟ ألا تعرفين لماذا ؟ .

وتثوب درية الى نفسها قائلة :

ـ أقصد لماذا أغضبته يا أبى ؟

ويقنع الأب نفسه بأن هذا هو ما قصدت اليه الابنة .

وتقول الأم :

ـ فخرى طيب وابن حلال .. ولكنه فقير .

ويقول العمدة : وهذا هو ما قلناه .

وتقوم درية الى غرفتها ، وتفتح شباكها ذا السـور الحديدى

وتطل على البـــاحة والذكريات ، والماضى الذى كان قريبا فأصـــبح بعيدا ، والشجرة التى أظلت وصار ظلها لهيبا ، والليل الذى كان نجوى فأصبح شقاء ..

لماذا يا أبى ؟!

٧

الشيخ عبد الودود مأذون بلدة السـلام رجل طويل القامة عريض المنكبين ، ليس بالسمين المفرط ولا هو بالهزيل الذى تأخذه العين ، جامد الوجه ان رأيته خيل اليك أن العاطفة لم تمر على وجهه فى يوم من الأيام ، يضحك ان ضحك بفمه يوسعه حسبما يقتضى سبب الضحك ، فان اضطره الأمر الى القهقهة خرجت من حلقه ولكنه أبدا لا يضحك من قلبه ، وان حزن الشيخ عبد الودود فهو لا يحتاج الى أى تعبير جديد يضفيه على سحنته ، فهى عبوس لا تحتاج الى علامات أخرى لتكون حزينة •

والشيخ عبد الودود رجل نقى السريرة ، سريع الى تصـديق ما يسمعه تسهل مخادعته ، فان ألقيت اليه مثلا أن انجلترا قد احتلت لندن أسرع يقول لك : « سبحان الله • ! أهكذا •• ؟ ومتى كان هذا ؟ » فاذا أنت لم تبتسم وظللت تروى عليه كيف أن انجلترا خدعت لندن وأوهمتها أنها تساعدها ، ثم احتلتها ولم تقبل أن تتركها أبدا ، راح يحوقل ويستعيذ بالله من الشـيطان • واذا أنت قلت له ان الانجليز قد تدخلوا فى الأمر ، وأنهم الآن يحاولون أن يعقدوا صلحا بين انجلترا ولندن قال لك « والله يشكر الانجليز » • وهـكذا تستطيع أن تصل به الى تصديق أية خرافة تلقيها عليه ، على شرط

ألا تضحك وأنت تلقى هذه الخرافة • وهو يعلم فى نفســه هذه الطيبة ، ولذلك فهو حريص كل الحرص ان أنت حاولت أو حاول غيرك أن يتحدث معه فى أمر ينتهى به أن يخرج بعض المال من حزامه، نعم حزامه وليس حافظته • انك لا تحتاج الى كثير ذكاء لتخدع الشيخ عبد الودود ، فلترو عليه ما شاء خيالك من خرافات فسيصدقها ، ولكنك ــ مهما يكن ذكاؤك ــ لن تســتطيع أن تنال من الشــيخ عبد الودود قرشا واحدا وان كان هذا القرش ذاهبا الى أمر فيه خير للشيخ عبد الودود نفسه ، فان هذا الخير مهما يعظم أمره أقل شأنا وأهون خطرا من اخراج قرش كان قد استقر غير مفزع ، وهدأ غير قلق فى أموال الشيخ عبد الودود •

والشيخ عبد الودود ــ كما قد عرفت ــ يملك عشرة أفدنة يزرعها لحسابه الخاص ، لا يؤجر منها قيراطا ولا يزارع فى سهم منها أحدا • وانما هو الذى يزرع ، ويكترى لها العمــال بعد أن ينزل بأجورهم الى أقل حضيض يمكن أن تنزل اليه • والشيخ عبد الودود ــ كما تعرف ــ مأذون البلدة ، وتلك مهنة ذات خطر وربح . والبلدة ــ كما لا تعرف ــ عدة بلدان ، فان للقرى عندنا ضواحى كثيرة تتبع البلدة الأصيلة فى الحكم والمأذونية • وهكذا كان الشيخ عبد الودود ذا موارد ضخمة تنسكب عليه من الحب والكره ، والعجيب أن هذه العواطف التى كانت سبب نعمته لا تعرف سبيلا الى قلبه أبدا • فقد كان لا يعرف الحب لغير المال ، ولا يعرف الكره لغير اخراج هذا المال • المهم أن الشيخ عبد الودود كان يستقبل هذه الأموال جميعها مع ما تخرجه الارض من محصول ، ثم يخرج لبيته ما يقيم الأود أو يكاد ، ويحتفظ بباقى المبالغ جميعها حتى تتم ثمن فدان فيشتريه •

وقد آن لنا الآن أن نروى قصة الحزام الذى عرضنا له فى أول هذا الحديث • فقد كان الشيخ عبد الودود يضع هذه الأموال فى

حزام خاص يربطه حول بطنه ويلصقه به ما أمكن ، حتى يحسه دائما : وحتى يظل واثقا من بقائه حيث هو ، وحتى لا تبتعد هذه الأموال عن جسمه • وهل كانت الا جزءا من جسمه ؟ وقد صار هذا الحزام مشهورا فى القرية والقرى المجاورة شهرة الشيخ نفسه • لقد كان الشيخ عبد الودود حريصا كل الحرص على الصاق هذه الأموال بكيانه ، لا يفصلها عنه الا ذلك الجلد الذى صنع منه الحزام والذى لا يملك حيلة فيه • فلو كان مستطيعا أن يضع المال على نفسه بغير حائل من الحزام لفعل • وقد يرفع الشيخ عبد الودود الحزام عن نفسه مرة فى الشهر أو مرتين حين يستحم ، ولكنه — ان فعل ذلك — فهو انما يفعله والحزام منه بمرصد ، فانه ان سمح بأن يفارق الحزام جسمه فهو لا يسمح مطلقا بأن يفارق عينيه •

ومع هذا الخوف الراعد الذى يتملك الشيخ عبد الودود على أمواله ، نجد الشيخ فى عامة حياته شجاعا يخوض الليل الأسود والطريق المقفر بلا صديق ولا رفيق ولا حارس ، وان يكن هذا الخوض فى سبيل القرش الذى يكسبه من عقود الزواج والطلاق ، الا أنها — على أية حال — شجاعة تحمد له • وقد بدأ هذه الشجاعة منذ عين مأذونا ، وقد قام برحلاته الأولى وهو لا يكاد يقيم خطواته من فرائص ترتعد به وهلع يهز فؤاده هزا •• ثم تعود الطرق المظلمة والليالى الحالكة فأصبحت العادة شجاعة ، وأصبح يقطع الطريق الى أعمال البلدة وقراها المجاورة وحيدا بلا صديق ولا رفيق ولا حارس •

ولا يحسبن أحد أن هذه الأعمال قريبة من قرية السلام فانها قد تبعد عنها كثيرا ، والطرق اليها وعرة لا تحيط بها الا الحقول خلت من زارعيها بلا دور فيها ولا أناس ، وقد لا تخلو من العفاريت التى خلفها الوهم فى كثير من مناطق هذه الطرق •

ولكن الشيخ عبد الودود كان يقطع هذه المخاوف جميعها ليعقد

زواجا أو يقرر طلاقا ، وحول وسطه الأموال تكدست مئات ومئات ٠ وفى هذه الليلة خرج الشيخ عبد الودود من قرية السلام بعد صلاة المغرب مباشرة ، قاصـــدا الى عزبة النمـــايلة الواقعة فى نطاق دائرة السلام ادارة ومأذونية ٠ وكان خروجه هذا بناء على دعوة وافته قبيل العصر تطلب اليه أن يذهب اليها ليطلق اثنين كان قد زوجهما منذ خمس سنوات ، وكانت له فلسفته فى الطلاق تلك التى رواها العمدة لزواره ٠ ولكن العمدة نسى أن يذكر العيب الوحيد فى الطلاق ، ذلك أن الشيخ عبد الودود يخرج من الطلاق غالبا دون أن يتناول العشاء الذى يتاح له فى الزواج دائما ٠ ثم ان أجره فى الطلاق معلوم لا يزيد مليما عما قدرته له الحكومة ، والفلاحون أعلم النـــاس بما تقدره الحكومة فى مثل هذه الأمور ٠ أما فى الزواج فقد كان الشـــيخ عبد الودود يطمع الى جانب العشـــاء أن يأخـــذ ما يزيد على أجره المعلوم ٠

خرج الشيخ من قريته قاصدا الى الرجل الذى ســـيصب فى حافظته ، ومن ثم فى حزامه خمسة وعشرين قرشا ثمنا له على تطليق زوجته ٠ وأخذ الشيخ يفكر فى زهادة المبلغ الذى يتقاضاه ازاء هذا المعروف الكبير الذى ســـيؤديه لذلك الرجل ٠٠ انه سيخلصه من زوجته التى آذته ونكدت عيشـــته ، ثم لا يصيب من بعد الا هذه الصبابة الضئيلة من المال ٠ ولم يكن الشيخ يعلم ـــ ولا يعنيه أن يعلم ـــ ان كانت المرأة هى التى آذت الرجل المطلق أو أن الرجل هو الذى آذاها ، وانما كل همه ذلك المبلغ الذى سيجرى الى جيبه ٠

وبلغ الشيخ منزل الطلاق وراح يقول للزوج : « ان أبغض الحلال عند الله الطلاق » ٠ وراح يقول : « تمهل واصبر وفكر ، وسأعود اليك غدا » ٠ وهو فى صميم نفسه يتمنى ألا يطيع الرجل نصائحه التى كان يلقيها القاء يجرى به لسانه فى موات ؛ فلا تبلغ شفتيه حتى

تصبح غمغمة غير مبينة يكاد السامعون ـ لولا سابق العلم بها ـ ألا يفهموا منها شيئا .

ويصر الرجل على الطلاق كما قدر الشيخ عبد الودود ، ويأخذ الشيخ الخمسة والعشرين قرشا ويترك البيت بلا عشاء ـ كما قدر أيضا ـ ويأخذ سبيله الى قرية السلام .

الليل أسود والطريق طويل مقفر ، ولكن الشيخ عبد الودود يسير يفكر فى هذا المبلغ الجديد الذى أضافه الى ثروته ، والذى لم يأخذ طريقه بعد الى الحزام ، فقد تعود ألا يضيف الى الحزام دخله الجديد الا فى البيت . وراح الشيخ يحسب وما كان محتاجا لحساب، ولكنه يلتذ التفكير فى المبلغ الذى يرتفع كل لحظة فى حزامه .. راح يحسب .. لقد كان معه سبعمائة وخمسة وعشرون جنيها وخمسة وعشرون قرشا . والآن حين يصل الى البيت ، سيصبح بالحزام سبعمائة وخمسة وعشر ..

ـ قف

صوت انبعث من الليل واضحا جليا ولكن الشيخ لا يصدق أذنيه ويهم بالمسير بعد أن توقف هنيهة ، ولكن الصوت يعود مرة أخرى !

ـ أقول قف .

ويقف الشيخ لأنه أصبح لا يستطيع المسير ، وفى همهمة لا يفهمها هو يقول :

ـ من ؟

ـ عفريت .

ـ عفريت ؟

ـ نعم •

ـ بسم الله الرحمن الرحيم •• الله لا اله الا هو •••

ويصل الى قفا الشيخ حديد صلب بارد ، ويزداد التصاق الحديد بقفا الشيخ فيحس عينى بندقية ملتصقة بشدة الى قفاه كما يلتصق الحزام بجسمه ، ويرتفع صوت الشيخ :

ـ الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا ••

ويأمر الصوت الممسك بالبندقية فى صوت خفيض حازم :

ـ اخرس •

ـ حاضر •

ـ هات •

ـ ماذا ؟

ـ نقودك •

ويغمغم الشيخ قائلا :

ـ ليلة سوداء •• عفريت أم لص ؟

ـ ومالك أنت ؟

ـ انه مالى والله العظيم •

ـ اذن هاته •

ـ كان العفريت أرحم •

ـ أسرع •

وتومض فى رأس الشيخ فكرة رائعة ، لم لا يعطى هذا الرجل حافظته التى لا تحمل غير خمسة وعشرين قرشا وثلاثة قروش كانت فيها قبل أن يخرج من البيت ؟ والرجل لن يعرف من أمر الحزام شيئا فتصبح المصيبة هينة • وأين ثمانية وعشرون قرشا من سبعمائة و •• وقبل أن يكمل الشيخ تفكيره يصيح به حامل البندقية وقد أصبح فى مواجهته :

ـ أسرع .

ونظر الشيخ مليا فى اللص الذى يهدده فلم يتبين منه فى غبش المساء غير وجه يحيط به اللثام من جميع نواحيه ، وقد حمل بندقية قصيرة مقروطة ووضع فوهتها فى صدر الشيخ ، وعاد اللثام يقول :

ـ أسرع .

وأخرج الشيخ حافظته وهو يقول فى تظاهر بالحزن :

ـ تفضل !

ويأخذ اللثام الحافظة ويمد يده مرة أخرى :

ـ أسرع .

ـ ماذا

ـ هات .

ـ ماذا ؟

ـ الحزام .

ـ ألماذا ؟

ـ الحزام .

ـ أى حزام ؟

ويمد اللثام يده الى بطن الشيخ عبد الودود ، ويضع يده من فوق الجلباب على الحزام .

ـ هذا الحزام .

ـ يا ابنى اتق الله .

ويدفع اللثام المقروطة فى صدر الشيخ وهو يقول :

ـ أسرع والا قتلتك .. أسرع .

ـ يا أخى حرام .. حرام .. خذ نصف ما به .

ـ هات الحزام .. هات الحزام قلت لك .

ومد اللثام يده الى جلباب الشيخ عبد الودود وجذبه منه جذبة قوية ، شقت الجلباب عن قميص أبيض أصبح هو الحائل الوحيد بين الحزام وبين يد الرجل .

ـ هات الحزام .

وتمالك الشيخ عبد الودود نفسه بعض الشيء وهو يقول :

ـ والله يا بنى أنا لا أستطيع أن أعطيك الحزام بيدى ، فخذه أنت ان شئت .

ـ فارفع هذا القميص .

ـ لا أستطيع يا ابنى .. يدى لا تقوى .

ويمزق صاحب اللثام القميص أيضا ، ويفك أربطة الحزام فيخلص اليه ، فيدفع الشيخ بعيدا عنه ويصيح فى وجهه :

ـ امض .. اذهب الآن .

ـ أذهب ؟

ـ أسرع .

يقولها ويطلق عيارا فى الهواء فينكفىء الشيخ من الرعب ، ولكن قدم صاحب اللثام تعاجله بركلة فيقوم مهرولا طريقه الى البلدة ، ينكفىء فيحس قدم اللص التى ركلته فيقوم ثم ينكفىء ، ويقوم حتى يدخل البلدة ذاهلا هلعا ينكفىء لا يسمع حتى تلك الأعيرة التى تعالت متكاثرة بعد العيار الذى أطلق لاخافته . فقد ظن الحراس أن هذا العيار قد أطلق لايقاظهم ، فراحوا يظهرون مقدار يقظتهم بأعيرة عالية الصوت تجاوب صداها فى وسيع الفضاء .

٨

رجع المشايخ الثلاثة من عند العمدة وقد أذهلتهم فى ليلتهم تلك أمور كثيرة • عجبوا أول ما عجبوا من الحاج ابراهيم وغضبه ، وقد تعودوا أن يمزحوا معه فى شأن هذا الفدان وتعود هو مزاحهم ، وكان يقبله لأنه لا يمس حقيقة نفسه ، فقد كان يدرى أن يده لم تمتد يوما لغير الحق ، وقد كان يحسب اخوانه يدركون أنه لن يرضى لنفسه الا هذا الحق الذى ألزم به نفسه • ولكنه حين رأى مزاحهم يلقى فى مواطن الجد ، اتخذ هذا الموقف الحازم وألزمهم حدا يقفون عنده • وعجبوا من اقبال الشيخ حسن الضاحك المستبشر ثم انصرافه الغاضب العجلان ، ثم عجبوا من ثورة العمدة بأحمد أبى خليل ، وميله الى صالح بعد أن عرف فقر صالح وعسر يده ، ومع تمام علمه بغنى أحمد وكرمه اذا اقتضى الأمر كرما • وراحوا يتساءلون فى أنفسهم أهى غمزات الحاج ابراهيم حركت فى العمدة بقية عفة ، أم أن العمدة غاضب الشيخ حسن فضاق صدره وأفرغ غضبه على أحمد •• أيا كان الأمر فقد مشى ثلاثتهم صامتين يدير كل منهم الأمور فى رأسه ولا يبين عنها •

وعلا ضجيج المساء من حولهم فازداد صمتهم ، فليس لأمسيات الصيف فى الريف سكون ، فثمة الكلاب النابحة تتناوب النباح كأنها موكلة بالسكون ألا يسكن ، فان مرت هنيهة لم يجب فيها كلب كلبا علا نقيق الضفادع وتصاعد من كل أقطار الأرض ، فيخيل اليك أنها تعيش فى البيوت والطرق والحقول وكل مكان ولا تقتصر سكناها على الترع ومواطن الماء ، وقد يطيب لها من حين الى حين أن تقطع ضوضاءها طفرة واحدة ، ومن ثم تتبين صوتا منفردا كان يخالط أصواتها فيكونان معا نغما واحدا تعوده أبناء القرى ويضيق به زوارها . ان صمتت الضفادع صات هذا الصفير وحده ، فهو صفير تسلخت نغماته ودقت فما فيه من حلاوة الصفير شيء . انها الصراصير تشارك فى العدوان العنيف على سكون القرى .

وكان المشايخ الثلاثة غارقين فى صمتهم تصل اليهم هذه الأصوات فلا يحسون من أمرها شيئا ، فهى توافيهم مع غروب الشمس فهم قد عودوها كما عودوا أن تغرب الشمس فيحل المساء ، ولكن صوت طلق نارى اندفع الى آذانهم غير بعيد وغير قريب أيضا ، ثم تبعه طلق ثان فثالث فرابع ، فتضاحك الحاج على وقد انتوى أن يقطع صمتهم الذى طال به الأمد :

ـ يا أخى أولاد الكلب هؤلاء لا يكفون عن اطلاق النار فى الهواء فان هاجمهم لص ولوا الفرار .. أتراهم يحرسون القطن من الهواء الذى يصوبون اليه أعيرتهم ، والله صدق من قال :

واذا ما خلا الجبان بأرض　　طلب الطعن وحده والنزالا

فقال الشيخ رضوان :

ـ يا أخى أنت لا يسلم أحد منك أبدا .. هل أنت مسحوب من لسانك يا أخى ؟ .. وماذا فعل بك هؤلاء الخفراء أيضا ؟ انهم ينبهون بعضهم بعضا حتى اذا جاء اللص ...

فقاطعه الحاج على قائلا :

ــ يفرون جماعة .

ــ يا رجل حرام عليك .. أنت حاج !

ــ وما دخل الحج بهذا .. ؟! أكنت حججت حتى لا أقول الحق ؟

ــ أى حق ؟

ــ حقك على .

ــ وأنا مالى حقى أو حقك .. أتراك فرغت من الخفراء وتريد أن تستدير الى .

ــ لا والله ، ولكنى أعرف أنك تحمل لى بعض الغضب فى نفسك منذ النقاش الذى دار بيننا عند العمدة ، وأنا غلطان .

ــ النهاية يا حجعلى .

ــ لا تكن غضوبا .. أنا غلطـان .. أنا غلطـان لك وللحاج ابراهيم .

وحينئذ أجاب الحاج ابراهيم فى شىء من عدم المبالاة :

ــ يا سيدى العفو ، لا غلط ولا يحزنون .

فقال الحاج على وقد لطف من صوته بعض الشىء :

ــ والله ما كنت أعلم أنك ستغضب كل هذا الغضب ، فقد تعودت أن أمازحك بشأن هذا الفدان .

فقال الحاج ابراهيم :

ــ المزاح شىء والجد شىء .. النهاية سأترككم هنا لأذهب الى البنت سعدية وآخذها الى بيت زوجها .

فقال الحاج على :

ـ وستأتى بعد هذا الى الدكان .

فقال الحاج ابراهيم :

ـ سأرى .

فأقسم الحاج على عليه أن يأتى ، وراح يكرر له الاعتذار بعد الاعتذار حتى لان جانبه ووعده أن يلحق بهما . ثم تركهما وحاد الى طريقه ، وأكملا هما طريقهمـا الى الدكان وما كادا يجلسـان به حتى أقبل اليهما أحمد أبو خليل ، وما ان رآه الشيخ رضوان حتى هم بالقيام فاذا أحمد ينكب على يده يقبلها .

ـ لماذا يا عم الشيخ رضوان ؟ ماذا فعلت لك حتى تغضب على كل هذا الغضب ؟

فلوى الشيخ رضوان رأسه عن محدثه ، وقال الحاج على :

ـ كيف تسأل ؟ ألا تعرف ؟

فقال أحمد :

ـ ليس بينى وبين عمى الشيخ رضوان شىء .. الا اذا كان غاضبا ، لأنى سألته عن صحة حديث لم أكن متأكدا منه .. ثم تأكدت أنه صحيح وارد فى صحيح البخارى .. فهل حرم السـؤال يا عم الشيخ رضوان ؟ .

فقال الشيخ رضوان فى خيلاء أن وضح علمه بعد أن كان الحاج على ينكره عليه وقال :

ـ يا بنى مالك وللعلم .. ؟!

فقال الحاج على :

ـــ أوجدت الحديث فى البخارى ؟

فقال أحمد :

ـــ أى نعم ؟

فقال الحاج على :

ـــ ونعم يا ابنى بالعلم .

فقال أحمد :

ـــ وهل يستغنى أحد عن العلم يا عم الشيخ رضوان ؟

فقال الشيخ رضوان :

ـــ النهاية ، غفر الله لك .

وسأل أحمد الحاج على :

ـــ فأين عمى الحاج ابراهيم ؟

فقال الحاج على فى مزاح قريب من الجد :

ـــ ابعد عنه .. لم تعد بينكما صلة منذ اليوم .. لقد أقسم طلاقا ثلاثا ألا يشترى منك فدانك مهما يكن ثمنه .

فنتر أحمد يده وقال فى استهتار :

ـــ يا عمى صل على النبى .. غدا يجد ألف شيخ وشيخ يؤكدون أن يمينه غير محرجة ولم تقع ، وأن لا بأس عليه أن يشترى الفدان ما شاء له الشراء .

وهنا صاح الشيخ رضوان فى غضب :

ـــ أى مشايخ نعنى يا ولد ؟

فعاد صوت أحمد الى سابق جده :

ـــ أستغفر الله يا عمى الشيخ رضوان .. انما أقصد المشايخ

أصحاب المصالح الذين يبيعون ذمتهم لمصالحهم .. مثل الشيخ عبد الودود وأمثاله .

وهدأ الشيخ رضوان وضحك لأحمد . لكن الحاج علي قال :

ـ لا والله ما أظن الحاج ابراهيم الا صادقا في يمينه وفي نيته .

فقال أحمد :

ـ والله ما صادق الا أنت يا عمي الحاجعلي .. انما أنت رجل نقي السريرة صافي النفس .. النهاية .. ما الذي أثار على العمده هذه الثورة .. ؟! أكل هذا من أجل الحاج ابراهيم ؟ أتراه جازت عليه حيلة اليمين بالطلاق فاعتقد أن الحاج ابراهيم صادق فيما ذهب اليه من أنني أغازل سعدية .

فقال الحاج علي :

ـ والله أنا أرى في الأمر سرا ، وخاصة بعد أن صارحه الحاج ابراهيم بأن صالحا لا يملك شيئا .. فغضبه كان وهو يائس من صالح كل اليأس .

وقال الشيخ رضوان :

ـ والله العمدة رجل طيب وابن حلال ، وقد رأى أن الاعتداء على الحرمات أمر لا يجوز .

فقال أحمد :

ـ الله يشهد ما اعتديت أبدا .

وقال الحاج علي :

ـ انه رجل طيب فعلا ، ولكن أسعاره غالية جدا .

فقال الشيخ رضوان :

ـ يا رجل اتق الله .. أغلب العمد على هذه الحال .
فقال أحمد :
ـ والله لقد كنت مستعدا له استعدادا ضخما ، ولكنه قطع رزقه بيده .
فقال الشيخ رضوان :
ـ ولماذا كان استعدادك ، لا بد أنك كنت تنوى شيئا .
فقال الحاج على :
ـ ارحم الولد يا شيخ رضوان ، فقد أعد لك هدية عظيمة .
فقال الشيخ رضوان :
ـ انى أقول الحق وأمرى لله .. العمدة كان محقا الليلة .
فنظر أحمد الى الحاج على مستنجدا ، فقال الحاج على :
ـ أكل هذا لأنه أوصى بك لتبقى معلما فى القرية ؟ .. قل لى بذمتك كم دفعت له من أجل هذه التوصية ؟
فقال الشيخ رضوان :
ـ لا شيء وأقسم بالله العظيم .. بل انه ..
وقطع الشيخ رضوان جملته فى حين أكملها الحاج على :
ـ نعم .. نعم .. بل انه زاد مرتبك كخطيب للجامع .. وما عليه أن فعل .. عشرة أفدنة موقوفة على الجامع يأخذ ريعها جميعه ولا يدفع الا أجرك ..
فقال الشيخ رضوان :
ـ يا رجل اتق الله .

فقال الحاج على لأحمد :

ـ وأين هديتى يا سى أحمد ؟

فقال أحمد :

ـ تحت الأمر والاذن يا عمى الحاجعلى .

فقال الشيخ رضوان بصوت فيه دلال :

ـ أى هدية يا ولد ؟

فقال أحمد وقد أحس أن مطلبه فى يده :

ـ هدية على ذوقك يا عمى الشـــيخ رضوان .. قطعة حرير قفطان لا مثيل لها ..

فقال الشيخ رضوان مسرعا :

ـ هديتك مقبولة يا أبا خليل .. والله انك رجل طيب وابن حلال يا سى أحمد .

فقال أحمد وقد غمره الفرح :

ـ أنت الخير والبركة يا شيخ رضوان .. وما هذه الهدية .. ؟! الهدية الحقيقية ستراها عندما يتم المطلوب باذن الله .

فضحك الشيخ رضوان وقال من خلال قهقهته :

ـ وما هو المطلوب يا ترى ؟

فقال أحمد فى صوت أسيف جاد :

ـ هل يرضيك يا عم الشيخ رضوان أن تعاشر زوجة زوجها وهى تكرهه أشـــد الكره ؟ وهل يرضيك ويرضى الله أن تعـــاشر زوجة زوجها وهو لا يقدم لها ما يقوم ببيته ؟ وانما يلقى فى يدها بضعة قروش ضئيلة فى كل موسم ولا يحضر لها ما يكفيها من الذرة ،

ويأمرها أن تعمل طول يومها ان لم يكن فى جمع القطن فهو يأمرها بأن تخبز للناس خبزهم لقاء بضعة أرغفة ، فتظل — وهى الفتاة فى ربيع العمر — بين الدور والحقول مشردة ، ولو كانت تحب زوجها لهان الخطب ، ولكنها تكرهه يا عم الشيخ رضوان ولا تطيق أن تراه .. ارحمها يا عم الشيخ رضوان .. ارحمها لله »

فقال الشيخ رضوان :

— وماذا يمكن أن أفعل يا أحمد ؟

فقال الحاج على :

— لا حول ولا قوة الا بالله يا شيخ رضوان ، اننا نحن من نفعل .. وما فائدة صداقتنا للعمدة ان لم نستطع أن نقوم بمسألة صغيرة مثل هذه ؟

فقال الشيخ رضوان :

— النهاية يابنى ، ربنا معنا .

فقال أحمد :

— أطال الله عمرك يا عم الشيخ رضوان .. وبارك ..

وقبل أن يتم جملته دخل الى الدكان الحاج ابراهيم الحسينى ، وما ان يرى أحمد حتى تعود الى وجهه تلك الغمامة التى خرج بها من عند العمدة ، ويلقى الحاج ابراهيم تحية ما ان سمعها الثلاثة حتى أدركوا ما بنفس الحاج من ضيق ، ولم يسكت الحاج عند ذاك بل هو يقول :

— ماذا ؟ ألم تجدا الا هذا الولد لتسامراه ؟

وقبل أن يجيب أحد سارع أحمد قائلا :

ـ ماذا فعلت لك يا عم الحـاج ابراهيم ؟ .. ان كان عن الفدان ..

فقاطعه الحاج ابراهيم قائلا :

ـ ألم يخبرك صديقاك أننى أقسمت يمين طلاق ألا أشترى هذا الفدان مطلقا ؟

ـ ومع ذلك أنا تحت أمرك ، أنا والفدان وكل ما أملك . ولكن لماذا أنت غاضب على ؟

ـ يا ابنى أنا أغضب على كل انسان لا يراعى الله فى أعماله .

ـ وأنا ماذا فعلت لك ؟

ـ فعلت ما فعلت والسلام .

ـ والله يا عم الحـاج ابراهيم انك لو عرفتنى على حقيقتى لوجدتنى كما تحب . فأنا كريم ويدى مفتوحة ، وخدام الأصدقاء ولا أبخل مطلقا .

ـ يابنى الكريم كريم على نفسه .

ـ وعلى أصدقائه أيضا يا عم الحاج ابراهيم .

ـ لا يهمنى يابنى كرمك أو بخلك .

وهنا قال الحاج على :

ـ ماذا يا أحمد ؟ . أتظن أن الحاج ابراهيم يهمه كرمك ؟

فقال أحمد :

ـ لا والله ، فانى أعرف الحاج ابراهيم منذ أنا طفل صغير ، ولكن بودى أن يقبل الهدية التى أعددتها له .

فقال الحاج ابراهيم فى غضب حاول جهده أن يكبته .

ـ أنت يا ولد تحاول رشوتى •

ـ حد الله بينى وبين ذلك يا عم الحاج ابراهيم ، وانما أقدم اليك هدية صداقة وصلح بيننا •

فقال الحاج ابراهيم وغضبه مكبوت ما زال :

ـ اسمع يا حجعلى ، لقد ألححت على أن أحضر اليك وقد جئت حتى لا تغضب ، ولكن ان كنت قد جئت بى لأهان فى مجلسك ، ولأرمى بأننى لص يرشونى مثل هذا الغلام ، فاسمح لى أن أقوم •

وقبل أن يجيب الحاج على سارع أحمد قائلا :

ـ لا تغضب يا عم الحاج ابراهيم فانى أنا الذى سأنصرف ، ولكن الذى أعرفه أن الهدية تسمى رشوة اذا كان مقدمها يريد أمرا عند من يقدمها اليه ، ولكننى لا أريد منك شيئا •

ـ لعلك لا تريد شيئا ، ولكنك تريدنى أن أغض عينى عنك ولا أرفعهما ، وكيف يمكننى أن أرفعهما وقد خفضتهما بهديتك ••• لا يابنى ، أنا رجل كبير وأخلاقى تكونت ، ولم يعد فى الامكان تغييرها •• لا يابنى لا •• أغنانى الله عن هداياك •

ـ أمرك يا عم الحاج ابراهيم •• أمرك •• سلام عليكم •

وقبل أن يخرج أحمد من الباب تدخل الى الجمع امرأة عرفها الجميع ، فتصايحوا بين ترحيب وعجب أن تقصد اليهم زوج الشيخ عبد الودود وما تعودوا أن يروها فى غير دارها ، وقد اتخذت من الثياب ما تواضعت النسوة على ارتدائه ان هن أزمعن أن يلتقين بالرجال أو يخرجن الى الطريق ، فهم لم يروها الا فى ثيابها السوداء مسدلة عليها حتى أخمص قدميها وقد ألقت على رأسها خمارا ، أما الآن فهى تطالعهم وقد ارتدت جلبابا ملونا فاقع الحمرة نبتت فيه

ورود خضراء ، واتخذت على رأسها منديلا قلق المكان • فقد كان وجهها أصغر من أن يسع هذا الذعر الذى ألقى عليه ، فامتد هذا الذعر الى منديلها بل الى جلبابها المنتفض •

ــ أدركونى •

ــ خير يا أم اسماعيل ؟

ــ الشيخ عبد الودود •

ــ ماله ؟

لا أدرى •

ــ ماذا تعنين ؟

ــ كنت أنتظره فاذا هو يدفع الباب ، ثم ينكفىء على وجهه وهو يقول •• سرقنى ، ضربنى ، المقروطة ، الحزام ، سبعمائة وخمسة وعشرون جنيها وخمسة وعشرون قرشا والمحفظة وثمانية وعشرون قرشا ، سرقنى •• فرحت أربته وأحاول أن أهدىء من ثائرته ، ولكن الذى تملكه يأبى أن يزول عنه ، ثم قال فجأة : اذهبى الى دكان الحاجعلى واطلبى الى الحاج على والشيخ رضوان والحاج ابراهيم أن يأتوا الى •

فقال الحاج ابراهيم :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله •• لا حول ولا قوة الا بالله ، هلم يا رجال •

فقال أحمد أبو خليل :

ــ هلم •

فقال الحاج ابراهيم :

ــ وأنت الى أين ؟

ــ معكم •

ــ لا ان الرجل لم يطلبك وما أظن الزيارة مناسبة فى مثل

هذه الحال .. سنذهب نحن الذين طلبنا .

ـ أمرك .

وخرج القوم من الدكان ، وساروا طريقهم بعد أن أقفل الحاج على أبواب دكانه .

وما ان بلغوا بيت الشيخ عبد الودود حتى تقدمتهم زوجه الى مكان زوجها ، وهناك التقوا بالرجل لم يبق منه الا ذعر وألم .

وقص عليهم الشيخ عبد الودود ما كان من أمره وأمر اللص فى كلمات لا تكاد تكتمل وهى تخرج ، وانما هو يقف فى منتصف الكلمات وقد بدا عليه أنه يريد أن يلقى بحمله الى أى انسان ، ولكنه بعد أن يفرغ من القصة ويضع يده على موضع الحزام يحس بحمله كاملا لم ينقص .. بل لعله زاد .. !

ولم يصبر الحاج ابراهيم بعد أن فرغت القصة بل هو يقوم الى العمدة يوقظه ، ولا تلبث البلدة أن تصبح كلها فى يقظة كاملة ، فجميعهم مشغول ولا شغل ، وانما هم يروون ما سمعوه ويزيدون عليه ما امتد بهم الخيال ، ولم يأت وكيل النيابة حتى أصبح المبلغ المسروق من الشيخ عبد الودود سبعة آلاف جنيه ، وأصبح الشيخ عبد الودود بلا يد بعد أن قطعها اللص ، وبلا عقل بعد أن سلبت النقود عقله وهى ترحل عنه الى اللص الذى هاجمه .

وجاء وكيل النيابة ومعه مأمور المركز ، فقد كان قطع الطريق أمرا تهتز له أركان الأمن . وبدأ وكيل النيابة التحقيق بينما بدأ المأمور مساوماته مع العمدة عما سيقدم للعشاء وللفطور ، فان التحقيق سيطول الى الصباح .

وانتهى التحقيق بقيد السرقة مع كل الظروف المشـــددة التى لازمتها ، من ظرف الليل الى استخدام السلاح الى غير ذلك .. كل ذلك قيد ضد مجهول .

وبهذا القيد بدأت فى القرية فترة جديدة من الزمان لم ترها فى ماضى أيامها ، ولم تفـــكر فى يوم ما أنها ســـتلتقى بها على طريق الحياة .

٩

كان الليل قد خيم على القرية . فلا يقطع ظلامه الا نار تحلق حولها القوم يعدون. فيها جذوة الفحم التى لا تصلح الجوزة الا بها ، وقد يعدو على ظلام الليل بصيص من ضوء المصباح يتسلل من شباك احدى الدور ، فيمر بالظلام يكاد الظلام لا يحسه من فرط الضعف الذي يعانيه .

مر كمال بهذا الظلام وبهذه الخيوط المتهافتة من بصيص المصابيح ، يعبر كل شيء الى ظاهر البلدة حيث يربض بيت النمرود ، وكان قد انقطع عنه أياما كثيرة فرغ فيها الى المقروطة يستثمرها فتدر عليه المال الوفير . حتى اذا استولى الرعب على القرية والقرى المجاورة أحس أنه قد آن له أن يقطع اجرامه بعض الشيء حتى يعود الى الناس بعض اطمئنانهم ؟ فيعود اليهم هو فى غفوة من هذا الاطمئنان فينال ما تصبو اليه نفسه .. خطة كان قد رسمها منذ أمد بعيد فهو ينفذها لا يحيد عنها قيد شعرة .

فانه حين أصاب مبلغ الشيخ عبد الودود لم يكتف به ، بل انه فى الليلة التالية مباشرة ، هاجم عبد الرحمن أفندى السلامى الرجل

الذى ينافس العمدة على المنصب ، والذى يملك فى القرية عشرين فدانا ، والذى لا يحمل فى جيبه أقل من مائتى جنيه ويودع البنك مئات أخرى • وقد كان يحمل هذه الجنيهات ليباهى بها الناس كلما اجتمع حوله الناس ، فما كان له شىء يباهى به الا هذه الأموال •

وكان كمال قد عرف أنه قد ذهب الى القاهرة وأنه سيعود الى القرية عند المساء ، وكان يعلم أنه يقطع الطريق وحده من المحطة الى القرية ، والطريق من المحطة الى القرية محفوف من أحد جانبيه برمال الصحراء وتلالها •

وكان هناك تل يعرفه كمال ، ومن وراء هذا التل خرج كمال وقطع الطريق على عبد الرحمن ، فأصاب منه فى ذلك اليوم المائتى جنيه التى تعود أن يضعها فى جيبه ، وأصاب منه جنيهين وقروشا هى بقية جنيهات خمسة انتهبت الخمر وتذكرة القطار منها ثلاثة جنيهات الا قليلا •

وهكذا وقعت الحادثة الثانية فى موعد لم تنتظر القرية أن تقع فيه ، فما عودوا أن تقع حادثتان على شخصين فى القرية فى ليلتين متتاليتين •

وقيدت الحادثة ضد مجهول •• !!

وفى الليلة الثالثة كان الخواجة استاورو تاجر القطن خارجا من القرية فى طريقه الى القطار الأخير • وكان الليل أسود ولكن الخواجة كان مطمئنا لأن خفيرا نظاميا من قبل العمدة كان يرافقه • ولكن الخفير النظامى كان أكثر جبنا من الخواجة حين وضعت المقروطة فى ظهره ، وحين طلب كمال من الخواجة أن يعطيه ما يحمل من المال • وتسلم كمال المال وأمر الخواجة وحارسه أن يعودا أدراجهما الى القرية ، وأطلق خلفهما عيارا جعل الأعيرة تنطلق من الخفراء ، وجعل سكان

السلام يطمئنون الى أن الأعين من حولهم يقظة مفتحة ، تحيطهم بالأمن الراصد وبالسلاح القاتل لكل من يحاول أن يعدو عليهم ، وما عرفوا أن هذا العيار انما كان اعلانا عن جريمة ثالثة تقع فى الليلة الثالثة .

... ما عرفوا ذاك الا حين عاد الخواجة استاورو مع الخفير ، وقد أخذ الهلع بمجامع الخفير بينما راح الخواجة استاورو يهدىء من روعه ، فما كان يحمل غير خمسين جنيها وهى أقل من أن يفقد رجل مثل الخفير حياته من أجلها ، فقد كان يوشك من الخوف أن يموت .

كان كمال قد أعد الخطة بدقة . ومن ذلك الذى يظن أن قرية واحدة يعتدى على ثلاثة منها فى ثلاث ليال متوالية ؟

وقيدت الحادثة ضد مجهول ..

وهل كان كمال الا مجهولا ؟ ومن ذلك الذى يظن أن كمالا يستطيع أن يعتدى ، وهو من عاش عمره مرعى للاعتداء ، ومواطئا للهوان ، وصوتا أجوف يشيع ميتا أو يزف عروسا ؟ وفى هذا المجهل، وفى هذه الزاية المتوارية عن الأعين ، وفى هذه الغمرة من حقارة الشأن ، كان كمال قد أعد الخطة وانتفع بكل شىء ، حتى بهذا الاحتقار الذى كان يتمتع به فقد كان يتوارى فى هذا الاحتقار بعد كل جريمة فلا يفكر أحد فيه ، وتقيد الحادثة ضد مجهول . فقد كان جبابرة الليل فى القرية فى مكانهم عند كل حادثة ، وكان الجميع يرونهم حين تأتى اليهم أنباء الحوادث فيجدونهم مذهولين معهم . ولا مجال لشك فى صدق ذهولهم فقد كانوا معهم .

وان خطر لواحد ممن كان يراهم ومعهم كمال أن يسأل عن كمال أين هو ؟ انبعث أحدهم قائلا فى صوت من يضيق بالاجابة على تافه

الأمور في وقت لا يتفق مع هذه التفاهة : « انه مريض ، لقد أوسل الينا وطنية تخبرنا بذلك منذ أيام •• » •

ألم أقل لك انه كان قد أعد الخطة فأحكم اعدادها ؟ لم يغفل عن صغيرة منها منذ ذلك اليوم الذى أمل فيه أن يستولى على سلاح •

انتظر كمال بعد هذه الحادثة الثالثة يومين آخرين لم يخرج من بيته أبدا • وهو حتى فى أيام الجرائم الثلاث كان لا يترك بيته ، الا ريثما يتم جريمته ثم يعود •

وقد رأى أنه يكفى للمرض خمسة أيام ، ورأى أنه لا بد له أن يرى الدفراوى والنمرود ونورا والزهار ، فان له معهم شأنا فى ليلتهم تلك • أى شأن ! •

مشى كمال يفكر فيما كان من أمره وفيما سيكون منه ، ولكن هينمة أقل ارتفاعا من ضجة الكلام وأعلى خفوتا من الهمس قطعت عليه تفكيره •

نظر كمال الى مبعث تلك الهينمة فرأى موكبا صغيرا يسـعى فى الطريق مارا بين أكوام السماد ، وما لبث أن تبينه على ضوء نار بلغها فاتضح له عن درية تسير الى جانب فاطمة ، وقد تقدمهم خفير نظامى يشرع البندقية الى الفضاء • ووقف كمال دون أن يعرف سببا لوقوفه هذا ، أو لعله وقف دون أن يعلن الى نفسه السبب الحقيقى الذى من أجله وقف • واقترب الموكب الثلاثى الصغير •

ـ مساء الخير يا ستى درية •

ـ مساء الخير يا كمال •

ومشى كمال خلف الركب دون أن تعلن نفسه الى نفسه السبب الحقيقى الذى من أجله مشى ٠

ــ خير يا ستى درية ، الدنيا ليل ولا قمر ، وأوشك الجو أن يكون باردا ، والحالة خطرة فى هذه الأيام ٠ فالى أين ؟

ــ والله سأذهب الى عمك الشيخ عبد الودود لأطمئن عليه ، ثم الى عبد الرحمن أفندى السلامى ، ثم الى عبد المنعم الخفير فقد سمعت اليوم أن حالته خطرة ٠

ــ أطال الله عمرك يا ستى درية ٠٠ وتعودين بعد ذلك الى البيت ؟

فترددت درية قبل أن تجيب :

ــ نعم ٠

ولما رأت فاطمة تردد درية والحاج كمال ، تدخلت فى الأمر حازمة ٠

ــ الله ٠٠ ماذا جرى يا ولد ٠٠ ؟ أهى محاكمة ٠٠ ؟ امش ٠٠ اذهب الي حالك ٠٠ مالك أنت وما لخروجنا أو عودتنا ٠٠ ؟ جاءتك داهية ٠٠ امش !!

وقال كمال وهو يبتسم ابتسامة العظيم الى الذى يتغاضى عن تطاول الأطفال جهلوا قدره :

ــ حاضر ٠٠ حاضر يا ست فاطمة ٠٠ أنا ذاهب ٠٠ ولكن فقط قولى لحضرة العمدة ألا يأمن على الست درية بخفير واحد ٠٠ اطلبى اليه أن يرسل معها خفيرين أو ثلاثة ، فقد ثبت أن الخفير الواحد عندما يلتقى باللص يصبح عادة أضعف من الشخص المسروق ٠٠ أليس كذلك ياعم فتحى ؟

وانتفض الخفير فتحى غاضبا ، والتفت الى كمال الذى كان قد ولى الركب ظهره عائدا الى سبيله الأول •• قال فتحى :

ــ امش يلعن أبوك ابن كلب •• ألم يبق الا أنت يا ابن الضائعة لتتهكم على أسيادك •• يا تائه يا ابن الكلب يا طبال •• مصائب !!

بلغ كمال بيت النمرود ولم يلتفت الى النيران التى تحلق بها القوم ، ولم يعنه ذلك البصيص الذى يحاول عاجزا أن يغزو الظلام، فما كان يهتم بالضياء أبدا • كان يعرف طريقه بلا حاجة الى هداية •• بلغ كمال مجلس الاخوان فلاقوه بترحيب يختلط بكثير من التواضع ، فقد تشوقوا الى صيحاته المنافقة والى مجلسه منهم على الأرض حين هم على الأريكة يعد لهم الجوزة ، فيدخنونها دون أن يعانوا من اعدادها • تشوقوا الى هذا جميعه ، وأحبوا وعلى رأسهم الدفراوى أن يظهروا له أنهم متواضعون يحنون على من كان مثله ، فرحبوا به • ولكنهم لم ينسوا مكانه منهم ومكانهم منه ، فكان ترحيبهم غارقا فى التواضع الذى أحبوا أن يأخذوا به أنفسهم فى لحظتهم تلك قال الدفراوى :

ــ والله لك مكان يا أبا كمال •

وقال الزهار :

ــ يدى تحرقت من الفحم يا ابن الكلب •• اقعد •• اقعد ورص •

وقعد كمال ، وراح جبابرة الليل يصلون من حديثهم ما قطعه دخول كمال ، قال منصور :

ــ مصيبة والله العظيم يا أولاد • قرية فيها منصور الدفراوى يعتدى على ثلاثة منها على ثلاث ليال متتالية ، ماذا حصل فى الدنيا ؟

ويقول الكحلة :

ــ والمصيبة الأدهى أننا ــ ونحن أولاد الليل ــ لا نعرف من الفاعل .

ويقول النمرود :

ــ أتظنه سيقفز من السماء ؟ لا بد أننا نعرفه .

ويقول الكحلة :

ــ طبعا لا بد أننا نعرفه ، وهل في المديرية رجل لا نعرفه ؟

ويقول منصور :

ــ لا .. وخاصة أنه يبدو عليه أنه ثابت وذكي ، وولد يلعب بالبيضة والحجر ، وفاهم الشغل .

ويقول الزهار :

ــ والله يا منصور لا بد لنا أن نبحث عن هذا الرجل حتى نعرفه ، فانه سيكون ذا نفع كبير لنا .

ويقول منصور :

ــ والله يا ابني لو انضم الينا لاستطعنا أن نقيم الناحية على رجل .

كانت الجوزة تدور بيد كمال وهو صامت لا ينطق بكلمة ، وما عوده القوم صموتا ، ولكن جميعهم كان مشغولا بأنباء هذه الحوادث لا يلتفت أحد منهم من أمر كمال الا الى هذه الغابة التى يمدها اليه فيشهق منها بضعة أنفاس ، ثم يميل بها الى الذى يليه .

قال الكحلة :

ــ أي والله يا بني ، وخاصة اذا علمته أنت كيف يعمل سلاحه

وكيف يضرب به ، وأنت الرجل ذو اليد القاعدة التى لا تخيب أبدا .

وبدأ كمال يتكلم لأول مرة .

ـ اسمعوا .

فقال النمرود :

ـ سمعت الرعد يا كمال .. قل ماذا تريد !

فقال كمال :

ـ اسمعوا ولا تهذروا . فقد عشت معكم السنين الطوال لم أر منكم الا الهذر .. أنت يا منصور تقتل ، تقتل النفس التى حرم الله قتلها .. وتنال من أجل هذا ثمنا بخسا . لا بأس أن تقتل ولكن لا بد أن تنال الثمن وتحسن تقديره .. أعرف ماذا ستقول .. أنت ترى أن زملاءك ممن يستأجرون للقتل يقبضون نفس المبلغ الذى تقبضه أنت ، ولكن من قال ان القاتل ذا اليد القاعدة لا ينفع الا فى الاستئجار للقتل ؟ انك تستطيع أن تثير الرعب فى الناحية فتنال ما تريد . وأنت يا نمرود ، ماذا ؟ ألا تستطيع أن تعمل فى غير المخدرات ؟ ألا تلف بالبلاد وتعرف الصفقات ، ومن يملك كثيرا فيعطى من عنده القليل . لماذا لا تستفيد من دورانك ومعلوماتك فيستفيد منها الجميع ؟ وانت يا زهار منذ تركت العسكرية لا تحسن شيئا ، الا أن تميل بالطاقية وتفتح الزر الأعلى من الجلباب ، فان استأجرك أحدهم لتحرس شيئا أو لتقف خلف أنفار فيها والا فانك لا تسرق الا توافه الأشياء . وجعلت أكثر اعتمادك على استخدام النمرود لك فى تصريف بضائعه ، فعشت على نفقته فرحا لأنك تجد ما تأكل ، وهو فرح لانه أصبح ذا مستخدمين ومساعدين . وأنت ذكى لأنك لا تسرق الرجل الذى استأجرك للحراسة وان كنت تسرق جاره . وذكاؤك يا مسكين لا يعود عليك بغير النفع الضئيل . وأنت جرىء لأنك تسرق

فى وضح النهار وتعتمد على الضوء فى سرقاتك ، وتقول لمن يتهمك : انك لا يمكن أن تسرق فى الضوء . جرأة وذكاء ولكن بلا فائدة ، ولو أنك استعملت جرأتك وذكاءك فى السرقات الكبرى لكنت ذا نفع كبير . وأنت يا نور دخلت السجن وخرجت ثم لم تنتفع من دخولك وخروجك ، وقد كنت فى المديرية تعرف الكثيرين ، والعمدة منذ ذلك الحين يكن لك بعض الاحترام ، ولكنك تكتفى بالجلوس معنا معتمدا بعد ذلك على فدان وعشرة قراريط لا تجنى منها غير يسير مال . ثم أنت معتمد بعد ذلك على الجلوس معنا ، تروى عن أحداث الليل التى تدعى أنك شهدتها وما شهدت منها شيئا . خسارة .. كان يمكن أن تشهد لو أنك عملت ولم تتكلم ، وسعيت ولم تتشدق .

ثم سكت كمال فاذا القوم وقد فغرت أفواههم من الدهش ، وحملقت عيونهم فى كمال يسمعون منه عجيبة لم ينتظروا أن يسمعوها يوما .. وتزداد العجيبة غرابة أن تصدر عن كمال الذى لم يروا لسانه يتحرك فى فمه الا بمدحهم والمبالغة فى هذا المديح .

وقطع منصور هذا الصمت فى دهشة لا تزايله :

ـ يا ابن الكلب .. ومن أين تعلمت كل هذا ؟

ـ تعلمته من الرجل الذى أخذ من الشيخ عبد الودود سبعمائة خمسة وعشرين جنيها وثلاثة وخمسين قرشا ، ومن عبد الرحمن السلامى مائتى جنيه وجنيهين وأربعة وسبعين قرشا ، ومن الخواجة استاورو خمسين جنيها وخمسة وخمسين قرشا .

فقال منصور فى دهشة أقرب الى الفزع :

ـ ولد .. من أين عرفت حقيقة هذه المبالغ ؟

ـ ألم أقل لك اننى كنت مع من أخذها .

ـ ومن هو ؟

ــ لا أقول لكم حتى أبلغكم رسالته كلها .

ــ وما هى ؟

ــ لا أقولها لكم حتى تقسموا على المصحف .

ــ نقسم .

ــ على ماذا ؟

ــ نقسم على ما يريد .

ــ انه يريدكم أن تقســموا على أن تكونوا معه رجلا واحدا تأتمرون بأمره ، لا يرتفع صوت أمام صوته ، وقوله أمر ، واشارته تنفيذ ، ماذا تقولون ؟

وتراجع الدفراوى ، ثم نظر الى اخوانه متسائلا فرد اليه اخوانه نظرته بنظرات أكثر حيرة ، وان كنت تحمل أيضا رجاء اليه أن يقبل ما يعرض عليه . ولكن الدفراوى يسأل كمالا :

ــ وماذا نفيد من هذا ؟

ــ عزا لا تحلمون بمثله .. ومالا لا تبلغ اله أوهامكم مهما يشتط بكم الوهم ، فأنت يا زهار ستتزوج سعدية أم الخير التى طالما تمنيت زواجها .. فلن يكون زواجها من صالح أو سعى أحمد أبى خليل حائلا بينك وبين الزواج منها ، ولن تحتاج بعد اليوم الى أن تكون أجيرا أو عاملا بسيطا فى توزيع تجارة النمرود . وأنت يا دفراوى لن تقتل بعد اليوم الا فى سبيل الجماعة التى تعمل معها ، وستحميك من كل شىء . وأنت يا نمرود ستتسع تجارتك فتصبح كبير تجار مصر كلها . وأنت يا نور لن تحتاج بعد اليوم لربع فدانك الحقير ، سيجرى المال فى يدك فلا تدرى أين تنفقه .. ماذا تقولون ؟

وينظر الدفراوى ثانية الى القوم ويسألهم :

ــ ماذا تقولون يا رجال ؟

وصمت الرجال بأفواههم وقالت عيونهم : « نقبل » • ولكن الزهار قال :

ــ الأمر اليك ، فأنت كبيرنا •

وعاد منصور يسأل كمالا :

ــ ومن هو صاحبك ؟

ــ لا أذكر اسمه حتى تقبلوا •

ــ أخشى أن يكون خائبا فيضيعنا •

ويقول كمال فى ابتسامة هازئة :

ــ أمن أخذ هذه الأموال خائب ؟ • ماذا جمعت أنت فى حياتك كلها •• ؟ ما أظنك بلغت ما أخذه هو فى ليلة ؟!

ــ أجننت يا ولد ؟ لقد لعبت بالفلوس لعبا • انى أكسب القرش من •••

ويقاطعه كمال ساخرا :

ــ من فم الأسد •• سمعت هذا الكلام كثيرا •• كم فى جيبك الآن •• ؟ كم فى منزلك ؟

ويبهت منصور ويتلجلج ، ثم يقول لمن حوله محاولا أن يغطى خزيه :

ــ ماذا تقولون يا رجال ؟

ويقول الكحلة :

ــ ما تقول أنت ؟

ويقول منصور :

ــ وماذا لو قبلنا ؟ فان لم تعجبنا الحال قتلنا الرئيس •

ويقول كمال :

ــ على مهلك ، فانك ستقسم على المصحف أن تخلص له كل الاخلاص •

ــ آه صحيح !

ــ ثم انه ليس ساذجا ، وهو يتغدى بك قبل أن تتعشى به ، وهو يعرف أسراركم جميعا لا يغيب عنه سر واحد منها ، وورقة صغيرة الى المأمور تعدم أنت ويحبس اخوان الصفا •

ويقول منصور لمن حوله فى تردد مذعور :

ــ هيه يا رجال ؟

ويقول النمرود :

ــ نقبل يا منصور •• واذا لم يعجبنا الحال نفضها •

ويقول منصور كمن جمع أمره أخيرا :

ــ الأمر لله نقبل •• من صاحبك ؟

ــ القسم •

ويقوم النمرود الى داخل المنزل فيحضر المصحف ، ويسأل منصور :

ــ نقسم أن نطيع من يا كمال ؟

ــ تقسمون أن تطيعوا الذى أخذ أموال الشيخ عبد الودود وعبد الرحمن السلامى والخواجة ، وأن تخلصوا له وألا تخرجوا عليه مهما تكن الأحوال •

وأقسم الجماعة على المصحف القسم الذى أراده لهم كمال ، وما ان أتموه حتى التفت منصور الى كمال يسأل فى لهفة :

ـ من هو اذن ؟

ولكن كمالا لا يريح ثائره بل هو يقول :

ـ اسمعوا أولا ما ينوى أن يفعله لكم ، انه سيشترى لكل منكم حصانا وبندقية ومسدسا ، الا أنه يقول ...

ـ هيه .. ماذا يقول ؟

ـ يقول ان فى هذه البلدة فقراء كثيرين ، وهو يريد أن يفرض اتاوة على الأغنياء ويعطى منها للفقراء .

ـ وماذا سنفيد نحن ؟

ـ تفيدون أنكم ستطبقون الأفواه حواليكم فلا تنطق الا بحمدكم، وتقومون بأعمالكم فى الظهر الأحمر فلا يشهد عليكم أحد .. ثم انكم لن تعطوا هؤلاء الفقراء الا ربع أو خمس ما تنالون .

ويقول النمرود :

ـ وماذا سننال ؟

ـ ستنالون جنيها عن كل قنطار قطن يخرج من هذه البلدة ، وستنالون خمسين قرشا عن كل اردب حب تنتجه الأرض ، وستنالون خمسة جنيهات عن كل فدان يباع ، تنالونها من البائع لأنه أصبح وفى يده مال ، وتنالونها من المشترى لأنه يملك ما يشترى به . وستنالون جنيها فى العام عن كل جاموسة أو بقرة لتحفظوها لصاحبها فلا تسرق منه ، وهذا جميعه غير ما ستحصلون عليه من الماشية من البلدان الأخرى فتبيعونها أو تردونها بالحلوان ، وغير الاستفادة من الطرق الخالية التى لا يحرسها أحد . ألا يكفيكم من هذا جميعه أربعة أخماسه ، وتهبون للفقراء خمسه ، فيظل القوم حولكم صامتين لا يكشف أحد من أمركم شيئا ؟

وقال منصور وقد جف حلقه ، وبلغت به الدهشة أقصاها :

ـ يا ابن الكلب .. من صاحبك .. ؟ من صاحبك .. ؟ أشهد أنه رجل وابن رجل .. وأشهد أنه سيدى وتاج راسى .. من هو حتى أقبل حذاءه وأضع رأسى تحته .. من هو ؟

ورفع كمال الجلباب عن حزام الشيخ عبد الودود ، وفك أربطته فى تؤدة ثم رماه أمامهم فارغا فذهل القوم ، ولكن كمالا لم يبال ذهولهم بل هو يضع يده فى جيب صداره فيخرج حافظة الخواجة يلقيها أمامهم ثم يضع يده فى جيب جلبابه فيخرج حافظة عبد الرحمن فيلقيها أمامهم ، كل هذا فى بطء شديد ، بينما راح الرجال الأربعة يقلبون الأشـياء ويتعرفون عليهـا واحدة واحدة .. فهذه أوراق عبد الرحمن ، وهذه أوراق مكتوبة بغير اللغة العربية فهى للخواجة ، وفى ذهول مخدر لا يكاد يبين يتصايح أربعتهم صيحات تهم بالارتفاع، فيمسك بها الذهول والفزع والحشيش .

ـ من ؟ .. أنت ؟

ويقول كمال فى صوت هادىء حازم لم يسمعه القوم من قبل صادرا عن كمال ، ولم يسمعه القوم من بعد صادرا الا عن كمال :

ـ نعم .. أنا .

١٠

لم يكن تردد درية حين سألها كمال ان كانت ستذهب الى البيت بعد زيارتها وليد دهشة من السؤال ، وانما كان وليد حذر فى الاجابة، فقد كانت تضمر فى نفسها زيارة أخرى لم تطلع عليها غير فاطمة ، فقد كانت درية تنوى أن تزور بيت الشيخ حسن لترى وقع رفض أبيها •

وفوجىء فتحى بدرية وهى تطلب اليه أن يتقدم الى بيت الشيخ حسن الذى كانت تعرفه كل المعرفة ، والذى طالما قصدت اليه فى ستار من الليل ،تجلس الى الست أم صلاح • وقد كانت درية تظهر الحب كل الحب للست أم صلاح ، وجعلت من هذا الحب المصطنع ستارا أسدلته على حبها الحقيقى ، فكانت ترحب بأم صلاح كلما ألمت بهم فى زيارة ، وكانت تظهر لأمها شوقها الى أم صلاح كلما تأخرت هذه عن الزيارة •

وهكذا لم تر بأسا أن تزورها الليلة ، فما كان مفروضا أن تعرف بما كان بين الرجلين ؛ وما كان مفروضا أن تقطع أم صلاح فلا تزورها لمجرد أن أباها رفض ابنها • ولكنها مع كل هذا التبرير الذى اصطنعته

لنفسها أو عزت لفاطمة أن تكتم خبر هذه الزيارة ، وأن تطلب الى فتحى أيضا أن يكتمها •

كانت درية تعلم أن فخرى لم يقم فى القرية بعدما كان من أبيها، وأنه رحل الى القاهرة فى الباكر من الصباح التالى ؛ فهو لم يسمع من أمر الجرائم التى تمت شيئا ، وهكذا كانت تعلم أنها فى زيارتها تلك لن تلقاه ، ولكنها أرادت أن تقوم بهذه الزيارة عسى الأمل ألا ينقطع عند آل الشيخ حسن ، وعساهم يكررون الطلب اذا ما سنحت سانحة ليتكرر هذا الطلب •

ــ مساء الخير يا خالتى أم صلاح •

ــ أهلا •• مساء الخير يا حبيبتى ، خطوة عزيزة ، مرحبا بالحبيبة بنت الحبيب •

ــ أكثر الله خيرك يا خالتى أم صلاح ، كنت فى البلدة فلم أرض أن أمر ببيتك دون أن أزورك •

ــ مرحبا يا حبيبتى ، شرفت ! • يا فاطمة •

ــ نعم يا ستى أم صلاح ؟

ــ عندك البن فى الطاق ، اعملى لنا فنجان قهوة الله يسترك ، أنت عارفة مكان الحاجات •

ــ من عينى يا ست أم صلاح •

وتقوم فاطمة الى القهوة ، وتعود أم صلاح الى ضيفتها :

ــ أظنك كنت تزورين المساكين الذى اعتدى عليهم قاطع الطريق •

ــ اى والله يا خالتى مساكين ، حالهم يبكى •

ــ لا أعلم والله أين كانت هذه المصائب مختبئة لنا يا بنتى ؟

ـ اى والله يا خالتى •

ـ والمصيبة أن المصائب كلها جاءت متلاحقة ، عمك الشيخ حسن مريض •• منذ كان عند أبيك •• خرج مريضا من عندكم ولم يخرج من البيت حتى الآن •

ـ ألف سلامة له •

ـ والله زعل من أبيك جدا يا درية •

ـ ماله يا خالتى ؟ كفى الله الشر •

ـ والله يا بنتى لا أعرف •• حمى ـ بعيد عنك ـ أم برد ••• لا أدرى •• لا يكلم أحدا ولا يأكل شيئا منذ جاء من عندكم ، وزاد عليه المرض عندما سافر فخرى •

ـ كل شيء يهون يا خالتى ان شاء الله •

ـ عرف بالحوادث التى جرت ، وحاول أن يقوم فلم يستطع القيام ، حتى لقد جاء الخواجة استاورو قبل أن يسطى عليه فلم يستطع أن يلقاه ، وقال انه سيعود الينا فى اليوم التالى ، ولكن اللص هاجمه فى الطريق فلم يعد بعدها الى البلد أبدا •

ـ وبعد يا خالتى ؟

ـ لا بعد ولا قبل •• هى مصيبة وحطت علينا ، والأمر لله •• حتى الذين باعوا قطنهم للخواجةاستاورو وقبضوا منه عرابين قطنهم لم يأتهم أحد ليتسلم القطن ، وقد سمعوا أن الخواجة لن يعود الى بلدة السلام مرة أخرى ، وقد قصده أحمد أبو خليل يطلب اليه أن يأتى ليتسلم قطنه فقال له : انه لن يعود الى البلدة أبدا ، وأنه لا يريد العرابين التى دفعها •

ـ وبعد يا خالتى ؟

ـ القطن عندنا كالقتيل لا يجد من يشتريه ، وقد ذهب أخوك صلاح اليوم الى المديرية ليبحث عمن يشتريه ، ولم يعد حتى الآن •

ـ ان شاء الله يجد المشترى يا خالتى •

ـ والله يا بنتى لا أظن • التجار خائفون من القرية ، والتجارة يا بنتى أمان • النهاية •• كيف حالك أنت ؟

ـ الحمد لله يا خالتى •

وعادت فاطمة بالقهوة ، فراح ثلاثتهن يشربنها على حديث فاطمة التى انتهزت فرصة الصمت من السيدتين ، فقالت :

ـ ألم ترى وطنية اليوم يا ستى أم صلاح ؟

ـ لا والله يا بنتى ، لها أيام لم تأت •

ـ هناك •• انها اليوم فى أحسن حال ـ على الأقل فى شكلها ـ الا أنها مع كل ما هى فيه من نعيم غاضبة ساخطة كأنما مات لها عزيز •

ـ خير ؟ ما الذى جد عليها ؟

ـ جد عليها ؟ جلباب ان رأيته قلت فستانا •• أحمر حلو ، وعصبت رأسها بمنديل جديد ، والعجيب أن شعرها خاضع للمنديل الجديد ولا أدرى بماذا أخضعته ، لا بد أنها اشترت له زيتا غاليا •

فقالت أم صلاح :

ـ عجيبة •• ألا تكون هى قاطعة الطريق ونحن لا ندرى ؟

وضحك النسوة الثلاث ضحكا عاليا ، قطعه عليهم سعال الشيخ حسن صادرا من مقعده بأعلى المنزل ينادى زوجته :

ـ يا فضيلة •

ـ نعم يا شيخ حسن .

ـ فنجان قهوة وحياة والدك .

ـ حالا يا سى الشيخ .

وقبل أن تستأذن فاطمة لعمل القهوة ، استأذنت درية لتنصرف قالت أم صلاح :

ـ ولم ؟ .. اقعدى قليلا .. سأعود اليك حالا .

ـ لا ، تأخر بنا الوقت وأخشى أن يدخل أبى فلا يجدنى ، وهو في هذه الأيام غاضب ضيق النفس لا يطيق الدنيا .. مسيت بالخير يا خالتى .

ـ مسيت بالخير يا حبيبتى .. بلغى سلامى للست الحاجة ، وان شاء الله أجىء اليها عندما يغادر عمك الشيخ حسن الفراش .

ـ سأبلغها يا خالتى .

وحيت فاطمة أم صلاح وانصرفت تتبع سيدتها الى الخارج ، حيث وجدتا فتحى واقفا ينتظر خروجهما . وسار الركب عائدا الى بيت العمدة ، مارا بالنيران والأنوار الخافتة والرجال المتحلقين ، ولكن درية لم تحفل شيئا مما مرت به ، فقد هاجت لها الزيارة ذكريات قديمة وجديدة لازمتها حتى أسلمتها الى أمها المتسائلة عن التأخير ، فراحت درية تقص عليها ما لقيته فى البيوت المنكوبة ، وراحت الأم تسمع فى عجب حزين .

وحين خلت درية بحجرتها وأعادت ما كان من أم صلاح وترحيبها، أدركت أن أم فخرى لم تقطع الأمل ، فهى تعرف عن الست فضيلة ذكاء متوقدا ، وهى تعرف أنها ما كانت لترحب بها هذا الترحيب الا لأنها تضمر فى دخيلة نفسها أن تعود الى المحاولة ، وقد تمكن

هذا التفكير من درية حين تذكرت وعد أم صلاح بزيارة أمها . وهى تدرى أن أم صلاح ما كانت لتزور الأم ان كانت قد قطعت الأمل فى هذا الزواج الذى تصبو اليه نفوس كثيرة . وهى تدرى أن أم صلاح ما طلبت اليها أن تبلغ والدتها بهذه الزيارة الا لتشير لدرية نفسها من طرف خفى أنها غير غاضبة ، وأنها ما زالت تأمل أن يتم هذا الزواج ، فما كانت أم صلاح لتغبى أن زيارة درية انما تمت فى خفاء عن والديها .

وبهذه الآمال التى أحيتها درية فى نفسها استسلمت الى نوم منصور ، وأغمضت عينيها على أحلام وردية لا شأن لها ولا صلة بهذا السواد الحالك الذى يحيط بقرية السلام ، وبعمدة قرية السلام .

١١

فرغ العمدة من صلاة العصر وخرج الى مجلسه من شرفة الدوار ينتظر رفاقه ، وان كان فى هذه الأيام لا يطيق أن يرى أحدا ، فالمركز يطلبه دائما وهو حائر لا يدرى ماذا يفعـــل ، والمأمور لم تجد معه الهدايا والتزلف ، فان الجرائم التى ارتكبت كانت أكبر من كل الهدايا مهما تعظم ، ومن أى تزلف مهما يبلغ . حتى لقد هدده المأمور بالوقف ان هو لم يقبض على الفاعل ، وطلب اليه أن يكون على صـــلة دائمة به ليبلغه كل اشاعة تروج ، فلعل لاشاعة منها امتدادا للحقيقة .

ولم يطل الانتظار المنفرد بالعمدة فقد قدم اليه نور الكحلة وما كان يتوقعه ، ولكنه فرح بلقيـــاه فهو يعرف عنه أنه خريج سجون ويعرف المجرمين ، وداخل العمدة أمل أن يجد عند نور ما يضىء له بصيصا مهما يكن خافتا يهديه فى هذا الظلام الحالك ، وقال فى نفسه ان لم يرشدنى الى الفاعل فلعله يرشدنى الى اسم أقدمه الى المأمور فيلهيه عنى بعض الحين ، وهكذا وجد نور نفسه فجأة محل ترحيب لم يكن ينتظره .

ــ أهلا وسهلا .. كيف حالك يا نور . أين أنت يا أخى ؟ .. من زمن طويل لم أرك .

ــ تحت أمرك يا حضرة العمدة .. تشوقت اليك والله فقلت أزورك .

ــ والله جئت فى وقتك يا نور .

ــ تحت أمرك يا حضرة العمدة .

ــ يا أخى المصائب تتلاحق على البلدة ولا أجد أحدا منكم يساعدنى .. لا لم أكن أنتظر هذا منكم يا نور .

ــ نحن خدامك يا حضرة العمدة .. ماذا نفعل .. ؟ أنت تعرف طبعا أننا لا شأن لنا بهذه الأعمال .

ــ سبحان الله يا أخى ! وهل قلت ان لكم شأنا ؟ اننى أعرف خطواتكم جميعا ، وطالما سكت عما يفعله منصــور والنمرود والولد الزهار أيضا .. وكنت أقول ما داموا يبتعدون عن البلدة فليفعلوا ما شاءوا .

ــ والله يا حضرة العمدة ان هذه الجرائم لم ندر بها الا بعد وقوعها .

ــ أعرف ، ولكننى كنت أنتظر منكم أن تبحثوا معى عن الفاعل وتدلونى اليه . أيرضيكم أن يصبح عمدة بلدكم ضحكة فى أفواه العمد ؟!

ــ لا قدر الله يا حضرة العمدة .

ــ لقد قدر فعلا ، وأنا من أسكت عنكم ، وأعرف أن النمرود يبيع الحشيش ويساعده فى ذلك الزهار ولم أتكلم ، بينما أستطيع أن أبلغ عنهما ، وأعرف أن منصورا قتل الفرماوى ، وأعرف كل من قتلهم منصور ومع ذلك لم أتكلم .

ـ انهم يا حضرة العمدة يدعون لك دائما ويعرفون أنك تكرمهم، وهم في انتظار الاشارة منك .

ـ ألم تسمعوا شيئا عن الفاعل في هذه الجرائم ؟

ـ يا حضرة العمدة هذه المصيبة جاءت من الخارج ، رجال لطيف بك غاضبون وأصبحوا يخشونه بعد مقتل الفرماوى ، وهو يعرف تخوفهم هذا فأصبح لا يعطيهم ما كان يعطيهم ، فأظن أن واحدا منهم أو بعضهم خرج الى الطرقات المظلمة ليعوض ما أكله عليه لطيف بك .

ـ يا أخي قل كلاما غير هـذا .. ومن أين يعرفون بخروج الشيخ عبد الودود ، وبمجيء الخواجة استاورو الى البلدة ، وبسفر السلامي وعودته ؟ .. لا يا عم ، شرع الله عند غيرك .. انه واحد من أهل السلام .

ـ والله يا حضرة العمدة أنت أدرى ولكن هذا ما بلغنا ، ورجال لطيف لا تخفى عليهم خافية ، وأولاد الحرام كثير .

ـ جائز .. ولكن لا أظن .. على أى حال يا نور لك عندى جائزة كبيرة ان أنت عرفت الفاعل وأرشدت اليه .

ـ ربنا معنا يا حضرة العمدة .

وقبل أن يجيب العمدة صعد الى الشرفة الشيخ رضوان والحاج على ، ورحب العمدة بالرجلين ، وبدأ الحاج على الحديث :

ـ أسمعت يا حضرة العمدة الاشاعة التى ملأت البلد اليوم ؟

ـ هيه .

ـ يقولون ان رجال ..

ـ لطيف بك ؟

ـــ نعم ، أبلغك هذا ؟

ـــ والله نور هو الذى قال لى الآن •

ـــ الاشاعة فى البلد كلها يا حضرة العمدة •

ـــ كلام فارغ •• المجرم من البلد •• ولكن من هو ، لا أعرف •• مجرم جديد لا نعرفه ••

وقال الشيخ رضوان :

ـــ سنريحك من حديث الجرائم قليلا بحديث فارغ ؟

ـــ خير ؟

ـــ لا والله انه ليس خيرا ولكنه أهون من هذه الجرائم •• انه تسلية على كل حال •

ـــ ماذا ؟

ـــ سعدية أم الخير ••

ـــ وصالح •• ثانية •

ـــ يا حضرة العمدة العيشة لا تمكن بينهما •• لا تمكن أبدا •

ـــ لماذا ؟

فقال الحاج على :

ـــ غضبت منه ثانية •

ـــ قل عاشرة •

فضحك الجميع من نكتة العمدة ، وتابع الحاج على حديثه :

ـــ وذهبت الى دارها ، وأظنها ستجىء اليك الآن •

ـــ عظيم •• لم يبق أمامنا الا سعدية وصالح •• نقيم لهما عمودية ثانية خاصة بهما •• عظيم •• عظيم !!

وقبل أن يكمل العمدة سخطه يصعد صالح الى الشرفة ..

ـ السلام عليكم يا حضرة العمدة .

ويجد العمدة مصدر سخطه أمامه ، فيقول فى سخرية مريرة وفى ضيق بلغ مداه :

ـ عليكم السلام يا سيدى ورحمة الله وبركاته .. نعم !

ـ البنت سعدية .

ـ مالها ؟

ـ تركتنى وذهبت .

ـ فى ستين داهية .. اسمع يا بنى .. اقترب هنا . خذ ..

ويضع العمدة يده فى جيب صداره ويخرج حافظته ويخرج منها جنيهين ، ويكمل حديثه :

ـ خذ يا صالح .. جنيهين ثمن الفراخ وأنت حر مع زوجتك . تطلقها تطلقك ، تقيم معك تتركك .. المهم أن تتركنى أنت يابنى . ارحمنى يا أخى !!

ـ يا حضرة العمدة وهل طلبت منك ثمن الفراخ ؟

ـ من غير طلب يابنى .. يابنى .. ابعد عنى .. اعمل لى هذا المعروف يابنى .

ـ والى من أذهب يا حضرة العمدة .. انها ..

وقبل أن يكمل صالح حديثه تصعد سعدية الى الشرفة وترتمى على قدمى العمدة .

ـ خلصنى يا حضرة العمدة ، أنا خادمتك . ليس لى فى الدنيا غيرك يا حضرة العمدة .. أنت الذى رميتنى وأمرتنى أن أصالحه .. أرجوك يا حضرة العمدة .. أبوس رجلك يا حضرة العمدة .

ونتر العمدة قدميه مبتعدا بهما عن سعدية ، وهو يقول :

ــ عظيم .. تمت .. ماذا أفعل الآن يا سى صالح !

فقال الحاج على كمن يحاول تهدئة الحال :

ــ قل لى يا صالح .. أترى يا ابنى العيشة بينكما ممكنة ؟

ــ وماذا أفعل يا عم الحاجعلى ؟

ــ طلقها يابنى .

ويقول الشيخ رضوان :

ــ نعم .. طلقها يا أخى .

وتترقرق العبرات فى عينى صالح فتمسك بها رجولة ، ويهم بأن يقول « أحبها » فترد رجولته الكلمة عن لسانه وتطلقه يقول :

ــ تكلفت فى زواجها فوق ما أطيق ، ولا أملك ما أتزوج به ثانية يا عم الحاجعلى .

ويقول الحاج على فى صوت يكاد يكون ساخرا :

ــ يا أخى اعتبرها تجارة بارت .

ويقول صالح فى صوت مختنق بالعبرات ، والمشاعر المختلفة بين الحب والكره ، والاقبال والنفور ، والعزة والذلة ، ازدحمت جميعها وأبت رجولته أن تبين عنها :

ــ ومن أين لى بمتأخر الصداق يا عم الحاجعلى ؟

وتصيح سعدية :

ــ لا أريده .. أبرأتك من الحق والمستحق ، ولا أريد منك شيئا .. فقط .. طلقنى .

ــ أهكذا يا سعدية .. وتهون العشرة ؟

ــ تهون .

ــ الأمر لله .. عند ما يسترد الشيخ عبد الودود صحته أطلقك .

وينبرى الشيخ رضوان قائلا :

ــ وما الحاجة الى الشيخ عبد الودود . ؟ قل لها : طلقتك ثلاثا طلاقا بائنا لا رجعة فيه تصبح طالقا ، وأوراق الشيخ عبد الودود تسجل الطلاق فيما بعد .

ويقول صالح فى تماسك كتماسك الزجاج المتحطم أوشك أن ينهار :

ــ أهذا ما تريدين يا سعدية ؟

وتقول سعدية فى جمود مشيحة بوجهها عنه :

ــ نعم .

فأنت طالق يا سعدية ثلاثا ، طلاقا بائنا لا رجعة فيه .

ويتنهد صالح تنهيدة عميقة وهو ينصرف عن مجلس العمدة قائلا :

ــ حسبى الله ونعم الوكيل .. حسبى الله ونعم الوكيل .

وتنفجر سعدية باكية بكاء عالى النشيج ، وتنصرف عن العمدة لا يدرى القوم ان كانت قد انصرفت راضية أم آلمة . ويصمت القوم فترة من الزمان ما أحسوا أطالت أم قصرت فكأنما شاهدوا مصرع شباب أمام أعينهم . ثم يقطع العمدة الصمت قائلا :

ــ لعلنا نرتاح بعد ذلك من سعدية وصالح .

وما ان يتم العمدة جملته حتى يبدو الشيخ حسن متوكئا على ابنه صلاح وقد بدا أثر المرض على كل جارحة فيه ، وراح يئن وهو يصعد درج السلم فى أناة هزيلة ، وما ان يراه العمدة حتى يقف فيقف الجميع .

ـ مرحبا •• مرحبا •• أهلا أخي •• والله العشرة لا تهون •• لا تهون أبدا •

ويتقدم العمدة الى السلم فيأخذ مكان صلاح ، ويجعل من نفسه تكأة للشيخ حسن ، ويسير حتى يبلغ به مجلسا الى جواره فيقعده ويقعد الى جانبه ويعود القوم الى أماكنهم ، ويتابع العمدة ترحيبه :

ـ أهلا •• أهلا •• ألف سلامة •• مالك •• ؟! والله ما سمعت أنك مريض •

ويكون الشيخ حسن قد استجمع بعض قواه التى أنهكها المشى وصعود السلم •

ـ مريض منذ تركتك والله ، وما ان سمعت بالحوادث حتى قمت أريد أن أجيء اليك فهدنى المرض •• وماذا ستفعل •• ؟

ـ أهذا ما جاء بك ؟

ـ طبعا •• وهل كنت تنتظر غير هذا ؟! •• البلد فى شدة وأنت عمدتها •• ان لم نقف معك جميعا فعلى البلد السلام •

ـ والله الشدائد حلوة •• ووالله أخ •

ـ طبعا •• وهل يمنعنى عنك شىء وأنت فى شدة ؟ ماذا ستفعل • ؟ ابنى صلاح أمامك مره أن يفعل ما تريد ما دام المرض يقعدنى أنا ، وقد أرسلت اليوم خطابا الى فخرى ليجيء •• أجعل منهما خفراء ، اشتر لهما السلاح ، وعين لهما ما يفعلان •• أموالى تحت أمرك •• صلاح باع القطن وسيأتى التاجر ليتسلمه غدا ، وقد دفع العربون مائة جنيه خذها هاهى ذى •• اشتر بها سلاحا للقرية ، وسأحضر لك بقية ثمن القطن بعد تسلمه •• أم ماذا ستفعل ؟

وترقرقت الدموع فى عينى العمدة وهو يرى صداقة عمره ماثلة

أمامه لم يمنعها الخصام ولم تردها المغاضبة ، فأقبل صديق العمر أخو الصبا والشباب والكهولة يقدم أولاده وماله ، ضعف جسمه فقدم ما يغلو عن جسمه ، قدم امتداد حياته ، قدم آماله فى المستقبل وما بعد الحياة ، قدم ولديه وما لديه من مال بل وما يرتقبه من مال أيضا • ويقول العمدة وعبراته على وجنتيه سائلة لا يردها ، فهى عبرات يشرفه أن تسيل •

ـ بارك الله فيك يا حسن •• لا شىء •• لن أفعل شيئا أكثر مما فعلت أنت ، وماذا يمكن أن أفعل أكثر مما فعلت أنت ؟

ووجم القوم يعجبون من هذا الذى يرون •• وتضاءل كل منهم أمام نفسه •

وأمام هذه الشواهق العـــالية من الرجولة راح كل منهم يجد تعليلا فيه شىء من الدناءة لما يقوم به الشيخ حسن ، لعله أن يعيد لنفسه سابق كبرها بعد أن أحست مقدار بعدها عن الرجولة الحق • فالحاج على يقول فى نفسه : « انه تظاهر •• انه يعلم أن العمدة لن يأخذ المائة جنيه ، ولن يجيش الجيوش ولن يشترى السلاح » • والشيخ رضوان يقول : « لا بد أنه يريد أن يقترض من العمدة مثل المائة الجنيه مائة أخرى ليعطيها لابنه الذى يتعلم فى العاصمة » • أما نور فقد كان الأمر عنده أخطر من هذا وأجل •• لقد رأى عصابته مهددة بهذا الشيخ الخرف الذى يريد أن يقضى عليها وهى فى مهدها • وكان الأمر عنده خطيرا أيضا لأنه علم أن قطن الشيخ حسن سيسلم غدا ، ولا بد لهم أن يبدأوا عملهم به فيصيبوا بهذا هدفين برمية واحدة ، فهم أولا سيبدأون عملهم الأساسى فى فرض الأتاوات وسيبدأونه مع رجل من وجوه القرية ، وهم أيضا سيسكتون ذلك الصوت الذى يبدو عاليا • ويهم نور بالقيام ولكنه يرى أن يلبث قليلا حتى لا يفطن القوم اليه ويذكروا قيامه هذا عندما يتم ما يزمعه ، والظنين كثير

الوساوس • يفيق الجمع من وجمتهم وقد أعد كل منهم جملة نفاق يلقى بها عند قدمى الشيخ حسن ، ولكن العمدة يقول :

ـ أبق عليك المائة جنيه الآن •• فان احتجت اليها طلبتها •

ويقول الشيخ حسن :

ـ ماذا ؟ أتظنني جئت أعرض كلاما ؟

ـ لا والصداقة التى بيننا ، لا والله الذى لا اله الا هو ، ولكن عندى فضلة مال وما أظننى أحتاج الى شىء الآن ، فان احتجت قلت •

ـ ولماذا تقوم بالأمر وحدك ؟

ـ لا والله لن أقوم به وحدى ، ولكنى لا أستطيع شراء السلاح قبل أن أستأذن المأمور وأطلب الترخيص ، حتى اذا عزمت على الشراء طلبت منك ما تريد أن تدفع •• وعلى كل حال احفظ هـذا المبلغ ولا تصرفه حتى نجمع رأينا على أمر •

ـ وهو كذلك •• هذا المبلغ وأضعافه تحت أمرك •• السلام عليكم •

ولكن الشيخ رضوان يسارع قائلا :

ـ والله انك رجل •• ونعم الرجل •• بارك الله لك فى مالك وأولادك يا شيخ •

ويصيح الشيخ حسن غاضبا :

ـ لا •• لا يا شيخ رضوان •• الواجب لا يجوز المديح عليه ، وأنى رجل أمر لا يحتاج الى تقرير •• كلنا عند الشدة رجال يا رجل •

ويهم بالقيام ثانية فيسمع صوت نفير سيارة قادما من قريب ، فيمتقع وجه العمدة وهو يقول :

ـ المأمور •

ويمكث الشيخ حسن فى مكانه لا يبـارحه بعـد أن يـرى متقاع العمدة ، وتتفتح أفواه الجالسين صموتا حتى تأتى السيارة ، فيتبين العمدة أنها ليسـت سيارة المأمور • ولكن الخوف لا يزايله اذ لعله أن يكون المأمور قادما فى سيارة أخرى ، وما تلبث السيارة أن تقف ويخرج منها رجل فى الحلقة الخامسة من عمره جامد الوجه غليظ الجسم كثير الزينة والحلى •• كلهم يعرفه وكلهم يخشاه وكلهم يداريه وكلهم يكرهه ، وينزل من خلفه ثلاثة رجال مدججون بالسلاح• ويصيح العمدة وقد أصبح عند باب السيارة :

ــ مرحبا لطيف بك •• أهلا وسهلا •• خطوة عزيزة •• شرفت يا سعادة البك •

ويتقدم القوم يصافحون لطيفا ما عدا الشيخ حسن الذى ظل مكانه ، حتى اقترب منه لطيف بك فوقف له فى اجهاد :

ــ أهلا سعادة البك •• لا تؤاخذنى فالمرض أقعدنى •

ويجيب لطيف بك فى محاولة بليدة للرقة :

ــ سلامتك يا شيخ حسن •

ويعود القوم الى مجالسهم ، ويأخذ لطيف بك مكان العمدة ، ويبدأ الحديث فور جلوسه :

ــ سمعت بما حدث عندكم فقلت لا بد أن أزورك ، اننى مستعد لكل شىء •

ــ أطال الله عمرك يا سعادة البك ، والله لا ندرى من أين جاءتنا هذه المصائب •

ــ غريبة •• أنا نفسى تعجبت جدا ، وتممت على الأولاد فعرفت أنهم جميعا كانوا بعيدين عن أمكنة الحوادث ، وسمعت اليوم أن فى البلد هنا اشاعة عن رجالى فاستعلمت ثانية فتأكد لدى أنهم لا شأن

لهم بهذه الحوادث • والأولاد عندى كلهم عيون بعضهم على بعض فلا يمكن أن يفعل أحد منهم شيئا ولا أعرف به ، وأنا لا أرضى أن أصيب بلدة مجاورة لى بشر، خاصة أنا أرجو منها الخير فى الانتخابات، وانى ــ وان كنت سقطت فى الانتخابات الماضية ــ الا أنى لا أنسى أنكم بلدة مجاورة •

ويقول واحد ممن جاءوا معه :

ــ والله ان سعادة البك دائما يأمرنا ألا نتعرض لأحد من هذا البلد بشر أبدا •

ويقول لطيف بك :

ــ أليس كذلك ؟ •• وعلى كل حال أنا سأظل وراء هذا المجرم حتى أعرفه •

وتختلط أصوات القوم بالدعاء للبك ، ويميل الشيخ رضوان على الحاج على هامسا فى صوت خفيض :

ــ هل اقتربت الانتخابات ؟

ــ أظن ذلك •

وجاءت القهوة فراح القوم يحتسونها بين دعاء للبك ، وبين شكوى اليه من وقف الحال بعد أن نفر التجار عن القرية ، وبين أمل فى المستقبل بعد أن باع الشيخ حسن قطنه الى تاجر فى المديرية ، والبك يستمع يعلق أحيانا أو يرتجه الجهل بفاعل هذه الحوادث فيصمت ، ولم يكن البك لبقا فى الحديث ولا بذى علم فى غيره ، وانما هو غنى فاجر جعل فى العصابة التى أنشأها غناه عن كل ما عداها ، فهو باجرامها قوى ، وبأسلحة فتيانها عالم • ألم يتيحوا له بأسلحتهم أن يتكلم فيصمت الجميع ، وأن يشير فتسمع مشورته ، وأن يلجأ اليه المتملقون ، يسألونه النصح فينصح ؟ فنصحه أمر لا محيد

عنه ، فهو فى هذه الناحية عزيز وان كان ذليلا ، وهو فيها عالم وان كان أقل من جاهل •

ولم يثبت البك أقدامه فى أعماق الطين ، ولم ترسخ دعائمه فى أغوار العفن عن قلة كفاية ولا عن لعب وهزل ، وانما هو قاتل سفاك ، ثبتت أقدامه بقتل من يجرؤ على معارضته ، ووطد دعائمه بالقضاء على كل من تطاول يوما فقال الله أكبر على الظالم والعاتى • والقتل طبيعة فى النفس الشريرة والحياء ستار رقيق ، ولا فرق بين الشريف والقاتل الا ستار الحياء الرقيق هذا ، فان سقط هذا الستار وظهرت الطبيعة العارية، فليس ثمة حد لما تفعله النفس الخبيثة، فالقتل أهون شرورها • لقد كان البك يتخذ من هذا القتل أداة افتخار واعتزاز ، بل ان البك لا يخجل أن يصطنع منطقا للقتل ، فان عجز عن اصطناعه اصطنعه المنافقون من حوله ، وقبله هو وردده حتى اقتنع به وحاول أن يقنع به الآخرين ، ومن هـؤلاء الآخرين من يقتنع لأنه لا يملك الا أن يقتنع ، ومنهم من يصمت لأنه لا يملك أن يتكلم ، ومنهم من يخشاه البك ــ فان لكل سيد سيدا ــ فلا يقتنع ولا يهتم البك ان اقتنع هذا الذى يعلوه منزلة أو لم يقتنع ، فانه حتى هذا الرجل الذى يخشـاه البك مهما يكن مكانه منه لا يستطيع أن يصده عن طريق سار فيه فأمعن • وما دام هذا السيد الذى يخشاه البك قد قبل أن تكون ثمه صـلة بينه وبين هذا البك المجرم ، فانه هو أيضا يصبح ولا قيمة لرأيه، وحسب البك منه أن يستعين به ان اقتضاه أمر أن يستعين به ، وأن يستعين هو بالبك ان اقتضاه أمر أن يسـتعين به • ومهما يكن هذا الأمر هينا ، ومهما يكن شريفا ، الا أنه ــ وقد استعان به ــ فانه يصبح أمامه أقل من أن يملى عليه رأيا • والبك لا يعدم فضيلة، فهو يخلص أشد الاخلاص لأصدقائه على ألا ينالوا منه ، والا انقلب عليهم •

هكذا كان البك بعيدا كل البعد عن الشرفاء لأنهم هم لا يحبون أن يقتربوا منه ، وقريبا كل القرب من أولئك الكبار الذين يوسعون له فى مجلسهم ويسمحون له أن يقول على مسمع منهم فيغوص أمامهم فى الوحل فيحقروه ولا ينتشلوه ، فهم انما يصطنعونه لأنفسهم ، ويكتفون بالقاء دعابة مازحة تعليقا على حادث قتل قام به ويروى أمره عليهم • فان أراد أن يسوق اليهم منطقه هذا الذى اصطنعه أو الذى اصطنع له ، رفضوا الموافقة عليه بدعابة أخرى ، وأقنعوا أنفسهم أنهم قاموا بواجبهم ، وما أكثر ما تخادع نفسها النفس •

وقد يجد البك من يرده عن غيه ردا عنيفا ولكنه لا يرتد ، فقد شاء الله الرءوف بعباده أن يوجد بالناحية المجاورة أنور بك صدقى • وهو رجل يحب الحق فلا يعدوه ، وقد ناصب لطيفا العداء وحاول أن يرده باللفظ فلم يرتد ، فراح يحاربه بكل سلاح الا سلاح الجريمة ، وكل سلاح بطىء أمام الجريمة ، والسلاح المشهور أقل مضاء من السلاح المتستر بالليل الأسود من الضمير المريض • وقد كانت أسلحة لطيف جميعها مستورة ، وكانت أسلحة أنور جميعها مشهورة ، فيرتكب لطيف الجريمة بالليل ويبلغ أنور النيابة فى الصباح •

وهكذا كان يستطيع لطيف دائما أن يأتى جرائمه ، ولم يستطع أنور أبدا أن يثبت عليه جريمة وان استطاع أن يجعل اسمه فى كل مكان شريف سبة وعارا • وقد استطاع أنور أن ينجح فى الانتخابات، ولقد نال من قرية السلام نفسها أغلب أصواتها ، ولم يستطع لطيف أن يقتل من خرج عليه فى الانتخابات لأنهم كانوا أكثر من أن يقتلهم جميعا ، ولأنه كان يأمل منهم خيرا فى الانتخابات التالية • ولكن هذا لم يمنعه أن يصيب الأعيان الذين ناصبوه العداء فى اصرار عنيف ، والذين دعوا ضده فى غير بلادهم فهو يسرق بهائمهم ويحرق زراعاتهم ويهددهم بالقتل ان أمعنوا •

ولم يستطع أنور أن يفعل شيئا ازاءه الا أن يعوض هؤلاء بماله عما أصابهم فى سبيله ، وكان يبلغ الأمر الى السلطات وهو واثق أن لا سبيل لهذه السلطات على المجرم الأصيل .

وهكذا لم يستطع أنور الا أن يحد من اجرام لطيف دون أن يصل الى وقفه ، ولم يستطع لطيف أن يقتل أنور فقد كان يعلم أن عائلته الكبيرة لن تسكت عنه ان هو فعل .

كان منطق لطيف أن الرجل الحقيقى هو الرجل الذى ينفع ويضر، وأنه لا خير فى رجل ينفع فقط ولا يضر أبدا كأنور ، وبهذه الفلسفة البسيطة سمح البك لنفسه أن يشارك الله فى خلقه ، ويقتل ويسمى ذلك ضررا ، ويجزى ويسمى ذلك نفعا .

والبك وان يكن شحيحا الا أنه كريم لصحبه الكبار يبذل لهم الهدايا ، وكريم أيضا لصحبه المجرمين يوسع لهم أسباب العيش ، الا أنهم اذا طمحوا الى أكثر مما يعطيهم هيأ لهم مصيرا كذلك الذى هيأه لكبيرهم الفرماوى على يد منصور الدفراوى .

ولا يجهل البك مجرما فى الناحية أو صديقا لمجرم أو متعلقا بالاجرام أو هاويا له . فهو ملجؤهم يختار لهم المحـامين ويمدهم بالقرض ــ دون العطاء ــ ، ويصطفى منهم لنفسه الأشداء الغلاظ .

هكذا كان لطيف بك لا يجهل أحد من الجالسين اليه فى دوار العمدة شيئا من أمره .

ولقد اتفق جميعهم على احتقاره فى دخيلة أنفسـهم واختلفوا فى أسباب طى هذا الاحتقار لا يجاوز دخيلة النفس ، فمنهم من ينافقه عن طبيعة للنفاق ، ومنهم من لا يخاشنه لأنه لا فائدة ترجى من مخاشنته، ومنهم من لا يعنيه أن يصانعه أو يخاشنه فهو يتخذ منه موقفا لا مباليا، فان حياه أجاب ، وان أقبل قام ، وان غاب غاب فلا سؤال ولا ود .

جميعهم كان يحتقره شأنه فى ذلك شأن عارفيه جميعا . جميعهم الا نورا فهو وحده الذى يكن له الاحترام ويبديه ، وماله لا يفعل ؟ ولطيف بك فى نظره المثل الأعلى الذى يحتذى ، والرجل الذى يحصى الرجال ، والاله الذى يجزى فجزاؤه بعض مال ، أو يعاقبه فعقابه الموت .

كان القوم لا يزالون يشربون القهوة حين أقبل الحاج ابراهيم فألقى سلاما دون أن يصافح أحدا ، واتخذ لنفسه كرسيا قصيا عن مجلس البك وقريبا من سلم الشرفة ، وعاد البك يفتح موضـــوع السرقات مرة أخرى مع الحاج ابراهيم :

ــ ما رأيك يا حاج ابراهيم فى هذه الحوادث ؟

فقال الحاج ابراهيم فى بعض حدة :

ــ رأيى يا سعادة البك انه لو كانت الناحية نظيفة من المجرمين، ولو كان المجرم يلقى عقابه الذى وضعه له القانون لا يستره عن العدالة أحد ، لما وقعت هذه الحوادث .

واستقبل البك هذه الملاحظة العنيفة فى صمت ولم يعلق عليها، فهو يعلم أن الحاج ابراهيم لا ينطق بغير الحق ، وهو يغضى عما يقول لأنه يحتاج الى عائلته الكبيرة فى الانتخابات ، ولأنه يعلم أيضا أن الحاج ابراهيم يقول له الحق فى وجهه ثم لا يصنع بعدها شيئا ، اللهم الا الامتناع عن انتخابه .

ولم يكن ذلك فى نظر البك سببا كافيا للقتل ، فقد كان لا يقتل الا خارجا عنيفا فى خروجه ، أو خارجا عليه من ذوى الاجرام .

ونظر العمدة الى الحاج ابراهيم نظرة فيها بعض لوم ، ولكنه لا يبالى ذلك منه بل يقول له :

ــ طلقت سعدية من صالح ؟

ويقول العمدة متعجبا :

ــ لا اله الا الله يا حاج ابراهيم .. أهذا وقته ؟

ــ الحق يقال فى كل الأوقات يا شيخ زيدان .. طلقت سعدية من صالح لأنه فقير .. كره الله هذا والمؤمنون .. كره الله هذا والمؤمنون ؟!

ــ لا اله الا الله يا حاج ابراهيم .

ــ لا اله الا الله دائما وفى كل وقت يا شيخ زيدان ، هو عون المظلوم على الظالم .. سلام عليكم .

ويقوم الحاج ابراهيم وينصرف وقد أخذت القوم رجفة من ذكر الله ، وكانوا قد انتهوا من شرب القهوة فقام البك لينصرف ، وركب السيارة يحف به على الجانبين رجلان ، ويجلس الرجل الثالث فى مقدمة السيارة ، وقبل أن تتحرك السيارة ينادى الرجل الجالس فى المقدمة نورا :

ــ يا نور .

ــ نعم يا أبا سريع .

ــ أريدك فى كلمة وحياة والدك .

ويسرع نور الى أبى سريع ، ولكن أبا سريع لا يتكلم فيدرك نور أنه انما يريده فى سر ، فيدخل رأسه فى السيارة ويضع أذنه على فم أبى سريع ، ويهمس هذا فى أذنه :

ــ البك يريد الدفراوى أن يأتى اليه غدا .

ويجيب نور فى سرعة لا يسبقها ريث تفكير .

ــ حاضر .

ويخرج نور رأسه وتشرق على وجهه ابتسامة ، فقد بدا أمام الجميع موضع سر من البك أو من أحد رجال البك ، وتشرق على وجهه ابتسامة أخرى لأنه يعرف لماذا يريد البك الدفراوى . فقد كان يحزن البك أن تتم فى المديرية كلها عملية كهذه العمليات التى تمت دون أن يعلم بها من قبل ، أو يعــلم على الأقل فيما بعد من الذى ارتكبها . ولم يكن هذا الحب الجارف للعلم نتيجة حب استطلاع بل كان نتيجة حب البك للحياة ، فان أى مجرم لا يعرفه قد يقتله مأجورا على ذلك أو متفضلا ، ولم يكن البك يحب أن يقتل .

نعم كان نور مشرقا حين بارحهم البك ، فقــد كان يظن أن الواقفين يجلون فيه أنه موضــع سر البك المجرم . ولو كشــف عن نفوسهم لأذهله الذى يجده بها من كره له وللبك جميعا ، ولأذهله أيضا احتقارهم اياه ، واحتقارهم المضاعف أضعافا كثيرة ـــ بقــدر فرق درجة الاجرام بينهما ـــ للبك نفســه ، ولم يكن نور يظن أن لطيفا يمكن أن يكون محل احتقار من أحد .

كان الموعد قد حل لانتهاء الجلسة فقد جاء موعد العشــاء ، استأذنوا من العمدة جميعا وانصرفوا ، وانفتل العمدة الى منزله .

***

ذهب الحاج على والشيخ رضوان صامتين الى دكان الحاج على فوجد أحمد أبا خليل ينتظرهما ، فابتدرهما قائلا :

ـــ مرحبا .. مرحبا .. يدك أقبلها يا عم الشيخ رضوان .

فيقبلها ويلتفت الى الحاج على :

ـــ يدك أقبلها يا عم الحاجعلى ؟

فيقبلها أيضا ، ولكن الشيخين غير راضيين فقد ارتجف قلباهما من حديث الحاج ابراهيم . ولم يجد الحاج على مفرا لنفســه من ضميره الا أن يقول لأحمد :

ـ يا ابنى ألم تجد وسيلة لترضى بها الحاج ابراهيم .

ويربد وجه الفتى وتعلوه الحسرة .

ـ ماذا أفعل له .. ؟ ماذا أفعل ؟ قصدت اليه حين علمت بطلاق سعدية أرجوه أن يشترى الفدان الذى كان يريد شراءه ، وكنت قد اتفقت مع محجوب على أن يشترى منه عشرين قيراطا ، وقلت فى نفسى : الفرق بين الثمنين يكون مهر سعدية ، ولكن الحاج ابراهيم رفض أن يشترى الفدان وطردنى .

فقال الشيخ رضوان فى ضيق :

ـ أرخص له الثمن .

ـ أرخصته حتى بلغ ستمائة جنيه فأقسم لا يشتريه ، بل أقسم .. بل أقسم ألا يقبله هبة فتركته .

فقال الحاج على :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

وقال الشيخ رضوان :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

* * *

وقصد الشيخ حسن مع ابنه صلاح الى منزله ودلفا اليه فوجدا فضيلة تصلى العشاء ، ووجدا بجانبها الموقد والعيش وما تحتاج اليه القهوة ، فتركاها تنهى صلاتها ، ودخلا مخزن القطن فوجدا الأنفار يعبئون القطن على ضوء المصباح ، فحياهم الشيخ حسن ، وخلع صلاح جلبابه واستعد ليأخذ مكانه مع الأنفار وهو يقول : « كان الله فى العون يا رجال » . وما لبث أن غاص فى كيس وعلقه الى سقف المخزن وهو يقول : « على بالمدد يا رجال .. هاتوا القطن لأريكم كيف يكون الكبس » .

فتركهم الشيخ حسن وخرج الى زوجه فوجدها قد انتهت من صلاتها ، فحياها ثم طلب اليها أن تحمل الموقد والعشاء وتلحق به الى المقعد ريثما يصلى هو فرض العشاء . فأومأت له أنها ستفعل . فقد كانت لا تزال تسبح بعد الصلاة .

* * *

أما نور فقد انطلق الى بيت النمرود يحمـل فى ليلته أنبـاء ضخاما ، فقد كان سفيرهم الى بيت العمدة ليتسمع الأخبار فتسمع وتزود منها ما لا تطيق جعبته أن تحمل ، وراح يقطع طريقه لا يدرى بأى أخباره يبدأ وبأيها ينتهى . وراح يصور فى ذهنه كيف سيطلق أخباره من عقالها الذى طال عليه الأمد من طول الطريق وانفراده فيه .

وبلغ نور منـزل النمرود ودخله فوجد الجمع كمـا توقع أن يجدهم ، الزهار على الأرض يعد الجوزة ويديرها ، وكمـال فى الصدر على الأريكة يحف به التبجيل والتوقير ، ويحف به أيضـا النمرود والدفراوى .

١٢

فرغ الشيخ حسن من تناول عشائه وقهوته وراح يكمل سمره مع زوجته ، وراحت هى تعلق على حديثه بما يرضيه فما تعودت أن تلقى الى سمعه الا ما يرضيه ، وأحس الشيخ بعض برودة فى الحجرة فقال لزوجته :

ــ بالله يا فضيلة أقفلى الشباك ، فانى أحس بعض برودة •

وقامت فضيلة الى الشباك فأقفلته ، وراحا يتحدثان مرة أخرى، ولم يطل بهما الحديث اذ ما لبث حجر أن اقتحم عليهما الغرفة محطما الزجاج فى سبيله اليهما ، واستقر الحجر أمام الشيخ حسن • فسارعت فضيلة الى الشباك وهى تسب الأطفال الأشقياء الذين لم ينالوا من آبائهم الكلاب حظ تربية ، وفتحت فضيلة الشباك وراحت تدور بعينيها فى الظلام فلم تر أحدا ، ولكنها أطالت الوقفة والسباب منتظرة أن يأمرها الشيخ حسن بالعودة الى مكانها ، ولكن الشيخ حسن كان مشغولا بأمر جليل •

أمسك الشيخ حسن بالحجر الذى استقر أمامه وأراد أن يعطيه الى زوجه المشغولة بالسباب لتلقيه الى الشارع • ولكن يده لامست

شيئا غريبا معلقا بالحجر تبينه فاذا هو ورقة مطوية ، نشرها فاذا هي خطاب موجه اليه :

(عرفنا أن قطنك سيسلم غدا الى التاجر ، ولكننا نوينا أن نأخذ من الأغنياء لنعطى الفقراء واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، فقد قال الله تعالى : « وفى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » . ولذلك فاننا سنأخذ منك عشرين جنيها عن كل قنطار جنيها واحدا ، وسنصرفها فى أوجه البر ، فان قبلت فأرسل المبلغ مع ابنك صلاح الى طريق محطة السكة الحديد فيظل سائرا فيه ، وسيجد أحدنا ليرشده الى الخص الذى نجلس فيه الآن ، واعلم أنك مراقب من الآن حتى يحضر صلاح بالفلوس ، فان حاول أن يأتى بأحد معه فسيقتل هو ومن معه ، واياك وعدم الدفع لأنك ستحزن حزنا شديدا ، وقد أنذرناك وأنت من الآن المسئول وحدك عما سيحدث لك) .

« جماعة الخير »

قرأ الشيخ حسن الورقة ثم أعاد قراءتها ثم أعاد ، وفضيلة لا تزال بالشباك تشتم من قذف بالحجر . فوضع الشيخ حسن الورقة فى جيبه وتوكأ على الأثاث حتى بلغ الشباك ، وراح ينظر مع فضيلة التى التفتت اليه قائلة :

ــ لا أحد ، لا أدرى أين ذهب ابن الكلب .

فلم يجب الشيخ حسن وانما راح يتوكأ مرة أخرى على الأثاث حتى بلغ باب الحجرة ، وفتحه ونادى : « يا صلاح » . ولكن صوته لم يبلغ أذن ابنه فسألته زوجته : « تريده فى شىء يا شيخ حسن ؟ » .

فقال لها : « نعم ، ناده » . فنادت فضيلة من عند السلم بصوت جهير : « يا صلاح » . وسرعان ما جاء الجواب : « نعم يا أم » . فقالت : « كلم أباك » . وجاء صلاح الى حيث يبلغ أذنه حديث أبيه :

« نعم يا أبى ؟ » • فقال الشيخ حسن : « اخراج الى الشارع ودر حول المنزل وانظر ان كان أحد واقفا ، وأسرع » • وراح صلاح يصدع بالأمر ذاهلا فهو لم يسمع الزجاج وهو يتحطم ، فالأمر غريب بالنسبة اليه ، ولكنه لا يسعه الا أن يطيع أباه • وسرعان ما عاد صلاح يقول : « لا أحد يا أبى » • فقال الشيخ حسن : « أحكم رتاج الباب وعد الى عملك » • فقال صلاح : « أمرك يا أبى » • وعاد الشيخ حسن يقول : « أما زال أمامكم عمل كثير ؟ » • فقال صلاح : « لا يا أبى ، فقد أوشكنا أن ننتهى » • فقال الشيخ حسن : « فاذا انتهيتم وخرج الأنفار فأحكم الرتاج بعدهم » • فقال صلاح وهو لا يزال ذاهلا : « أمرك يا أبى » • وانصرف صلاح عاجبا من أوامر أبيه هذه المتلاحقة ، فهو قد تعود أن يحكم رتاج الباب ولكنه لم يتعود أن يطلب اليه أبوه ذلك ، كما لم يتعود أن يطلب اليه أبوه أن يدور حول المنزل ليرى ان كان أحد واقفا ، ولكنه أقنع نفسه أخيرا بأن أباه يحتاط فى هذه الأيام التى شاعت فيها الحوادث ، وان كان هذا الرأى لم يقنعه كل الاقناع فهو يعرف أباه ثبتا لا يخف فؤاده ، ولكنه لم يجد غير هذا الرأى فقبلته نفسه فى مضض وحيرة •

وعاد الشيخ حسن الى غرفته فوجد عينى زوجته حائرتين فى وجهه ، تكاد تسأله العينان قبل اللسان :

ــ خير يا شيخ حسن ؟ أكل هذا من أجل حجر ألقاه طفل ؟

وغمغم الشيخ حسن متفكرا :

ــ لعب عيال •

فقالت الزوجة وهى حائرة لا تزال :

ــ طبعا يا شيخ حسن لعب عيال ، فلماذا هذا جميعه ؟

وغمغم الشيخ حسن مرة أخرى :

ــ لا شىء ، مجرد احتياط لا أكثر • هلمى الى النوم يا فضيلة •

وقصد الشيخ حسن الى السرير الأسود القـائم على أعمدته الأربعة فى ركن الحجرة ، وخلع عمامته وأعطاها فضيلة التى وضعتها على المنضدة ، ثم خلع الشيخ جوربه فى بطء ذاهل ، وألقى بنفسه الى السرير غير حائر ، فهو لم يفكر لحظة فى أن يجيب جماعة الخير الى مطلبهم فما تعود التهديد ، وما كان ليقبل أن يكون فريسة سهلة . وقد رأى أنه ان قبل فستتمادى جماعة الخير فى فرض اتاواتها فيعم الخراب القرية . ولكنه مع ذلك لم يعدم هاجسا فى نفسه أن هذه الجماعة قد تصيبه بسوء وان كان لا يدرى أى سوء يمكن أن تصيبه به ، ولعله يرد هذا الهاجس عن نفسه بأنهم لن يجرءوا . فلئن ينتهز لص من الليل غفلة ويهاجم بعض نفر فى الطريق ، فما يعنى هذا أن يجترىء هذا اللص فيفرض الاتاوة على وجوه القرية وأعيانها . وهكذا راح يفكر الشيخ حسن فى فراشه بينما راحت زوجته فى سبات بعيد . وما لبث الشيخ حسن أن راح يتمتم فى صـوت ثابت : « بســم الله الرحمن الرحيم ، قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بـكم أن يصـيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا ، انا معكم متربصون » . صدق الله العظيم .

وراح الشيخ يردد هاتين الآيتين حتى أسلمتاه الى نوم هادىء عميق .

* * *

جلست جماعة الخير فى الخص الذى أقاموه فى الصحراء قريبا من الطريق الواقعة بين البلدة ومحطة السكة الحديد ، وقد تحلق جميعهم حول كمال يبذلون له الاعجاب بخطته ، وهل تخيلوا يوما أنهم سيقيمون لكل عملية خصا يتسـلمون فيه ما قد فرضوه على ضحيتهم ، ثم يهدمونه ويزيلون أثره ليقيموا مثله فى مكان آخر ،

فيضيع أثرهم فى عرض الصحراء ولا يعرف لجماعتهم مستقر ؟ وهل فكر أحدهم الا كمالا فى أن يترك الحجرة التى كانوا يجلسون بها فى بيت النمرود مضاءة مقفلة بالمفتاح ، حتى يظن العابرون بالمنزل والجيران أن أهل الحجرة جالسون بها لم يغادروها ؟ لا ، ان أحدا لم يفكر بهذه العبقرية الا كمال .

وقد اتخذ كمال من مغارته المركز الرئيسى للجماعة .. لقد كانت تلك المغارة مهبط وحيه ، فيها انقطع عن الناس ليفرغ الى الشـيطان فيضع تلك الخطة التى ينفذها اليوم . وهكذا وجد أفراد الجماعة الجديدة رياسة حازمة تأتلفهم وتضع لهم الخطط قويمة قوية ، ووجد كل منهم لنفسه بندقية على أحدث طراز ومسدسا بساقية ، كما هيأ كمال لكل منهم حصانا جعل مستقره فى مغارة الوحى .

وهكذا استقام الأمر لكمال ، فهو يغدق عليهم من كرمه ، وهو يهددهم بأسرارهم ، وهو يروعهم بخططه المحكمة ، وهو من قبل قد جعلهم يقسمون له يمين الولاء على المصحف . وبين الاكرام والتهديد، والوعد والوعيد ، تلين نفوس وتقبل ما لم تكن لتقبله ، فقبل العتاة الأربعة أن يكونوا أتباعا لكمال بعد أن كانوا يأنفون أن يكون كمال تابعهم .

قال الدفراوى :

ـ ما للزهار تأخر ؟

فقال نور :

ـ انه ينتظر صلاحا على الطريق .

وقال النمرود :

ـ ولكن الانتظار طال .. أخشى أن يكون الزهار قد وقع فى مكروه .

فأجاب الدفراوى :

ــ أى مكروه يمكن أن يقع فيه ؟ لقد أعد له أبو كمال كل خطوة يخطوها حتى يصل بالمال الى هنا .

وراح نور يقول :

ــ ان عملية الزهار عملية عيال .

وعندئذ فقط تكلم رأس الحكمة كمال :

ــ أحب أيها الاخوان أن تتعود ألا نحقر أى عمل يقوم به فرد منا ، فكل أعمالنا مكملة لبعضها البعض .. لولا عملية الزهار ــ وهى عملية كبيرة ــ لما أتيح لنا أن نبدأ أعمالنا كلها .

فقال النمرود :

ــ نعم يا أبا كمال أنت محق ، وعملية الزهار عملية مهمة فعلا يا نور ، انه سيرمى الحجر ثم يسارع بالاختفاء ، ثم هو سيقف لينتظر صلاحا ، وأنتم تعرفون أن الشيخ حسن صلب الرأى لا يقبل ما يفرض عليه بسهولة ، فقد يرسل مع صلاح من يقبض علينا .

فقال نور :

ــ نعم ، ولكن ألم تتفق حينئذ أن يطلق الزهار عليهم بندقيته ؟

ــ فقال النمرود :

ــ الزهار فرد واحد ، ومهما يكن ماهرا فى التصويب فانه ان جاءته جماعة لا بد أن تتغلب عليه .. فهى عملية ليست يسيرة كما تتصور .

فقال الدفراوى :

ــ الشــهادة لله أيها الاخوان العملية التى نقوم بها كبيرة ، وما كان يصلح لها الا نحن .

وهكذا جرى الحديث بين الجماعة ، وقد اتخذ كمال منه موقفا متعاليا فلا يشارك فيه بغير ملحوظة يبذلها ليضع القواعد ويؤسس العمد .

لم يطل بالقوم هذا الحديث اذ سرعان ما أقبل اليهم الزهار ، فما ان رأوه حتى وضع كل منهم لثاما حول وجهه فلا يبين ، ولكنهم سرعان ما أدركوا سخافة ما فعلوا حين تبينوا أن الزهار لا يضع اللثام، فصاح كمال .

ــ ويحك أين لثامك ؟

فقال الزهار :

ــ لم اللثام يا أبا كمال ؟ ان أحدا لم يأت بعد ولكن ..

فقال كمال فى عنف :

ــ فماذا جئت تفعل هنا ؟ . ألا يجوز أن يأتى الآن سى صلاح .. صلاح .. فلا يجدك ويعود ؟

ولكن الزهار قال :

ــ تريث يا أبا كمال .. هل قلت لوطنية أن تأتى اليك بالعشاء ؟

فقال كمال :

ــ نعم .. أمن أجل هذا تركت مكانك ؟ .. أين هى ؟

ــ أمرتها أن تنتظر حتى أعود اليها .. بنت الكلب هزئت منى ، أردت أن أضع اللثام حين رأيتها قادمة فاذا هى تقول :

« مبروك البرقع يا زهار » . فأردت أن ..

فقال كمال مبتسما :

ــ اذهب يا زهار الى مكانك وأرسل وطنية ، ولا تضيع الوقت .

وخرج الزهار ، والتفت الدفراوى الى كمال يسأله فى تمحل محاولا أن يفتح لنفسه طريقا للمزاح مع الزعيم :

ــ خير يا أبا كمال ، هل نحن اليوم مدعوون الى العشاء عندك ؟

فقال كمال فى جد رضى :

ــ العشاء على حسابى فى كل يوم نقوم فيه بعملية .

ــ يا زين الرجال يا أبا كمال .

وأقبلت وطنية بعد حين بالعشاء ، وما ان دخلت حتى قالت :

مساء الخير يا جماعة .

فاذا كمال يقول لها فى حزم :

ــ اخرسى يا بنت ، جماعة فى عينك قليلة الأدب .

ــ لماذا يا سى كمال .. ؟ أكل هذا لأنى قلت يا جماعة ؟ ألستم جماعة الخير أم ظننتنى ــ لا قدر الله ــ أقصد الجماعة التى يقصدها الفلاحون حين يتكلمون عن نسائهم ؟

وأدرك كمال أن الاطالة فى الحديث قد تؤدى به الى موقف لا ترضاه الزعامة ، فأقصر عن النقاش وسأل وطنية :

ــ ماذا أحضرت لنا ؟

ــ أوامر سعادتك كلها يا كمال بك .. فراخ وحمـــام ولحم وأرز ، وسعادتك قلت انك لا تريد خضارا ، لأن نفسك ملته أيام الفقر .

فقال كمال مسارعا :

ــ طيب ، طيب .. اقعدى كلى معنا .

ــ لا ، أكثر الله خيرك . قد تركت نصيبى فى البيت وسأتعشى وحدى ..

فأسرع كمال يقول محاولا أن ينقذ ذماء الزعامة التى أوشكت هيبتها أن تنهار أمام الرعية :

ــ طيب ، مع السلامة .

وخرجت وطنية ، وأراد الدفراوى أن يغير الحديث فقد أدرك أن اللهجة التى كانت تتحدث بها وطنية لم ترق كمالا .

قال الدفراوى وهو يأكل نصيبه من العشاء :

ــ هيه يا أبا كمال .. هل أنت آت معى غدا الى لطيف بك ؟

فقال كمال :

ــ نعم ، فان دعوته لك لم تكن الا نتيجة طبيعية للخطة التى دبرتها .

فتساءل الثلاثة فى لهفه :

ــ كيف ؟

ــ ألم أطلب اليكم أن تشيعوا أن أفراد عصابة لطيف بك هى التى قامت بهذه الحوادث ؟

ولم يبال كمال ثلاثتهم وهم يقولون : « آه » مذهوله ، بل راح يكمل حديثه :

ــ لقد أردت أن يسمع لطيف بك بهذه الاشاعة فيرسل اليك يا دفراوى .

وسأل الدفراوى :

ــ وماذا تريد منه ؟

قال كمال :

ــ انه غدا سيسألك عمن قام بهذه الأعمال .

فقال الدفراوى :

ـ طبعا •

فقال كمال :

ـ انه ركن يمكن الاعتماد عليه ، وكل ما أريده أن تقوم بيننا صداقة ، فاننى أخشى أن يقضى علينا ان لم نصادقه •

فقال النمرود :

ـ يحميك الله من العوادى يا أبا كمال ، نذهب اليه غدا بعد المغرب ان شاء الله •

وقال كمال فى هدوء :

ـ أنا لا أخشى أحدا الا أنور بك •

فقال الدفراوى :

ـ أنور •• الله يخرب بيته ، انه سيقف لنا كالعقلة فى الزور ، ووالله لولا عائلته لقتلته من زمن بعيد •

فقال كمال فى حزم :

ـ اسمع يا نمرود ، عليك أن تذهب غدا الى « الرحايمة » وتعرف ان كان أنور فى العزبة أم فى مصر •

فقال النمرود .

ـ أنا لا أعرف أحدا هناك ، فقد حرم عليهم أنور أن يدخنوا الحشيش فقطع عيشى من هناك ، الله يقطع ••

وقال الدفراوى مقاطعا :

ـ الشهادة لله أهل الناحية يحبونه كل الحب •

فقال نور :

ـ والشهادة لله انه رجل يحب •• كان اذا أتى الى المديرية هم من بها جميعا الى استقباله وتقديم الاحترام له ، وأشهد أنه كان يعطى

نفحات طيبة •• أما لطيف بك فمع أنه كان يعطى نفحات طيبة هو أيضا الا أنه لا أدرى لماذا ••

فقاطعه كمال فى حزم :

ـ اذهب أنت يا نور واعرف لنا أين أنور الآن •

ـ حاضر ، سأذهب حين تكونون أنتم عند لطيف بك •

وراحت جماعة الخير تدير الحديث بينها ، كل همها أن تقطع الوقت حتى يأتى لها المال المنتظر ، أو حتى يلوح الصباح فقد كان لهم مع هذا الصباح شأن ان هو سبق العشرين جنيها المفروضة على الشيخ حسن ، وطال الحديث ، وتناوب نور والنمرود والدفراوى القيام الى الزهار فى موقفه ليروا ان كان أحد قـدم أم لا ، وكان الجواب دائما لا •

واقترب الفجر فأذنت الديكة والظلام لا يزال يلف الكون ، وجاء الزهار يائسا فنظرت الجماعة الى كمال • وأنعم هو فيهم النظر واحدا بعد الآخر حتى اذا التقت نظرته بمنصور وقفت عنده جامدة ، وفهم منصور تلك النظرة فقام واقفا وخرج دون أن يقول شيئا •

وقامت بقية الجماعة تزيل آثارها من الخص وأهالوا الرمال على بقايا طعامهم ونيرانهم ، ثم هدموا الخص وتقاسموا قصباته يحمل كل منهم بعضا منها ، ورحلوا عن مكانهم ملثمين جميعا بعد أن ألقوا نظرة أخيرة على المكان ، أرادوا بها أن يتأكدوا أن الرمال لن تشى بهم أو تبوح •

١٣

استيقظ الشيخ حسن من نومه مع الفجر فوجد زوجه قد سبقته الى اليقظة ، ووجد بالبيت ضجيجا وحركة ، فسأل زوجته فأخبرته أنهم الأنفار الذين اتفق معهم صلاح أن يأتوا ليحملوا القطن الى سيارة التاجر • فابتدر الشيخ حسن وضوءه وصلى الفجر وقد أحس أن المرض قد بدأ يزول عنه ، وما ان انتهى من صلاته حتى سأل زوجه :

ــ وهل أخرجت لهم الفطور ؟

ــ نعم ، ولكن صلاحا لم يأت حتى الآن وأخشى أن تأتى السيارة قبل مجيئه •

ــ لم يأت ؟! وأين ذهب ؟

ــ ذهب الى الحقل ليحضر بعض أطراف من أعواد الذره لتأكلها البهائم •

ــ كان عليه ألا يذهب اليوم حتى يسلم القطن •

ــ انه يذهب كل يوم ويعود فى الفجر ، وقد حسب أنه يستطيع أن يذهب ويعود قبل أن تأتى السيارة •

فقال الشيخ حسـن وقد داخله بعض التوجس :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله .. ماضر لو كان انتظر اليوم الى أن ينصرف التاجر .

ثم قصد الى الشباك فنظر منه فلم ير ابنه قادما ، ولكنه رأى بباب بيته رجالا كثيرين فسأل زوجته :

ــ بالباب أحمد أبو خليل والشيخ رضوان والحاج على ونور الكحلة ، وكثير غيرهم . ماذا جاء بهم فى باكر الصباح ؟

فقالت الزوجة متنهدة :

ــ لقـد جاءوا ليبيعوا قطنهم الى التـاجر كما بعت ، فقـد أصبحوا ..

وقبل أن تكمل فضيلة جملتها جاء من بعيد صوت نفير سيارة ، ثم ما لبث الشـيخ أن تبينها تقترب من بيته عالية الضجيج كثيرة الجلبة .

وما ان وقفت السيارة بباب البيت حتى تحلق القوم الواقفون بها ، ورأى الشيخ حسن من مكانه التـاجر وهو يدافع عنه القوم المتحلقين ليتمكن من النزول من السيارة ، حتى اذا استوت أقدامه على الأرض سار بهم الى المصطبة وجلس اليها وقعد القوم حوله على الأرض ، بينما راح الحمالان القادمان مع السيارة يعاونان أنفار الشيخ حسن فى وضع القطن بالسيارة .

وتوكأ الشيخ حسن على عصاه حتى نزل الى القوم فحياهم ، وقام التاجر مرحبا بالشيخ حسن ، ثم ما لبث أن أخرج من جيبه لفافة كبيرة من الأوراق الخطيرة الشأن وقال للشيخ حسن :

ــ مبارك يا عم الشيخ حسن .

ـ بارك الله فيك يا أبا عليوة •• مباركة صفقتك ان شاء الله ، وان كنت قد أنقصت الثمن عن السوق خمسة جنيهات فى القنطار •• النهاية •• مباركة والسلام •• ذهب صلاح ليحضر طعام البهائم وتأخر فقلت أنزل اليك نشرب القهوة معا •

ـ أهلا وسهلا •• ثمن القطن ستمائة جنيه ، أخذت مائة فيكون الباقى لك خمسمائة جنيه •

وعد أبو عليوة خمس ورقات أعطاها للشيخ حسن ، أخذها هذا ووضعها فى حافظته بينما راح الواقفون يباركون له وللتاجر ، ثم راح كل منهم يكلم التاجر عما لديه من قطن ، وسرعان ما انعقدت الصفقات بعد أن بخس التاجر أثمان القطن ، منتهزا فرصة انفراده بالقرية لخوف التجـار الآخرين منها ، وراحت أوراق خضراء كثيرة تنشر وتطوى ، وراحت ألفاظ التبريك تتناثر على الشفاه • وكان قطن الشيخ حسن قد استقر على السيارة ، فقام التاجر وقد وعد أن يعود فى اليوم التالى ليتسلم الأقطان الأخرى ويسلم أثمانها •

انصرفت السـيارة بحملها ، وظل القوم حول الشيخ حسـن يتحدثون وهو عنهم لاه قد ازداد توجسـه ، فهو ناظر الى الطريق لا يريم ، حتى اذا لحظ الجماعة انصرافه عنهم هموا بالانصراف ، الا أن واحدا منهم يسأل الشيخ حسن :

ـ مالك يا عم الشيخ حسن ؟

ـ تأخر الولد •

ـ من ؟

ـ صلاح ؟

ـ لا تخف ، لا بد أن عائقا عاقه •

ـ لا يمكن ، ما كان شيء يعوقه عن تسـليم القطن .. اللهم الا ...

ـ يا رجل وحد الله .. وعلى كل حال سـأذهب الى حقلك لأرسله اليك .

ـ لا تتعب نفسك ، فالأنفار الذين كانوا يحملون القطن مازالوا هنا ينتظرونه ليعطيهم أجورهم ، فهو من يعلم مقدارها .

ونادى الشيخ حسن :

ـ يا سيد .

ـ نعم يا عم الشيخ حسن .

ـ وحياة والدك اذهب الى الحقل وانظر ما الذى أخر صلاحا حتى الآن .

ـ حاضر .

وانصرف سيد وراح القوم يتحدثون مرة أخرى ، ولكن الشيخ حسن لا يزال منصرفا عن حديثهم حتى يسأله الحاج على :

ـ مالك يا شيخ حسن ؟ ألأن ابنك قد تأخر بعض الوقت تخاف كل هذا الخوف ؟ لا يارجل ، لم نعهدك هكذا ، أم تراها هذه الحوادث أخافتك الى هذا الحد ؟!

ـ اسكت يا حاج على أنت لا تعرف شيئا .

ـ لا أعرف ماذا يا شيخ حسن ؟! لا أعرف ماذا ؟ هل هناك شيء ؟

ـ لا شيء يا حاج على ، لا شيء ، سليمة ان شاء الله .

ـ قل لنا يا شيخ حسن ، هل هناك شيء لا نعرفه ؟

وقبل أن يجيب الشيخ حسن ، يتعالى صياح من أقصى الطريق :

ـ الحقونا يا هوه •• الحقونا يا ناس •• ابنك يا شيخ حسن •• ابنك •

وينسى الشيخ حسن المرض وينسى عصاه ، ويلقى بجسمه الى الطريق لا يعى شيئا الا هذا الهول الذى يناديه من أقصى الطريق : « ابنك يا شيخ حسن » • وينتفض صوت الشيخ وهو يقول « ماله ابنى ؟ •• ماله •• قل •• ماله •• ماله ابنى ؟ ماذا جرى له ؟ » •

ويأتيه الصوت من قريب يحمل اليه الفاجعة • « ابنك قتل يا شيخ حسن • قتل •• » • وينهد الشيخ حسن الى الأرض ذاهلا : « قتلته قتلت ابنى •• حسبى الله ونعم الوكيل » •

ويرتفع الصراخ من أعلى المنزل تطلقه الأم الثكلى ، ثم ما تلبث أن تندفع من الباب فى ثياب البيت فيتحلق حولها الشباب ويأخذون بها الى داخل المنزل مبهورة عالية الصراخ ، تدافعهم عن نفسها تريد أن تذهب الى الحقل لترى ابنها الصريع • وما تلبث النسوة من الجارات أن يقدمن اليها فيأخذن مكان الشبان الذين يخرجون الى الحقل بعد أن أخذوا معهم ملاءة يلفون بها الفتى القتيل • ويحيط القوم بالشيخ فيحملونه الى المصطبة وهو لا يزال يقول ذاهلا : « قتلته •• قتلت ابنى » • ويسأل الحاج على : « وما ذنبك أنت يا شيخ حسن ؟ •• ما ذنبك أنت ؟ » •

ويقول الشيخ حسن وهو ذاهل لا يزال : « كبر على أن يهددنى المجرمون فأبيت أن أدفع لهم ما يطلبون •• لم أكن أظن أنهم سيقتلون •• حسبتهم لصوصا ولم أحسب أنهم قتلة •• حسبى الله ونعم الوكيل » •

نظر الحاج على الى من حوله فى أسف شديد متوهما أن الشيخ قد أصبح مدخول العقل ، ولكن توهمه لم يمنعه أن يسأل

الشيخ حسن : « ماذا تقول يا شيخ حسن ؟ » . وثاب الشيخ حسن الى نفسه بعض الشيء حين رأى النظرات الحائرة من حوله تـكاد تتهمه بالجنون .

ولو كان الشيخ فى تمام وعيه ، ولو أنعم النظر فى عينى نور لرأى فيهما .. وفيهما وحدهما أنهما غير حائرتين ، بل انهما جامدتان تحملقان الى الرجل فى تشوف العارف بالأمر لا يحدسه .. ولكن من أين للشيخ المهيض وعى ؟ ومن أين له أن ينعم النظر ؟ لقد كان قصاراه أن يثوب الى نفسه بعض الشيء فى زحمة هذه الحيرة التى أشاعها فى الواقفين ، وكان قصاراه أن يدرك أنهم لا يعرفون من أمر خطاب الأمس شيئا ، وفى نظرات غائرة يخرج الشيخ حسن الخطاب من جيبه ويعطيه الحاج على ، ويقرؤه الرجل ثم يخطفه منه من يليه ، ويروح الخطاب يلف فى الأيدى بين أعين جازعة حيرى ينظر كل منهم الى المستقبل الذى ينتظره ، وتزداد الأيدى الخاطفة أو الأعين الهالعة فليس بين الجمع الا من أخذته الرعدة الا نورا .. هو وحده الذى كان ثابت الجأش راسخ الفؤاد ، وقد وصل الخطاب الى يده وتظاهر بقراءته بينما كانت عيناه تدوران فيمن حوله ، يريد أن ينتهز منهم غفلة ليضع الخطاب فى جيبه . ولكن هيهات ، فقد كانت العيون كلها على الخطاب ، وما لبثت يد أن اختطفت الخطاب من يده قبل أن يفكر فى الوسيلة التى يخفيه بها . وأخذت الرعدة طريقها ثانية الى القلوب بعد أن كانت قد توقفت عن سيرها قليلا عند نور ، حتى الفقراء الذين لا يملكون شيئا والذين عرفوا أن بالخطاب بشيرا لهم بالغنى .. حتى هؤلاء لم يملكوا فى هول الموقف الا أن يرتعدوا مع الراعدين . وما هى الا بعض الساعة حتى عاد الشباب بالجثة ، وحتى علا فى أجواء قرية السلام صوت الطبلة رتيبا ضخما عاليا ، تقرعها يد ثبتة واعية هى يد كمال .

١٤

وقيدت الحادثة ضد مجهول ، فما كشف الخطاب عن شيء للنيابة، فما كان أحد ليعـرف خط كمـال وما كان أحد ليفـكر فى كمـال ليستكتبه •

لم يكشف الخطاب عن شيء للنيابة ، ولكنه كشف لملاك قرية السلام الطريق الذى لا بد لهم أن ينهجوه • لقد عرفوا أنهم لا بد لهم أن يدفعوا الاتاوة التى تفرض عليهم ، وعرفوا أنهم الى الموت ان فكر واحد منهم أن يشى بالخطابات التى ترد اليهم مع الليل •

وحاول الشـبيبة المثقفون فى القرية أن يثنوا القوم عن طاعة الأوامر ، ولكن هيهات لهم أن يصلوا بشجاعة ألفاظهم الى القلوب الراعدة بين أضلاع القوم المساكين • وراح التاجر أبو عليوة يخرج كل يوم بأقطان من القرية فتعرف القرية أن الاتاوات قد دفعت مساء أمس عن كل قنطار خرجت به سيارة التاجر صباح اليوم •

وقد كان يصاحب كل سيارة خارجة حركة نشاط من المثقفين، ولكنه نشاط يبلغ مصيره دائما الى الفشل •

وكان فخرى قد جاء الى القرية تلبية لأمر أبيه ، واستقبلته الفاجعة فى بيته فراح يبذل كل جهده أن يصل الى خيط يهديه ، ولكن من أين له والفرائص من حوله ترتعد ، والألسن لا تملك أن تتحرك خفية فى أفواهها ؟

لقد كان أمر أفراد العصابة مجهولا ، وفى ستار الجهل بهم كانوا يعرفون ما يدور بالقرية جميعا ، فاذا القرية وقد غشيها الذعر الراجف، تلتقى الأعين حسرى كليلة ، ويدور الحديث ، كل حديث ، فلا يلبث أن ينتهى الى صمت مفاجىء ، ويطرق المتحدثون • فقد كان كل حديث يؤدى بهم الى الرزء الذى انحط على القرية ، والذى لا يستطيعون أن يصفوه فقد ملأهم الخوف أن يصفوه •

الشك والريبة والمهانة والخوف • يحذر الأخ أخاه والأب ابنه والابن أباه • النسوة ذاهلات حيارى ، لقد رأين رجالهن ضعافا خانعين فانعدمت الثقة فى نفوسهن ، فما أصبحن يثقن بأحد ولا بشىء •

العمدة جازع تزداد نفسه ذلة أمام نفسه ، رائح كل يوم غاد الى المركز ومنه لا يدرى ماذا يقول •• أيقول انه دفع الاتاوة هو أيضا وانه لا يدرى الى من دفعها ؟ •• أيقول انه وهو العمدة قد تلقى الرسالة مثل من تلقاها ؟ وأنه خرج من باب الحريم فى دواره وذهب فى بهيم الليل الى خص فى عرض الصحراء ، ودفع اتاوة الى قوم ملثمين لا يبين منهم شىء فى ذلك الضوء المتهافت الذى اصطنعوه فى خصهم ؟

ماذا يقول العمدة وماذا يفعل ، الا عبرة تنحدر من عينيه كلما ذكر وقفته من جماعة الخير وهم جلوس ، ودفعه لهم المال يكاد يرى السخرية به فى أعينهم الخبيثة ، بل فى أيديهم التى امتدت الى ماله ، والتى كانت مغطاة هى أيضا بالقفازات القطنية ؟ • ماذا يقول العمدة وماذا يفعل

وأنفذ كمال وعده الى الفقراء فقد كانت تهبط عليهم صبابة من المال من حين الى حين ، وكم فرحوا حين وافتهم الدفعات الأولى ثم كم حزنوا بعد حين .

لم يكن هؤلاء الفقراء الا الأجراء الذين يعملون بالأجرة فى حقول الملاك الصغار ، وقد كان شأنهم فى هذا الموسم أن يستأجروا ليبذروا البرسيم تحت الذرة ، ولكن الملاك لم يستأجروا واحدا منهم ولم يبذروا البرسيم ، بل انهم حتى لم يفكروا فى قطع الذرة وتهيئتها للبيع . وكيف لهم أن يفعلوا وهم لا يدرون ماذا يحمل لهم الغد ! أتعيش بهائمهم لتأكل البرسيم ؟ أيباع الذرة اذا قطع ؟ .. لا يعرفون فهم لا يستأجرون أحدا ، وبحسبهم ما معهم من ثمن القطن يعيشون به وتعيش به بهائمهم أيضا ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

الفقراء أيضا فى حال من السخط الشديد ، فما كانت الأموال المفاجئة لتغنيهم عن الأجر المنتظم ..

مجلسان فى القرية لم ينقطع فيهما الحديث فجأة ، ولم تلتق فيهما العيون حسرى كليلة : المجلس الأول هو مجلس كمال ، وقد كان يأخذ فيه مكانه من الأرض صدر الليل ، حتى اذا انتشر عنه النـــاس وانفضوا الى بيوتهم وخلا بهم المجلس ، ارتقى كمال مكانه على الأريكة ، أما الأرض فهى لأى واحد منهم غيره . وقد تنبهوا بعد الليلة الأولى أن يتركوا بهذه الحجرة الزهار أو النمرود اذا خرجوا هم الى عملية لهم ، حتى يبيع ذلك المتروك من المخدرات الى من يقصد الى بيت النمرود فى أغوار الليل . وقد أمر كمال أن يكون البيع دائما خارج البيت حتى لا يكتشف المشترى خلو الحجرة منهم عندما تخلو، على أنهم لا يلبثون بعيدا عن الغرفة الا ريثما يتم تسليم المبلغ المفروض، ويذهبون الى المغارة يودعونها أســلحتهم ثم هم ينقلبون الى حجرة النمرود فرادى .

وأما المجلس الآخر الذى اتصل فيه الحديث فهومجلس الحاج على ، الذى تخلى عنه الحاج ابراهيم ليحل محله أحمد أبو خليل الذى لم يدفع بعد مؤخر الرشوة الى الشيخ رضوان . وقد اتصل الحديث بينهم لأنهم كانوا يمتدحون ما تقوم به جماعة الخير ويذيعون هذا الحديث ويروجونه ، فقد كان النفاق فى دمهم لا يطيقون عنه محيدا . وقد كانوا جميعا أضيق ما يكونون بجماعة الخير فقد دفعوا هم أيضا ــ ما عدا أحمد ــ الاتاوة المفروضة عليهم ، ثم ارتأوا أن يذيعوا بين الناس أنهم دفعوها حبا فى الخير ، واقتناعا بالفكرة التى تسعى اليها جماعة الخير .. يحاولون بذلك أن يدافعوا عن كرامتهم التى هتكها الاجبار ، وتبعهم فى قولهم بعض القوم ليظهروا أمام نسائهم أنهم أشداء وان كانوا قد دفعوا الاتاوة ، وأنهم كرماء يطيب لهم أن يمدوا للفقير عونا ..

كان هؤلاء قلة على أية حال ، وكانوا اذا خلوا بأنفسهم صارحتهم أنفسهم بحقيقة أمرهم فأصمتوها خشـــية أن يطلع أحد على خبىء نفوسهم .. أو خشية أن تنم عليهم نفوسهم .. نعم لقد كان أبناء قرية السلام يخشون من أنفسهم أن تشى بهم أنفسهم .

أمر كمال ألا يغالى أفراد الجماعة فى اظهار مالهم الذى كسبوه من أعمـــالهم . فقد كان يخشى أن يدل ثـــراء المظهر على ما تدرؤه الأخصاص والمغارة والظلام عن العيون . ولكن أملا كان يتردد فى نفس الزهار أراد اليوم تحقيقه ، انه الأمل الذى بثه كمال الى نفسه حين كان يجتذبهم الى انشاء الجماعة .. سعدية .

استأذن الزهار كمالا أن يحقق أمله اليوم فليس أصلح من اليوم ليحقق أمله ، فالزوج قد طلق والمنافس لا يطيق أن يطاوله بالمـــال ، والطريق معد ولم يبق الا السير فيه .. أذن له كمال وأعد له ما يقول عن أسباب غناه ، فحفظه ومضى شأنه الى سعدية التى أقامت ببيت

أبيها حتى يبيع أحمـــد قطنه ، وحتى يبيع أيضا بعضا من قراريطه ويهيىء لها العيش الذى تصبو اليه . وكان أبو سعدية قد مات بعد أن زوجها الى صالح ، وكانت أمها ضعيفة لا تملك من أمر ابنتها شيئا فأصبح أمر سعدية كله بيدها .

ــ كيف أنت يا سعدية ؟

ــ أهلا زهار .. يا ترى أنظيف فى زيارتك أم تحمل معك تهمة من التى توزعها ؟

ــ لا .. نظيف والحمد لله .. سمعت يا سعدية أنك ستتزوجين من الولد أحمد ؟!

ــ وما لزوم ولد هذه ؟

ــ اذن فأنت ستتزوجين منه ؟!

ــ وماله ؟ هل فى الزواج عيب ؟!

ــ لا عيب به ان كنت تختارين من يليق بك .

ــ وماله أحمد ؟

ــ من أجل الفدانين ! ..

ــ فدانين وعشرين قيراطا .. هل تملكها أنت ؟!

ــ لا أملك أرضا ، ولكنى أملك مالا .

ــ أتسمى هذه القروش التى تنحتها مالا ؟

ــ مرى أنفذ .. وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

ــ من أين لك ؟ لو كنت أكثر جرأة مما أعرفه عنك لقلت انك من جماعة الخير .

ــ يا ليتنى كنت .. يا ليت ؟

ـ والله لو دخلتها لخربت •

ـ يا ستى مالنا ومالهم ؟ •• أجيبى فيما أسألك •

ـ أجبنى أنت أولا •• من أين لك المال ؟

ـ شاركت النمرود •• أذهب أنا الى البلاد ويقيم هو هنا ، وقد أفاد هذا التجارة لأن المخبرين لا يعرفوننى ، فاستطعت أن أبيع صفقة كبيرة •

ورأت سعدية أن كلام الزهار معقول ، وهى تعلم أن التجارة التى يعمل بها تدر الربح الوفير ، وهى ترى أن أحمد يطاولها وان كانت أعذاره فى المطاولة واضحة لا ريب فيها •• وهكذا رأت ألا تقطع الأمل من نفس الزهار فتضمن زيجة على أية حال •• فان لم تتم الزيجة بمن تحبه فلتكن زيجة بمن يحبها ، فقالت فى اهتمام :

ـ والله طيب يا زهار •• فأنت تكسب كثيرا الآن •

ـ أكثر مما تحلمين به ، وأضعاف ما سيأتيك به أحمد • وانك تعلمين أننى أحبك قبل أن تتزوجى من صالح •• لقد أحببتك وطلبت الزواج بك قبل صالح وأحمد • لماذا لم يطلب أحمد الزواج بك قبل صالح ؟

ـ أتتجاهل ؟ ألا تعلم أنه كان حينذاك فقيرا لا يملك شيئا ، فقد كان أبوه لا يزال يحيا ، وكان ـ كما تعلم ـ بخيلا فلم يرض أن يعطيه ما يتزوج به •

ـ ولكننى كنت أحبك أكثر من أى انسان فى الدنيا ألا تعلمين ذلك ؟

ـ أعلم •• يا زهار ، ولكن أحمد ماذا أقول له ؟

ـ لا تقولى شيئا ، أما ترين أنه حتى الآن لم يتزوجك •

ـــ معذور والله ، وأعلم عذره •

ـــ وما عذره ؟

ـــ أراد أن يبيع بعض قراريط من أرضه فلم يستطع ، فانه منذ أخذت جماعة الخير الاتاوة عن الفدان الذى باعه عبد الحميد الى عبد الجليل شيخ الخفراء ، والبيع والشراء قد انقطعا من البلد تماما • وقد حاول أن يبيع فدانا فى السر الى الحاج ابراهيم ، وتعهد أن يقوم هو بالزراعة الى أن يكشف ربنا الغمة •• الغمة ، حتى لا تعرف الجماعة أنه باع شيئا ، ولكن الحاج ابراهيم كان قد أقسم يمين طلاق ألا يشترى منه ، وعرض عليه الفدان بأربعمائة جنيه فلم يقبل الحاج أن يشترى •

ـــ هيه •• ولماذا لم يبع القطن ؟

ـــ والله الله أعلم !

ـــ ولماذا لم يبعه الى أبى عليوة ، لقد سمعت أنه قبض منه العربون •

ـــ الله ، ولد يازهار ، ستجعلنى أقول لك كل أسرار الرجل ؟!

ـــ يا ستى وهل بيننا سر ؟

ـــ لقد جعلنى أقسم ألا أبوح بهذا السر •

ـــ وهل اذا قلته لى تحنثين بيمينك •• ؟ أنا نفسك يا سعدية ، ألم تعرفى هذا بعد ؟

ـــ عارفة يا زهار •

وصمتت بعض الحين ، ولكنه أبى عليها الصمت •

ـــ هيه •• ماذا سيفعل أحمد ؟

ـــ أخاف يا زهار أن تقول لأحد •

ـ يا سعدية اتقى الله .. أنا أذيع سرا لك ؟!

ـ لقد أقسم أحمد على المصحف ألا يعطى جماعة الخير اتاوة على قطنه .

ـ عجيبة .. وما الداعى ؟ أهو الرجل الوحيد بالقرية ؟ لقد باع أغلب الأعيان أقطانهم ودفعوا الاتاوة ، أهو أشجع من العمدة أم من الحاج على أم من نور الكحلة ؟

ـ أراد أن يثبت أنه أشجع منهم جميعا .

ـ عجيبة .. ولماذا أراد أن يثبت هذا ؟!

ـ كان يتكلم معى وجرى الحديث عن الجماعة ، فقال ان البلد ليس فيه رجال وانهم جميعا نسوان ، فقلت له : وماذا فعلت أنت ؟ وعيرته بأنه يمدحهم فى دكان الحاجعلى فأخذته الحمية ، وأقسم ألا يعطى الجماعة اتاوة ، وأن يبيع القطن برغم الجماعة .. الجماعة .

ـ هيه .. والله رجل .. وماذا سيفعل ؟

ـ احذر يا زهار أن تبوح بهذا الحديث لأحد .. انها حياة رجل وأنت المسئول عنها .

ـ أتشكين يا سعدية .. ؟ اذن فلا تقولى السر .

ـ سأقوله ، ولكن أقسم أولا ألا تبوح به لأحد .

ـ وحياتك .

فابتسمت سـعدية وتابعت حديثها :

ـ ذهب اليوم الى المديرية ليتفق مع أبى عليوة على أن يسلمه القطن فى المديرية بعد غد صباحا ، وسيذهب الى النمايلة ويستأجر منها جملين حتى لا يعرف أحد هنا ما ينوى أن يفعله ، وسينقل القطن فى مساء الغد دون أن يحس به أحد .

ــ ولكن .. ألن تعرف الجماعة أنه باع قطنه فى الصباح ؟

ــ انه هو من سيحمل القطن ويخرج به فى المساء ، ثم يقفل المخزن فلا يعرف أحد أنه سلم القطن .

ــ ومن أين عرف أن النمايلة ليس فيها عيون للجماعة ؟

ــ لن يخبر أصحاب الجمال بما ينوى أن يفعله ، وانما سيطلب اليهم أن يسلموه الجمال ليردها اليهم فى اليوم التالى لنقل القطن ، وسيضاعف لهم الأجر .

ــ والله لئيم .. النهاية .. أنا سأغنيك عن قطنه وقراريطه وكل ماله .. ما قولك ؟

ــ أشوف يا زهار .. أمهلنى أسبوعا أفكر فيه .

ــ وهو كذلك يا سعدية .. سيكون أطول أسبوع فى حياتى .. أتركك بخير يا سعدية .

ــ وانت من أهل الخير يا زهار .

* * *

لم يكن الزهار صاحب القلب الوحيد الذى يتصل أمله بجماعة الخير ، وانما كان هناك قلب آخر اتصل أمله بهذه الجماعة .. أو هو فى الحقيقة أملٌ ظل يراود صاحبه وخشى حين تألفت الجماعة ألا يتحقق .. ذلك الأمل الذى ظل يتردد فى قلب وطنية السنين الطوال أن تتزوج من كمال ، والذى ضعف بعض الشىء حين أنبأها كمال أنه صائر الى الغنى ، والذى ازداد ضعفا حين أهدى اليها كمال الجلباب الأحمر والمنديل ، والذى لا يزال يضعف كلما رأت الأموال تتدفق فى يد كمال . وكلما ازداد ضعف الأمل ازداد تشبث صاحبه به . وفى غمرة من هذا التشبث قصدت وطنية الى كمال فى بيته شأنها كل

يوم منذ تألفت الجماعة ، الا أنها اليوم وفى هذه الغمرة قد انتوت أن تطالبه بأن ينفذ ما وعدها به يوما •

— صباح الخير يا كمال •

— صباح الخير يا وطنية •

— هل ستخرج الآن ؟

— لا ، ما الأخبار فى البلدة ؟

— كما هى ، يدعو لك بعضهم من لسانه ويدعو عليك جميعهم من قلبه •

فينتفض كمال جازعا :

— [illegible]نى ؟

— [illegible] وكيف لهم أن يعرفوك وأنت أمامهم كما أنت تلبس أثواب المسكنة ، حتى اذا خلا بجماعتك مجلسك خلعت الستار وارتددت الى طبيعتك ، تدبر القتل والخوف والجزع واصابة أموال الناس بالباطل ؟

— فكيف يدعون لى أو على ؟

— يقولون جماعة الخير •• ألست الجماعة ؟

— أعوذ بالله ، أبهذا تصبحيننى ؟

— ان لم أقل أنا لك الحق فلن يقوله أحد •

— ومن قال لك انى أريد الحق منك أو من غيرك ، وعلى كل حال لماذا يدعون على من قلوبهم ؟

— ألم تحرم عليهم أن يبيعوا أقطانهم الا بالاتاوة ، وفرضت على بهائمهم الاتاوات ، وفرضت الاتاوة أيضا على بيع الأطيان ؟

— كل من يملك أقطانا وبهائم وأطيانا غنى ، والفقراء أكثر من الأغنياء •

ـ من قال لك ذلك •• ؟ من قال ان كل من يملك بهيمة أو قطنا أو أرضا غنى ؟ ومن قال ان هؤلاء كثرة ؟ ليس فى قريتنا الا قلة نادرة لا تملك شيئا • وحتى هذه القلة غير راضية عنك ، فالأجراء أصبحوا لا يستأجرون ، وأصحاب الأرض جميعا وقف حالهم ، ثم هم يقولون انك فرضت الاتاوات لتأخذ معظمها لك وتعطيهم منها الفتات الذى لا يغنى •• لا يغنى أبدا بعد أن وقف عنهم الخير الذى كان يأتيهم ممن يستأجرونهم •

ـ والله أصبحت فصيحة ، ولكن كلامك فارغ ، فان كل من يعمل خيرا فى هذه الدنيا لا بد أن يجد من ينتقده • ولا بد أن يجد الناس وسيلة ليجعلوا هذا الخير الذى يقوم به صادرا عن غرض فى نفسه غير الخير ، ولذلك يجب أن يعمل الانســان الخير ولا يهتم بالناس •

ـ حكم •• والله حكم ، ولكنها للأسف صادرة عن ضال ، أتدعى أن السرقة خير ؟ عجيبة ! يا كمال ارجع فانى والله أخشى عليك ان لم ترجع •

ـ ومالك أنت رجعت أم لم أرجع ؟

ـ مالى أنا يا كمال ؟ •• مالى أنا ؟ انسيت كل شىء يا كمال ؟

ـ كلامك يثير الغضب والخوف يا وطنية •

ـ من خوفى عليك يا كمال ، ألا تعلم يا ابن الكلب أنه ليس لى فى الدنيا غيرك •

ـ أما آن لك أن تنتهى عن الشتيمة ، لم أصبح كمالا الذى كنت تعرفين •

ـ نعم أنت محق ، لم تصبح كمالا الذى كنت أعرف ، وأين أنا منك الآن ؟ أنت لص يملأ الدنيا ذعرا وأنا وطنية ما أزال •

ـ لا ، أنا لا أقصد هذا . ولكن لسانك تعود شتمى وأنا الآن محترم أمام الجماعة الا منك .

ـ وطبعا احترام الجماعة لك يمنعك أن تنفذ وعدك .

ـ وعدى .. أى وعد تقصدين ؟

ـ ذلك الوعد الذى كان الفقر يمنعك من تحقيقه، ألا تذكره ..؟ ألا تذكر يا ابن الـ .. نسيت ؟ فأنت تمنعنى من لذتى الوحيدة فى الحياة .. تمنعنى من شتيمتك .

ـ أى وعد ؟ ، ذكرينى .

ـ والله لا أذكرك به أبدا ، ان كنت لا تذكره فلا جعله الله يتم .

ـ آه ! تقصدين الزواج ؟ وهل هذا يحتاج الى تذكير يا وطنية؟ وهل لى غيرك ؟

ـ نعم .. نعم .. اشتغل على أنا الأخرى اشتغل ، كأنى فرد من جماعة الخير .. يا كمال طالما قلت لك انى بنت حرام وهذا اللف لا ينطلى على ، فأنا أعلم أن لك غيرى ولكن نجوم السماء أقرب اليك منها . وأنا أعلم أنك تصانعنى لأنى أعرف أسرارك جميعا ولأنك تحتاج لى . ولكن اسمع يا كمال ، سأتظاهر بأننى أصدقك لأنى لا أملك الا هذا التظاهر ، ولكن لا بد لك أن تصنع لى سببا مقنعا يجعل تأجيل زواجك منى معقولا .

ـ ان هذا لا يحتاج الى صنعه ، أخشى ان أنا تزوجتك أن تتجه الينا عيون الناس ويتساءلون : من أين لكمال أو وطنية بالمال ؟ ولكن قولى لى ، من هى غيرك هذه التى تجدينها أبعد عنى من نجـوم السماء ؟

ـ كمال ! ألا تعرفها ؟!

ـ من تقصدين ؟

ـ ستك درية .

ويسكت كمال لحظة ذاهلا ثم يقول :

ـ عجيبة !

ـ وما العجيبة ؟

ـ أن تفكرى هذا التفكير .

ـ أهكذا .. لعلى مخطئة .. سأنتظر يا كمال ، سأنتظر يا ابن الـ ..

وقبل أن تكمل وطنية وصف أبى كمال يطرق الباب فتفتحه وطنية ليدخل الزهار ، الذى ما يلبث أن يقص على كمال ذلك الخبر الذى خرج به من مغامرته الغرامية ، ويقول كمال فى صوت حازم وهو يتهيأ للقيام :

ـ ادع أفراد الجماعة ، سنجتمع فى بيت النمرود .

١٥

الفجر يطلع على قرية السلام بطيئا شاحبا حين صحا العمدة من نومه ينادى الخادمة أن تحضر اليه ماء الوضوء ، وما كاد يفعل حتى سمع صوتا من دون الشباك عاليا أنكره أول أمره ثم ما لبث أن تبينه ، انه كمـــال وان كان صـــوته قد اكتسى قوة ، وزايله وهن واستعطاف :

ــ أطال الله عمرك يا حضرة العمدة .

ــ أهلا كمال ، أترى الوقت وقتك يا كمال ؟

ــ انه وقتى يا حضرة العمدة لم أتقدم عنه ولم أتأخر ..

ــ خير ؟ ماذا تحمل الينا من أخبار .. ؟ من زمان لم أرك .

ــ أخبارى كلها تعرفها ، أصبحت لا أصيب قوت يومى .

ــ لماذا ؟ ألم تقدم لك فاطمة الفطور ؟

ــ لا .. ليس هذا ما أقصد اليه ، وانما انقطعت الأفراح وقد كنت أصيب منها ما يقيم الأود أياما قد تصل الى شهر .

ــ الله معنا يا كمال .

ـ يا حضرة العمدة ..

ـ هيه .. ماذا تريد ؟

ـ الى أين أنت ذاهب اليوم ؟

ـ وما شأنك ؟

ـ مجرد سؤال فقط .

ـ ذاهب الى المركز ، وهل أصبح لى عمل فى هذه الأيام الا المركز أروح اليه وأغدو ؟

ـ آه ..

ـ ماذا تريد أن تقول يا كمال ؟

ـ لا شيء .

ـ أحس فى صوتك رنة من يريد أن يقول شيئا ، قله .

ـ سمعت أن أنور بك قد جاء من أوربا مساء أمس ، ألا تذهب اليه ؟

ـ وماذا أفعل له ؟

ـ تهنئه بسلامة الوصول وتسأله أن يبحث لنا عن حل لمشكلتنا هذه .

ـ وماذا بيده أن يفعل يا بنى ؟ ما أظنه الا سيعلم بمصيبتنا ، ولكن ماذا يفعل ؟

ـ يقيم الدنيا ويقعدها .

ـ الدنيا قائمة قاعدة من غير أنور بك ، وأنور بك رجل حنبلى لا يقبل الا العمل القانونى والقانون لا يسعف اليوم ، وانما الذى يسعفنا العمل الحاسم العاجل .. ماذا تفعل بالقانون أمام السلاح

يا بنى .. ؟ ان هؤلاء المجرمين الذين سلطوا علينا يعلمون أن القوة هى القانون .. لقد كان لطيف خليقا أن ينفعنا اليوم ، ولكنه اكتفى بزيارتى ولم أطلب اليه يومذاك شيئا ، معتمدا على أن المأمور سيسمح لى بترخيص بعض الأسلحة ولكن المأمور رفض .

فسأل كمال وعلى فمه شبح ابتسامة :

ـ ولماذا لم تذهب الى لطيف ثانية ؟

ـ ذهبت ..

ـ فماذا عمل لك ؟

ـ قال .. قال كلاما ولم يعمل شيئا : « أنا تحت أمرك » .. سأكلم المأمور .. وأبلغ الداخلية » . ومعنى هذا أن أذهب أنا فى داهية ويبقى المجرمون .. وحين قلت له انى أريد رجاله لأحمى بهم القرية ، قال ان رجاله لا يعملون لغيره .

وازدادت الابتسامة اتساعا على فم كمال فقد عرف كل ما كان يريد أن يعرف .. العمدة لا يريد أن يلجأ الى الداخلية ، فهو لن يذهب لأنور بك لأن هذا لن يفعل شيئا الا الالتجاء الى الداخلية : وبهذا الخوف نفسه امتنع المأمور عن الاتصال بالداخلية . والعمدة والمأمور كلاهما يرجوان من أعماق أنفسهما أن يظل أنور بك جاهلا أمر جماعة الخير بعض الوقت حتى لا يعلم الرؤساء بالخيبة التى يعانيان منها . أما ما قاله لطيف بك فهو لا يعدو تنفيذ الاتفاق الذى تم بينهما ، حين دعا منصورا فرافقه اليه كمال .

وقد كان لطيف خليقا أن يجيب أى رجاء للعمدة الذى يريد أن يصطنعه للانتخاب القـادم ، أن يكون هذا الرجاء حربا على قـوم ضمهم هو الى رحابه .. أى رجاء الا هذا ! فقد كانت حياته أغلى من الانتخاب ، ولا يحب أن يؤلب المجرمين على حياته .

وما كان كمال يريد الا معرفة هذه الأمور وقد عرفها ، فقد شغله مجيء أنور بك ، وخشي أن يقصد اليه العمدة فيضيق عليه الخناق •• وقد كان كمال يخشى أن يضيق عليه الخناق وهو — بعد — لم يثبت دعائمه ، ولم يرسها على العمد التى يبتغيها لها •

دارت بذهن كمال هذه الأمور وهو يستأذن العمدة أن يدخل الى الدوار ليصيب فطوره ، وليصيب أيضا ذلك الشيء الذى ما زال يهفو اليه •• نظرة من درية •

* * *

أقبل المساء على القرية فأوى القوم جميعهم الى البيوت يذودون عن أنفسهم ذلك الجو القاتل الذى شاع فى القرية ، والتقت أعين الأزواج والأولاد على نور المصباح المتهافت فأحســت القلوب فى أضلاعها رجفة ، هى هزة الخوف من الغد المجهول فما يعلم أحد بماذا يطلع عليهم الصباح • وهى هزة الحب اغتلى فى أفئدتهم •• الحب للحياة التى يحيونها لا يريدون أن يفارقوها مهما تلاقهم بهذا العنت الذى تلاقيهم به ، والحب •• حب الزوجات لأزواجهن وحب الأزواج لزوجاتهم ، وحب الأبنـاء لوالديهم وحب الوالدين لأبنائهم ، يبلغ أقصاه فى فورة الأحداث الراعدة حواليهم • والحب •• حب الجميع لله الكبير أملهم الذى لا أمل لهم غيره ، وملاذهم الذى لا ملاذ لهم الا هو ، ومن خلال هذه الخيوط الناعمة القوية من الحب ، ومن خلال هذه النظرات الصامتة العميقة ، يســتمد القوم بعض طمأنينة تسكن اليها نفوسهم المضطربة بعض السكون •• بعض سكون يستطيع أن يصحبهم الى نوم ، وان يكن نوما مفزعا ينتظر النذير أو ينتظر الكارثة •

فان مررت ثمة بالقرية فلا نيران ولا سمر ، ولا جماعات تتحلق ولا أفراد تروح أو تغدو ، انما هم الخفراء فى جلابيبهم علقوا على

أكتافهم بنادقهم لا يستعملونها ، فقد استعاضوا عن الأعيرة فى الهواء بكحة يسعلونها يسلمها خفير الى خفير • حتى الضفادع والصراصير ، حتى الكلاب النابحة أحست بما أصاب الناس فهى فى صمت مطبق ، فان صات أحدها لم يجد جوابا فيعود الى صمته •• ان مررت ـ لا قدر الله لك أن تمر ـ لتشوقت الى هذا الضجيج الذى كانت الضفادع والصراصير والكلاب تثيره فى القرية •• ولتمنيت ـ وان كنت تكره أصواتها ـ أن تعود الضفادع الى النقيق والصراصير الى الصـفير والكلاب الى النباح ، ولرأيت فى أمنيتك هذه أملا ضخما ترجو أن يتحقق وان أصاب السمع منك بما لا تحب •• نعم •• وان ••

حتى الضياء الخافت الذى كان يتسرب من البيوت قد أقفلت دونه ألواح غليظة من ضلف النوافذ ، فهو ثمة حبيس مع النـاس لا يرى الى القرية ولا يشتهى أن يراها •

ليس فى القرية صوت وليس فى القرية نار وليس فى القرية نور ، ولكن ضياء فى السماء يأبى أن يترك القرية فى سوادها الصامت الحزين ، فثمة قمير صبى يطل على القرية بشعاعات تغشاها ، فهى فى زرقة من الضياء • فان مررت ـ لا قدر الله لك أن تمر ـ لأمكنك أن ترى طريقك وأن ترى أيضا رفيق طريقك •

فى هذا المساء الأزرق ، وفى هذا السكون الهاجع ، خـرج أحمد أبو خليل متسللا متشحا بالسواد من حظيرة بهائمه ، يسحب من خلفه جملين وقد حمل على كل منهما كيسين من القطن ، وسار بهما وجهته الى المدينة يريد أن يبلغها فى الصباح •

وفى هذا المساء نفسه كان فتحى خفير العمدة ينتظر العمدة ومعه حماره عند القطار ، تنفيذا لأوامره التى أرسلها فى قطار الظهيرة الذى كانوا ينتظرونه فيه ، تلك الأوامر التى تفيد أن المأمور قد أخره وأنه قادم فى آخر قطار يصل الى محطة بلدتهم •

والذى يريد أن يخرج من القرية قاصدا الى المدينة لا بد له أن يمر أولا بطريق زراعى تحف به الحقول من الجانبين ، وقد كانت الحقول فى تلك الآونة مغطاة بالذرة لم يزلها أصحابها عن الأرض •

والذى يريد أن يقصد من المحطة الى القرية لا بد له أن يمر بطريق تحده الصحراء من جانب ، والطرف الآخر من حقول الذرة نفسها التى تحف بطريق القرية من جانب آخر •

كان أحمد اذن مترجلا فى طريقه الى المدينة ووراءه الجملان ، وكان العمدة راكبا الحمار فى طريقه الى القرية ووراءه فتحى •

وفجأة فى بهيم الليل سمع العمدة عيارا ناريا ينفجر من قريب ، فانتفض العمدة عن حماره وانتفض الحمار من تحت العمدة ، وجرى فتحى الى الذرة يختبىء بها ، وأسرع العمدة يجر الحمار مهرولا الى أعواد الذرة يرجوها أن تحميه • ومن قريب سمع العمدة حفيف ثوب وأقدام تقترب ، ثم ما لبث صاحب الجلباب والأقدام أن مر قريبا من العمدة وفتحى والحمـار ، وقد كتم جميعهم أنفاسهم حتى عبرهم المجهول ، قد أجابت الذرة رجاء العمدة فحمته من الأعين • وخرج صاحب الجلباب من الذرة الى الطريق يحمل بندقيته فى يده متهيئا لاطلاقها عند أول بادرة . ويتلفت يمنة ويسرة فيراه العمدة من مخبئه، ويراه فتحى ويعرفانه •• ويخترق الدفراوى الطريق الى الصحراء ، وما هى الا لحظات حتى تغيبه الصحراء فى جوفها ، ويصحو العمدة من ذهوله المذعور :

ــ فتحى ؟

ــ ن •• ن •• نع •• نع •• نعم يا حضرة العمدة •

ــ أين بندقيتك ؟

ــ مـ •• مـ •• معى •

ـــ وماذا تفعل بها ؟

ـــ انها •• انها لا تصلح •• ينطلق منها العيار مرة ، وينحبس فيها مرات •• خشيت أن أستعملها فينتبه الينا الدف •• الرجل فيقتلنا يا حضرة العمدة •

كان العمدة قد ألقى سؤاله وسار مخترقا الذرة الى طريق القرية ساحبا وراءه الحمار ، ساعيا خلفهما فتحى يلقى باعتذاره الطويل هذا• ولم يبال العمدة من جواب فتحى شيئا ، فهو يعلم أنه هو أيضا كان عند الواقعة لا يملك من الشجاعة ما يأمر به فتحى أن يضرب • سار العمدة يهرول فى الذرة لاهث الأنفاس حتى بلغ الطريق ، فراح ينظر حواليه فرأى عن يساره الجملين عائدين طريقهما الى القرية يحملان القطن فلم يحفل أمرهما ، وراح يجيل النظر مرة أخرى فرأى منه عن قريب جثة ملقاة ، سارع اليها وركع عند وجه صاحبها ثم رفع رأسه الى فتحى •

استدع الناس يا فتحى ليحملوا جثة أحمد أبى خليل ، واطلب الى عبد الهادى أن يبلغ النيابة ، وحذار يا فتحى •• حذار أن تخبر أحدا أن الدفراوى هو القاتل •• حذار والا قتلتك •

ـــ وهل ترانى أجرؤ على القول يا حضرة العمدة •• ؟ وهل ترانى أجرؤ ؟!

* * *

بلغ الدفراوى المغارة وما ان دخلها حتى عاجله الزهار :

ـــ هيه يا منصور !

ـــ تم المطلوب •

فقال الزهار فى فرحة غامرة :

ـــ سبع يابنى والله سبع •

وقطع عليه كمال اندفاعه :

ــ اهجع يا زهار •• أترانا هازلين ؟ • هل رآك أحد يا منصور ؟

ــ لا •

ــ هل أنت متأكد ؟

ــ كل التأكيد •

ــ فهيا اذن الى بيت النمرود •• هلم يا جما •• هلم يا رجال •

وخرجت جماعة الخير من مخبئها ، وقصدت الى بيت النمرود دائرة حول القرية غير متخذة اليها الطريق الزراعى ، حتى اذا بلغوا حدود القرية من عند طريق المحطة اخترقوا الذرة الى بيت النمرود رأسا ، وظل الدفراوى ونور والزهار فى الذرة • وخرج كمال منها الى بيت النمرود طرق الباب طرقة عرفها النمرود الذى كان ينتظرهم هناك ، وما لبث الباب أن فتح ودخل كمال ، ثم تسلل الثلاثة الآخرون الواحد بعد الآخر •

وأخذ كمال مكانه من الأريكة ، وسرعان ما اشتعلت النيران وأديرت الجوزة ، ولكن قليلا ما تدور فقد كان اليوم مليئا بالترقب ، يريد كل منهم أن يهجع الى منزله ، فما يلبث كمال أن يقول :

ــ سأقوم للنوم •• ألا تقومون أنتم أيضا ؟

ــ اى والله •• لقد وجب النوم ••

وانفضوا عن مجلسهم واتخذ كل منهم وجهته الى بيته •

دخل الدفراوى منزله وهم أن يخلع ملابسه ، ولكنه يسمع خارج بيته ضجيجا عاليا فلا يحفله ، ظانا أن القوم يلغطون بحادث الليلة • ولكن الضجيج يقترب فيوشك أن يوليه اهتماما ، ويتسمع فيسمع اسمه ، فيسارع بفتح الباب يريد الهرب ولكن لات حين مهرب ، لقد كان الضجيج قد بلغ باب بيته وأحاط به الجنود وخفراء القرية •

١٦

سارت سيارة المأمور بالدفراوى تحمله الى السجن متهما بتهمة القتل ، منكرا لهذه التهمة مبالغا فى الانكار ، ولكن انكاره لم يمنع العمدة أن يفرح لهذا النصر الضخم الذى أصابه ، فان الحوادث التى وقعت فى تلك الفترة البغيضة من الارهاب لا بد أن تنتهى اليوم . بل ان العمدة كبير الأمل أن يعرف أيضا جماعة الخير فردا فردا ، فهو يعتمد على المأمور أن يحمل الدفراوى على الاعتراف .

وبهذا الفرح والأمل ، وفى تفكير عميق ، وقف العمدة يقيم صلاة الفجر الحاضر فقد استمر التحقيق الى الصباح ، وانتهى العمدة من صلاته فى شرفة الدوار وانفتل الى بيته ، فاستقبلته زوجته التى ظلت ساهرة تنتظره وتجيب أوامره التى يرسل بها اليها .

— هيه .. خير يا شيخ زيدان ؟

— خير ان شاء الله .. انكشفت الغمة والحمد لله .

— الحمد لله على كل شىء .. هل اعترف منصور ؟

— لا لم يعترف ، ولكن كيف له أن ينجو وقد شاهدته بعينى أنا وفتحى ، وأثبتنا هذا فى محضر النيابة ؟

ـــ وهل عثروا على السلاح ؟

ـــ هذه هي المشكلة •• لقد فتشنا بيته وبيت صاحبه النمرود ولكنا لم نجد شيئا ، وأرجح أن الولد له صديق في الصحراء أودع عنده البندقية •

ـــ فانتبه أنت لنفسك يا شيخ زيدان •

ـــ لقد خلصنا منهم يا شيخة •• فما أعتقد الا أن هذا كان زعيمهم ، وما أظن أن تقوم لهم قائمة بعده أبدا •

ـــ ومن أدراك يا شيخ زيدان •• ؟! انني لم أر في حياتي عصابة كافرة مثل تلك ، فبحق درية يا شيخ وبحقي الا ما احتطت لنفسك •

ـــ توكلي على الله يا حاجة •• توكلي على الله ، لقد ثبت كلامي في المحضر ولن تنفعهم اصابتي في شيء •

ـــ ومن يدري •• ؟ هؤلاء قوم لا يعرف أحد نواياهم !!

ـــ توكلي على الله •• هلم الى النوم فاني أحس جسمي لا يكاد يستقيم ، وأيقظيني عند الضحى لنمشي في جنازة أحمد ، الله يرحمه •

* * *

صحا العمدة قبيل الضحى ، فوجد القوم ينتظرونه بالخارج ليباركوا له هذا النصر الذي أحرزه ، وليصحبوه في تشييع الجنازة • قال الحاج علي :

ـــ الحمد لله يا حضرة العمدة •• غمة وانزاحت •

ـــ الحمد لله يا حاج علي ، ولو أنك كنت كثير المديح لهذه الغمة •

ـ يا حضرة العمدة داروا سفهاءكم ، وماذا كان يمكن أن أفعل يا حضرة العمـدة ؟ كنت أخشى على نفسى وعلى قوتى .. داروا سفهاءكم يا حضرة العمدة .

فصاح الشيخ رضوان فى غضب تعود أن يفتعله حتى ليبدو صادرا من صميم فؤاده :

ـ دع الحـديث جانبا يا حاج على ، فما أظن النبى يحض على النفاق .. كنت تستطيع أن تسكت على الأقل .

وقبل أن ينطق العمدة كان الحاج على قد شذره بنظرة دهشة عاجبة :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله يا شيخ رضوان .. عجيبة .

وقبل أن يجيب الشيخ رضوان سارع العمدة قائلا :

ـ أى والله عجيبة يا شيخ رضوان .

ـ أى عجيبة يا حضرة العمدة .. أى عجيبة ؟

ـ عجيبة ، لأنك كنت أكثر مديحا للجماعة من الحاج على نفسه .

ـ أعوذ بالله يا حضرة العمدة .. أنا ؟!

فقال الحاج على وهو محملق فى الشيخ لا يزال :

ـ عجيبة !

وقال العمدة :

ـ نعم أنت .

ـ أنا يا حضرة العمدة .. أنا الرجل المصلى الذى أخاف الله وأتقى غضبه .. أنا أمدح هؤلاء القتلة السفاكين اللصوص قاطعى الطريق .. أنا كنت أمدح فقط أنهم يقدمون للفقراء المعونة .. كنت أذم القتل والسرقة وأمدح الكرم ومعونة الفقراء .

ـ سبحان الله يا شيخ رضـوان ، ألم تكن تدرك أن اعطاء الفقراء كان لتملقهم •• ولتجد الجماعة مبررا أمام القرية لارتكاب ما ارتكبته ؟

ـ لا والله يا حضرة العمدة ، لم أكن منتبها لهذا •

فقال الحاج على وهو محملق لا يزال :

ـ عجيبة ؟!

وقبل أن يتكلم أحد صعد الى الشرفة الشيخ عبد الودود منهوك القوى بادى الهزال شاحب الوجه مأخوذا ، ترك عليه الحادث آثار هلع لا يزايله ، فقام اليه العمدة :

ـ مرحبا بك يا شيخ عبد الودود •• الحمد لله على سـلامتك •

ـ سلمت اليوم فقط يا حضرة العمدة •• علمت اليوم بما كان فأحسست روحى تعود الى جسدى هونا ، فقمت اليك أبارك لك بهذا النصر •

وقدم الشيخ حسن مع ابنه فخرى ، وكان الشيخ حسن يبدو وكأنه قفز من الحياة سنين عدة ، واستقبل العمدة الشيخ حسن وابنه وفى عينيه حب لهما عميق • وما كادا يجلسان حتى طلب العمدة الى فخرى أن ينتقل الى جانبه وهمس فى أذنه :

ـ فخرى ، أنا أريدك فى حديث خطير قد يغير مستقبلك ، ولكن لا بد لك أن تقبله •

ـ وما هو يا حضرة العمدة ؟

ـ لا •• ليس الآن •• ولكن عندما يحين الوقت ، سـآتى اليك أنا فى القاهرة وأخبرك به •

ـ أمرك يا حضرة العمدة ••

ـ ولكن لا تخبر أحدا •• لا تخبر أحدا على الاطلاق ، اكتم هذا الحديث حتى عن أبيك •• فان سألك فيم كان حديثى ؟ فقل له اننى كنت أريدك أن تحضر معى عند المحامين الذين سأوكلهم ليترافعوا عن والدة أحمد أبى خليل واخوته •

ـ أمرك يا حضرة العمدة ، وان كنت أنا الآخر أريدك فى شىء خطير ، ولكن ليس الآن على أية حال •

ولما رأى الشيخ حسن أن الهمس قد طال بين فخرى والعمدة كان يدرك أن العمدة يحادث فخرى فى أمر درية ، ولكنه استبعد هذا الظن فما كان يعتقد أن العمدة يحادث الفتى دونه فى هذا الشأن • كما كان يرى أن الوقت غير مناسب ، ولكنه لم يتعمق الفكر فى هذا الشأن فقد كان يعلم أن ابنه سيخبره عن تفاصيل الحديث •• قال الشيخ حسن :

ـ أظن أن الوقت قد حان يا شيخ زيدان •

فقال الشيخ رضوان :

ـ نعم أظن فها هى ذى طبلة كمال تعلو مرة ثانية •

وقام الجميع الى الجنازة يشيعونها يتقدمهم العمدة والشيخ حسن ، تعانقت أذرعهما واعتمد كل منهما على صاحبه •

* * *

أقبل المساء على قرية السلام ، وانتظر القمير بعض الحين ثم حبا الى السماء واهنا ، يرى بعضهم وهنه من الصغر فساقاه ما زالتا غضتين ، ويرى بعض آخر وهنه من الشيخوخة ومن طول ما جاب السماوات منذ خلق السماوات ، ويراه بعض آخر واهنا لا يدركون لماذا ولا يفكرون • ويراه الباقون طالعا فى السماء فلا يرون وهنه ،

وانما كل شأنهم منه أن يطلع فينظروا اليه أو لا ينظروا ، فما يعنيهم في شيء .

الا أن قرية السلام لم تفكر في شيء من هذا ، فقد ذهب الرجال الى مأتم أحمد متفرقين وعادوا جماعات ، ثم تفرقوا ثانية الى بيوتهم فأقفلوا أبوابها على أنفسهم بالقصور الذاتي ، فمع أن الطمأنينة قد عاودتهم شيئا الا أنهم لا يزالون يقفلون الأبواب ويحكمون الرتاج ويذودون الضياء عن القرية بألواح الضلف الغليظة التي يضعونها على نوافذهم .

وحينئذ طلبت درية الى أمها أن تخرج لتعزى والدة أحمد أبي خليل في مصابها ، وقد كانت الأم تريد أن ترافقها ولكن سهر الأمس وكبر السن قعدا بها في ليلتها تلك ، فهي تقول لابنتها :

ــ أتظنين أن الرجال قد انفضوا عن المأتم الآن ؟

ــ أظن ذلك ، فهم في هذه الأيام يبكرون في النوم .

ــ أخاف أن تذهبي وهم لا يزالون هناك فيغضب أبوك ؟

ــ اذا رأيت الرجال لا يزالون قاعدين عدت .

ــ حسنا فاذهبي اذن ولكن لا تتأخري . خذى معك فاطمة وعبد الهادى الخفير .

ــ أمرك يا أم .

وخرجت درية في موكبها الصغير قاصدة بيت أحمد أبي خليل، واخترق الموكب الظلام الأزرق والسكون المطبق الذى تعانيه القرية، الى أن بلغ جرن القرية حيث اتخذ كل فلاح مكانا يضع فيه روث بهائمه في شكل كومة ليجعل منه سمادا لأرضه ، وتتقارب هذه الأكوام حتى لا يسمح الطريق بينها لغير راجل واحد أن يمر . ولا حارس

ثمة على هذه الأكوام ، فكل فلاح يعرف كومه ولا يعدو أحد منهم على الآخر •

كان على الموكب أن يخترق هذه الأكوام الى بيت أحمد ، فتقدم عبد الهادى وتبعته درية ففاطمة • وما ان توسط هذا الطابور أكوام السماد حتى تواثب على ثلاثتهم ثلاثة شخوص ملثمين بينما وقف رابع يرقبهم ، ويضع كل من الثلاثة احدى يديه على أفواه كل من عبد الهادى ودرية وفاطمة ، ويضعون فى جنب كل منهم مسدسا • وتتم العملية فى ومضة عين ، ثم يقول الشخص الرقيب وهو ملثم :

ــ كلمة واحدة أو صوت •• تنطلق هذه المسدسات جميعا • هيا تحركوا معنا •• سترتفع الأيدى عن أفواهكم فحذار أن يسمع لكم صوت •

ويسير الجمع اثنان يتبعان اثنين آخرين ، وفى آخر الطابور المزدوج يسير كمال •

ويخترق الموكب الطريق الزراعى المحفوف بالذرة ، ويبلغ الطريق الرئيسى الذى يتفرع الى طريقين أحدهما الى المدينة والآخر الى المحطة ، فيميلون الى طريق المحطة ، ثم ما يلبثون أن يعبروا الطريق الى الصحراء • وما هى الا خطوات قليلة ، حتى يبلغوا كثيبا ضخما من الرمال يدورون حوله فيطالعهم كوخ كبير ، ويقف كمال على بابه ويقول لعبد الهادى وفاطمة :

ــ اذهبا أنتما الى العمدة وقولا له ان ابنته لن ترجع اليه حتى يغير أقواله التى قالها فى المحضر •• فاما أن يبرأ منصور أو تموت الابنة •

وتشهق فاطمة ، فيعود كمال الى الحديث وقد غير اللثام صوته :

ــ اخرسى •• اذهبى واحذرى أن يصدر عنك صوت أو كلمة حتى تبلغى العمدة • احذرى والا فأنت تعرفين ما يمكن أن نفعله •• هيا •

وتجر فاطمة عبد الهادى ويسيران طريقهما الى العودة ، بينما يدخل كمال الى الخص فيخرج منه حصانه فيركب ويضع درية أمامه ويركب الآخرون خيولهم وتركض بهم الخيل الى المغارة •

يدخل كمال ودرية الى المغارة المظلمة فيضىء مصباحا ، ويكبل درية بالحبال ويضع على فمها منديلا ، ويخرج الى اخوانه فيسأله الزهار :

ــ هيه •• أننام جميعنا هنا ؟

ــ هل جننت ! •• أما كفانا أننا لم نذهب الى المأتم اليوم ؟ •• لا بد لكم أن تظهروا فى القرية الليلة وتناموا فى بيوتكم •

فيقول الكحلة :

ــ ومن يحرسها اذن ؟

فيقول كمال :

ــ أنا أحرسها •• فان أحدا لن يبحث عنى • اذهبوا أنتم وأبقوا على المسدسات معكم حتى مساء الغد ، وتعال أنت يا نور فى الصباح لتتولى حراستها •• وأحضر لنا معك بعض الطعام •

ــ لماذا ؟ ألم تحضر وطنية طعاما ؟

ــ لا لم أطلب اليها أن تفعل ، لأنى لم أخبرها بعملية الليلة •

ــ وهو كذلك •• السلام عليكم •

ويمضى القوم بعد أن يودعوا المغارة خيولهم التى استخدموها لأول مرة ، والتى ملأهم الزهو باستخدامها • ولولا أن كمالا خشى أن

تعيقهم درية فى المسير فيبطئوا ويلحق بهم أهل القرية لما استخدموا الخيـــل فى ليلتهم تلك ، فقد كانت معدة للعمليـــات خارج القرية لا داخلها .

مضى القوم ، وجلس كمال على باب المغارة يفكر فى أمره وأمر درية .. ويتيح بجلوسه لدرية أن تسترد أنفاسها اللاهثة ونفســـها الجازعة . لقد طالما تمنى أن يخلو الى درية ، ولكنه لم يتمن أن تكون الخلوة ناتجة عن اختطاف ، وقاصدة الى تهديد ..

قام كمال فدخل المغارة ملثما — لا يزال — فأزال عن فم درية المنديل ، ثم ابتعد عنها قليلا واتخذ لنفسه مجلسا أمامها .. وينظر اليها كمال طويلا ثم ما تلبث أن تنحدر من عينيه دمعتان أحست عيناه بهما حارتين ، فهما لم تعرفا هذه الدموع منذ كمال طفل لا يذكر متى دمع أو بكى . وكفكف كمال دمعة خفية ثم قال لدرية :

— لا تخافى .

— أنا غير خائفة .. أنا مؤمنة ، وما فى علم الله كائن .

— ونعم بالله ..

وانقطع الحديث حينا ، ثم قال كمال بعد أن استجمع نفسه :

— من أنا ؟

— قاتل .

— سامحك الله .

— اطلب اليه أن يسامحك أنت .

— علام ؟

— ألا تعرف ؟ .. على كل ما جنيت . على النفوس التى قتلتها

والقلوب التى أرعبتها ، اطلب اليه أن يسامحك ـ على الأقل ـ من أجل ما تفعله الآن بأبى المسكين حين يعلم أننى رهينة عند سفاك .

ـ هذا عملى .. أقتل الفرد فى سبيل الجماعة .

ـ أيها السفاك .. وهل الجماعة الا أفراد !!

ـ لكل رأيه .

ـ بل ان كل انسان يشكل منطقه على هواه .. حتى القاتل اللص السفاك ، حتى أنت تخلق لنفسك منطقا .

ـ لم تجيبى .

ـ علام ؟

ـ من أنا ؟

ـ لقد أجبت ، قاتل لص .

ـ فما اسمى ؟

ـ أيا يكون اسمك فانه لن يستر اسـمك الحقيقى .. قاتل لص .

ـ بل ان لى اسما .. ولى معك بالذات تاريخ طويل .

ـ معى أنا !؟

ـ نعم .. منذ أنت طفلة صغيرة وأنا صبى كبير .

ـ فأنت من البلد ؟

ـ منذ كنت تلعبين مع أترابك فأقف منكم بمرصد ، أناولك الكرة ان ذهبت بعيدا ، وأقيم لكم ما تشاءون أن أقيم لتلعبوا به وتلهوا .

ـ من أنت ؟

ـ أنا ذلك الذى كنت أكبر جماعتكم •• لا أشارككم اللعب وانما أخدم لكم كل لعبة تقومون بها •

ـ من ؟

ـ أنا •

ويرفع كمال اللثام عن وجهه فتغوص درية فى أعماق صمت ذاهل حيران ، لم تقل غير كلمة واحدة : « كمال » ذاهلة مفزعة . غير واثقة مترددة ، تنعم النظر واهمة أنها فى حلم بغيض • ويقول كمال :

ـ نعم كمال •.

ـ لماذا ؟ •• لماذا فعلت بنا هذا ؟!

ـ لم أقصد اليكم •• انها فكرة قديمة حان موعدها فنفذتها •

ـ لماذا يا كمال ؟!

ـ كنت أبحث عن مكان لى فى البلدة فلا أجد •• وكنت أطيل النظر الى نفسى فى المرآة فقد كنت أحس أن أحدا لا يرانى مطلقا ، فكنت أعزى نفسى بأن أرى أنا نفسى •• كنت لا شىء فى قريتكم وأردت أن أصبح شيئا • كنت قطعة من الهمل لا تلقى حتى الاهمال، فقد كنت أقل من أن يهملنى القوم •• أعددت الخطة فأصبحت على ما ترين •

ـ ويحك ! لقد كنت كما وصفت ، وأقسم لقد صرت الى شر مما كنت •• ويلك ! لقد أعددت الخطة لتنحدر الى حضيض كنت بالنسبة اليه فى القمة •• ماذا فعلت بنفسك يا كمال ؟

ـ صرت سيدا •

ـ على عصابة •

ـ أصبحت آمر فيؤتمر بأمرى •

ـ لأن بيدك سلاحا •

ـ أصبحت غنيا •

ـ لأنك لص •

ـ أحس نفسى قويا •

ـ لقد كنت أقوى •

ـ وفيم كانت قوتى ؟

ـ فى هدوء ضميرك •

ـ لم يكن لى ضمير •• وليس لى اليوم •• أنا لم أعرفه يوما فآسى عليه •

ـ أيها المسكين تحاول أن تهرب من الأيام •• لن تستطيع •

ـ لقد استطعت •

ـ بل لن تستطيع •

ـ سترين •

ـ لا حول ولا قوة الا بالله •

ويرتجف كمال وكأنه يسمع الحوقلة لأول مرة ، ثم يرين عليهما صمت طويل تقطعه درية :

ـ ولماذا اختطفتنى •• أمن أجل منصور ؟

ويتردد كمال قبل أن يقول :

ـ نعم •

ـ ولماذا كشفت لى عن نفسك ؟

ـ لأنى أعلم أنك لن تشى بى ، ولأنى لا أنوى أن أضايق العمدة بعد اليوم ، وسأقول للجماعة انك عرفتنى فأقسمت ألا تبوحى بسرى الا اذا أسأت الى أبيك ، وبهذا أبعدهم عنه •

ــ اذن فأنت لا تنوى أن تتوب ؟!

ــ أتوب عن ماذا .. ؟ أنا لن أضايق أباك فقط ومن أجلك .. لقد أصررت على أن آخذ منه الاتاوة حتى أخيف الآخرين ، أما بعد اليوم فلن يصيبه منى شر أبدا ، وعلى كل حال فأنت قد عرفتنى ولم تعرفى من معى ، وقد يصيبون أباك بشر ان أنت أفشيت سرى .

فلماذا لم ترسل الى أبى تهدده بأن تقتله أو تقتلنى ، أو بأن تحرق زراعته أو بيته بدلا من اختطافى ؟!

ــ الوقت يخيفنى .. أخاف ألا يستطيع منصور احتمال السجن فيشى بنا جميعا .

ــ آه !

ويعود الاثنان الى الصمت ثانية ، ثم يقول كمال :

ــ هذا ما أقنعت به زملائى ، أما الحقيقة .. الحقيقة أننى رغبت فى أن أجلس منك هذه الجلسة .. وأن أقول لك ..

ــ حذار .

ــ أتحرميننى حتى من قولها ؟!

ــ وأى فائدة تجنيها من قولها ؟

ــ أنت هنــا معى .. ونحن وحدنا .. ان لم أقلها لك الآن فمتى ؟ ..

ــ لن تقولها أبدا .. ولن أسمعها .. لن أســمعها حتى وان قلتها .

ويقف كمال وهو يقول يائسا مستخذيا :

ــ أنت محقة .. أنت محقة يا ستى درية .. تصبحين بخير .

ويخرج كمال الى باب المغارة فيجلس الى الأرض ، وقد التف بعباءته وألقى بنظره الى الأفق البعيد .

ومع الفجر يأتى نور ليأخذ مكان كمال ، فيمضى كمال الى بيته فيجد وطنية تنتظره ..

ــ أين كنت ؟

ــ وما شأنك ؟

ــ اختطفت درية .

ومن أدراك ؟

ــ عرفت .

ــ وماذا تريدينني أن أفعل ؟ . اسكت حتى يذكر الدفراوى أسماءنا ونذهب فى الحديد .

ــ أمن أجل هذا اختطفتها ؟

ــ هل جننت ؟ .. ان لم يكن من أجل هذا فلماذا ؟

ــ حب قديم كان يائسا ، ولعل أملا يداعبك فيه اليوم ؟

ــ يا شيخة .. وحياة والدك .. أهذا وقته ؟!

ــ فمتى الوقت ؟ .. طبعا وأين أنا الآن وقد قضيت ليلة معها فى المغامرة .

اسمعى يا وطنية .. أنا يا ابنتى ــ مهما أفعل ــ لن أزيد عن كمال الذى عرفته .. كمال الذى كان حتى أمس تأمر خادمتها أن تقدم له فضلة طعام الخدم .. كمال الذى ظل طول عمره خادما عندهم أو مستجديا على بابهم . أفهمت ؟ .. أفهمت ؟

وفهمت وطنية تماما .. فهمت أن كمالا عرف هذا جميعه من ليلة أمس ، وفهمت أن كمالا حين واجه درية منفردا فى المغارة هو السيد الآمر وهى المطيعة المنفذة ، لم يستطع كمال الا أن يجد نفسه

كمالا المستجدى والا أن يجد درية السيدة الآمرة •• لم يستطع كمال وهو فى مأمن من الوحدة ، وفى عزوة من السلاح الا أن يكون كمالا الطبال فى القرية أمام درية بنت العمدة • فهمت وطنية هذا فقد كانت تجيد الفهم •• فهى تقول لكمال :

ـــ وماذا تنوى أن تفعل بها ؟

ـــ والله لا أدرى •• الأمر الآن بيد العمدة •

ـــ أتقتلها ؟!

وهب كمال جازعا :

ـــ أقتلها !!

ـــ فماذا تنوى أن تفعل ؟

ـــ لا أدرى •

١٧

تلقى العمدة النبأ من فاطمة وعبد الهادى ، فألقى به فى بحران من الاضطراب والذهول والحيرة والجزع والثورة .. ابنته فى يد العصابة وأقواله فى المحضر . لا سبيل له الى ابنته ولا سبيل له الى المحضر .. ماذا يفعل ؟ .. وتصيح به زوجته :

ـ أسرع .. أسرع الى المركز وغير أقوالك .

ولا يجيب العمدة وقد اختلط صوت زوجته فى ذهنه بخوالج قلبه ، فما يدرى أهو صوتها أم صوت من أعماقه ؟ فما يلبث أن يغمغم وكأنما يحادث نفسه :

ـ ومن يصدقنى ؟ .. لقد ثبتت أقوالى وانتهى الأمر ، انا لله وانا اليه راجعون .

وتعود الزوجة الى الالحاح ، ويظل هو ساهما مطرقا يقلب الأمر على كل وجه له . انه لو قبل أن يطيع زوجته ويجعل من نفسه كاذبا متعلقا بخيط واهن من الأمل فمن لفتحى الخفير ، ومن لهذه القرية التى عرفت جميعها منه ومن فتحى أنهما رأيا منصورا وتعرفاه ، ومن لهذه الأقوام التى جاءت تهنئه فى الصباح ؟ من لدرية الآن فى مكانها مع

السفاكين ؟ انا لله وانا اليه راجعون • طريق واحد الذى أمامه ••
طريق واحد ليس غيره •

وظل العمدة الى الصباح يهذى صامتا وزوجته الى جانبه تهذى فى ضجيج •• حائر كلاهما لا يدرى من أمر نفسه شيئا •• لا يتكلم العمدة — ان تكلم — الا بقول واحد : طريق واحد ليس لى غيره •

ويطلع الفجر فيصليه العمدة ، فيثوب الى نفسه شىء من ثبات يكفيه ليطلع الى الناس وليذهب الى هذا الطريق الذى لا يعرف غيره •

قصد العمدة الى لطيف بك •• فقد كان يعلم أنه يحتاج اليه اليوم لأن الانتخاب أصبح على الأبواب •• وقد كان يعلم أنه لن يقيله من تلك الكارثة النازلة به الا لطيف بك • يقصد اليه رغم أنه لم يكن مواليا له فى الانتخابات ،وان يكن لطيف قد أعفاه مما يوقعه بمن ناصبوه العداء فى الانتخاب ، فما كان ذلك منه الا عن أمل فى المستقبل ، وعن ثقة ان هذا العمدة بالذات وهو فى جوار بلدته لا بد أن يلجأ اليه فى يوم • وكان لطيف قد أزمع فى نفسه أن يحميه اذا لجأ اليه ، فقد كانت بلدة السلام بلدة يخطب ودها عند الانتخاب ••

بلغ العمدة دار لطيف بك فى باكر الصباح فوجده يقظانا ••
— وقعت من السماء فتلقنى •
— أتلقاك بروحى يا حضرة العمدة •• خير •

— بنتى •• بنتى الوحيدة •• اختطفتها العصابة ، وأرسلت تهددنى بقتلها ان أنا لم أبلغ النيابة ان ما ذكرته عن الدفراوى كان كذبا ، وأننى لم أره •

وفكر لطيف هنيهة ثم قال للعمدة :

— اذهب أنت الى البلد وغدا ستكون ابنتك عندك ، كنت مسافرا الآن ولكننى سأؤجل سفرى للمساء حتى أنهى هذه المسألة •

وراح العمدة يدعو للطيف بك ، وخرج من عنده ليس فى نفسه أمل الا هذا الذى ألقاه اليه ملجؤه الأخير فى ثقة واطمئنان .

وما ان خرج العمدة حتى نادى لطيف أحد رجاله وقال له :

ـ عند المغرب تذهب الى بيت النمرود وتقول له : ان البك يريد كمالا أن يأتى اليه الليلة .. قبل الساعة الثامنة مساء ، لأنى مسافر بعد ذلك لأحضر قضية الغد فى مصر .

ـ حاضر .

* * *

هم كمال بالخروج من منزله قاصدا الى المغارة ، واذا بالنمرود والزهار يدخلان ليبلغاه أن البك يطلبه .

ـ لا بد أنه يريدنا من أجل درية .

ـ نعم لا بد .

ـ هلم لنراه .

ـ أنذهب جميعنا ؟

ـ نعم .. ثم نعود الى المغارة لنأخذ مكان نور ، وحذار أن يتكلم أحد منكم أمام لطيف ، دعوا الكلام لى وحدى فقد أصبح الأمر بالغ الخطورة .

ويمضى جميعهم الى البك فيجدونه منفردا فى حجرته ، ويستقبلهم مرحبا :

ـ أهلا أبا كمال .. أهلا بالرجال .. كنت مسافرا الآن فانتظرت حتى تأتوا .

ويجيب كمال :

ـ أهلا بك يا سعادة البك •• أطال الله عمرك وأبقاك •

ـ ماذا فعلت من أجل منصور •• ؟ أريد أن أوكل عنه أحسن المحامين •

ـ والله يا سعادة البيك شهادة العمدة سيئة للغاية ، وأخشى ألا يستطيع المحامى أن يفعل شيئا •

ـ اذن فصحيح ما سمعته عن خطف بنت العمدة ؟

ـ وماذا نفعل يا سعادة البك •• ؟ منصور أخونا ومن لا يحمى أخاه فليس رجلا •

ـ ولكن العمدة رجل مسكين •

ـ أصابه سكين • وماله لم يكن مسكينا فى الانتخابات وأمام النيابة •

ـ على كل حال يا أبا كمال أنت رجل ، ونعم الرجل •

ـ أبقاك الله يا بك ، وأطال عمرك •

ـ الانتخابات قادمة قريبا ، وأنا أريدك أن تساعدنى فيها •

ـ تحت أمرك جميعنا يا بك •

ـ لن أطلب منك الا مسألة بسيطة •

ـ مر •

ـ بلدة السلام •

ـ نعطى الأوامر يا بك أن تنتخبك جميعها •

ـ لا •• هذا غير ممكن •• فاننا لن نستطيع أن نهدد بلدة بأجمعها فى الانتخابات • وخاصة أنتم لم تكشفوا عن أنفسكم فى القرية •• وقد جعلتم فكرتكم أمام القرية أن تأخذوا من الأغنياء لتعطوا الفقراء ، فما شأن هذا بالانتخابات ؟

ـ فماذا نفعل •• ؟ نحن خدامك •

ـ الطريقة المثلى أن نسترضى العمدة •

ـ وكيف ؟!

ـ نردله ابنته عن طريقى •

ـ ومنصور ؟

ـ أكبر محامى فى مصر سيترافع عنه •

ـ يا بك شهادة العمدة لا تنفع معها مرافعة •

ـ هذا شأن المحامين •

ـ ومن يدرى ماذا سيحدث لنا من هنا حتى يوم المحاكمة ؟

ـ ماذا سيحدث ؟

ـ ألا يجوز أن يشتد الضغط على منصور فيذكر أسماءنا ؟

ـ منصور رجل ، ولا يمكن أن يسىء لاخوانه •

يا بك السجن صعب لا يرحم •

ـ أنا واثق من منصور •

ـ يا بك لا نستطيع •

ـ أتخالفنى ؟

ـ العفو يا بك ؟ ولكنها مسألة حياة أو موت لنا جميعا •

ـ أنسيت أن العمدة طلب الى أن أعطيه رجالا من رجالى ليحاربكم فرفضت •• رفضت له طلبا يهم البلدة كلها ، أما طلبه الخاص بابنته فانى أرجو أن تمكننى من الوفاء به •• انه لجأ الى ولا يرضيك أن أخيب لاجئا الى •

ـ حياتنا يا سعادة •• حياتى وحياة اخوانى هؤلاء •

ـ على كل حال هذا شأنك ، ولكن اعتبر صداقتنا منتهية ان أنت لم تصنع لى هذا المعروف الصغير •

ـ يا بك نحن خدامك ، لا نخرج عندك أبدا •• الا فى هذه المسألة •

ـ أنتم أحرار •• ولكل منا أن يفعل ما بدا له •

ـ نحن خدامك يا بك ، نستأذن •

ـ مع السلامة •

ويقوم كمال فيقوم النمرود والزهار ، ويخرجون بعد أن يلقوا السلام فى أدب جم ، وفى جمود يعرفه لطيف منذ تعود مصاحبة أمثالهم •

وما ان يبتعد ثلاثتهم عن دار لطيف حتى يدعو لطيف اليه سليمان النطل كبير رجاله بعد موت الفرماوى ، فيقول له :

ـ تذهب أنت وعباس وفهمى الليلة الى قرية السلام وتأخذون اليها الطريق الذى يدور حول بلدة الفرايحة •• اركبوا السيارة الجيب واخفوها قبل بلدة السلام ، وانتظروا الثلاثة الذين خرجوا الآن من عندى •• اقتلوهم •• الثلاثة الليلة •• فان طلع عليهم الصباح وهم أحياء فلا ترونى وجوهكم ، لأنهم ان عاشوا فسيقتلوننى •• أتفهم ؟ وحذار أن تسيروا وراءهم فى الطريق التى ذهبوا منها فتقتلوهم فى حدود بلدنا •• انتظروهم عند بلدهم واقتلوهم •• أنا مسافر الآن الى مصر •• أقرأ فى جرائد الصباح عن مقتل الثلاثة •• أتفهم •• ؟؟

هل يفهم سليمان الا هذا !!

* * *

خلا كمال والزهار والنمرود بالطريق ، وكانوا يسيرون فى طريق يحفه من جانب مصرف جاف ليس فى جوفه الا أوشال ماء وكثير

طين ، ومن الجانب الآخر حقول لطيف وقد رفعت عنها الذرة ، وذهب كمال فنظر فى المصرف خشية أن يكون فيه أحد جالسا ، ونفض المكان جميعه بعينه ثم قال لرفيقيه :

ــ ميلا بنا نجلس فى جرف هذا المصرف لأحدثكم فى أمر خطير

وجلس ثلاثتهم على جرف المصرف وقد ألقى رفيقا كمال اليه بآذانهما المصغية •

ــ لقد عملت منذ أول يوم تكونت فيه الجماعة على أن أكسب ود لطيف ، فهو لا يعلم بأمر جماعة مثلنا تتكون قريبا منه الا حاول أن يضمها اليه أو يقضى عليها :

فقال النمرود :

ــ نعم •• هذا صحيح •

فقال كمال :

ــ أما هذا الذى طلب الينا ان نعمله الليلة فهو الفناء الأكيد لنا جميعا •• فلولا أن منصورا انتظر فى السجن حتى المحاكمة لأفشى سرنا ، وخاصة اذا عرف اننا اختطفنا بنت العمدة ورجعناها دون أن يغير العمدة شهادته •

فقال الزهار :

ــ نعم •• أنت محق •• ولو كنت طاوعته لقلنا نحن لا •

فقال كمال :

ــ فاعلموا اذن أننا اذا لم نقتل لطيفا فانه سيقتلنا لا محالة •• فأنتم تعلمون أن أمثالنا فى هذه الناحية اما أن يكونوا اصدقاءه أو يكونوا فى القبور •

فجزع النمرود قائلا :

ـ نقتل لطيفا ؟

وقال كمـــال فى ثبات :

ـ وأى فرق بين لطيف وصلاح وأحمد ؟ !! الرصـــاصة التى قتلت صلاحا أو أحمد تستطيع أن تقتل لطيفا • انه الوحيــد الذى يعرف اشخاصنا ، وقد تركناه غاضــبا فان لم نقتله فمصــيرنا الى القتــل على يديه أو القتــل على يدى الحــــكومة التى سيشى بنـــا عندها •

فقـــال النمرود :

ـ ولكن الدفراوى هو الذى قتل صلاحا وأحمد ، ومن لنـــا الآن بالدفراوى ؟

فقال كمـــال :

ـ معنا من هو أمهر من الدفراوى •

وفهم الزهار أنه يقصد اليه ، وخيل للنمرود أنه المقصــود ، وتذكر فى تلك الآونة هذه الاشاعة التى كان قد أطلقها من أنه قتــل زوجته الهـــاربة •

ويسأل النمرود فى تردد :

ـ من •• ؟ من تقصـــــــد ؟

ويكون الزهار سارحا فى هـــذا الأمر الذى يوشك أن يلقى اليه •• فهو لم يقتل قبل اليوم وان كان قــد تمنى أن تتــاح لــه الفرصـــة •• نعم انه أمهر فى اصـــابة الهــدف من الدفراوى ، ولكن الدفراوى مرن على قتل الناس ، أما هــو •••

ويسمع الزهار كمالا وهو يقول فى صــوت ملىء بالثقة :

ــ الزهار يا أخى •• الزهار الذى تعلم اصابة الهـدف فى العسكرية • ومعنا مسدسات لا تخيب أبدا •

ويقول النمرود :

ــ ما رأيك يا زهــار ؟!

ويقول الزهار فى وجمة وتفــكير :

ــ أمركم •• كمــا ترون •

ويقول كمــال :

ــ نستلقى هنا على بطوننا ، فاذا جاءت سيارة لطيف فعليــك يا زهار أن تصوب الى الزجاج الخلفى للســيارة ، فأمامه تمــاما سيكون رأس لطيف فهو يجلس فى الوسط • أما أنا وأنت يا نمرود فسنضرب فى جوانب السيارة لنقتل من معـــه •• وسنكون نحن مختفين بينما سيكون جميعهم ظاهرين لنا ••

ــ أمـــرك •

وما هى الا دقائق حتى ظهر نور الســيارة قادما من بعيــد ، فينام ثلاثتهم على بطونهم وقد أخفاهم جرف المصرف عن نورالسيارة •• وعبرتهم السيارة ولكن لم تكد حتى انطلق مســدس الزهــار فأصاب الزجاج حيث أراد كمال ، وانطلق مســدسا كمال والنمرود فأصاب كمال جانب السيارة من أعلى وأصاب النمرود عجلة السيارة فنامت •

وحاول السائق أن يزيد سرعة السيارة ولكن الســيارة قفزت منه قفزة ثم توقف محركها ، ففتحت أبواب السيارة جميعا ونزل منها أربعــة أنفار •• أما الســائق ومن كان خلفه فقــد نزلا الى ناحيــة

الحقـل فتسترا بالسـيارة وظلا يتدحرجان نائمين حتى بلغا الحقـل فغاصا فى جـدول من الماء يفصـل بين الحقل والطـريق • أمـا من كان الى جانب السـائق ومن كان خلفه فقـد تدحرجا من السيارة الى ناحية الكمين ، وحاولا أن يدخلا تحت السيارة فلم تتسع لهما فتدحرجا فى سرعة مجنونة الى جرف المصرف ، وراح كمال يطلق عليهما الرصاص وهما فى طريقهما الى المصرف فلم يصبهما ، بينما راح النمرود والزهار يصوبان نحو السيارة حيث أمرهما كمال أن يصوبا ، وقد أصبحت أيديهما الضـاربة منفصـلة كل الانفصال عن عقليهما ، فكل ما يدريان من أمر نفسيهما أنهما أمرا أن يضربا مواضع معينة من السيارة فهما يصوبان الى حيث أمرا بغير تفكير ، وفى اصرار ذاهل مجنون •

أصبح رجلا لطيف فى الجرف مع الكمين ، فصوب اليهمـا كمال مسدسه ، ولكن الاضطراب كان قد أخذ يسيطر عليه ، وصوب الرجلان بندقيتهما اللتين كانتا معلقتين على كتفيهما الى الكمين ، وما هى الا طلقـات قلائل حتى كان الكمين كله فى الطـين قتيلا •• كمـال والزهار والنمـرود •

١٨

أشرق الصباح على قرية السلام ، وتهيأ العمدة يريد الذهاب الى لطيف فاذا بالأنباء تأتيه .. لقد أصيب لطيف ومات الزهار والنمرود .. وكمال .. كمال الطبال !؟ نعم كمال الطبال !!

اذن فتلك هى العصابة .. فأين ابنتى ؟ .. لم يكن الأمر محتاجا لكبير ذكاء . لم يبق من منتدى بيت النمرود الا نور .. يقصدون الى بيته فيجدونه خاليا ، فيهمون أن يتركوه فاذا نور قادم ليبحث عن رفاقه الذين أخلفوا معه موعدهم وتركوه جائعا هو وحبيسته ، ويراه القوم قادما من وراء القرية من خلال أعواد الذرة فيمسكون به.. ويتداعى الرجل ، وتعود درية الى بيت أبيها .

***

لم يكن فخرى قد ترك القرية منذ قدم اليها فقد شغلته الحوادث أن يتركها ، وقد آن له الأوان أن يعود الى دراسته ، ولكن عليه رسالة لا بد أن يبلغها العمدة قبل أن يبرح القرية هى رسالة أجمع عليها المثقفون فى القرية ولم يجدوا غير فخرى ليؤديها عنهم .. هى أمله وأملهم .. وما كان ليمضى عن القرية قبل أن يحقق أمله وأمل اخوانه .

ذهب فخرى الى العمدة فوجد الدوار مزدحما يغص بالمهنئين بعودة درية ، وبعودة السلام الى قرية السلام .

ويميل فخرى الى أذن أبيه :

ـ أبى هلا استأذنت لنا العمدة أن نخلوا اليه بضع لحظات ؟

ويقول الشيخ حسن فى ابتسامة تكاد تشرق ، لولا ما فى القلب من حرقة على موت ابنه الأكبر :

ـ نعم يا ابنى .. أظن الوقت مناسبا .

ـ مناسب تماما يا أبى .. افعل لا عدمتك .

ويميل الشيخ حسن على أذن العمدة فيقوم ويقوم من ورائه فخرى والشيخ حسن ، ويفهم اخوان فخرى ما بسبيله أن يقال فى هذه الخلوة ، ويحاول آخرون أن يخلقوا فى أذهانهم أسبابا أخرى ، ويحسد كل منهم نفسه على ذكائه المتوقد واستنتاجه الصائب .

وفى الغرفة التى شهدت رفض العمدة لطلب الشيخ حسن يقول العمدة بعد أن استقر بهم المجلس :

ـ نعم يا فخرى .. هى لك .. هى لك يا ابنى دون أن تطلب .

ولكن فخرى يقول كلاما آخر يذهل له أبوه ، فما كان هـذا ما توقعه ، ويذهل له العمدة أيضا .. يقول فخرى :

ـ أبقاك الله وأبقاها لك .. يا حضرة العمدة ، ولكن ليس هذا ما أردتك فيه .

ـ ففيم اذن يا ابنى ؟

ـ لقد خرجت القرية من غمرة قاتلة فقدنا فيها أرواحا عزيزة علينا ، وفقدنا فيها كرامة هى أغلى عندنا من الأرواح ، وفقدنا أموالا هى أهون ما فقدنا .. يا حضرة العمدة أنت وحدك المسئول عن كل

هذا •• نريد منك نحن أهل قرية السلام أن تقسم يمينا على المصحف أمام الله ، أن يكون الحق شأنك منذ اليوم ، فلا ظلم ، ولا ميل ، ولا رشوة ••

سمع العمدة هذا الكلام فارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة ، وصاح الشيخ حسن :

ـــ اخرس يا ولد •• أمثل هذا يقا ••

فقاطعه العمدة فى لطف :

ـــ نعم يا شيخ حسن ، بل لا يقال الا هذا •• اسمع يا فخرى •• بماذا همست فى أذنك آخر يوم كنت فيه هنا ؟

فتلجلج فخرى بعض الشىء ، فقال العمدة :

ـــ قل •••

فقال فخرى :

ـــ قلت لى انك تريدنى فى أمر جليل قد يغير حياتى جميعها ،

فازداد ذهول الشيخ حسن ، وقال العمدة :

ـــ هذا ما أردتك فيه يا ابنى ••

ـــ ماذا ؟

ـــ أنا لن أقسم على شىء يا فخرى ، ولن أكون العمدة بعد اليوم أبدا •• أنا مسافر الى مصر ، وسأجعل الحاج ابراهيم الحسينى نائب عمدة بدلا منى حتى يتولى الأمر العمدة الذى اخترته والذى سيحكم البلدة بما يرضى الله فيقيم فيها العدل ، ويمنع عنها الكارثة ويهيىء لها الخير •• سيكون الحاج ابراهيم نائبا عن العمدة الجديد الذى اخترته ، حتى يتم العمدة تعليمه فقد اخترته من ذوى التعليم العالى ••

فقال فخرى وهو لا يصدق ما يسمع ، يكاد يعرف من يعنيه العمدة ولكن لا يستطيع الوثوق :

ــ من .. من ذلك العمدة ؟

ــ أنت .. أنت .. يا فخرى .

قصر على النيل

قصر على النيل

١

في استعلاء وكبر ، يقف قصر أحمد باشا شكرى . يشرف على النيل الذى يجرى من تحته فى تطامن وهدوء ، فان رأيته حسبت أن النيل لم يجر الا ليجعل هذا القصر على هذه الروعة وعلى ذلك البهاء . فهو فارع الى السماء ، عريض ضخم ، كل ما فيه يوحى اليك أن هنا مجدا قديما لا يزال جديدا ، وأن هنا عزا عزيزا ، وخيرا وفيرا ، وكرما عتيدا ، ورفدا وهناء .

يفصل القصر عن النيل حديقة منسقة ، ويصل القصر بالنيل سلم من الحجر يفضى الى النيل ذاته ، اذا شاء سكان القصر أن يستعملوا قاربهم البخارى الراسى هناك ، خلصوا اليه بسلمهم هذا .

كان القصر اذن يفضى الى النيل بهذا السلم ، أما باب القصر ذاته ، فقد كان من الناحية المقابلة للنيل ضخما فخما رائعا ، مفتوحا على مصراعيه طول اليوم ، لا يلتقى مصراعاه الا فى الهزيع الأخير من الليل .

كان الوقت أصيلا ، حين بلغ البوابة شاب فى مقتبل العمر ، قد يروعك منه أول ما تراه ، قوام ملىء وطول فارع ، ولكنك ان أنعمت

النظر فى وجهه وملابســه لم يرعك فى وجهه شىء من القســامة ، ولا راعك فى ملبسه شىء من الانسجام .

ــ سلام عليكم يا عم ادريس .

وقام البواب واقفا فى أدب :

ــ وعليك السلام يا بك ورحمة الله .

ــ الباشا نزل ؟

ــ والله يا بك لا أدرى ، ولكن لا أظن .

ــ طيب انتظره حتى ينزل .

ــ تفضل يا سعادة البك .

ويدخل سليمان بك شكرى سراى عمه أحمد باشا ، كما تعود أن يدخل ، فالدار مكان مباح لأقارب الباشا ، يجلسون فى أبهائها ، ويطلبون ما يشاءون من قهوة أو غيرها ، سواء كان الباشا موجودا أم غير موجود . فالباشا أب لهم جميعا وهم فى داره أصحاب دار . ولم تكن هذه الأبوة من الباشا مقصورة على أقاربه الأدنين أو غير الأدنين ، وانما كانت تتسع فتشمل كل شاب يعرف الباشا ، ويتصل به فى معترك السياسة ، فالباشا من روادها .

جلس سليمان فى حجرة المكتب ينتظر نزول عمه الباشا ، ولم يطل به الانفراد ، اذ سرعان ما دخل عليه ابن عمه وصفى ، وهو شاب حاصل على اجازة الحقوق جميل الصورة ، حسن السمت ، له شهرة واسعة فى الأدب السياسى ، وقد استطاع أن ينجح فى الانتخابات ، فتحددت مكانته السياسية ، وأصبح من النواب الظاهرين فى مجلس النواب .

ــ أهلا وصفى .

ــ أهلا سليمان .. ألم ينزل عمى ؟

ــ لا والله لم ينزل بعد .. أراك باسما .. هل وراء ابتسامتك خبر جديد ؟

ــ لا ، ولكنى لاحظت أنك تأتى هنا فى كل يوم منذ عدت من أوربا .

ــ وأى عجيبة فى ذلك .. ألا تأتى أنت كل يوم ؟

ــ نعم ، ولكن عشرة أيام متتالية لا تنقطع يوما .. ألا ترى أنها غريبة بعض الشىء ؟

ــ يا أخى عشرة أو عشرين .. ما شأنك أنت ؟

ــ لا شأن لى ولكنى ألاحظ وأبتسم .. ألا تعطينى حق الابتسام ؟

ــ الله .. أتظننى سعد باشا وتريد أن تتعب قلبى أنا أيضا .. لا يا حبيبى ، أنا لا أحب المناقشة ، ولا أحب السياسة ، ولا أحب هذا الكلام المزوق الذى يخفى وراءه معانى أخرى .. أنا رجل مهندس ، أضع قالب الطوب على الآخر فيتم البيت .

ــ واضح .. واضح .. فلو لم تكن مهندسا لما حشرت سعد باشا والسياسة وقالب الطوب فى ضحكة .. مجرد ضحكة !

ــ وبعد .. أما فرغت ؟

ــ يا أخى ، أنا لم أفتح الحديث ، وانما أنت الذى فتحته .

ــ فهل تسمح لى أن أقفله ؟

ــ على كيفك ، ولكن أريد أن أفتح معك موضوعا آخر .

ــ افتح ، ولكن ترفق بى وحياة والدك .

ــ لم أجلس معك وحدنا منذ عدت من أوربا ، ماذا فعلت هناك .. ؟

ـ حصلت على دبلوم الهندسة •

ـ هذا أعرفه جيدا •• أقصد فى حياتك الخاصة •

ـ أكاد أفهم •• وان كنت غير متأكد من موضوع سؤالك •• أتقصد •• ؟

ـ الحريم •

ـ الحريم ؟

ـ نعم •

ـ ليس هناك شيء اسمه الحريم •• ولكن ما الذى جعلك تدخل من موضوع مجيئى هنا الى موضوع الحريم ؟

ـ أتريد أن أقول السبب ، وأذكر الصلة بين الموضوعين ، أم تفضل أن تتكلم أنت فى السؤال من غير شرح منى لهذه الأسباب والصلات ••

ـ لا ، أفضل أن أتكلم فى الموضوع ، فأنا أعلم أنك طويل اللسان •

ـ عظيم •• قل ، ما حال الحريم هناك ؟

ـ ليس هناك حريم ، بل ان هناك نساء •

ـ لا أجد فرقا بين الاسمين ••

ـ بل الفرق بعيد •• الحريم عندك وعند الرجعيين أمثالك نساء محجبات ، يضعن على وجوههن الستار الأسود ، وان كان قد أصبح شفافا ، وهن عندى لابد أن يلبسن المعاطف ، ويضعن على رءوسهن القلانس ، بل لعلك تريدهن محجبات باليشمك والحبرة ، أما النساء فى أوربا فأداة نافعة •

ـ ومن قال لك ان النساء فى مصر أداة غير نافعة ؟

ـ تقصد نافعات فى الطبخ واخراج الأولاد وتربيتهم .

ـ وهل هذا قليل ، ومن الأطفال ؟ أليسوا هم رجال الغد ؟؟

ـ لا ، ان المرأة فى أوربا أقوى من ذلك وأنفع ، فصاحبات المواهب يزاحمن الرجال فى أعمالهم ، وهن مع السياسيين أمثالك يخرجن فى الانتخابات مع أزواجهن .

ـ اننا هنا نحترم المرأة أكثر مما يحترمها الغربيون ، نحن نراها جوهرة يجب أن تظل بعيدة عن أيدى الطامعين ، وعن أنظارهم .

ـ فتحبسها ؟!

ـ ألم تكن لك صديقة فى أوروبا ؟

ـ بل كان لى .

ـ أترضى لابنتك ، أو لزوجتك أن تكون صديقة لرجل ؟

ـ ماذا تعنى بالصداقة ؟

ـ أعنى الصداقة التى كانت بينك وبين فتاتك فى أوربا .

ـ يا أخى أعوذ بالله .. أعوذ بالله .

ـ أرأيت .. أترضى أن تخطب واحدة تعرف أنها كانت تلتقى بآخر .. لقاء بريئا ؟

ـ طبعا ، لا .

ـ فما هذا الدفاع الحار ؟

ـ عن الحرية .

ـ حرية المرأة هى الطريق الى هذا الذى تأنف أنت منه ، لن ترى المرأة اذ ذاك فى الرجل ذلك الشىء المقدس الذى لا يمكن أن تلتقى به الا اذا كان زوجا لها ، والرجل أيضا سيفقد لذته بالمرأة فى زوجته ، ما دام يلتقى بالنساء فى الطريق وفى العمل . سيجد كل منهما أنه من الطبيعى أن يلتقيا ، واذا التقيا ..

ـ وما البأس اذا التقيا وتعارفا ثم تزوجا ؟

ـ الخشية أن يتزوجا قبل الزواج •

ـ فاذا كانا عاقلين واقتصر الأمر بينهما على اللقاء البرىء ؟

ـ ما رأيك أنت ، اذا التقيت بفتاة وبادلتها حبا •• حبا شريفا •• أتتزوجها بعد ذلك ؟ •

ـ لا •• لا •• لا أظن •

ـ أرأيت ، اننا نحب أن نثق بزوجاتنا •• نحبهن لنا بجميعهن ، بذكرياتهن وأحلامهن وآمالهن ، ولا نحب هذه الذكريات أن تبـدأ الا بعد الزواج ، فكل ما قبل الزواج لا نعترف به نحن الشرقيين ، حتى وان كنا نحن الطرف الآخر فيه •

ـ ولكن يا أخى ••

وقطع عم دهب خادم الباشا الخاص النقاش ، وهو يفتح الباب قائلا فى جد حازم :

ـ سعادة الباشا •

ووقف الشابان ينتظران قدومه ، وما هى الا لحظات قلائل ، حتى أقبل الباشا مبتسما كعادته ، كان الباشا رجلا فى الحلقة السابعة من عمره ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، سمح الوجه ، ترى فى وجهه طيبة ، فاذا أنعمت النظر فى عينيه من وراء نظارته ، رأيت فيهما عمقا وذكاء ولماحية ، مارس الباشا السياسة ومارسته ، وشهد أحداثهـا وشارك فيها ، ولكنه أبى أن ينضم الى حزب من الأحزاب ، بل كان دائما يقف من هذه الأحزاب موقف الناقد الحر ، يؤيد هذا حينا ، ويهاجمه حينا ، دون أن يبعثه الى التأييد أو المهاجمة باعث شخصى ، الا ما يرى فيه صالحا للبلد • وقد اكتسب بهذا لنفسه احترام جميع السياسيين ، كما اكتسب بهذا ذاته لنفسه كره جميع السياسيين ومن

تبعهم ، فلم يكن له بين الشعب مؤيدون ، وهكذا كان دائما ، بعيدا عن الحكم ، الا اذا جاءت وزارة محايدة ، أو وزارة مؤقتة . فهو اذن عضو من أقوى أعضائها شخصية ، ومن أوسعهم نفوذا .

دخل الباشا الغرفة ، وحيا ولدى أخويه وجلس دون أن يلحظ أنظار وصفى التى كانت مشدودة الى النافذة المطلة على الحديقة ، ولم يلحظ وصفى أن عمه قد جلس وأنه قد آن له أن يجلس هو الآخر ، وانما ظل شاخصا الى تلك المرأة التى دلفت الى الحديقة تحمل فوق رأسها بقجة مصرورة ، تهدلت جنباتها فوق رأسها ، انها أم وديدة تحمل الأقمشة التى تعرضها على حريم الدار ، وتحمل أيضا موافقته على موعد الليلة .. وأفاق وصفى من سرحته على صوت عمه ينبهه ..

ــ خير يا سى وصفى ، أراك سارحا ، أتراك تفكر فى خطبتك الجديدة ؟

وارتج وصفى لكلمة الخطبة ، وصحا الى عمه يسأله فى جزع وحيرة :

ــ أى خطبة .. أى خطبة يا عمى ؟

ــ يا أخى ، أنا قلت خطبة ، أقصد خطبتك فى مجلس النواب ، ألا تنوى مهاجمة أحد غدا ؟

ــ والله يا عمى ، سعد باشا أصبح رجلا عسيرا على المهاجمة ، فهو منذ تولى رياسة مجلس النواب ، وهو يعمل على ضم الكلمة .. لو كان سار على هذا النحو منذ أول عمله بالسياسة لأراحنا .

وقال الباشا باسما :

ــ الواقع أن العيب الأساسى فى سعد أنه استغل الدكتاتورية

الشعبية ، وهي دكتاتورية تعطى لصاحبها سلطات واسعة ، وتجعله يعمل وكأنما هو وحده صاحب البلد .

ـ ولكنه في هذه الأيام الأخيرة أصبح يستعمل الدكتاتورية الشعبية استعمالا معقولا .

ـ ما أحب الينا أن يظل سائرا على هذا النحو ، مالك ساكتا يا سليمان ؟

ـ يا عمي أنا لا أفهم في السياسة .

ـ آه صحيح .. نسيت هذا، ونحن أيضا لا نفهم في الهندسة .. فما رأيك .. ابحث لنا عن موضوع نتكلم فيه .

فقال وصفي وقد هفت نفسه الى مداعبة ابن عمه :

ـ كنا نتكلم قبل قدوم سعادتك عن المرأة في الغرب ، والحريم في الشرق ، ويظهر أن أخانا سليمان يخالفنا نحن الشرقيين في أفكارنا عن المرأة .. قل رأيك لعمي .

وتقلص وجه سليمان واحتقن وتلجلج لسانه ، وأصبح لا يدري ما يفعل ، وضحك وصفي ضحكة مستورة ، فهو يعلم أن سليمان لن يستطيع أن يقول رأيه أمام عمه المعروف بالمحافظة ، وأحس العم أن وصفي قد ألقى بابن عمه في مأزق دقيق فغير مجرى الحديث .

ـ هيه يا سي سليمان ، ماذا عملت في المصلحة ؟

وقبل أن يجيب سليمان أدرك وصفي أن في عيني ابن عمه حديثا آخر يريد أن يفضي به الى عمه في خلوة . فخرج من الغرفة في هدوء دون استئذان ، وأقفل الباب من خلفه ، وشكر سليمان لابن عمه هذا الادراك الدقيق ، وراح يجمع صوته ليسأل عمه في حشرجة :

ـ ماذا عملت لى يا عمى ؟

كان الباشا يدرك تماما ما يقصد اليه السؤال ، ولكنه لم يشأ أن يجيب فى وضوح خشية أن يكون ما أدركه غير ما يقصد اليه ابن أخيه ، فهو يسأل :

ـ ماذا فعلت لك فيم .. ؟

ـ ألم تقل لى انك ستسأل سهير ثانية ان كانت تقبلنى ؟

ـ سألتها .

ـ وبماذا أجابت .. ؟

ـ ...

ـ لا شك أن فى رضا سعادتك كل الكفاية .

ـ يا أخى ، أنت تعرف أننى رجل محافظ ، وابنتى لا ترد لى أمرا ، ولكن الزواج شأنها وحدها ، ولا أستطيع أن أرغمها .. أنا سأتركها بعد حين ، فبماذا تراها ستذكرنى آن أنا زوجتها بمن لا تريد ؟

ـ يا عمى نحن فى مصر لا نسأل بناتنا عمن يتزوجن .

ـ ولكنى أنا أسأل .

ـ ...

وأحس الباشا أنه أغلظ على ابن أخيه ، وأدركته عليه الشفقة ، ولم يشأ أن يجمع عليه الرد الخشن ورد خطبته فى آن ، فهو يقول له فى تلطف :

ـ أمثلك ، وأنت المتعلم فى أوربا ، يقول هذا الكلام ، وماذا أعمل ، انى ألححت عليها ولكن بلا فائدة ، ولم أشأ أن أرغمها ارغاما حتى لا تقوم الحياة بينكما على أمر جاف صدر منى ، على كل حال أترك لك فرصة أخرى .

ـــ أمرك يا عمى .

ـــ طيب يا سيدى .

وأدرك سليمان أنه لم يعد ما يدعو لبقائه ، فقام وقد اكفهر وجهه ، واستأذن عمه وخرج .

لم يكن سليمان جميلا ، ولكن ما أصابه فى زيارته تلك زاده قبحا ، فلو قدر له أن ينظر فى مرآة حينذاك ، لما تمالك نفسه عن أن يقول :

ـــ نعم ، انها محقة أن ترفضنى ، ولو كنت أنا امرأة .. ولو كنت حتى امرأة فقيرة ، ولست ابنة باشا ، لو كنت ، ونظرت الى هذه الخلقة لرفضت الزواج بصاحبها .

كان خليقا أن يقول هذا لو انه نظر الى مرآة ، ولو أنه أصاب بصيصا من ضمير ولكنه ـــ والحمد لله ـــ لم ينظر الى مرآة ، ولم يصب شيئا من ضمير ، فهو ينقلب الى بيته ، لا يفكر الا فى هذه الثروة التى يوشك أن يفوتها عليه ذكاء بنت عمه ، وقبح خلقته .

٢

خرج وصفى من الحجرة وأغلق الباب من خلفه ، ولكنه لم يقصد الى الباب الخارجى للمنزل ، بل هو يقصد الى الحديقة الخلفية يتمشى فى أنحائها رويدا ، وكأنما لا يهدف لغير الاستمتاع بضوء القمر الذى ينسكب على الحديقة ، حتى اذا بلغ السلم المؤدى الى النيل ، نزل عليه فى سرعة ، وفى لمحة أخفاه الجدار الأبيض القائم هناك عن الحديقة والمنزل جميعا .

هنا الموعد .. موعده مع سهير .. ترى ماذا تخفى لهما الأيام . انها سهير بجمالها الرائع ، بذلك القوام الفارع ، وهذه الضحكة العذبة التى لا تغرب عن ثغرها .. ثغرها ذلك الحلو الذى يلقى الكلام رقيقا جريئا ، عميق المعنى حلو الرنين ، سهير بذلك الوجه الذى يميل الى الطول فى امتلاء ، وبهذين الخدين الناعمين ، يشع فيهما زهو وثقة ، وبهاتين العينين ، وفيهما بريق أخاذ يكاد فى ضوء القمر أن ينسكب مع ضوء القمر .. انها سهير بروحها تلك الحلوة وبحبها العنيف له .. ماذا تخفى لهما الأيام .. انه لن ينسى .. لن ينسى يوم جاءته أم وديدة تهمس فى أذنه أن انتظر اليوم عند مرفأ القارب ، وكاد العقل يرده ، ولكن الشباب دفعه .. وهناك التقيا فى أول يوم

.. ومنذ ذلك اليوم لم تنقطع عنه أم وديدة بالموعد المهموس حينا ، أو بالموعد المكتوب حينا آخر ، وبين هذه المواعيد استقبل وصفى أساليب من السعادة لم يفكر يوما انه سيلتقى بها . ولكن الى أين ؟

انه يحبها .. يحبها .. يحب فيها شبابه البكر ، ويحب فيهـا ارضاءها لغرور الشباب ، ويحب فيها أمسياتها الناعمة فى ضوء القمر ، أو فى ضوء المصباح المعلق على القارب ، يحب فيها استيقاظة القلب الأولى ، وصحوة النبضـات الناغمة .. يحبها ولكن الى أين .. آزواجا .. ؟

نعم هو يعلم أن عمه لن يتردد في قبوله ، وهو يعلم انه جدير بها . وهي جديرة به . ولكن الزواج ؟! فاذا ما شغلتني الحياة ، واذا انصرفت عن الحب حينا الى ذلك المعترك الضخم الذي ألقيت بنفسى فيه .. ماذا تعمل سهير .. ولكنه يحبها .. بل هو لم يعرف للحب معنى الا هنا .. هنا بجانب هذا القارب وعلى ضفاف هذا النيل . وفى ظل هذا القصر ، وفى ضوء هاتين العينين .. عيني سـهير . يحبها ، وهى تحبه ولكن الزواج ثقة .. أجننت ؟ ألا تثق بابنة عمك؟؟ لا .. لا أثق .. أجننت ؟ لم أجن ألم تسع هى الى هذا الموعد ؟ ولكن هذا لم يكن الا من أجلك أنت .. أنت وحدك ، من أجل شبابك الريان ، ومن أجل جمالك هذا ، من أجل عينيك الرائعتين ، وشفتيك الرقيقتين يعلوهما ذلك الشارب الذى تعنى بتجميله ، ومن أجل شعرك الأسود تحت طربوشك المائل ، يا لك من غر !! أتذكر جمال سمتك ألست رجلا ، نعم .. انى رجل .. رجل عظيم كاتب ، أديب سياسى يخشى كبار الساسة قلمه ولسانه ، وأنا رجل وطنى .. أحببت وطنى وهاجمت أعداءه ، وأثرت القلق فى نفوسهم فقبضوا على مرات فما زادنى هذا عند وطنى ومواطنى الا اعزازا وحبا ، وأنا أيضا عضو بمجلس النواب .. وأصغر النواب سنا ، وأنا أيضا غنى ،

وأبى باشا مثل أبيها .. نعم فما كانت لتسعى الا الى .. الى أنا بكل هذه الأمجاد التى تجتمع فى . ولكن ؟! ولكن ماذا أيها العربيد ، أتلتقى بها وتبثها الهوى وتقبل هواها ثم تتردد . نعم انى أتردد .

انها قد تسعى الى غيرى كما سعت الى .. بل ان أمى قد ألقت الى فيما ألقت أن كلاما غير كريم يدور حول سهير . أليس بحسبى هذا الكلام حتى لا أتزوجها .. ومتى رأيت الناس يصدقون ، لعلهم وشاة يكذبون ، ولكن الشرف سمعة ، وكرامة الفتاة منوطة بسمعتها ، فما للناس يتحدثون عنها ولا يتحدثون عن فتاة أخرى . لعلهم ينفسون عليها جمالها وغناها .. كم من الفتيات جميلات وذوات غنى ولا نسمع عنهن شيئا .. لا بد انها هى التى أتاحت الفرص لهذا الحديث أن يدور .. ثم .. أليس فى لقائها بى ما يدل على أنها جريئة لا تراعى التقاليد .. ولكنها تلتقى بك أنت وجدك .. لا .. ان من تقبل أن تلتقى بى لا ترفض أن تلتقى بآخر .. الزواج أمر خطير ، قد لا أفرغ لها .. قد تشغلنى السياسة ، فما يمنعها أن تواعد آخر كما تواعدنى .. لا .. لا .. لا أستطيع .. الزواج .. الزواج !

ان أمى محقة حين فكرت أن تخطب لى هند بنت اسماعيل باشا مصطفى . ومن أدراك أن هندا لا تلتقى بابن عم لها كما تفعل سهير ؟ أيها المتشكك .. وكيف لهند أن تلتقى وهى فتاة صغيرة لاتزال فى أكمام الصبا لم تعده الى الشباب .. تلك هى الزوجة .. تربية تركية صارمة ، تخرج من يد المربية الى يد الزوج ، بلا لقاء ولا مواعيد ولا قارب فى النيل ، ولا ستار من جدار أو ليل ولا أم وديدة حمالة المواعيد . ولكن سهير .. سهير .. ماذا أنت قائل لها ؟ ماذا أنت قائل لها ؟

وحينئذ سمع أقداما تقترب ، وسرعان ما بدت سهير على رأس السلم وراحت تجوس الحديقة بنظرها هنيهة ، ثم نزلت السلم فى سرعة محاذرة أن يصدر منها صوت واستقبلها وصفى .

ـ تأخرت .

وضحكت سهير وهى تقول :

ـ انتظرت حتى خرج أبى .

ـ عمى خرج ؟

ـ نعم .. ظللت أرقب باب الخروج ورأيت الباشمهندس الثقيل يخرج ، ثم خرج أبى بعده بقليل ومعه عبد البديع آفندى كاتب الزراعة .

ـ أنت تظلمين سليمان !

ـ أعوذ بالله .. لا تذكره لى .

ـ ولماذا ؟

ـ يا أخى هذا كارثة .. مصيبة .. بلوى .

لماذا .. لماذا هذا كله .. هل جلست معه ؟ .

وتضحك سهير وهى تقول :

ـ نعم يا سى وصفى !؟ . كيف أجلس معه ؟ .. أأقابل الرجال ؟

وابتسم وصفى وهو يقول :

ـ وما أنا ؟ هل أنا ست ؟

وابتسمت سهير ، ولمع فى عينيها بريق وهى تنظر الى وصفى نظرات عميقة جعلت الزهو يملكه ويروح يحاول أن يخفيه بالرجوع الى الحديث عن سليمان ، فقد كان دمه يرضيه ويرتاح اليه كما يرتاح لمديح يسمعه عن نفسه .

ـ فكيف عرفت أنه كارثة ومصيبة وبلوى ؟

ـ أوه .. يا أخى ، اترك سيرة هذا اللوح .

ويقهقه وصفي قهقهة توشك أن تعلو ، لولا أن تسارع سهير فتضع يدها على فمه فيقبلها ويمسك بها ، ويعيد سؤاله وهو لا يزال محتضنا يدها بيديه :

ــ كيف عرفت أوصافه هذه

ــ يكفي أن هذه رابع مرة أرفضه ، وهو يصر على طلبي ..

ــ رابع مرة ؟

ــ طبعــا طلبني ، مرة قبل أن يســافر ، وأجابه أبي دون أن يسأل رأيي بأنني ما زلت صغيرة ، ومرة وهو مسافر بخطاب لم يرد أبي عليه ، ومرة أرسل أمه وسألني أبي فرفضت ، وهذه المرة التي لا يزال يلح فيها .

ــ والله مكافح .. من يعلم لعله ينال أمنيته .

وانتفضت سهير جازعة ، وانحبس صوتها وهي تسأل في لهفة جازعة .

ــ ماذا .. ماذا تقول يا وصفي ؟

وأطلق وصفي ضحكة صغيرة وهو يقول :

ــ يا ستي أنا أضحك .. ألهذا الحد تكرهينه ؟

ــ بل لهذا الحد أحب غيره .

ــ واغرورقت عينا وصفي بالدموع ، ولم يجد شيئا يفعله الا أن يميل على يدي سهير ، يقبلها في خشــوع حائر ، وفي قلق مرير لو أحسته سهير لما صبرت أن تلقي بنفسها الى النيل ، وأوشكت سهير أن تميل على رأسه تقبلها وهو مكب على يدها ، ولكن ردها عن ذلك كبر لم يمحه الحب ، وردها عن ذلك أن صعد اليها وجه وصفي والدموع تتغشاه بعد أن فاض منها سكب على يدها .

٣

عاد وصفى الى منزله أول الليل ، وجلس الى أمه التى استقبلته وقد رسمت على فمها ابتسامة ، أدرك وصفى أنها تخفى وراءها أمرا . ولم يشأ وصفى أن يستعجل أمه لتنتهى اليه ما تخفيه ابتساماتها ، فهو يعلم أنها ستسرعان ما تفضى اليه بما تخبئه .

كانت السيدة اجلال أم وصفى سيدة فى الحلقة السادسة من عمرها ، تركية المولد والنشأة ، وكانت بيضاء الجبين ، لم يخط الزمان على وجهها خطوطا كثيرة ، وانما ترك صفحة وجهها صافية يلمع فيها البشر ، فقد عاشت مع المرحوم زوجها عيشة راضية ، فلم يتزوج عليها ولم يشتر جوارى أخريات شأن أمثاله من الأغنياء وانما أفردها بحبه وعنايته ومنزله . ولكن هذا جميعه لم يستطع أن يمحو من عينيها وميض قلق أليم بها منذ اختطفها اللصوص وهى طفلة تلعب فى مدارج الصبا ، وأتوا بها الى مصر حيث بيعت بيع الرقيق الى جد وصفى الذى زوجها لولده أدهم باشا شكرى . لا ، لم تمح الأيام من عينيها هذه النظرة القلقة ، ولم يستطع أدهم باشا بكل حدبه عليها وحبه لها أن يزيل هذه الآثار الدارسة من بقايا القلق التى ارتسمت فى عينيها منذ ذلك الحين البعيد . ولم تنجب اجلال هانم لزوجها غير

وصيفى ، فحمد ربه على ما أعطي ، وعاش لا يرجو من دنياه الا أن يمد الله فى عمر ولده ويحفظه من شر العاديات •

وكان وصفى خليقا أن يميع منتهزا فرصة انفراده بأبوة أبيه وبنوته له لولا ان اجلال هانم أدركت ما يحيط بالفتي من خطر ، فقامت على شأنه فى قسوة رحيمة وحزم واع ، وهيأ له أبوه مناهل العلم ومجالس العلماء ، فشب الفتى قويم الخلق واللسان ، أديبا محبا للعلم ، وصار الى مكانه المرموق هذا ، مدركا أن الفضل فى ذلك يرجع الى أمه وأبيه •

وحين انتقل أبوه الى جوار ربه عاش الفتي وليس له أرب فى بيته الا أن يرضى أمه فلا تفتقد شيئا كانت تجده أيام أبيه •• اللهم الا فقدانها لزوجها ، ذلك الذي لا يعوضه مال أو بنون •

لاحظت اجلال هانم أن وصفى لم يحفل أمر ابتسامتها التى وضعتها على فمها حين أقبل ، فوسعت الابتسامة مرة أخرى عساه أن يسألها ، فقد كانت تدير الحديث فى ذهنها قبل أن يأتى ولدها ، وكانت تريد أن يسألها « ماذا وراء ابتسامتك » حتى ترد سؤاله بما تريد أن تخبره به ، ولكن ها هو ذا ابنها يأبى أن يسألها ولا تعرف هى كيف تبدأ الحديث •

وأدرك وصفى أنها تريد أن يسألها عما تخفيه • وشاء أن يداعبها بصمته فسكت لا يسألها • وطال الصمت بهما وازدادت الابتسامة اتساعا له وازداد وصفى تشاغلا عنها حتى ضاقت الأم آخر الأمر به :

ــ أما انك بارد !

وضحك وصفي وهو يقول :

ــ لماذا يا أمى ؟

ـ أما ترى أنى أبتسم وأبتسم ، أما ترى أننى أريد أن أقول شيئا ؟!

ـ فما يمنعك يا أمى أن تقوليه ؟

لأنك لا تسألنى عن سبب ابتسامتى •

ـ ألابد أن أسألك حتى تخبرينى •• أنا أعلم أنك لن تسكتى أو تقولى ما بعث هذه الابتسامة الحلوة الى شفتيك •

ـ والله لأسكتن فلا أخبرك •

ـ ولماذا يا أمى ، أنا أعرف أنك تريدين أن تخبرينى عن خبر هام ، فلا تضايقى نفسك وقولى الخبر •

ـ أنا أضايق نفسى ، انه أنت الذى يتوق الى معرفة ما أخفيه •

ـ أنا يا أمى !

ـ نعم أنت ولكنى لن أخبرك •

ـ حسنا •• نعمل تجربة ، الذى يتكلم أولا يدفع للآخر خمسة جنيهات •

ـ أما انك بارد !

ـ هيه •• ما رأيك •• نعمل تجربة •

ـ طيب •• سنرى •

وسكت الاثنان وقد ازدادت الابتسامة اتساعا على وجه اجلال هانم ، حتى لتوشك أن تنفجر عن ضحكة مرحة فرحانة • ولم يطل بهما الصمت بل تلفتت اجلال هانم حولها وهي تقول :

ـ أين كيسى •• ها هو ذا ••

وفتحت اجلال هانم كيس نقودها وأخرجت منه خمسة جنيهات وقالت لابنها :

ـ خذ واسمع .
وراح الاثنان يقهقهان فى مرح ، ثم قالت اجلال هانم :
ـ احذر من زارنى اليوم .
ـ حرم اسماعيل باشا مصطفى .
وفغرت الأم فاها عاجبة من ولدها هذا الذى حيرها .
ـ وكيف عرفت ؟
ـ عرفت من ابتسامتك الأولى .
ـ طيب هات الجنيهات الخمسة .. أتضحك على يا ولد ؟
ـ وفيم أضحك عليك ؟
ـ أتكون عارفا بالموضوع كله وتدعى الجهل به ؟
ـ يا أمى .. وهل لك عمل منذ قبلت أن تخطبى لى هندا الا بيت اسماعيل باشا مصطفى ، وهل لك حديث الا عن الخطبة ، وعن صداقتك لسمية هانم منذ أيام الطفولة ، وعن فرحك لهذا النسب الجديد . يا أمى اننى أعلم أنك لا تحملين أخبارا الا هذه ، فمنذ فتحت هذا الموضوع وأنت لا تتحدثين عن شىء آخر .
ـ آه يا لئيم .. هات الفلوس التى أخذتها .
وقال وصفى جادا :
ـ وماذا قالت لك سمية هانم ؟
ـ أرأيت .. انك أنت الذى تتوق الى هذا الحديث .
ـ على كل حال لا بد لى أن أعرف .
ـ يا سيدى ، الباشا وافق وهو مسرور جدا ، وقالت لى انه منتظرك غدا لتحدد موعد الخطبة .
وقال وصفى فى شىء من القلق :

ـ غدا ؟

ـ غدا .

ـ بهذه السرعة ؟

ـ وما المانع ؟

وسرح وصفى بنظره وهو يقول :

ـ نعم .. صحيح .. ما المانع ؟

٤

اندفع وصفى فى تيار رغبة عنيفة أن يتم زواجه هذا ، لقد كان يخشى الأيام ، أو هو يخشى نفسه ان مرت عليه الأيام ، كان قد وصل الى قراره هذا بعد تردد ، وكان العقل وحده هو الدافع الى هذا الزواج ، كان يريد زواجا مستقرا غير مفزع بأشباح من الماضى ، وخيالات من رعونة الشباب .

كان يعلم أن قلبه نافر من زواجه هذا الى هواه الأول ، وكان قلبه الشاب قوى النبض ، عنيف الحجة ، ولكن استطاع فى لحظة أن يضع حول قلبه سياجا من المنطق ، فخفت النبض هونا ، وانبعث وصفى فى غفوة من قلبه يتم الزواج ، فى اندفاعة خائف ، وفى سرعة قلق ، وفى عزم حيران .

يصبح الصباح فيندفع وصفى الى التليفون يطلب الى العاملة أن تصله بمنزل اسماعيل باشا مصطفى ، وبعد هنيهة يكون وصفى على موعد أن يلتقى بالباشا فى منزله فى الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم ذاته .

وفى الساعة الخامسة يكون وصفى قد أخذ مكانه من اسماعيل

باشا مصطفى ، والباشا يرحب به فى اجلال فهو يعرفه من زمن بعيد، ويلاحقه كاتبا وسياسيا ، ويحمل له فى نفسه الى جانب الحب اكبارا • وقد كان وصفى عالما بمكانه من نفس الباشا ، ولكن علمه لم يمنع الخجل أن يلعثم لسانه بعض الحين •• بعض الحين فقط ، ثم سرعان ما جرى الحديث فيما قدر له أن يجرى وسرعان ما تحدد موعد الخطبة •• وصفى متعجل والباشا مسرور بهذا التعجل ، وصفى يخشى أن يطغى عليه قلبه ان تراخى الموعد ، والباشا يظن تعجل وصفى عدم صبر عن لقاء عروسه •

والتقت الرغبتان وان اختلفت البواعث والظنون • وتم الحديث ، واستأذن وصفى وخرج • وعند باب المنزل التقى وصفى بأم وديدة تحمل فوق رأسها بقجتها ، فحياها تحية عابرة ، وانصرف عنها باهتة ذاهلة ان لم يمل وصفى على أذنها ولم يتح لها أن تميل على أذنه •

ركب وصفى عربته وأمر السائق أن يسعى به الى بيت عمه أحمد باشا ، وما ان أتم اصدار أمره حتى صكت حوافر الخيل مسامع أم وديدة وهى فى طريقها الى باب الحريم •

٥

كانت حجرة المكتب فى بيت الباشا خالية لا يشغلها الا كاتب زراعته عبد البديع أفندى الدكر • شاب يفتتح الحلقة الثالثة من عمره، صورة قوية المعالم للفلاح المصرى ، مغلفا بعادات الريف ، لم ينزع من غلافه شىء ، لن تخطىء عيناك حقيقته ، ولن تخدعك منه هذه الحلة التى يضعها على نفسه كلما اقتضت الأعمال أن يزور الباشا فى المدينة • فقد شب فى القرية ، وفى مكتب الباشا ، يتلقى عن أبيه أحمد الدكر فنون حساب الدوبيا ، ومحاسبة الأنفار ، وصرف التقاوى والسماد ، وظل بالقرية وبمكتب الباشا عمره جميعه حتى مات أبوه ، فتولى هو عمله •

ولم يكن مجيئه هذه المرة فى عمل ، وانما جاء ليستأذن الباشا أن يكمل نصف دينه بالزواج من خطيبته التى خطبها له أبوه منذ هو طفل ، ومنذ عروسه وليدة ، انها ابنة عمه « محبوبة » •• محبوبة العمر كله •• كم يشتاق اليها •• الى الزواج بها ، والى أن تخلو بهما حجرة ، ويقفل عليهما رتاج • انه يحبها ، ويخفق قلبه لرؤيتها ، وتمور الدماء فى عروقه حين يلتقى بها وقد ألقت على رأسها خمارها الأسود،

وهو منذ يومين لا يطيق صبرا ، فقد رآها في صحن دارها ، وقد لبست جلبابها الأحمر الهفهاف الذى لم يكن قد رأى منه الا طرفه الأقصى حين كان يتدلى تحت جلبابها الأسود ، رأى الثوب جميعه ، رأى ظهره ، ورأى أكمامه وقد انشمرت عن ذراعيها .. ذراعيها هى ، بل لقد رأى أيضا ساقيها تحيطان بالطست رأى ذلك جميعه حين ولج بيت عمه الذى كان مفتوحا .. رأى « محبوبه » فتملاها مليا ، حتى اذا أحس انها توشك أن تلتفت خلفها سارع عائدا بظهره الى باب الدار ، ومن هناك قال :

ـ يا ساتر .

وقامت محبوبه عن الغسيل ، ومن وراء باب حجرتها قالت وهى تدرك من المنادى :

ـ من ؟

ـ أنا عبد البديع يا محبوبه .. عمى هنا ؟

ـ لا .. خرج .. اتفضل .

ـ لا .. استأذن أنا .. سأعود اليه فى العشية .

وهو منذ تلك اللحظة لا يطيق صبرا ، ولولا أن الأعمال كانت متراكمة لركب القطار الى الباشا لحظة ترك محبوبه ، ولكنه صبّر نفسه يومين بغير نوم لقد كانت ساقا محبوبه وذراعاها تطارده فى النوم والصحو على السواء ، حتى لقد خشى أن يخطىء فى الحساب فجاء .. جاء منذ الأمس ، ولكنه لم يستطع أن يحادث الباشا فقد كان جالسا طوال الوقت الى ولدى أخويه فلم يره الا وهو فى طريقه الى السيارة ولم يتسع الوقت الا لأن يسأله الباشا سؤالا عاما عن حال الزراعة ، ثم طلب اليه أن يبيت الى الغد وبات ليلته فى بيت الباشا ، وخرج فى الفجر ليصليه حاضرا فى سيدنا الحسين وحين عاد

كان الباشا قد خرج . ثم ها هو ذا ينتظره وقد اقتربت الساعة من السادسة وأنه يخشى أن يبيت هذه الليلة أيضا دون عودة الى القرية .. الى محبوبة .

هكذا كان يفكر عبد البديع حين فتح الباب ودلف الى الحجرة سليمان . وقام عبد البديع فى أدب بالغ ، وقد اشتعل فى نفسه كره عنيف لسليمان ، فقد كان يريد أن يحادث الباشا على انفراد ، والآن لم يصبح هذا الانفراد ميسورا ، ولكن هذا لم يمنع عبد البديع أن يقول :

ـ مرحبا سعادة البك .

ـ أهلا عبد البديع أفندى .. لى زمان لم أرك .. كيف حالك؟

ـ الحمد لله يا سعادة البك .. أطال الله عمرك .

ـ كيف حال الزراعة عندكم ؟

ـ ماشية يا سعادة البك .. بركة الباشا كبيرة ..

ـ كم يرمى الفدان ؟

ـ من القطن يا بك ؟

ـ نعم .

ـ خمسة .

ـ فقط ؟

ـ نعمة .

ـ والقمح ؟

ـ من خمسة الى ستة أرادب .

ـ فقط ؟

ـ نعمة يا سعادة البك ، طيب ، والله ان أرضنا تنتج أحسن محصول فى الجهة .

ـ لا •• لا يا عبد البديع أفندى •• لا بد أنكم لا تحسنون الخدمة •

ـ يا سعادة البك الحال عندنا لا يقاس بالحال فى أوربا •

ـ ولم لا ؟

ـ لا حول ولا قوة الا بالله •• هناك أوربا •• وهل أوربا يا بك مثل العواسجة •• شتان يا سعادة البك •• شتان •

ـ المسألة خدمة أرض فقط •• لو خدمت الأرض أعطتك •

ـ انها أرض عمك وأرضك بجانبها •• اوصل لنا فى مرة وارشدنا ، ونحن ننفذ أوامرك •

وقبل أن يجيب سليمان ، يفتح عم دهب الباب قائلا فى لهجته الحازمة :

ـ سعادة الباشا •

ويدخل الباشا الى الحجرة ويسلم على سليمان وعبد البديع أفندى ويقعد ، ويقعد سليمان ، وينظر الباشا الى عبد البديع منتظرا أن يخرج ولكن عبد البديع يقول :

ـ سعادة الباشا يسمح لى •

ـ ماذا ؟

ـ كلمة صغيرة ، فانى أريد أن أسافر الليلة ان أذن سعادة الباشا •

ويتململ الباشا فى كرسيه ، وينظر الى سليمان راجيا أن يفهم ويترك الحجرة ، ولكن سليمان لم يتحرك من مكانه ، فلم يجد الباشا مفرا آخر الأمر من أن يقول لابن أخيه :

ـ اتركنا دقيقة يا سليمان .

ـ أمرك يا عمى .

ـ ويقوم سليمان خارجا حاقدا على عبد البديع أن يخفى عنه سرا .. فقد كان يحسب أنه يريد محادثة الباشا فى شأن من شئون الزراعة ، وقد كان يحب أن يعرف كل شئون الزراعة .. زراعة عمه الباشا بالذات .

قال عبد البديع فى لجلجة :

ـ أطال الله عمرك يا سعادة الباشا وأبقاك .. سعادة الباشا يعرف أننى خاطب لابنة عمى محبوبة منذ زمن بعيد .

وقاطعه الباشا :

ـ عظيم .. عظيم ، وتريد أن تتزوج ؟

ـ أطال الله عمرك يا سعادة الباشا .

ـ طيب اكتب أمرا الى نفسك أن تصرف خمسين جنيها تتزوج بها .

وسمع عبد البديع الرقم فتحجرت عيناه هنيهة ، ثم فاض منهما دمع فرحان ، فما كان يطمع فى غير عشرين ، وانكب عبد البديع على يد الباشا متشبثا بها ملقيا عليه بفمه ، ولكن الباشا يختطفها منه فى حزم :

ـ ماذا جرى يا عبد البديع ، متى رأيتنى أسمح لأحد أن يقبل يدى .. أستغفر الله يا ابنى ، واستغفره أنت أيضا .. اذهب يا ابنى .. انت ابنى . اذهب بارك الله لك فى زوجتك وبارك لها فيك .

وقال عبد البديع والدموع تجرى على خديه :

ـــ وبارك لنا فيك يا سعادة الباشا ، وأطال عمرك ، ولا أرانا فيك سوءا أبدا يا سعادة الباشا .

وخرج عبد البديع ونادى الباشا :

ـــ يا سليمان .. يا سليمان .

ودخل سليمان الحجرة ، وتبعه وصفى الذى كان قد وصل لتوه، وجلس كلاهما الى الباشا وقد غشيهم الصمت ، أما الباشا فمفكر فى عبد البديع وفى زواجه مقارنا بينه وبين ابنتيه اللتين تعقدان الزواج تعقيدا يوشك أن ينتهى بهما الى بوار . ومفكر أيضا فى سليمان هذا وفى وصفى ، فقد كان يتمنى أن يخطب وصفى احدى ابنتيه ، ولكنه صامت لا يبين عن رغبة ، ولا تبدو منه بادرة تفكير ، ولو كان يطيق أن يرفض سليمان دون الرجوع الى ابنته لفعل حتى يضمن بعده عنها ولكن لا يستطيع فهو ابن أخيه وان كان فقيرا ، ويخشى أن يرفضه فتغضب الأسرة جميعها ، فقد استقر العرف بينهم ألا يكون المال سببا فى قبول أحدهم أو رفضه ، فكلهم أسرة ، وكلهم سواسية ، لا يرفع المال واحدا منهم ولا يخفض آخر . ولكن الحمد لله ، فان سهير ترفض وتتمسك بالرفض وما يظنها تقبله أبدا .. فان وجهه هذا وهو يعلم أنها رأته من وراء الشباك ـــ كفيل بأن يجعلها تزداد تمسكا برفضها له كلما عرض عليها .

وأما سليمان فقد كان يفكر فيما قال عبد البديع أفندى لعمه وفى الثروة الضخمة التى يشرف عليها هذا العبد عبد البديع ويتوق فى أعماق نفسه أن يشرف هو عليها .. آه لو تقبله سهير .

وأما وصفى فقد كان يفكر فى الوسيلة التى سيلقى بها الى عمه خبر خطبته ، فقد كان يحب عمه ويقدره ، ولا يريده أن يسمع خبر الخطبة من غيره ، وكان يعرف أن عمه يريده ، لاحدى ابنتيه ، جاهلا

ما بينه وبين سهير . جاهلا أيضا أن هذا الذى بينه وبين سهير هو نفسه الذى منعه من التقدم للخطبة .

وهكذا صمت ثلاثتهم حتى فتح عبد البديع أفندى الباب وتقدم الى الباشا فى انحناء ، مقدما اليه اذن الصرف ، ووقع الباشا الاذن بين دعوات عبد البديع أفندى المتلاحقة ، والتفت الباشا الى ولدى أخويه :

ــ باركا لعبد البديع أفندى ، فانه سيتزوج .

وهنأ الشابان عبد البديع أفندى الذى شكر لهما تهنئتهما وخرج ، ولحق به وصفى الى خارج الغرفة ، وفى البهو انتحى وصفى بعبد البديع ناحية وأخرج من حافظته عشرة جنيهات أعطاها له ، وتأبى عبد البديع هنيهة ، ثم قبل الهدية وهو يشكر وصفى ويدعو له ..

وعاد وصفى الى الحجرة ، فوجد الصمت لا يزال يأخذ مكانه بين عمه وسليمان . وكان الباشا قد أدرك ما دعا وصفى الى الخروج ، وأراد أن يغمز سليمان فقد كان يريده هو أيضا أن يهدى كاتبه شيئا .. أى شىء مهما يكن تافها ليمكن لنفسه احترامها عند الخدم . قال الباشا لوصفى :

ــ ما كان لك أن تفعل ، فقد أعطيته أنا خمسين جنيها .

وتردد وصفى ثم قال :

ــ يا عمى أنا أعرف ذكاءك الخارق ، ولكنى ما كنت أحسب أنك تعرف الغيب أيضا .

ــ لا غيب ولا حاضر .. لم يكن هناك ما يدعو لخروجك الا هذا ، وأنا أعرف عنك أيضا أنك كثير العطاء .. وسع الله عليك يا ابنى .

ولم يشعر سـليمان بغمزة عمه وانما شـعر بحقده يزداد على عبد البديع لزواجه ، ولنيله هذه الأموال فوق ما ينهبه من الزراعة • وشعر بحقده على وصفى يزداد أيضا لغناه ، ولأنه استطاع بهذا الغنى أن ينال هذا الدعاء الجميل من عمه ، كما استطاع من قبل بغناه ومركزه أن يكون المرشح الأول فى اشاعات الأسرة للزواج من سهير •

وانتهز وصفى الفرصة السانحة من الحديث عن الزواج وقال لعمه :

ـ وأنا يا عمى سأتزوج عن قريب •

ودهش الباشا ، وتسارعت الدقات بين ضلوع سليمان •

ليس هذا أسلوبا يخطب به الفتى الفتاة الى أبيها ، ولم يكن الباشا يقدر أن وصفى سيخطب غير واحدة من ابنتيه • وانتفض قلب سليمان ذعرا متخيلا أن وصفى سيخطب سهير • ولم يتح وصفى لهذه المشاعر أن تبلغ مداها ، بل سارع قائلا :

ـ لقد خطبت اليوم هند بنت اسماعيل باشا مصطفى •

وتمالك الباشا نفسه فى سرعة قادرة مرن عليها فى مجـالات السياسة والحياة وقال :

ـ مبروك •

ولم يستطع أن يزيد ، بل لم يستطع أن يشفع التهنئة بابتسامة •• أى ابتسامة مهما تكن باهتة •• قالها مبروك •• بريئة من كل فرح ، مجردة من كل معنى للتهنئة ، أما سليمان فقد جاهد نفسه أن يخفى فرحته وأطلق :

ـ مبروك •

تحمل سرورا عاتيا راقصا ، ولكنها مع ذلك لم تكن تحمل كل ما فى نفسه من سرور .

وأحس وصفى راحة الى القاء هذا النبأ .. راحة الحيران التائه يصل الى مستقر ، مهما يكن هذا المستقر مخالفا لما كان يتمنى .. ولكنه مستقر على أية حال . أحس أنه أتم عزمه .. وتغلب على قلبه، واطمأن الى مستقبله فى ظلال بيت هادىء لا تدور فيه أعاصير الهوى، وان كان يتمنى أن تترقرق فيه نسمات من الحب الناعم ، تنمو ولا تدوى ، وتكبر مع الزمن ، ولكن فى هدوء ووقار وايناس .

ولم يلبث وصفى كثيرا .. فقد أحس بالصدمة التى يعانيها عمه من خيبة الأمل ، وبالفرح الذى يعانى سليمان فى كتمانه أن أمله قد يتحقق .

وما ان بلغ وصفى الباب الكبير ، حتى التقى هناك مرة ثانية فى يومه هذا بأم وديدة ذاهلة حائرة ، تتخفى منه فى بقجتها ، وتميل عن طريقه فى ازورار .. وأحس وصفى فى أعماق نفسه كرها لأم وديدة .. كرها شديدا لم يعرفه لأحد من قبل .. انها هى .. هى وحدها التى فرقت بينه وبين هواه .. انها هى التى وضعت هذا الحائل بينه وبين سهير .

وأدرك وصفى ان النبأ فى طريقه الى سهير مع بقجة أم وديدة ، وأحس حينئذ أن سهير ستحس هذا البغض نفسه نحو أم وديدة .. وأحس فؤاده يختلج فى صدره خلجة الطير الجريح .. انه سيجتمع هو وسهير على كره أم وديدة فى وقت معا ، كما اجتمع هو وسهير على حب أم وديدة فى وقت معا .

٦

صعدت أم وديدة الى الطابق الأعلى ، وهنـاك لقيتها الأسرة جميعها بالترحاب وبخاصة سـهير التى راحت تدور حولها فى فرحة نشوانة ، يبتعثها فى نفسها هذا اللقاء الذى مهدت له أم وديدة فى أمسهم الذاهب ، ولم يكن فرح سميحة أخت سهير بأقل من فرح أختها بأم وديدة ، فقد طالما كانت تهمس أم وديدة لسميحة أن أختها الكبرى ستتزوج عما قريب ، وعما قريب ستلحق هى بها وتتزوج من فتى أحلامها سامى الذى لا يمنعه عن طلبها الا أن أختها الكبرى لم تتزوج بعد ، ولم يكن فرح الأم بأقل من فرح البنتين ، فقد كانت أم وديدة تقرأ لها الفنجان وتطمئنها أن فرحين لا واحدا سيقامان عما قريب ، بعد نقط ثلاث فقط ، فى القصر • فيطمئن مضطربها القلق ، ويهدأ ثائرها المفزع دائما بتلك القالة التى تشيعها أخوات بناتها من زوجة الباشا الأولى ، من سهير وسميحة ستظلان عانسين بلا زواج •

راحت البنتان تتواثبان حول أم وديدة ، جاعلين السبب الظاهر لفرحتيهما أنها قد جاءت لهما بما طلبته كل منهما فى الأمس من ملابس وأقمشة •

واستقبلتها السيدة نفيدة فى فرح هادىء شاع فى وجهها كله ،

وأطل من عينيها الطيبتين ومن صـــوتها وهى تقول بعد آن صفقت بيديها :

ـــ يا بنت هاتى القهوة .

وواجهت أم وديدة هذا الاستقبال الفرحان بوجمة حزينة ، ووجه شاحب كالثلج ، وعقل مذهوب ، وقد وضحت آلامها جميعـــا فى صوتها وهى تقول :

ـــ اعملى القهوة سادة يا نبوية .

واكفهر وجه الست الكبيرة وقالت :

ـــ لماذا يا أم وديدة كفى الله الشر !

ـــ والله يا ســـتى كنت عند جماعة وســـمعت ـــ ويا شـــوم ما سمعت ـــ حكاية ـــ بعيد عنك ـــ ومن ساعتها وأنا مخى داير وربنا يستر .

ـــ خير يا أم وديدة ؟

وانطفأت الفرحة عن وجوه الأسرة جميعها ، وارتمت الفتاتان الى الأرض بجانب أم وديدة ، واشرأبت اليها رأساهما ، وجف فمهما ، فما تطيقان كلاما ، وما تطيقان صمتا .

ـــ خير يا أم وديدة ؟

ـــ والله يا ستات لا خير أبدا .. لا اله الا الله .

وقالت الست تفيدة :

ـــ يا اختى قولى ، نشفت ريقنا .

وخلست أم وديدة نظرة الى سهير ، ثم أطرقت وصعدت تنهيدة عميقة ، وقالت :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .. كان بودى يا ستى سهير أن يحمل غيرى الخبر ، ولكن لا عليك يا ابنتى ، غيره أحسن منه .

وحملقت عينا سهير فى أم وديدة ، وأوشكت أن تصرخ «وصفى» ولكن أمسك بلسانها وجود أمها وأختها ، وأمسك بها استدراك أم وديدة السريع بصوت رفعته حتى يطغى على ما قد يبدر من سهير :

ـ وصفى يا ستى الكبيرة .. سيدى وصفى بك .

ودقت السيدة الكبيرة صدرها وهى تقول :

ـ ماله يا أم وديدة .. ماله وصفى ؟

وقفزت سميحة واقفة ذاهلة :

ـ ما لوصفى يا أم وديدة ؟

وبقيت سهير مكانها وكأنها تعرف أن وصفى بخير ، وكأن الأمر لا يعنيها ، فهى مطرقة تشتعل نفسها بنيران من الغيظ والألم والحسرة، والكبر ذل من بعد كبر ، والكرامة أهينت من بعد كرامة .

واستطردت أم وديدة :

ـ خطب يا ستى الكبيرة .. خطب هند بنت اسماعيل باشا مصطفى .

وتمالكت الست الكبيرة نفسها فى كبر وهى تقول :

ـ وماله ؟

وحاولت سميحة أن تقلدها وهى تقول :

ـ آه .. وماله .

وقامت سهير الى حجرتها فى هدوء وبطء وفى وجوم ، فكأنما وجهها قد من صخر فهو قاتم لا يبين عما يسده فى نفسها من ثورات .

حتى اذا خلت بحجرتها أقفلت الباب وأحكمت رتاجه ، ثم ارتمت على السرير ، شعلة لا تريد أن تخفف وقودها بماء ، وان كان هذا الماء دمعا ، لا وان كان هذا الماء دما . انها تريد شعلة نفسها أن تظل مشتعلة تحرق وتحرق وان يكن الوقود نفسها .. وان يكن الوقود حياتها . ارتمت على السرير وألقت بوجهها الى الجدار الصلب ، لا تذرف دمعة، ولا تفكر في شيء غير أمس عند القارب، وغير الأمسيات التى سبقت الأمس هناك حيث قتلت كرامتها ، وأهدرت كبرها ، ولم تنل حبا لقاء كرامة ، ولا وفاء لقاء كبر . فلتلتهب نيران الشعلة ولتكن نفسها الوقود ، وما النفس بلا كرامة ، وبلا كبر ، وبلا حب ، وبلا وفاء .

لقد أدركت أن الذى قضى على مستقبلها هو لقاؤها بوصفى مهما يكن لقاء بريئا .. لقد كانت تعرف وصفى رجلا متشبثا بالتقاليد، يقدسها ويدافع عنها .. ألم تكن تقرأ له مقالاته التى يعارض بها من يطالبون برفع الحجاب ، أما كان هذا رادعا لها أن تلتقى به .. ولكن هى أم وديدة أوحت اليها أن لقاء سيتم بينها وبين من تحب . وهيأت لها أنه أمر ميسور ، فانصاعت فى سذاجة الهوى ، وفى رعونة الشباب الأولى .

صامتة سهير لا تبكى ولكن تشتعل وتحترق بلا نور من الشعلة، ولا بصيص من ضياء يبعثه الحريق ، حريق أسود داكن كآمالها ، كمستقبلها ، كماضيها ، كحياتها جميعا .

وطرق الباب فقامت اليه لم تسأل الطارق من هو وما يريد ، وانفرج الباب عن سميحة التى دخلت صامتة وأقفلت الباب من خلفها وسارت مع أختها الى السرير ، وعادت سهير الى استلقائها وجلست سميحة بجانبها :

ـ لا عليك يا ..

ولم تكمل سميحة الجملة ، فقد كانت تدرك أن آمال سهير معلقة بوصفي ، وقد كانت العائلة جميعها تذكي هذه الآمال بما تطلقه من شائعات وأقاويل .. كانت تدرك ذلك ولكنها كانت تجهل مواعيد أم وديدة ولقاء الأمسيات .. لم تكمل سميحة الجملة فقد وجدتها سخيفة لا تفيد شيئا ، ولم تجد شيئا تقوله غير دمعات فاضت صامتة أول الأمر ، ثم انفجرت عن بكاء ونشـــيج ، راحت سميحة تكتمه بالوسادة ، وقد ألقت وجهها اليها ، وسهير صامتة لا تتكلم ، وكأنما هي وحدها في الغرفة بلا بكاء جازع حزين قد ألقيت أختها في غمرته .
وطرق الباب مرة أخرى وانفتح عن أم وديدة تقول :

ــ ستي سهير .

ولم تزد سهير على أن تقول :

ــ مع السلامة يا أم وديدة .

وعادت أم وديدة في نغمة توشك أن تكون نغمة نصح :

ــ يا ستي سهير..

ولم تكمل لفظ سهير ، فقد قاطعتها سهير في صوت حازم يحمل مقتا ويحمل أمرا :

ــ مع السلامة يا أم وديدة .

وأقفلت أم وديدة الباب وانصرفت . وخلت الحجرة بالأختين مرة أخرى ، ولكن سهير تريد أن تنفرد بنفسها ، فهي تقول لأختها :

ــ اذهبي الى حجرتك يا سميحة .. أريد أن أنام .

ــ ومن سيلبس أبي حين يعود ؟

وقالت سهير في تصميم :

ــ أنا طبعا .. سأصحو قبل عودته .. اذهبي الى حجرتك .

وفهمت سميحة أن أختها تريد أن تخلو الى نفسها ، فقامت وتركت لها وحدتها •

عاد الباشا متأخرا بادى التعب ، وأحست سهير وقع أقدامه فى البهو ، فقامت اليه جامدة محاذرة أن تلتقى عيناه بعينيها ، ودخلت معه حجرته ووقفت وراءه لتخلع عنه سترته •

وقال الباشا وهو يخلع ملابسه :

ـــ لا أدرى يا سهير لماذا أحس بتعب الليلة ؟

ـــ لعلك تحتاج الى النوم يا أبى •• آبى •

وقال الأب فى اشفاق :

ـــ نعم يا بنتى •

ـــ ماذا كان سليمان يعمل عندك اليوم ؟

وأدرك الباشا ما يهفو اليه حديثها ، ولكن لم يستطع أن يميل بالموضوع الى آخر • فهو يقول متظاهرا بعدم الاهتمام :

ـــ انه يجىء كل يوم يا بنتى ••

ـــ نعم أعرف ••

وأدرك الباشا أنه لا بد له أن يلاقى الأمر مواجهة ، فسكت حتى لبس جلبابه ، وقعد على الأريكة ، ثم نظر مليا الى وجه ابنته وقال لها :

ـــ أتعرفين ما تريدين يا سهير ؟

وقالت سهير :

ـــ تمام المعرفة يا أبى •

ـــ لعلك غاضبة الليلة من أمر ما ، فيحسن أن تتروى فى الأمر ،

وتفكرى فيه وأنت بعيدة عن الغضب لحظة .. انها حياتك يا سهير .. حياتك كلها .

ـ أبى ، اذا كنت أنت لا تريدنى أن أتزوج من سليمان فأمرك ولا أخرج عن أمرك .. أما أنا .. أما أنا ..

وجمعت كل قواها الباقية لتكمل الجملة قائلة :

ـ أما أنا فأقبله يا أبى .

ـ أواثقة أنت يا سهير ؟

ـ كل الثقة يا أبى .. أنى أقبله .

وكان الباشا صادقا مع نفسه ، وصادقا مع قومه .. لقد قبلت ابنته الزواج من سليمان ، ولابد له أن يوافق ، فهو ابن أخيه ولا يستطيع أن يرفضه ، وقد كان أمله الوحيد فى الرفض معلقا بابنته ، ولكن ها هى ذى تقبل .. فماذا بقى له .. انها حياتها .. وهى فيها حرة .. ويل لها من الأيام .. أيكون سليمان زوجا لابنتى هذه .. ويل لها من الأيام !

٧

أصبح الصباح على الباشا ، فاذا بوعكة الأمس تصبح مرضا فهو لا يطيق أن يبرح فراشه • وجاء الأطباء واجتمعوا حول سرير الباشا وقرروا ألا يبرحه لمدة شهر على الأقل ، ووصفوا له العلاج وخرجوا ، وانشغل المنزل جميعه بمرض الباشا ، ونسيت السيدة تفيدة فى غمرة علاج الباشا ما كان بالأمس من خطبة وصفى • وانشغلت سميحة بأبيها أيضا ، أما سهير فقد راحت تنفذ أوامر الأطبــاء فى صرامة قاسية ، باذلة أقصى جهدها فى خدمة أبيها ، ولكن دون أن تنسى ، وكيف لها أن تنسى •

ومرت أيام والدار مقصد زوار لا ينقطع لهم سيل ، فأما فى الدور الأعلى فسيدات الأسرة حزنهن حزنان ، حزن لمرض الباشا ، وحزن يظهرنه وان لم يتمكن فى نفوسهن لخطبة وصفى لغير سهير •

وكانت بنات الباشا الكبيرات مع الزائرات وان كن يطلن من أمد الزيارة ، وقد يطيب لأحداهن أن تغيظ زوج أبيها ، فتبيت ليلة أو أكثر من ليلة فى قصر أبيها • وكن اذا جلسن الى زوج أبيهن أبدين أسفا لمرض أبيهن ، وأسفا آخر مســتترا بالحديث الملفوف لخطبة وصفى ، مبديات انشغالهن على مصير أختيهن • حتى اذا خلت بهن

حجرة ، راحت كل منهن تبدى سخريتها المرحة لما أصاب القصر من مصائب ، مرددات أن هذه المصائب انما هى ذنب أمهن المسكينة التى تزوج أبوهن عليها دون ذنب أو جريرة ، ولكن هذا لم يمنعهن أن يشفقن على أبيهن ، وأن يتمنين له الشفاء •

وأما الدور الأسفل فقد كان يحفل بالرجال ، لا يصعد أحد منهم الى الدور الأعلى ، فان الباشا كان لا يلقى أحدا ، وأحد لا يستطيع أن يصعد الى الدور الأعلى ما دام الباشا لا يلقاه ، فما تلقى السيدة الا اخوتها هى دون اخوة الباشا ، فهم لا يصعدون وانما يمكثون بالدور الاول يتعرفون الأخبار من الأطباء حين نزولهم ، ويلقون الزوار ويشكرون زيارتهم •• كان رجال الأسرة جميعهم يلتقون بالدور الأول ويظلون به الساعات ، لا فارق ثمة بين اخوة الباشا وأبناء اخوته وبين غيرهم من أفراد الأسرة فالجميع له اخوة وأبناء اخوة •

وكان وصفى وسليمان على حالهما من المواظبة ، يظلان بالقصر ما اتسع لهما الوقت • وكانت خطبة وصفى قد عرفت فى مجال الأسرة، فراحت التهنئات تترى اليه ، ولكنها تهنئات ذاهلة • أذهلها اخلاف الخطبة لظنونهم ، وأذهلها انتظام وصفى فى المجىء الى دار عمه رغم خطبته ، وكانت تهنئات واجمة أيضا فقد كان مرض الباشا يخيفهم جميعا •

لم يكن سليمان يعلم ما جرت به الأمور بعد خطبة وصفى •• ومن أين له أن يعلم ؟! ، ولكن آماله كانت قد تضخمت ، فهو أكثر رفعا للكلفة فى القصر ، وهو من يجلس فى الشرفة الخارجية ليكون أول مستقبل للزوار ، وهو من يودع الزائر حتى عربته أو سيارته •

وتحسنت صحة الباشا ، واستطاع أن ينتقل من السرير الى الأريكة دون أن يبرح الغرفة ، واستطاع أن يلقى اخوته بين حين وحين على أن يتباعد ما بين الحين والحين • واستطاع أيضا أن يذكر آخر

حديث له مع سهير قبيل مرضه ، وأن يذكر أن الحديث قد مرت عليه أسابيع ، فهو ينتهز فرصة تخلو به الغرفة وبابنته فسألها :

ــ هيه يا سهير •• أمصممة أنت على قبولك لسليمان ؟

ــ نعم يا أبى •

ــ أواثقة أن هذه رغبتك بلا أى تأثير ؟

ــ نعم يا أبى •

شأنك يا ابنتى •• ولكن اذكرى حياتك كلها أنك أنت من اخترت. فاذا مت فاذكرى أنى سألتك رأيك •• وألححت فى السؤال •• أنت وحدك المسئولة عن حياتك منذ هذه اللحظة •

ــ أطال الله عمرك يا أبى •

ــ على بركة الله •

وعلم الباشا أن سليمان بالقصر ، فأمر أن يخلى الطريق الى حجرته من الحريم ، وأن يصعد سليمان اليه •

وقصد سليمان الى عمه الذى استقبله فى محاولة هزيلة للبشر ، وقال له :

ــ مبروك يا سليمان •• مبروك عليك سهير يا ابنى •

وهوى سليمان على يد عمه يقبلها ، فتركها له الباشا ، فهى قبلة ابن اختار يد أبيه موضعا لها •• وقال الباشا لسليمان وهو لا يزال مكبا على يده :

ــ يا ابنى الشكر يكون بمعاملتها هى معاملة ترضينى •• ترضينى وأنا فى قبرى •• انها ابنتى •• قطعة منى •• وهى أحب بناتى الى •• أحبها هى •• أحبها هى يا سليمان ، فهى بغير كل ما حولها من مال

وجاه جديرة بالحب ، والله على ما أقول شهيد •• أكرمها يا سليمان تكرم أباك وعمك •

ولم يقل سليمان شيئا فى غمرة فرحته الا جملة واحدة ظلت تتردد على لسانه ، دون أن يفكر فيها ، ودون أن يجد لها فى نفسه صدى •

ـ أطال الله عمرك يا عمى •• أطال الله عمرك يا عمى •

لم يكن تفكيره فى الثروة التى انهملت عليه ليسمح له أن يفكر فى شىء آخر ، ولم يكن ليسمح له أيضا أن يستمع الى كلام عمه حتى يفهمه •• وانما هى جملة تعلقت بلسانه ، فراح لسانه يرددها وكأنها اسطوانة وضعت على حاك خرب •

٨

كانت الأيام التالية أيام أفراح .. أو هى ان شـئت الحق الخالص أيام زيجات . فقد تزوج عبد البديع من محبوبة ، وقد كانت هذه هى أولى الزيجات ، وقد كانت ناحية الأفراح فيها مترعة خالصة لا يشوبها الا الهناء والسعادة .

فقد عاد عبد البديع الى القرية وبلغها فى الهزيع الأخير من الليل فلما رده التأخير أن يقصد الى بيت عمه . وطرق الباب فى شىء من التهيب ولكن فى اصرار وجاءه صوت عمه جازعا غاضبا بعض الغضب من هذه اليد العابثة التى تطرق عليه الباب فى بهيم الليل ، فهو يثوب من نومه العميق :

ــ من ؟

ــ أنا عبد البديع يا عم .. لا مؤاخذة .

ــ خير يا ابنى .

ــ خير وكل الخير يا عم .. افتح .

وقال العم وهو يفتح الباب غير مطيق أن يفتح عينيه :

ــ يا ابنى الصباح رباح .. خير .. متى جئت من مصر ؟

ـ الآن يا عم الآن ..

ـ وكيف حال الباشا .. عسى الله أن يكون بخير .

ـ بخير يا عم الحمد لله .. أبقاه الله لنا ومد فى عمره .

وراح عبد البديع يقص على عمه الخير الذى سكبه عليه الباشا وابن أخيه وصفى بك ، ولم يفته أن يذكر جمود سليمان . واتفق عبد البديع مع عمه على أن يكون الفرح بعد أسـبوع وأن يكون المهر ثلاثين جنيها ، بدلا من العشرين التى كان متفقا عليها .

ولكن الصباح أقبل عليهم بمرض الباشا فتأجل الزواج ، وجعل موعده شفاء الباشا ، حتى يكون الفرح فرحين . وظل عبد البديع يتعجل هذا الشفاء حتى علم به وعلم بخطبة سهير هانم الى سليمان بك ففرح بخبر الشفاء فرحا غامرا وان اعترضت غمرته غصة بهذا الزوج الذى اختاره الباشا لابنته ، ولكنه سرعان ما قال فى نفسه « أطال الله لنا عمر الباشا .. مالنا نحن ولسليمان » .

وأقيم فرح عبد البديع وخلت الحجرة به وبزوجته وارتاح المضنى الى المضنى بها وهدأ اللاعج المستعر من هوى شب على السنين الطوال، وازداد أجيجه من نظرة عارضة عجلت بالزواج . وانصرف الجمع الذى ظل ملازما لباب الحجرة ، يعلو خواره وتنشـق حناجره عن أصوات مرتفعة تريد أن تلتهم فى هديرها تلك الصرخة التى تودع بها الفتاة عهد العذارى .

خلت الحجرة بالزوجين وبدأت بهما حيـاة جديدة .. جديدة عليهما ، قديمة على العالمين منذ بدء العالمين .

وفى القاهرة ، وفى ذلك القصر المطل على النيل كانت العدة تعد لفرح آخر ؟ ولكن أهو فرح ؟ أيحمل من معنى هذه الكلمة شيئا .. على كل حال هو زواج دعى الى شهود حفله قوم كثيرون ، هم خيرة

أبناء مصر وقادتهــا ، وسيحيى ليلته خير المغنين .. بمبه كشر عند الحريم ، وعبد اللطيف البنا عند الرجال . فهو فرح اذن ! ولكن العروس .. مصدر هذا الفرح وسببه ، حزينة لا تعبأ من أمر هذا الفرح بشىء ، وانما هى جامدة لا تتحرك خلجات وجهها عن نأمه من بشر أو سرور ، تسألها أمها عما تريد فتترك لها الأمر جميعه ، لا تريد أن تساهم فيه بأكثر من تلك الموافقة التى قسرت نفسها عليها قسرا ، ويسألها أبوها عن طلباتها فلا تزيد على الدعاء له بطول العمر .. دعاء صادقا من عميق قلبها وان يكن صدقه هذا يخفى مشاعر أخرى لا تبين عنها لأبيها . كانت سهير لا تريد أن تشارك فى هذا الجرم الذى تقترفه نكاية بنفسها أكثر مما ساهمت . فبحسبها اعناتا لنفسها وانتقاما أنها وافقت على الزواج من سليمان . أما أن تشارك فى تجهيز نفسها لهذا الزواج ، فهذا ما لا تطيق أن تفعل ، لقد استنفدت جهدها جميعا لتقول لأبيها أنها تقبل هذا الزواج ، ولم تبق منها بقية تجهز بها له .

وكانت الأم تعرف ما يعتلج بنفس ابنتها ، ولكنها تكتم علمها ذاك فلا تبين عنه ، فهى تخشى أن تشمت بها بنات زوجها ، وهى تخشى أن تنكأ فى نفس ابنتها جرحا تعرف أنه يسيل ، وترجو من الزمان أن يرقأ دماءه المسفوحة ، فهى صامتة تلهى نفسها بالشراء والاشراف على شأن الزواج وحفله ، ولكن هذا الشراء وهذا الاشراف لا يمهدان لها وقتا طويلا ، فقد تم الاتفاق على أن يقيم سليمان مع زوجته فى قصر أبيها الباشا ، فالأمر لم يعد محتاجا لغير أثاث حجرة نوم واحــدة تستبدل بالقديم الذى كانت تنام فيه سهير ، والشىء الوحيد الذى طلبته سهير هو ألا يباع أثاث حجرتها القديم ، وألا يبارح الطــابق الأعلى أو القاهرة الى منزل الريف طلبت ذلك ولم تبد لطلبها سببا ، وأجيبت الى طلبها دون أن تسأل عن السبب . لقد شهدت هذه الحجرة أسعد أيامها ، وهى تريدها أن تبقى قطعة من سعادتها الذاهبة .

لم تكثر الأم اذن من الشراء انما هو أثاث حجرة واحدة فخم

وضعته بدلا من أثاث حجرة سهير القديم ، وابتسمت لسهير ، وهى تقول :

ــ أما أثاث حجرتك القديم فهو كما طلبت ، سيظل هنا معنا فى هذا الدور ، سأجعله فى الجحرة المجاورة لك ينتظر الأولاد .

وذعرت سهير ، الأولاد !؟ وهل ستأتى بأولاد أيضا . نسيت سهير أن الزواج فى غالب أمره ينتج الأولاد .. الأولاد .. أولاد منها ومن سليمان .. لم تفكر فى هذا الأمر الا حين ذكرته أمها ، وقد ظلت بعد ذلك ليالى تفكر فى هذه الكارثة الجديدة التى ستصاحب ما وقع وما أوقعته هى على نفسها من كوارث وأوشكت ، بل وهمت أن تقول لأمها ارفضوا الزواج .. ولكن منعها خوف راعد ، خافت الصدمة التى سيصاب بها أبوها ان هى قالت « لا » بعد « نعم » ، وخافت أن يرغمها أبوها على الزواج ارغاما وقد كان خليقا أن يفعل ، فهو لا يقبل أن تمس كرامته بسوء وان كلفه هذا حياة ابنته جميعا ، وخافت أيضا أن تطفىء هذه الفرحة الغامرة التى تمرح أختها سميحة فى أسكوبها ، مظهرة أنها فرحة من أجل أختها وقد غبيت أن أختها تعرف تماما بأمر حبها لسامى وحب سامى لها وانتظارهما زواجها هى ليتزوجا هما أيضا .

لم تكن « لا » اذن ذات فائدة فقد فات حينها ، بل انها كانت خليقة أن تجعل الزواج يتم فى ظلال قاتمة من الارغام والقهر والزجر والتهديد ، بدلا من اتمامه فى ظلال من العطف والاشفاق والحدب والحب .. نعم فقد كان البيت الذى يتهيأ للزواج الجديد ، مغمورا بهذه الظلال من العطف والاشفاق والحدب والحب ، وهى ظلال كما ترى خالية من الفرح كل الخلو ، فهى ظلال بلا اشراق ، كان القصر المقبل على الزواج بعيدا عن الفرح كل البعد ، ولم تجد الزغرودة التى كانت تطلقها بعض الخادمات من حين الى حين ، عندما يقبـــل

العريس وينتظر عمه فى الدور الأسفل ، أو عندما تقبل قطعة من أثاث جديد أو قماش أو فستان للعروس ، لا ولم تجد تلك الضحكة العريضة التى كانت تضعها الأم على شفتيها ، لا ولم تجد هذه الرقة الحنون التى كان يصطنعها الأب كلما حادث ابنته العروس ، بل ولم تجد الفرحة الحقة التى كانت تعيش سميحة فى أنغامها ، لم يجد شىء من ذلك فى اشاعة قبسة من فرح فى هذه الظلال التى كانت تسود القصر الذى يتهيأ للزواج الجديد ، وان تكن الظلال مسكوبة من عطف واشـفاق وحدب وحب ، الا أنها ظلال أبدا لم تعرف ومضة الفرح •

ومع ذلك جاء اليوم الموعود ، وسـمى اليوم يوم الفـرح • واستقبل الأب اليوم أشد ما يكون اشفاقا وضيقا ، فقد كان يعلم تماما ما تقاسيه ابنته ، حتى لقد كان يوشك أن يقتل ابن أخيه هذا ، كان يرى فيه جلاد ابنته الذى اختارته هى لنفسها فى لحظة انهدمت فيها آمالها • لم يكن لفقر سليمان أى أثر فى ضيق الباشا به ، فهو ابن أخيه ، وقد كان أخوه حبيبا الى نفسه ، ولقد طالما نهاه عن السرف والقمار والمضاربة ولكنه لم يستمع ، بل انه كان فى كثير من الأحايين يدفع عنه ديونه وان تضخمت ليبقى عليه أرضه ، ولكنه لم يكن لينتهى حتى أنهى ماله جميعا وأتى عليه ، فلم تبق منه الا أوشال ضئيلة لا تعدو ثلاثين فدانا ملاصقة لأرض الباشا ، ومع ذلك فقد كان الباشا يحبه ، وظل يرعى ولده بعد وفاته حتى عاد من أوربا ، وكم كان الباشا يتمنى أن يكون سليمان على خلق سوى ، وترفع عن الدنايا واعتزاز بالنفس، ولكن سليمان لم يكن ، كان كل شىء الا خلقا سويا أو ترفعا أو اعتزازا ، كان هينا •• هينا على نفسه فرآه الناس أهون ، وكان دنيئا لا يعرف السمو ، وكان ذليلا يطلب الأمر اليسير فيبذل فى سبيله كل كرامة ، حتى لم تبق له كرامة ، لا يعف عن قول خسـيس ، ولا تمتد آماله الا الى توافه الأمور بلا طموح • أكبر آماله هى تلك

التى ينالها الآن ، زواج من ثروة ، وركون الى هذه الثروة ، واستزادة لها دون أن يفكر حتى فيما سيتمتع به فى ظلال هذه الثروة •

كان الباشا يعرف هذا جميعه عن سليمان ، فهو ضيق به أشد الضيق ، لا يفكر فى فقره ، فقد كان يعلم أن غنى ابنته كفيل أن يضمن لها ولزوجها حياة ميسورة ، ولكن زوجها نفسه بما فيه من خلق ، أو بما ليس فيه من خلق ، هو ما يضيق به الباشا ، ولكن ماذا يفعل ؟ لقد تم الأمر وحل اليوم • ولات حين رجوع •

أقبل سليمان على قصر الباشا فى الصباح من يوم الفرح ، واستقبله الخدم فى اجلال صامت ، وصعد خبر مجيئه الى الباشا وانطلقت زغرودة أعقبها صمت • وظل سليمان منتظرا عمه متوفز الأعصاب ، يدعو الله فى نفسه أن يتم هذا اليوم على خير •• الكتاب فقط يا رب •• الكتاب على خير يا رب ، ولا أريد غير هذا منك يا رب •• انه كل ما أطلبه منك يا رب ، لن أطلب منك بعد اليوم شيئا يا رب •

وكأن الله يضيره أن يطلب هذا السليمان شيئا ، أو كأنه يخادع ربه ويمنيه أن يريحه بعد ذلك من طلباته ، أم لعله كان لا يدرى ما يفعل ، أو ما يقول ، فظل يدعو ربه فى الحاح تعوده مع عبيد الله ، فلا حرج عليه ان هو بذله عند المولى •

ولم يطل به الدعاء ، فقد نزل عمه متجهم الوجه وان حاول أن يلقى على وجهه بعض البشاشة :

ــ صباح الخير يا سليمان •

وأقبل سليمان على يد عمه فقبلها :

ــ صباح الخير يا عمى •

وجلس الباشا ، وجلس سليمان ، ومرت فترة صمت ، ثم قال الباشا :

ــ سليمان ، هل أعددت المهر ؟

وأخذ سليمان لحظة ثم تلعثم وهو يقول :

ــ نعم •• نعم •• نعم يا عمى •

ــ كم ستدفع ؟

ــ أمرك يا عمى •

ــ لا بل أمرك أنت •• انى أريد أن تدفع شيئا مهما يكن قليلا ، حتى أحس أنك أجهدت نفسك لتنال أملك •

ــ والله •• والله ••

ــ اسمع يا سليمان •• اننى أعددت لك هذا المبلغ •

وأخرج الباشا من جيبه ظرفا منتفخا ، وأكمل حديثه :

ــ ألفان من الجنيهات ••

واتسعت حدقتا سليمان ، وفغر فاه ، واستعصى ريقه على البلع ، حتى ليكاد يسيل ، وأكمل الباشا حديثه :

ــ ستدفع منها ألفا هى المهر • وأعطيك الألف الأخرى لك لتظهر أمام زوجتك فى الشهور الأولى مظهرا يرضى كرامتها ، ويشعرها أنها تزوجت من رجل يريدها هى ولا يريد مالها •• هذا المبلغ كبير يا سليمان كما ترى • فأكرم به نفسك أمام زوجتك ولكنى أريد أن تكتب لى كمبيالة بخمسمائة جنيه •• هذا هو المبلغ الذى أريدك أن تقدمه لى مهرا ، وأما بقية الألفين ، فانه هدية منى لك لمناسبة زواجك •

وهب سليمان الى يد عمه وانكب عليها يريد أن يقبلها ، ولكن الباشا سارع فجذب يده وهو يقول :

ــ لا •• لا يا سليمان فى هذه المرة لا •• لا تقبل يدى لأننى أعطيتك نقودا ••

وأخذ سليمان المال ، وانحط على كرسيه ، ولم ينظر الى عمه ، ولو فعل لرأى وجها ينكره •• لو فعل لرأى وجه عمه الذى كان يحاول أن يكسوه بالبشاشة ، وقد انقلب الى وجه حزين كسيف جازع ملىء بالكره والاحتقار ، لقد فعل الباشا ما فعل ، وكان يتمنى أن يتأبى سليمان أو يظهر بعض التمنع ، أو يعرض أن يكتب كمبيالة بالمبلغ جميعه ، أو يظهر بأى مظهر فيه بعض كبرياء ، أو بعض رجولة . أو بعض خلق . أما أن ينكب على يده كما فعل عبد البديع فواضيعتا لك يا سهير !!

أحس الباشا الألم الذى أمرضه يعوده ، ولكنه جاهد نفسه ، ولم يبن عنه ، وقام تاركا القصر جميعه ، ومن ورائه ابن أخيه ، وحين حاول أن يركب معه سيارته قال له :

ــ لا أظن طريقنا واحدا •

ثم أمر سائقه فسار ، وأخذ سليمان وجهته الى داره ليبشر أمه بما سكبه عليه عمه دون أن يشعر بما يكنه له عمه هذا ، ودون حتى أن يشعر بما فى رد عمه له عن ركوب السيارة من كراهية واحتقار •

وكان الفرح الثالث هو زواج وصفى ، وقد كان هذا الزواج محوطا بشىء كثير من الفرح ، فأهل هند فى فرح غامر يعدون للزواج والسعادة تغمر نفوسهم ، وكانت هند ذاتها سعيدة غاية السعادة •• سعيدة لأنها ستتزوج : وقد شبت وهى تسمع أن الزواج معناه فرح ، فهى لا تعطى فقيرا الا دعا لها بالزواج والفرح ، وهى لا تجلس

الى أمها الا رأتها تتمنى لها زواجا من رجل عظيم لتقيم لهـا فرحا تتحدث عنه الى أولادها وأولاد أولادها ، وهى لا تجلس الى زائرات الا دعون لها بالزواج والفرح ، وها هى ذى تتزوج ، ومن رجل عظيم مشهور طالما سمعت عنه من أبيها ومن أعمامها وأخوالها وهو ابن باشا وغنى ويقولون انه جميل كالأمير الذى تروى عنه الأقاصيص ، والذى تشهده فى التمثيل حين تصحبها أمها الى التمثيل فى يوم السيدات .

ها هى ذى تتزوج اذن ، وها هو ذا الفرح يعد له اعدادا ضخما رائعا .. فهى اذن فرحانة .. يبارك أبوها فرحتها وتنتشى بها أمها .

وكانت السيدة اجلال سعيدة أيضا بزواج ابنها ، فهى زيجة طالما تمنتها وسعت اليها .

الوحيد الذى انشغل عن أن يفرح هو وصفى ، وقد أراد لنفسه أن ينشغل .. لا يريد أن يفكر فى هذا الزواج ولا يريد أن يعرف حقيقة شعوره نحوه .. انه زواج فقط ، بلا مشاعر حوله من ضيق أو فرح أو أمل أو ألم ، انه زواج يتم فى حياته كجزء من طريق حياته لا بد له أن يقطعه فهو لا يستقبله بشعور معين ، وانما هو يشغل نفسه بالسياسة ، ويندفع فى غمارها يريد منها أن يحقق أمله فى الجهاد ، ويريد أيضا أن تشغله عن تفكير آخر ، وعن زواج آخر . لم يعد يريد أن يذكره أو يذكر صاحبته .. سهير .

٩

أقيم فرح سهير الحزينة ، فكان على أروع ما أريد له أن يكون . وطرب الزوار وانتشوا بالغناء ، فكانوا هم ومعهم سليمان وسميحة رمز الفرح فى القصر .

كان سليمان فرحا يغشى فرحه بعض اضطراب . فهو ان يكن قد ربط جأشه وسكن مضطربه بعد كتابة عقد الزواج ، الا أنه عاد لنفسه يسألها : ماذا هو قائل فى ليلته تلك ؟

ماذا هو قائل لسهير فى لقائهما الأول . انه لا يفكر فيما هو فاعل ، لأن أمه منعته أن يفعل شيئا فى ليلته الأولى ، فشأن العروس فى الليلة الأولى أن تكون مضطربة ، ويجب على العريس أن يطمئن روعها ليلة أو أكثر من ليلة ، حتى يزول عنها الروع ويهدأ المضطرب .

فماذا هو قائل اذن .. لو أنه كان مثل وصفى لفتح للحديث أبوابا ، أما وهو لا يستطيع حديثا فماذا يفعل .. آه لقد تذكر .. ألم يكن يحكى على صـــديقاته فى أوربا ما يجعلهن يضحكن حتى تسيل الدموع من عيونهن ، أو لم يكن أترابه وأصدقاؤه هنــاك يضحكون منه هم أيضا .. نعم انه لم يجد بمصر منذ عاد من يضحك

من حديثه الا أن هذا لن يقف به عن المحاولة ، فان عروسه مثقفة ولا بد أنها ستضحك كما كان أصحابه يضحكون •• لقد هداه الله الى الحل •• وانه لمتبعه فبالغ ما أراد لنفسه أن يبلغ فى ليلته •

وراح سليمان يعيد على ذهنه ما كان يحكيه بأوربا لأصدقائه ، منصرفا عن الفرح الى تلك الأيام المزدهرة فى حياته والمدعوون فى شغل عنه الى الغناء والى أصدقائهم ، لا يحفل واحد منهم شأن سليمان ، فلم يكن ذا شأن بينهم أو بين غيرهم ، فهو من أولئك الذين اذا حضروا أو غابوا لم تحس حضورهم أو غيابهم • وقد كان فى هذه اللحظة حاضرا غائبا ، يفكر ويبتسم ويفرح •• لقد هدى الى الحل ، ووفق الى السبيل !

وكانت سهير فى الطابق الأعلى ، يعينها على ستر ما بنفسها من ألم وحسرة الخجل الذى تتشح به العروس فى ليلة زفافها ، فهى صامتة عن ألم ، وتظن المدعوات أنها صامتة من خجل ، والله يعلم ، والباشا وأمها ، على أى لاعج من أسى ينطبق صمتها •

وانتهى الفرح • وخلا العروس الى عروسه • ولم يجد سليمان من كل ما كان يعده فى رأسه الا :

ـ مساء الخير •

ونظرت اليه سهير •• انه فى القرب أبشع منه فى البعد ، وجاهدت نفسها أن تجيب ، فلم تستطع فأشاحت متخذة من خجل العروس وقاء لها من الاجابة •

وتمطى سليمان وألقى نفسه الى كرسى وهو يقول :

ـ متعب الفرح •

وسخرت سهير فى نفسها من كلمة الفرح ، وظلت فى صمتها •

ـ أليس عجيبا أن تكونى ابنة عمى ولا أراك الا الليلة ؟ عادات سخيفة !! . عندنا فى أوربا كان النساء يقابلن الرجال حتى الأغراب.. تصورى ..

عندنا فى أوربا ..لا .. لا أطيق .. أيجمع الى قبح المنظر ، وصفاقة الوجه ، ثقل الدم أيضا .. لا .. لا يا رب .. لم أقدر لنفسى كل هذا العقاب .. النجاة يا رب النجاة .. عندنا فى أوربا .. ويقول تصورى .. أنا متصورة .. أنا عارفة فلا حاجة بى الى التصور .. الشىء الوحيد الذى لا أتصوره هو أنت يا زوجى : يا شريك حياتى يا مستقبلى كله ، يا بقية عمرى .. وأخشى والله أن تكون بقية العمر طويلة .

ـ كان النساء يجلسن معى ، وهن لا يعرفننى .. وكنا نتكلم ونتبادل الأحاديث ..

ثم يضحك سليمان فى غرور شائه ثقيل .

ـ كن يعجبن بى اعجابا كبيرا .

بك أنت .. لا .. انى أعلم .. لقد كن يضحكن منك لا لك .. كنت سخرية الأصدقاء والصديقات .. ويلى أنا ، لقد كنت تقيم مع الواحدة منهن ساعة أو يوما أو شهرا ، ثم تنصرف عنك ، ولا يمكن أن تنصرف أنت عنها لأنك صفيق ، أما أنا فالعمر .. العمر كله .

ـ تعرفت هناك ببنات كثيرات .. جميلات .. ولكنهن طبعا لسن فى مثل جمالك .

وتغازل أيضا .. يا لها من مصيبة ! .. انه يستعرض أمامى مهارته مع النساء ، ويغازلنى فى وقت واحد . كان من المفروض أن أفرح ان كان له سوابق مع أخريات .. نعم والله كنت خليته أن أتعزى لو أن هذا الذى يرويه حق .. كنت خليقة أن أعزى نفسى بأن أخريات نكبن به قبلى ، ولكن من أدرانى أنه الحق !!

ـ أنت غيرى •• أليس كذلك •• لا •• لا •• لا تغارى ، فقد انتهى ما كان بينى وبينهن ، ولقد شئت أن أقص عليك هذا الحديث ، حتى أكون صريحا معك منذ أول ليلة •• هيه لا تغارى •

أغار ! •• عليك أنت •• ألم ينظر فى مرآة هذا الثور أنا أغار عليه ؟!

وقام سليمان عن كرسيه واقترب منها فى كرسيها الذى جلست اليه ، وقد ألقت برأسها الى كفيها تدير اجاباتها على زوجها فى ذهنها ولا تنطق منها بشىء •• اقترب سليمان من زوجته ووضع يده على كتفها •• لم تكن رأته وهو يقوم عن كرسيه مقتربا منها •• لم تر شيئا من هذا ولم تحسه ، لم تحس الا بيده تهبط على كتفها ، فلم تشعر بنفسها الا وهى فى آخر الغرفة ، تصطك أسنانها من المقت والخوف ، محدقة فيه مذعورة ، لا تنطق بلسانها شيئا ، وان كانت عيناها قد نطقتا بكل شىء •

ولم يكن سليمان يفهم من لغة العيون شيئا ، وانما قال فى نفسه « ان أمى خبيرة •• انها تدرك الذعر الذى تلتقى به العروس فى ليلة زفافها الأولى » •

* * *

وفى الصباح بكرت سهير تخرج من غرفتها ، وتركت زوجها نائما هادىء البال مطمئنا ، لم تجد أحدا صاحيا ، فاتخذت لنفسها مكانا فى البهو ، وراحت تفكر فيما أصابت به نفسها ، وحاولت جهدها أن تنفى عن نفسها هذه الأفكار ، ولكن الأفكار كانت أقوى منها ، فهى تمور بعقلها فى ثورة عارمة ، فليس لها منها نجاه •

قامت سهير تتمشى فى أرجاء البيت ، وقصدت الى الشباك المطل على باب البيت والشارع ، وكانت الحياة قد بدأت تدب هونا فى

الطريق ، فبائع الفول يدفع عربته لم تتحلق حوله الخادمات والخدم بعد ، وبائع اللبن يسير حاملا بيده اناء اللبن ، وفوق رأسه ذلك اللوح الكبير الذى استقرت عليه أطباق القشدة وأوعية لبن الزبادى الفارغة ، والموظفون يسيرون فرادى ، والتلاميذ يسيرون جماعات ، وعم ادريس يصلى ، وقد وضع بجانبه موقدا من الفخار اشتعلت فيه النار واستقر عليه اناء الشاى والعيش ورأت سهير النار تشتعل وتكاد تلتهم العيش، فما يملك عم ادريس الا أن يخرج من الصلاة بغير انتهاء، بل انه حتى لا يستأذن ربه فى الخروج من ساحته بأن يلقى السلام على الملائكة الذين يحفون به وهو قائم .. لا يفعل شيئا من هذا ، بل هو يترك الصلاة فى جزع عاجل وينكفىء على النار ، يختطف منها العيش أن تلتهمه قبله . وتلوح ظل ابتسامة على شفتى سهير كانت جديرة بأن تكون ضحكة عريضة ، لولا ما بالقلب من ألم . وتظل سهير رانية الى عم ادريس والى الشارع ، وقد ماجت فيه الحياة وتسارعت فيه الخطوات ، وجرت به العربات تجرها الجياد ، مطهمة حينا أو كسيرة وانية الخطو حينا آخر ، وقد ترى من حين الى حين سيارة تخترق الطريق فى زهو ، مدلة بسرعتها وأناقتها ، فتتلقاها الخيل وسائقوها بكبر ، كبر صاحب الأصل الدارس صار الى الفقر ، ولا يزال متشبثا بأصله العريض ، وان يكن قد تهدى الى فقر وارهاص بزوال .

واستطاعت الحياة أن تلهى سهير عما يمور بنفسها بعض الحين ، فلم تنتبه من وقفتها الا على عربة مطهمة الجياد تقف أمام بيتهم وينزل منها ابن خالها سامى عبد الحميد ، أمل أختها سميحة وفتاها . وحين تركت النافذة خشية أن يراها سامى ، سمعت جرسا يدق ، فأدركت أن أباها قد صحا ، فذهبت الى غرفته ، وقالت وهى تفتح الشباك ، وقد حملت جرائد الصباح فى يدها :

— صباح الخير يا أبى .

وقال الأب فى بعض دهشة :

ـ صباح الخير يا بنتى .. صباح الخير يا عروسة ..

وكانت سهير قد أصبحت بجانب سرير أبيها ، تضم الكلة المسدلة عليه ، وهى تقول :

ـ أرجو أن تكون قد نمت نوما هانئا ؟!

ـ أرجو أن تكونى أنت قد نمت نوما هانئا ، لقد صحوت مبكرة يا سهير .. خير يا سهير .

ـ خير يا أبى .

ـ قولى يا سهير .. هل أنت مرتاحة ؟

ولم تستطع سهير أن تحتمل حزنها أكثر مما احتملت .. لم تستطع أن تكتم الدموع الظافرة من عينيها ، فأدارت وجهها عن أبيها، وانهملت دمعات صامتة ، وألح الأب فى السؤال ، والدموع لا تزال تتزاحم فى عينى سهير ، حتى اذا عجزت عن وقف دفاعها جلست على سرير أبيها ، وألقت برأسها على حافته ، وقد تشبثت يداها بهذه الحافة وبكت .. فى همهمة خافتة أول الأمر ، ثم ما لبثت أن انفجرت عن بكاء صاخب ، تكاد تذرف فيه قلبها ، وأمسك أبوها بها ، واحتواها فى صدره ، فازداد بكاؤها عنفا ، والأب الراسخ الصلب لا يجد ما يفعله سوى أن يربت كتفها ، وقد ثارت فى نفسه عاطفة الأبوة جياشة ، رقراقة عنيفة ، حتى لم يستطع ، وهو الرجل عرك الحياة وعركته ، الى أن صار من الحوادث كالجبل الأشم ، تدور به الرياح فلا تنال منه .. لم يستطع أحمد باشا الا أن يسكب دمعات ، سارعت يده الى تجفيفها قبل أن تراها ابنته .

وأحست سهير فى حضن أبيها بعض راحة ، وأحست أن بكاءها لن يفيدها شيئا الا أن تعذب أباها ، فتمالكت وانتفضت عن سرير أبيها

الى خارج الغرفة ، لم تغب عنها كثيرا ، بل هى تعود الى الأب الحزين، وعلى شفتيها شبح ابتسامة باهتة ، وتجد آباها يختم صلاته ، فتجلس رانية اليه فى حب ، حتى اذا قام عن السجادة قالت :

ـ ان أكن قد آلمتك يا أبى هذا الصباح ، فانى أحمل لك خبرا تفرح له .

ـ والله يا بنتى لا أعلم أن شيئا يفرحنى وأنت حزينة .

ـ لا عليك منى يا أبى ، ان سامى قد جاء الآن ويرجو لقاءك .

ـ وأى شىء يفرح فى هذا ؟

ـ ألا تدرى يا أبى ، انه يريد أن يخطب أختى سميحة ، فبحياتى عليك يا أبى الا قبلته .

ـ سامى ابن حلال ، ولكن هل سميحة تريده ؟

ـ نعم يا أبى ، انى سألتها .

ـ هل أعتمد على قولك هذا وأقبله ، وأحمل عن نفسى مئونة سؤالها وخجلها ؟

ـ نعم يا أبى .

ـ اذن فأرسلى اليه من يصعد به الى هنا ، واخلوا له الطريق .

وما هى الا دقائق ، حتى صعد سامى الى زوج عمته التى كانت قد صحت هى أيضا ، وانضمت الى زوجها فى حجرته . وما هى الا دقائق أخرى ، حتى خرجت نفيدة هانم من الحجرة ، وأعلنت الى ابنتها سميحة أن أباها قد قبل خطبة سامى لها ، وانطلقت الزغاريد فى القصر ، صاخبة فرحة هذه المرة ، لا يعوق انطلاقها شىء .

وصحا سليمان من نومه على هذه الزغاريد ، فظن أنها موجهة له ، وحدث نفسه أنه لا يستحقها بعد ، ولكنه لم يستطع أن يصرح .

ووضع على نفسه معطف المنزل ، وقصد الى حجرة عمه • وهنـاك عرف ما أطلق هذه الزغاريد من عقالها • فهنأ سامي وأصابت نفسه غصة ، فقد كان يعلم أن سامي أغنى منه • ولكنه تذكر ما نال من عمه في أمسه ، فثارت في نفسه فكرة جاهد أن يكتمها • انه يريد أن يدعو زوجته الى رحلة خارج القاهرة ، يتمتعان فيها بشهر العسل ، حتى يظهر لعمه أنه سينفذ أمره له باظهار كرمه أمام زوجته ، وحتى يستطيع أن يتيح لزوجته أن تأنس به من تلك الوحشة التي عرفها منها في ليلة البارحة • وكان يجاهد نفسه ألا ينفذ هذا العزم ، حرصا على الأموال ، واحتفاظا بها ، ليشتري قطعة أرض يضيفها الى تلك الأفدنة القليلة التي تركها له أبوه •

وبينما كانت هذه الأفكار تتصارع في نفس سليمان ، كان القصر يموج في فرحة غامرة • فسهير مع سميحة تحضنها ، وتبكي بكاء اختلط فيه الفرح بالحزن •• فرح بأختها وحزن على نفسها ، وتجيبها سميحة بالبكاء ، لا يبعثه الا الفرح الخالص ، تشوبه الأحلام الوردية عن الهناءة التي ترنو اليها في ظل هذا الزواج السعيد •

وكانت الأم فرحة هي أيضا ، فرحة بريئة ساذجة ، ولكنها لم تسعد بهذا الفرح كثيرا ، فهي تنظر الى وجه زوجها فتجد فيه ألمـا يجاهد في اخفائه ••

ــ خير يا باشا •• أنت متعب ؟

ــ والله يا تفيده نعم •

ــ ومالك لا تقول ؟

ــ اتركي البنات يفرحن •

ــ البنات لا يفرحن الا بك يا باشا •• صحتك أهم من كل شيء •

وانكتم الفرح في الصدور ، وانكتم معه حزن سهير ، وحيرة

سليمان الذى وجد فى مرض الباشا قرارا حاسما ، اذ لا يمكن أن يدعو زوجته الى رحلة وأبوها مريض •

وسرعان ما جاء الأطباء ، وهرول سامى ليشترى الدواء ، وتكاسل سليمان متظاهرا أنه يريد أن يظل الى جانب عمه ، مرتئيا فى هذا العذر اعفاء له من دفع ثمن الدواء • وجاء الدواء ، ولكن متى نفع الدواء ، وقضاء الله مقضى ، سبحانه يهب الحياة ويختارها الى جواره •• هو وحده صاحب الأمر فيها مبتدئة ومنتهية •

١٠

لم يستطع شيء أن يعوق سليمان عن حقوق الزواج ، وان يكن الحزن قد أجل نيل حقوقه بضعة أشهر ، ولكن أين المهرب لسهير والحياة طويلة ، ما الشهور فيها الا قطعة صغيرة من الزمن ، يبتلعها الزمن ، ويبقى الزمن ، وتبقى الحياة ، ويبقى زوجها ، وتبقى حقوقه •• وقد نالها ، ولكن سهير كانت تحس دائما أنها كأنما ترتكب اثما حرمه الله ، كان يداخلها شعور بالخزى والعار ، ولولا أن عقلها ما يلبث أن يذكرها بأنها أوامر الله لما زايل هذا الشعور نفسها •

لم يكن الجنين يعلم أن أمه لا تحب أباه ، ولم يكن يعلم أنه يتكون على رغم أمه ، ولم يكن يعلم أنها تتمنى أن تموت قبل أن يصبح هو طفلا ، ولو كان يعلم ما استطاع أن يفعل شيئا ، وماذا بيده أن يفعل •• انه يتكون ويكبر على رغم أنفه وعلى رغم أمه ، ويكتمل وينزل الى الحياة •

واستقبل القصر الطفل الأول لسهير •• وقد كان اسم الطفل معدا له قبل مجيئه « أحمد » وقد رحب سليمان بالطفل ورحب أن يسمى أحمد ، وتخلى عن بذل أى مال للحكيمة المولدة أو للخدم ، فقد تعود الخدم منه ألا يعطيهم شيئا وان يكن بعض الأمل قد داعب

نفوسهم أن تسخو نفسه الجامدة ، يوم مولد طفله الأول ، الا أن هذا الأمل كان ضعيفا واهنا ، لم يحسوا فى انهدامه برزء الأمل المنهدم •

وكانت سهير قد عرفت عن زوجها هذا البخل القاتل ، ولم تشأ أن تنبهه الى موقفه من الخدم ، فقد كانت تعلم أن لا أمل يرجى من تنبيه ، وضمت هذه السوءة الى ما اجتمع فيه من سوءات وسكتت • وقد كانت تعلم أنه مهما يعطيهم فانه لن يطيق أن يصبر نفسه عن ارتكاب الصغائر أمامهم • فقد استطاع سليمان فى مهارة حاذقة أن يرغم زوجته على احتقاره ، فأصبح كرهها له كرهين ، ومقتها له ألوانا من المقت ، عديدة لا يخفت لها أوار •

استقبلت سهير طفلها أحمد ومقت أبيه يمهد له عندها ، وحينما رأته فى يد الحكيمة يطلق صرخاته الأولى فى وجه الحياة لم تحس نحوه شيئا من عطف ، ولعلها لم تحس نحوه شيئا على الاطلاق ، لولا أنها تذكرت ما يتناقله الناس من حب الأمهات لأولادهن • فطوت نفسها على شعورها المبهم ، ونامت بعد أن عرفت أن وليدها طفل ذكر • وما كان يعنيها أن يكون ذكرا أو أنثى •• كل ما كان يعنيها ألا يجىء هذا الطفل ، أما وقد جاء فسيان عندها أن يكون ذكرا أو أنثى ، فهو ان يكن ذكرا فقد يرث عن أبيه شر أبيه ، وهو ان يكن أنثى ، فهى قد ترث عن أمها تعاسة أمها •

صحت سهير من نوم عميق ، فوجدت أمها بجانبها تشرف على طعامها • حتى اذا أصابت ما قدموه لها ، دفعت أمها اليها طفلها لترضعه• وحين وضعت ثديها فى فم الطفل راح سؤال يدور فى ذهنها •• وأنت ما ذنبك ؟ ما ذنبك أنت يا ولدى العزيز •• ! العزيز •• أعزيز أنت •• أى شىء فيك عزيز ؟! أنت بلورة شقائى •• أنت تجسيد الأشـــباح القاتمة فى ظلال حياتى ! أنت تعاستى حية وترضع منى وأغذيها ••

لا عليك يا ولدى ، فانى كما أتيت بك الى الحياة أتيت بشقائى الى الحياة •• انها أنا يا ابنى التى خلقت شقاءها بيدها ، وهأنتذا شقائى جاء من أحشائى مجسما بعد أن كان فكرا •• انسانا بعد أن كان خيالا •• حياة بعد أن كان رؤى •• حياة وان تكن شقية حزينة آسية، الا أنها حياة ، وأنا صاحبتها ، وأنا من أغذيها . سأغذيك يا ابنى كما غذيت شقائى دائما ، وكما خلقت شقائى هذا •• لقد ولدتك أحشائى ، كما ولد عقلى شقائى •• أتت بك أحشائى على رغم أنفها ، وولد عقلى شقائى مختارا لينتقم •• لقد خلت انى أنتقم ممن هجرنى ، فاذا أنا أنتقم من نفسى ، فويلى من ظالمة ومظلومة ، وقاتلة وقتيل •• أنا هى جميعها ، أنا الظالمة والمظلومة والقاتلة والقتيل •• ولكن أنت •• أنت يا ولدى •• ما ذنبك ؟ فاطعم •• اطعم يا ابنى هنيئا لك ما ينساب الى جوفك الطاهر البرىء الندى •• وأرجو الله اللطيف بعباده ألا ينساب فى دمى الذى يغذيك هذا الشقاء الذى خالط دمى على الأيام •• اطعم هنيئا ، فأنت يا ولدى لا ذنب لك •

واقتحم سليمان الغرفة على زوجته ، فألقت فضلة ثوبها على صدرها ، ومال سليمان على جبين زوجته ، فطبع عليه قبلة ليس فيها الا ضم شفتين وانفراجهما عن صوت مرتفع مزعج وقال لها « كيف أنت يا سهير » ولم تزد سهير على أن تقول « الحمد لله » وحين حاول أن يجذب للحديث أطرافا لم تمكنه سهير مما يريد ، فقد كانت فى غمرة من هذه المشاعر التى زحمت نفسها ، ولم يدرك سليمان شيئا مما يخالجها ، فما كان يدرك شيئا فى نفسها ، واطمأن باله الى أنها متعبة لا تطيق الحديث ، وخرج فرحا من الغرفة ، تشيعه نظرات سهير الحسيرة ، وقد ازداد جسمه امتلاء ، فأصبح سمينا ضخما ، لا يذكرك ان رأيته الا بالعجل قواما وتفكيرا •

❊ ❊ ❊

وبعد أيام قليلة من ميلاد أحمد عبرت باب القصر فى خطوات

وانية محبوبة زوجة عبد البديع ، تحمل على كتفها ابنها السيد وتمسك في يدها سـلة كبيرة ، يغطيها البرسـيم ، ويسير من خلفها زوجها عبد البديع ، يحمل هو الآخر سلة كبيرة مغطاة بالقماش خيطت أطرافه الى حوافي السلة • ان الأسرة قد جاءت الى قصر الباشا تقدم تهنئتها الى السيدة سهير وتحمل معها الهدايا التي ينتجها الريف الكريم ، وقد كان هذا المجيء يحمل في طياته شكرا عميقا من هذه الأسرة الى السيدة سهير فهي التي مدت حمايتها على عبد البديع فأبقت عليه في وظيفته حين حاول سليمان أن يطيح به مدعيا أنه لص ، عاجزا في الوقت ذاته عن أن يثبت عليه شيئا من انحراف الضمير •

وقد أحست محبوبه بالرهبة وهي تسـتقبل القصر ، ولكن يد زوجها من ورائها ألقت الى نفسها الطمأنينة ، فخطت باسم الله وبستره الى الرحبة الواسعة ، وسعت بين مغاني الحديقة الى القصر الكبير •

ولكن سيد أبى أن يجعل السير يطمئن بهم ، فهو ينشـق عن صراخ عال وعويل مزعج ، جاهدت أمه في كتمانه ، ولكن بلا جدوى فقد أبى حتى ثدى أمه الذى أخرجته لتسكته به •

وبلغ العويل مسامع السيدات ، فسألن وجاءهن النبأ عن زيارة عبد البديع ، فمست هذه الزيارة نفس سهير بنسمة طيبة أحست في عبيرها وفاء وحبا ، وان يكن صراخ الطفل قد أزعجها •

وقبل أن يختفي عبد البديع وأسرته الصاخبة في الباب الداخلي سمع ضجة سيارة تقف عند باب القصر ، فالتفت وعرف فيها سيارة سميحة هانم ، فقال لزوجته :

ـ أسكتي السيد ، واذهبي لتسلمي على الست سميحة وتهنئيها بوليد أختها •

ثم انفتل عبد البديع الى داخل المنزل ، ولم يطع السيد أوامر

أبيه ، ولم يجد فى اسكاته جهد أمه ، ولكن هذا لم يمنعها أن تتقدم من سميحة هانم التى كانت تسير وئيدة الخطى يمنعها عن الاسراع أنها تحمل هى الأخرى وليدا غائبا فى ظلمات أحشائها • وقالت محبوبة :

ــ الحمد لله على سلامة الست سهير يا ستى سميحة هانم •

ــ الله يسلمك يا محبوبة •• أهذا ابنك ؟

ــ نعم يا ستى • العقبى لك •• نفرح بالمحروس ، وتقومين بالسلامة مجبورة الخاطر ان شاء الله •

ــ لا ، فى هذه المرة أريد بنتا يا محبوبة •

ــ بنت يا ستى ! لا قدر الله •

ــ ولماذا يا محبوبة ؟ •• أنا عندى حسام •• ألا يكفى ولد واحد ؟

ــ لا يكفى أبدا يا ستى •• ولد يا ستى ان شاء الله ولد •

ــ يا شيخة اسكتى ، فانى أخشى أن يسمع الله دعاءك •• بنت يا رب •• بنت •

ــ لا حول ولا قوة الا بالله •• أمرك يا ستى ، بنت يا رب •• نولها ما تريد يا رب ، واجبر خاطرها •

ــ ألم ترى سهير بعد ؟

ــ لا والله يا ستى ، كنت داخله ورأيتك فجئت أسلم عليك •

ــ تعالى نصعد معا •

وصعد ثلاثتهم ، وسيد لا يكف عن صراخه الا بمقدار ما يلقف فى حلقومه بضـــع شهقات من الهواء ، ما يلبث أن يخرجهـــا عالية الضجيج ، تنقض على الهدوء الذى كان يسود القصر فتمزقه تمزيقا •

١١

كانت الكلمات لا تكاد تستقيم على شفتى أحمد ، حين دخل الى حجرة يجلس فيها أبوه الى أمه وقال :

ــ بابا •• هات لى شيكولاتة •

ــ ولماذا •• أليس عندك شيكولاتة ؟

ــ عندى ، ولكن هات لى أنت •

ــ ولماذا أنا ؟

ــ لأن نينة تحب أختى هناء ، وأنا لا أحب نينة •

ــ ومن أدراك أنها تحب هناء ؟

ــ كل يوم •• كل ساعة أراها تحتضنها وتجعلها تبوســها فى صدرها •• بوسة طويلة •• طويلة •• وتقول انها ترضعها ، وأنا لا أبوسها الا بوسة قصيرة فقط ، وبعد ذلك تتركنى لتجعل هناء تبوسها ••

وكانت الأم غارقة فى الضحك ، بينما أكمل الأب نقاشه مع ولده :

ــ طيب وما شأن هذا بالشيكولاتة ؟

ــ الشيكولاته التى عندى من عند نينه .. هات لى أنت شيكولاته .

ــ ومن أدراك أنها من عند نينه ؟

ــ كل ما عندى من عند نينه .. هات لى أنت شيكولاته .

ــ طيب يا سى أحمد .. أمرك .

ويخرج الطفل مطمئنا الى وعد أبيه ، فقد كان طفلا ، ولم يكن قد عرف أباه بعد .

وكانت الأم لا تزال فى ضحكها من حديث ولدها حين قال سليمان :

ــ ألا يجب علينا أن نذهب اليوم الى وصفى لنهنئه ؟

وفجأة تجمد الضحك على شفتيها ، فقد كان اسم وصفى لا يزال ذارنين فى نفسها .. واستطرد سليمان :

ــ يجب أن نذهب لتهنئته .

ــ ولماذا ؟

ــ لأنه ابن عمنا .

ــ انه ابن عمنا منذ ميلادنا ، ولم نفكر فى زيارته أو تهنئته قبل اليوم . فما الذى جعلك تذكر هذا الآن ؟

ــ كنت مخطئا ، وأريد أن أصحح خطئى .

ــ سليمان .. قل الحقيقة .. انك تريد منه شيئا .

ــ لا والله .. ولكن ..

ــ ولكن ماذا .. انه رزق بجعفر ولم تهنئه ، بل انك حتى لم تشكره على الهديتين اللتين أحضرهما عند مولدى أحمد وهناء ،

واليوم تريد أن تهنئه لأنه أصبح سكرتيرا لمجلس النواب ، ولا أرى المنصب كبيرا عليه ، فهو عضو نواب من سنوات ، وشخصية ظاهرة فى الحزب ، وليس غريبا أن يكون فى هذا المنصب .

ــ ولكنه فاز بثقة اخوانه ، ويجب أن نهنئه بذلك .

ــ قل لى يا سليمان .. ألم تحصل على الدرجة بعد ؟

ــ وما شأن هذا بالموضوع ؟

ــ ان هذا هو الموضوع .

ــ وبعدين معك يا سهير .. أما تريدين أن تساعدينى فى شىء ؟

ــ والله أنا كرامتى لا تسمح لى بأن أزور ابن عمى متظاهرة بالتهنئة ، بينما أنا أريد منه شيئا آخر ؟

ــ يا ستى ما لكرامتك وهذا ؟!

ــ ان الكرامة هى هذا .

ثم تنهدت سهير ، وكأنما أفاقت الى أنها تحدث شخصا لا شأن له بموضوع الحديث ، فقالت :

ــ وعلى كل حال أنت تعرف أننى لا أقابله .

ــ نعم أعرف ، ولو أنى غير موافق على هذا الحجاب . على كل حال اصعدى أنت الى زوجته ، وأقابله أنا .

ــ يا أخى ، أتريدنى واسطة الى زوجته .. لا يا سيدى .. اذهب أنت وهنئه ، ولن أذهب أنا الى زوجته .

ــ ولماذا ؟ .. انك لا تزورينها أبدا .

ــ انها ست غريبة عن العائلة ، وزيارتى لها لا تكون الا ردا على زيارتها هى .

ــ لقد زارتك عندما ولدت هناء ، ولم تردى الزيارة .

ــ لم تأت المناسبة ، ولو زرت كل اللواتى زرننى فى الولادة لما انتهيت •

ــ ها هى ذى المناسبة •• اذهبى اليها وهنئيها ••

ــ سليمان •

ــ نعم •

ــ لن أذهب •

ــ أمرك •

وخرج سليمان غير غاضب وان كان آسفا ، فقد كان يأمل أن تتوطد الصلة بين عائلته وعائلة وصفى ، فهو يطمع أن يكون وصفى سندا له فى وظيفته ، فقد رأى وصفى واسع النفوذ ، مسموع الكلمة عند الوزراء وعند وزيره هو بالذات ، ذلك الوزير الذى لم يجرؤ هو يوما على طلب مقابلته ، ذلك الوزير صديق لوصفى ، والعجيب أن الوزير هو الذى يسعى الى توطيد هذه الصداقة وتثبيت دعائمها ، يريد من وصفى أن يكون عونا له فى الحزب وفى المجلس •• ومع ذلك تأبى سهير أن تذهب لوصفى •• أو لزوجة وصفى •• هو غير غاضب لأن الغضب لم يكن فى طبيعته فان الغضب صديق للكرامة والعياذ بالله ، وهو رجل ألف ألا يغضب كما ألف البعد عن الكرامة •• هو غير غاضب ، ولكنه آسف •• آسف كما تعود أن يأسف دائما حين تأمره سهير فيأتمر ، وهل كان له الا أن يأتمر ، انها الزاد والمأوى ، وانها المال والقصر والضياع ، حين هو لا شىء •• لا شىء الا أن يتلقى أوامرها فيطيع ، والا أن تريد هى فيسير ، غير غاضب ان أستقبل أمرا لا يريده ، لكنه يأسف •• يأسف وينفذ • وهل كان بيده الا التنفيذ •

ولكنه اليوم يريد أن يصل ما بينه وبين وصفى ، وان يكن قد أهمل فى شكره على هداياه ، وان يكن قد تأخر فى تهنئته بمولوده

الأول ، الا أنه اليوم سيمحو هذا التقصير الذى كانت له أسـبابه ودواعيه ، فهو ان كان قد ذهب للتهنئة بميلاد جعفر كان لا بد له أن يحمل معه هدية ، ان لم تكن مماثلة لهدية وصفى ، فهى على كل حال ستحمله مالا وهو لا يحب أن يبذل مالا • وهو أيضا كان لا يريد أن تتوثق العلائق بينه وبين وصفى ، بعد ما كان يشاع من أن وصفى سيخطب سهير • وهو أيضا لا يحب أن يجتمع ووصفى فى مجلس ، فوصفى رجل من رجالات الدولة ، فى حين لم يستطع هو أن يصبح رجلا من رجال البيت ، وهو لا يحب أن تجـرى المقـارنة بينهما ، وخصوصا اذا جرت هذه المقارنة فى ذهن سهير • ثم هو أيضا لا يحب وصفى هذا الذى يتسلق الى المجد فى كبر وخيلاء ، بينما لا يستطيع هو أن يتسلق درجة •• درجة واحدة فى سلك الوظيفة ، ولو أن الأمور جرت فى سبيلها السوى ، لكان هو الأجدر بالرفعة ، فوصفى لا يملك الا لسانا وقلما ، أما هو فمهندس درس فى جامعات أوربا ، وهو رجل عملى ، ما الكلام عنده الا شـقشقة عاجز ، وتهويم من لا يستطيع عملا •

ولو أن وصفى ارتفع بجهده وحده ، لقبل ارتفاعه هذا ، ولكنه ارتفع بغناه الذى خلفه له أبوه ، وبجاه أبيه أيضا الذى خلفه له فى الناحية ، فأصبح به عضوا بمجلس النواب ، أما هو فلم يترك له أبوه الا أوشالا من المال ، استطاع بها أن يذهب الى أوربا ، وأن يصبح مهندسا •

لهذا جميعه ، كان سـليمان حريصـا على ألا يوطد صـداقته بوصفى ، ولكنه اليوم حريص على هذه الصلة ، فهو اليوم فجأة ابن عم وصفى ، وصديقه الأوفى ، وليس لهذه الأسباب مكان •

فهو لا يحتاج الى اهدائه شيئا ، لأنه ليس من المألوف أن يتهادى القوم فى التهنئات بالمناصب ، وهذا فى ذاته أقوى سبب كان يقف به عن التهنئة فى ميلاد جعفر •

وهو اليوم لا يرى بأسا أن تتوثق العلائق بينه وبين وصفى ، فقد مر على الشائعات التى كانت تربطه بسهير زمن بعيد ، والزمن قادر على ابتلاع الشائعات ومحوها من أذهان الناس ، وهو اليوم أيضا لا يرى بأسا أن تجرى سهير المقارنة بينه وبين وصفى ، فقد أصبح لها منه ولد وبنت تحبهما الحب كله ، فما تملك الا أن تظل الى جانبهما ، وهو أيضا مطمئن الى أن زوجته لا تكن له الاحترام ، لأنها من ذلك النوع الساذج الذى يقدر الكرامة ولا يقدر الحياة ، ويهيم فى الخيال ، ولا يفكر فى الواقع ، حتى انها تأبى عليه الا أن يؤدى حق سميحة فى أرضها كاملا اليها ، وان امرأة تبلغ بها السذاجة الحد الذى تأبى عنده أن تأكل أموال أختها خليقة بألا يقيم لرأيها وزنا .
أما أن يتسلق وصفى الى أعناق المجد ، فالواقع الذى لم يكن يفكر فيه من قبل ان وصفى كان يجاهد الانجليز ويهاجمهم بمقالات مشتعلة، حتى لقد قبضوا عليه مرات وسجنوه ، وسليمان لا يرى بأسا أن يصيب هذا المتهور المجنون الذى يرمى بنفسه الى التهلكة مجدا ، ما دام لم يصب التهلكة . ثم ان هذا المجد الذى بلغه وصفى مجد للعائلة كلها ، وما دام هو — سليمان شكرى — أحد أفراد هذه العائلة، فمن حقه أن يحظى بنصيبه فيما أصابه ابن عمه .. ومن ثم فهو يستحق الدرجة .

هكذا كان يفكر سليمان حين وجد نفسه واقفا الى باب ابن عمه وصفى ، وقبل أن ينزل من السيارة سأل البواب عن وصفى ، فحين علم أنه بالمنزل ترجل وهو يطلب الى البواب أن يبلغ سيده بمجيئه .

كان وصفى اذ ذاك جالسا الى زوجته وابنه جعفر ، وقد راح يداعبه فى حنان ، والطفل يبتسم لأبيه ، ويحرك لسانه بكلمات لم تكتمل ، فيستقبلها الأب بفرح ونشوة ، ولكن هندا لم تشارك زوجها فيما هو فيه من غبطة ، فهو يسألها :

ـ مالك يا هند ؟

ـ والله يا وصفى مشغولة بأمى •

ـ مالها ، لا قدر الله ؟

ـ منذ مات أبى وصحتها تزداد سوءا فى كل يوم •

ـ يا ستى ، طالما رجوناها أن تترك العزبة وتأتى هنا ليراها الأطباء •

ـ وماذا نعمل ، انها ترفض أن تترك العزبة وترى فى بقائها هناك ما يسليها ، ولكنها لا تسلو •

ـ وهل سمعت شيئا جديدا ؟

ـ كلمتها اليوم فى التليفون ، فلم يعجبنى صوتها •

ـ يا ستى لعلك واهمة •• وعلى كل حال اطلبيها ثانية الليلة أو غدا •• واذا شئت سافرى اليها •

ـ وكيف أسافر ؟

ـ ولم لا ؟

ـ وجعفر ؟

ـ خذيه معك اذا اقتضى الأمر ••

ـ الولد صحته لا تحتمل السفر •• على كل حال سأكلمها ثانية •

ـ لا تشغلى نفسك بلا سبب •• لعلها كانت نائمة وأيقظتها بالتليفون ••

ودخلت الخادم تنبىء وصفى أن سليمان فى انتظاره ، فتعجب بعض الشىء ، ثم قال للخادم :

ـ سأنزل اليه •

وانصرفت الخـادم ، وعاد وصفي الى مداعبة ولده ، وطمأنة زوجه ، ثم قام الى سليمان .

وبينما هو في طريقه الى الدور الأسفل ، لقيته أم وديدة على السلم ، فقال لها في لهفة :

ـ هيه .

فهزت أم وديدة رأسها نفيا ، فلم يزد ، ونزل الى سليمان .

لقي سليمان وصفي بترحاب كبير ، فأدرك وصفي أنه يريد منه أمرا ، ولكن أخفى ادراكه هذا ، وراح يجيب الترحاب بترحاب .

ـ والله يا وصفي أنت لا تعرف كم فرحت بانتخابك سكرتيرا للمجلس .

ـ يا أخي المسألة لا تستحق فرحا .

ـ كيف .. ثقة زملائك بك ، وبلوغك الى هذا المنصب ، وأنت في سنك هذه لا تستحق فرحا .

ـ لا تكبر المسألة يا سي سليمان ، المهم عندنا أن تستطيع الحكومة عمل شيء مع الانجليز . أما أن أكون سكرتير المجلس أو لا أكون ، فوحياتك ما اهتممت بهذا ، ولقد اعتذرت وبالغت في الاعتذار ، ولكن اخواني ألحوا فقبلت .. على كل حال أشكرك على زيارتك .. كأنما كان لا بد لك أن تجد سببا لتزورني .. أين أنت يا أخي ، ولماذا تختفي هكذا عنا ؟

ـ والله الوظيفة يا وصفي تبتلع وقتي كله .

ـ وكيف رضاك عن الوظيفة ؟ .

ـ وهل رأيت صاحب حق ينال حقه في هذا البلد ؟

ـ لماذا كفى الله الشر ؟

ـ يا سيدى الوزارة تأبى ألا أن تساوينى بزملائى الذين عينوا معى

ـ وما البأس فى ذلك ؟

ـ ما البأس ؟! يا أخى أنا سافرت لأوربا ، ونلت شهادات من أعظم الجامعات هناك •

ـ آه •• من هذه الناحية أظن أنك محق •

ـ بالله يا وصفى ـ ان كنت لا ترى بأسا ـ كلم الوزير ، فهو صديقك ، وما أظن أنه سيخيب لك رجاء •

ـ أكلمه بكل سرور •

ـ أشكرك •• ومتى تتناول الغداء عندى ؟

ـ وما المناسبة ؟

ـ المناسبة ؟! وهل لا بد من مناسبة ؟

ـ لا •• أبدا •• فى أى وقت •• ؟

ـ بعد غد •

ـ وهو كذلك •• نقبل هذه الرشوة يا سى سليمان من أجل خاطرك •

ـ يا أخى العفو •• يا ليتك كنت ممن يرشون ، اذن لأرحت قوما كثيرين •

ـ نعم •• وتعبت أنا •

ـ أبدا وحياتك ، الرشوة تتعب فى المرة الأولى تعبا بسيطا ، ما تلبث الرشوة الثانية أن تمحوه ، أما الرشوة الثالثة ، فهى الراحة والهناء والمال والسعادة •

ـ الله •• الله يا سى سليمان ، تتكلم كأنك خبير !

ـ خبير بماذا ؟ •• وظيفتى ليس فيها ما أرتشى عليه •

ـ فاذا كانت ؟

ـ فيها نظر •

ـ احذر يا سليمان •• الرشوة كالقتيل ، تختفى يوما أو بعض يوم ، ثم ما تلبث الرائحة النتنة أن تفوح منها •

ـ يا عم صل على النبى •

ـ عليه الصلاة والسلام •• ولكن هذا هو الحق •

ـ المرتشون يملأون المناصب الكبيرة •

ـ ولكن لا يحترمهم أحد •

ـ بل يحترمهم الجميع وحياتك •

ـ لأنهم يرجون منهم خيرا ، فهم يظهرون لهم الاحترام ، ولكن لا يكنون لهم الا الاحتقار •

ـ وماذا يعرف الناس عن ضمائر الناس •• المهم ما ظهر ، وأما ما خفى فالله به عليم •

ـ الاحترام •• أعظم الاحترام •• أن يحترم الانسان نفسه ، ويعلم أن الناس يحترمونه فى دخيلة نفوسهم ، كما يحترمونه فى ظاهر أمرهم • ولا تصدق أن انسانا يكبر وسمعته ملوثة •• ولا تصدق أن انسانا يكبر بغير احترام •

ـ نعم •• نعم •• أعرف مثلك العليا •

ـ هذه ليست مثلا عليا • انها المستوى الطبيعى للأخلاق وما أقل منها سفالة •• المثل العليا سمو عن طبيعة الأخلاق •• ليست الأمانة مثلا أعلى ، وانما هى طبيعة • انتشار الفساد جعل هذه المعانى العادية

مثلا عليا .. لا تعتقد أنك حين تكون أمينا تستحق المديح ، فهذا هو المفروض .

ـ فما المثل العليا اذن ؟

ـ أن أرتفع بالمستوى العادى للأخلاق .. أن أعطى كل ما معى الفقير مثلا ، وأظل بلا مال ، أن أضحى بحياتى فى سبيل الصالح العام .

ـ هذا تهور .

ـ بل هذه هى المثل العليا .. لا عليك ان لم تبلغ اليها ، ولكن عليك ألا تسفل .

ـ يا أخى أنت لا تعرف شيئا عن الدنيا .

ـ لكل دنياه يا سى سليمان .. تلك هى الدنيا التى أعرفها .. النهاية ، لقد جعلتنى ألقى خطبة طويلة وأنت لا تحب الكلام ، أنت رجل مهندس تضع القالب على القالب فتبنى بيتا .

ـ أما تزال تذكر .. يا أخى .. يا أخى ارحم الناس من لسانك . النهاية . لا تنس الغداء عندى بعد غد .

ـ وهو كذلك .

واستأذن سليمان وانصرف ، وفى الطريق راح يفــكر فى هذا النجاح الذى أصابه من زيارته تلك ، فهو قد ضمن أن وصفى سيكلم الوزير بشأنه فى غد ، لأنه من غير المعقول أن يأتى للغداء عنده دون أن ينبئه بما تم عند الوزير ، وقد قصد سليمان أن يكون الغداء بعد غد ، حتى يترك له الغد ليلقى فيه الوزير ، وسليمان يعلم أن مثل هذا لا يخفى على ذكاء وصفى ، وسليمان مسرور بنجاحه هذا أيضا ، لأنه لن يخسر فى هذه الدعوة شيئا ، فزوجه هى التى ستقوم باعداد الغداء .. وسليمان مسرور أيضا ، لأن هذه الدعوة ستوطد الصداقة

بينه وبين وصفى ، وهى صداقة يرى أنه أصبح محتاجا لها دائما • نجاح باهر اذن الذى أصابه فى زيارته تلك • وهو مصمم على تمكين هذا الانتصار والمحافظة عليه • وبلغ سليمان القصر ، فوجد زوجه كما تركها ، لم يزد عليها الا ابنتها هناء ، وقد تركت لها صدرها تقبلها فيه هذه القبلة الطويلة التى تثير الغيرة فى نفس أحمد •

ـ يا ستى ، وصفى سيتناول الغداء عندنا بعد غد •

ونظرت اليه سهير نظرة طويلة لم يرها هو ، ولو كان رآها لما فهم منها شيئا •• وكيف له أن يفهم •• انه لا يفكر فى شىء الا أن يبلغ من نجاحه أقصاه ، والا أن يمكن هذا النجاح فيستقر به المقـام ، وترسخ أقدامه فى أعماق مستقبله • لا شىء الا هذا ، وهل الحياة الا هذا •• ينظر الى سهير ويقول :

ـ سهير ••

فتجيبه سهير بعض مفيقة :

ـ نعم •

ـ ما المانع أن تقابلى وصفى ؟

وأفاقت سهير الى زوجها افاقة تامة :

ـ ماذا ؟

ـ وما المانع ؟ انه ابن عمك •

وقالت سهير فى لهجة من لم يسمع ، وفى غير استنكار :

ـ ماذا ؟

ـ أقول انه ابن عماك •• وأنا رجل درست فى أوربا ، ولا أوافق مطلقا على هذه الرجعية •

ـ ولكن رأيك هذا لم تبده الا اليوم •

ـــ نعم لأنه سيتغدى معنا ، ولا أرى معنى أن يأتى ابن عمك الى هنــا ، وتقفلى أنت الباب فى حجرتك ، وأظل أنا وابن عمك وحدنا .

ـــ لا أرى فى ذلك بأسا ، الا اذا كنت ترى فى مقابلتى له فائدة .

ـــ الحقيقة نعم ، أرى فى ذلك فائدة .. فأنا لا أجيد الكلام .. ولن تمر دقيقتان حتى أجد نفسى عاجزا عن الحديث معه .

ـــ من هذه الناحية .. اطمئن فهو الذى سيتكلم ..

ثم استدركت قائلة :

ـــ فانهم يقولون انه كثير الكلام .

وأصابت نفسها غصة أن اضطرت الى مهاجمة وصفى لتعمى على زوجها فقالت :

ـــ ويقولون ان حديثه جميل .

ـــ نعم ولكن بماذا أجيب حديثه .. انه يتكلم فى أمور لا أفهمها ولعلك أنت أن تفهميها .. فانك منذ تزوجنا وأنت لا تكفين عن القراءة .. أنت تقرئين الجرائد ، وهو يكتب فيها ، وانت تقرئين كتب الأدب، وهو يهوى الأدب ، ولن يخرج حديثه عن سياسة وأدب .. وأما أنا فلا أحب السياسة ولا الأدب .

ـــ وماذا يقول الناس يا سليمان ؟

ـــ الناس .. وهل تنتهى أقوال الناس .. الناس عندك هم أنا . وما دمت أنا موافقا فلا شأن لك بالناس .

ـــ أخشى أن يقولوا انك جعلتنى أقابله ، لأنك تريد الدرجة .

ـ بل جعلتك تقـابلينه ، لأنه ابن عمك ، وأنا لا أوافق على الحجاب •

ـ ولكنك تعلم أنه هو رجعى ، ولن يسمح لزوجته بمقابلتك •

ـ لكل رأيه يا ستى ، هو من أنصار الحجاب ، وأنا من أنصار السفور •

ـ هذا رأيك ، ولكنك تنسى العائلة وكثرة كلامها ، وتنسى أن رأيك هذا لم يظهر الا مع ظهور رغبتك فى الدرجة •

ـ سهير •• الحقيقة أننى لا أريد لك هذا الحجاب اطلاقا •• ولن تقتصر مقابلتك على وصفى وحده ، بل اننى أحب أن تقابلى الجميع •• اننى رجل متعلم فى أوربا ، ولا أحب هذه الهمجية • لا يا ستى انك ستقابلين الجميع •• الجميع !

وارتفع صوت سليمان كأنه رجل ، وأحبت سهير أن يظهر سليمان حماسته فى هذا الأمر بالذات ، فقد كانت تريد أن تقابل وصفى ، بل انها كانت تتوق الى هذا اللقاء ، ولكنها تريد أن تدفع اليه دفعا عنيفا يهيىء لها أن تقول لنفسها انها لا قبل لها بالنكوص ، كانت تريد أن تعتذر لكبريائها عن هذا اللقاء ، وها هو ذا زوجها يدفعها ، وانه زوجها ، فماذا يمكن أن تقول له •• انها ستلقى وصفى وأمرها الى الله ••

وصمتت سـهير ، وأدرك زوجها أن صـمتها موافقة ، وارتاح خاطره ، وهدأ الى مستقبل زاهر تلوح له بشائره ، فهو يعلم أن وصفى اذا لقى سهير سيطيب له أن يكثر من الزيارة ، وهو يعلم أن زوجته شريفة ، ويعلم أن وصفى أمين الضمير ، فهو لا يخشى من اللقاء مغبة، ولو كان يخشى ما أصر على هذا اللقاء ، ولكنه يعلم أن سهير تحب الأدب والسياسة ، وتستطيع أن تكون طرفا فى الحديث يلقيه وصفى،

ويعلم أنه بهذا يحبب بيته الى وصفى ، وهو يأمل أن يحبب وصفى بيته ..

وقامت سهير الى حجرتها ذاهلة النظرة ، شاردة الفكر ، أحقا ستلقي وصفى .. وصفى .. هذا الخائن الذى ألقى بها الى أعماق هذه الحياة التى تحياها وتصلاها ، ويلتهب سعيرها فى كل أيامها ، وصفى .. ستلقاه .. انها ستنتقم .. ستنتقم .. ولكن ما الذى يكفى لانتقامها .. أتقتله .. وصرخت نفسها .. لا .. ثم سخرت منهـا نفسها .. وهل أستطيع .. اذن .. اذن ماذا ؟ .. ماذا ماذا ؟ .. كيف أنتقم .. أتجاهله .. وكيف أستطيع ؟ سيكون ثانى اثنين : أحدهما أبكم فكيف أستطيع أن أتجاهله ؟ وماذا سيقول زوجى ، انه ليس غبيا ، ألا يجوز أن يدرك من تجاهلى ما كان بينى وبين وصفى ؟ ربما ظن أننى أتجاهل وصفى ، لأننى غاضبة لزواجه من غيرى .. اذن .. اذن لا سبيل لى الا أن أترك نفسى على سجيتها .. سجيتها .. سجية نفسى .. أأخادع نفسى ، اننى لو تركتها على سجيتها لظهر ما تخفيه من .. من حب .. حب عميق ، زاده عمقا هذا الألم الذى أقاسيه فى ظلال رجل قاتم ، مظلم ، أصم الفؤاد .. على سجيتها .. ويلى من نفسى .. ويلى من حبى .. أبدا لن تكون نفسى على سجيتها فى هذا اللقاء .. أبدا لن تكون ، وكيف لها أن تكون ؟ وأنا مع اثنين ، أحدهما أضاع آمال شبابى وحياتى ، وأضاع الآخر شبابى وحياتى جميعا ، وكيف لها أن تكون ، وأنا أجلس الى اثنين ، أحدهما ألقى بى الى السعير ، والآخر هو السعير ذاته ، أألقى وصفى .. سألقاه ، فما هذا الليل الطويل الذى يفصلنى عن لقائه ، بل هناك

نهار آخر وليل آخر ثم ألقاه ، لماذا لا يستمر هذا الليل ليلا أنامه ، فلا أصحو الا على لقائه ، أو لماذا لا يظل النهار نهارا ألهو فيه عن شوقي بأطفالي حتى ألقاه .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. انها الحياة .. لذتها أن تسير هي طريقها المرسوم ، بسرعتها المرقومة ، بليل يخلف نهارا ، ونهار يخلف ليلا ، ونتمنى نحن وننتظر ، نتحرق شوقا وننال ونمنح ونمنع .. وتظل الحيـاة سائرة ، لا شـأن لها بما نريد أو ما نأمل .

١٢

تسير الأمور فى الطريق الذى أراده لها سليمان ، فقد جاء وصفى فى موعد الغداء ، وقصـد الى حجرة الجـلوس التى يعرف الطريق اليها تمام المعرفة ، وبعد هنيهة فتح الباب وفى انفراجته رأى وصفى .. من ؟! سهير ؟! .. سهير .. ومن ورائها سليمان .. ماذا فعلت بى يا سليمان .. حملق وصفى دهشا ، حتى كاد لدهشته ألا يستطيع قياما عن كرسيه !

وأقبلت سهير جامدة الوجه ، لا تبين نأماتها عن خلجة تشف عما يصطرع بنفسها من حب ، وغيظ ، وشـوق ، واقبال ، واحجام ، وتساؤل ، واسـتسلام ، وتقدم سـليمان فى بلاهة ومحاولة مقيتة للتظرف :

ـــ أقدم اليك ابنة عمك التى لم ترها طول حياتك .

وجمع وصفى على شفتيه « أهلا وسهلا » مترددة حائرة ، لا تكاد تبين ، وجلس ثلاثتهم ، وسليمان أثبتهم جأشا ، وأروحهم نفسـا ، لا يدرى ما يمور فى نفسيهما من تيارات ان اختلفت فى مجراها ، فهى مندفعة عن معين واحد ، نابعة من خلجات متشابهة ، وراح سليمان

يشرثر بحديث لم يع واحد منهما شيئا منه ، حتى اذا فرغ عقله من أى حديث ، ولم يجد شيئا يقوله ، صمت ، فانتبه كلاهما الى الصمت الذى ران عليهم ، وانتفض وصفى متمالكا أمر نفسه فى دربة ، وقال لسليمان :

ـ مبروك يا سليمان •• ذهبت الى الوزير وسيمنحك الدرجة ، ان لم يكن قد منحك اياها فعلا •

ـ يا سيدى متشكر •

ـ وهل بيننا شكر ؟

ـ سأكلم أحد أصدقائى فى المستخدمين لعلى أجد عنده خبرا •

وقام سليمان فى فرحة غامرة وخلت الحجرة بالمحبين ، وفى عينى سهير تساؤل ، وفى وجه وصفى حيرة ، ولم يجد وصفى شيئا يقوله الا :

ـ كيف أنت يا سهير ؟

وجاهدت سهير نفسها حتى تقول :

ـ الحمد لله يا وصفى •

ثم جذبت شهقة من أعماق نفسها لتقول ثانية :

ـ الحمد لله •• وأنت كيف حالك ؟

ـ الحمد لله •

ـ وكيف حال هند وجعفر ؟

ـ بخير •• وأولادك ؟

ـ الحمد لله •

وران الصمت عليهما •• لم تستطع سهير أن تسأل •• لماذا فعلت ما فعلت ، ولم يستطع هو أن يبين •• صمت كلاهما ، وصفى يعلم

ما يدور بنفسها ، وهى لا تعلم الا أنه يدرك ما يدور بنفسها ، ثم لا تعرف جوابا على هذا السؤال الذى ظل أعواما يلح عليها فلا تجد له جوابا شافيا •• أو لعلها تعرف الجواب ، ولكنها أيضا تعرف أن وصفى لن يستطيع أن يطالعها بهذا الجواب الذى تعرفه •• ماذا تراه قائلا •• أيقول لها انه لم يعجبه منها أن تلتقى به قبل الزواج •• ماذا تراه قائلا •• انها تريد أن تسأله •• تريد أن تبلو لباقته التى درب عليها فى ميادين الأدب والسياسة والمجتمع •• كيف سيفسر لها هذا الشقاء الذى ألقى بها اليه ••

وفجأة قال وصفى :

ـ سهير أريد أن ألقاك ••

وذهلت سهير لحظة ثم قالت فى تخابث وعدم مبالاة :

ـ هأنتذا تلقانى •

ـ وحدنا •• فى مكاننا •• هناك عند القارب •• اليوم •• الساعة السادسة من مساء اليوم •

وقبل أن تقول « لا » دخل سليمان فراح وصفى يتكلم ، وكأنه يكمل حديثا لم يقطعه دخول سليمان •

ـ بل ان الشاعر الذى يقول :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما   يظنان كل الظن ألا تلاقيا

أحب الى من الشعراء المتشائمين •• فالأدب عندى متعة •• والتفاؤل أجدر بالشعراء •

وقال سليمان :

ـ ماذا ؟! فتحتم باب الشعر •• لا مكان لى اذن •

وقال وصفى :

ــ هيه ؟ ماذا قالوا لك فى المستخدمين ؟

ــ يا سيدى ألف شكر •• لقد أمر الوزير بترقيتى •

ونظرت سهير الى سليمان ، ثم نظرت الى وصفى وكأنما تشهده على ما فعله بها ، ثم قامت من الحجرة •

وحين أقبلت سهير لتدعو الضيف وزوجها الى الغداء ، لم يلحظ سليمان بينما لحظ وصفى جفونها المخضلة ووجهها الشاحب لقد سكبت بعض دموع مكنتها من أن تتمالك نفسها وتجلس الى ضيفها الحبيب . فتجرى الحديث فى بساطة ورقة ، حببت الجلسة اليه ، تحادثا فى كل شىء •• فى السياسة وفى الدور الذى يلعبه فيها ، ووجدها على علم دقيق بكل خطواته فى هذه السنوات التى غابها عنها •• هيه يا حبى الأول الكبير •• ان زوجتى التى لا تفارقنى يوما لا تعرف عنى ماتعرفين •• رحمتك فى بلواك فمن يرحمنى فى بلواى •• انى أعيش فى بركة هادئة ، صافية هذه البركة ، ولكنها راكدة ليس فيها تيار ، ولا هى مشوبة بقذى ، وهذا الهدوء فيها وهذا الصفاء هو أتعس ما ألاقيه فى حياتى ، ركود يصدر عن الغباء ، وصفاء لا يبتعثه الا الجمود • وأشد ما أعانى فى حياتى أنى لا أجد شيئا أذمه فأشكو وأستريح •• ان زوجتى سدت على منافذ الشكوى بطاعة عمياء ، وأدب بالغ أقصى المدى ، فمم أشكو ؟ وماذا أقول •• رحمتك يا سهير فمن يرحمنى •• هى الحياة فى بيتى أقطعها رتيبة النغمة لا تتغير ، ان دخلت بيتى قطعت ما بينى وبين الحياة ، وأصبحت لا شىء الا زوج هند وأبا جعفر ، فلا هند تعرف عن شأنى فى الحياة شأنا ، ولا جعفر يفهم ما أبوه صانع ان هند فى البيت شأنها شأن جعفر ، كلاهما طفل •• مطيع كلاهما هادىء ، ولكن طفل •• أما أنت •• أنت فحياة •• أنت التى كنت جديرة أن تهبى للنصر معناه حين انتصر فى المعترك ، وأنت التى تشفين

جراح الفشل حين الفشل .. أنت معنى النصر ، وبلسم الجراح تخلفت عن الصراع ، وحياة الحياة التى أحياها ، والنغمة العذبة فى كل معنى يطالعنى ان يكن فرحا ، فأنت النغمة الفرحانة ، أو حزنا فأنت النغمة الآسية .. وأدركت سهير ما بنفســه .. قرأته فى عينيه .. عينيه الحلوتين ، هاتين اللتين تستطيع فيهما أن تقرأ ما وراءهما .. فيهما شفافية حبيبة وطالما افتقدت الشفافية فى عينى زوجها فلم تجدها .. طالما نظرت الى عين سـليمان وأنعمت النظر ، فما زادها الانعـام الا عجبا .. كيف يرى سليمان بهاتين العينين .. انهما مطفأتان .. لا نور فيهما ولا حياة .. بل ان وجهه جميعا جامد صـلب لولا أن صاحبه يسير جيئة وذهوبا ، لما عرفت ان كان ميتا أم حيا .. ويلى .. لماذا لا يحيا وجه سليمان كما يحيا وجه وصفى .. الحياة كلها هنا فى هذا الوجه .. انها طالما أنعمت النظر فى وجه وصفى وعجبت كيف لهذه الحياة جميعها أن تموج فى وجه واحد فقط ، حتى ليخيل اليها انه ليس هناك حياة الا فى هذا الوجه .. على ثناياه فرحها وغضبها واقبالها وادبارها .. المعانى كلها هنا فى هذا الوجه .. لماذا أيها الوجه .. لماذا فعلت بى هـذا .. ما الذى جنيت ؟ .. لم أجن ــ علم الله ــ الا حبك ، وانه لجناية أنا وحدى من صليت أخلافها وعواقبها .

وقاربت الساعة الخامسة ، وقام وصفى ، ولولا موعد تهفو له نفسه ما قام ..

انه ذاهب الى موعده لا يدرى ان كان سيلتقى هناك مع نفسه وحدها ، أم أنه سيلتقى أيضا مع هواه القديم الجديد .. ولكن بحسبه أن يلتقى مع نفسه هناك .. بحسبه ذاك ، فهو ذاهب .. أما هى ..

ركب وصفى سيارته ، وأمر سائقه أن يسير دون آن يبين له عن

هدفه ، حتى اذا اقترب من مكان يستطيع منه أن يستأجر قاربا ، نزل وأمر السائق أن ينصرف الى البيت ، وذهب الى النيل ، واستأجر قاربا وأمر صاحبه أن يسير به فى اتجاه القصر .. انه الحب يعود .. يعود بجميعه حتى بهذه الأفعال الطفلة التى لم يقدم عليها يوما وان يكن قد سمع بها سماعا .. لقد نسى فى غمرة من أمواج حبه من هو .. نسى أنه النائب الخطير الذى يهتز الوزراء من نقده ، ويرجف أعداؤه من هجومه ، ونسى أنه أحد هاته الرموز القليلة التى يتمثل فيها جهاد شعبه ضد الاحتلال ، نسى هذا جميعه ولم يعد يذكر من أمر نفسه الا هذا الخافق الذى عاد اليه الوجيب أعنف ما تكون العودة ، فهو فى طريقه الى هواه .. الى ماضيه ، بل انه فى طريقه الى الحاضر .. الحاضر الذى كثيرا ما تمنى لو أنه حققه لنفسه .. لقلبه .

حاذى القارب قارب عمه الراسى هناك ، ونزل الى المرسى وطلب الى صاحب القارب أن يعود اليه بعد حين .

جلس وصفى فى مكانه المعهود والبيت الذى ألقاه عفو الصدفة يطن فى خاطره فى اصرار عنيف لا يبتغى عنه حولا .

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما   يظنـــان كل الظن ألا تلاقيـــا

وظل البيت يدور فى ذهنه كنغمة تعودتها الأذن فما تحس بها ، وراح وصفى يفكر فيما كان من الأيام التى تفصل بين هذه اللحظة التى هو فيها وبين آخر مرة كان فيها هنا .

وفى القصر جلست سهير وحدها .. أتذهب .. أتلتقى به هناك .. لا .. لن تذهب .. ماذا أفادت من هذا المكان ، ومن هاته اللقاءات التى كانت فيه ، لا شىء الا الحسرة والألم والحزن .. ولكن أكان الحزن نابتا من اللقاء أم من انقطاع اللقاء .. طريق واحدة .. اللقاء أسلم الى عدم اللقاء الى الحزن .. الحزن منتهاه والألم والحسرة .

ما الجديد ؟ أهى المرة الأولى التى يدعوك فيها الى اللقاء بعد زواجك •• ليست الأولى ، لقد طالما جاءت اليك أم وديدة بموعد له فرددتها •• نعم انك لم تطرديها ولكنك رفضت موعدها •• لم تمنعيها من دخول البيت ، لأنه كان يطيب لك أن تعرفى أنه يفكر فيك وأنه يريد لقاءك •• ولكنك كنت ترفضين اللقاء •• فلماذا تريدين هـذا اللقاء اليوم ؟

ماذا تريدين من الذهاب•• مكانك•• لا تذهبى مكانك فكبرياؤك أعظم من هذا اللقاء ، وكرامتك أغلى من هذا الحب •• فهو الحب اذن •• نعم وأدريه •• فلأذهب اذن •• انه الحب يدعونى وهو كل شىء •• حب أبتر لا يلاقيك فيـه •• حب بلا أمل •• بلا أمل ؟ من يعـرف المستقبل ؟ من هذا الذى يستطيع أن يؤكد أن لا أمل ؟ وأين لى بالأمل •• مكانك •• فقد مرت السنون ، وأخشى أن ينفض القلب أغلفة الأيام ، ويصبو الى هواه الأول •• ويحك ! ان الايام لم تغلف قلبك ، انه ما زال الى حبه الأول يرنو عصى الجمحات ، واله الخفق، ملتهب الحنين • مكانك فلن تزيدى قلبك الا جموحا وخفقا وحنينا ، وهل ثمة زيادة للمستزيد •• مكانك فلا أمل ثمة الا سراب ، ولا شىء هناك الا ألم •• لا •• لن أذهب •• ونظرت الى الساعة ، فاذا هى السادسة والنصف ، فحزمت أمرها على ألا تذهب •• ولكنها لم تر بأسا أن تنزل الى الحديقة وتسير فى طرقاتها تحاول ما وسعها الجهد ألا تعود الى ذلك النقاش مع نفسها •• وسارت تفكر فى ألا تفكر فى موعدها •• وعصيت الخطى تفكيرها ، فاذا هى عند السلم •• واذا هى دون وعى تنفض الحديقة بعينيها ، ثم تسلم الى السلم أقدامها ••

ــ سهير •

وفى وجيب قوى قالت :

ــ وصفى •

وارتمت على المقعد الحجرى ، وألقت برأسها الى راحتيها ، وانطلقت فى بكاء ، يعلو نشيجه فى صدرها ، حتى اذا أراد أن ينفجر كتمه حذر وكبر •

وارتمى وصفى الى جانبها حائرا تسيل الدموع على وجهه فياضة السكب ، صامتا ملقيا برأسه الى قبضته ، ناظرا الى الأرض لم يجد غيرها يحتمل نظراته •

وطال بهما الصمت والبكاء لم يفيقا الا على صوت يأتيهما من النيل :

ــ يا بك •

ولم يجب أحدهما ، ولكن الصوت ألح :

ــ يا بك •• القارب يا بك ••

وقام وصفى الى حافة المرسى ، فوجد القارب وبه صاحبه ، فنفحه مبلغا من المال ، وطلب اليه أن يعود بعد حين آخر •• وعاد الى سهير ، فوجدها ترقأ دمعها وهى تقول :

ــ لماذا ؟ لماذا يا وصفى ؟

ــ ماذا تريدين أن أقول !!

ــ لماذا ؟

ــ حمق وجهل وطفولة ورعونة •

ــ ولكنك أضعت حياتنا •• ألقيت بى الى الشقاء والبؤس والألم والحسرة •• حياتى كلها أضعتها •• لماذا لقيتنى ما دمت كنت تنوى أن تفعل بى ما فعلت •

ــ سهير •• اننى أحاسب نفسى حسابا أشد عسرا ، فدعينى وما بى ، ولا تزيدينى ألما وحسرة •

ــ ماذا تريدنى أن أقول •• ماذا تنتظر منى أن أقول •

ــ سنوات مررن لم نلتق ، ألا تجدين شيئا تقولينه ؟

ــ سنوات مررن •• لا •• لم تحسها أنت •• لقد شغلتك الحياة عن السنوات تمر ، أما أنا فقد أمضنى كل يوم من هذه السنوات ، بل لقد شقيت بكل لحظة فى كل يوم من هذه السنوات •• حرمت فرحة الزواج ، بل شقيت بهذه الفرحة ، وحرمت فرحة الأمومة ، وأنا أم لطفلين ، كلاهما جميل •• أحبهما ولكنى لم أفرح بمجيئهما •• حرمت كل شىء جميل ، وكل شىء حولى كان حريا أن يكون جميلا لولاك •• لولاك الذى تجىء اليوم لتقول لى فى سهولة ويسر حمق ورعونة ، ولتقول لى سنوات مررن ! ماذا تدرى أنت عن هذه السنوات ؟

ــ أدرى الكثير ، أدرى الألم كلما خلوت الى نفسى أو الى بيتى ، أدرى أننى لم أستطع أن أهوى زوجتى أو أرى فيها غير زوجة بلا حب جامح عرفته لك ولم أجده لها •• ظننت الحب يأتى هونا مع الأيام ، فاذا المودة هى التى تأتى لا الحب •• عرفت الليالى الطويلة ، تصطرع حولى الأحداث وأجاهد ما وسعنى الجهد ثم أعدم فى بيتى اليد المؤاسية والعقل الذى يعى جهادى ، والأحداث والصراع •• أحسست السنوات بطيئة ، وانية الخطو ثقيلة الليالى •

ــ عرفت الليالى !؟ •• لعلك عرفت ساعة من ليلة أو ساعتين ، أما أنا فالأيام والليالى والدقائق واللحظات •• سوداء كلها بلا صراع ولا أمل ولا حياة ولا شىء •• ماذا عرفت أنت ؟

ــ بعض هذا يا سهير •• بعض هذا •• كلانا شقى ببيته •

ــ وماذا تريدنا أن نفعل ؟

ــ أما أنا فبيدى أن أفعل ، فهل تستطيعين أنت ؟

ـــ ماذا .. الى أى هدف ترمى ؟
ـــ أنا فى حياة لا أطيق المضى فيها .
ـــ وأنا فى حياة لم أطق العيش فيها .
ـــ سليمان سهل .
ـــ لا .. ليس سهلا .
ـــ تعرفين ضعفه .
ـــ المال والبنون .
ـــ والبنون ؟!
ـــ اذا كانوا لا يكلفون مالا .
ـــ قولى له لا أحبك .
ـــ انه يعرف .
ـــ قولى له لا أطيق العيش معك .
ـــ أتظننى أستطيع ؟
ـــ ألا يستطيع حبك لى وكرهك له ؟
ـــ لا أدرى .
ـــ اجعلى له من المال ما يريد .
ـــ يرضى .
ـــ اذن .
ـــ وأنت ؟
ـــ أطلق زوجتى ..
ـــ اذن .
ـــ فالليلة تخبرين زوجك .
ـــ ادع لى أن استطيع .

ـ حبنا أقوى من الخوف ومن الاشفاق •

أطلبنى غدا فى التليفون •

ـ فالى الغد •

وقامت سهير الى القصر ، وظل وصفى فى مكانه ينتظر القارب ، وهو شارد الذهن حيران اللب ، يجمع أمره على أمر ويخشى عواقبه فيمحو عنه الخشية حب جامح وملالة من حياة يقطعها وآمل فى جديد من الحياة •

ويصل وصفى الى منزله ، فيجد البيت خاليا •• ماذا ؟ وكأنما خشى أن تكون زوجته قد أدركت ما كان من أمره • ثم ما يلبث أن يعرف أن أم زوجته تعانى أزمة مريرة ، فلم تجد زوجته بدا من السفر دون اذنه • فقد أدركت من ارساله للسيارة أنه سيطول به السهر خارج المنزل ، فركبت السيارة ، وسافرت لم تنتظر •

خلا به البيت •• انقطعت الرتابة التى كان يشكوها •• طابت نفسه بعض الحين بفراغ البيت •• انه يستطيع أن يفكر •• وهل يحتاج الى تفكير •• لقد استقر الى الرأى •• ولكن •• ولكنى مشوق لجعفر •• بل اننى أريد أن أرى زوجتى •• لماذا ؟ أتحبها •• لا أدرى •• لا تدرى ففيم كل هذا ؟ •• ففيم تريد أن تفصل أما عن أولادها •• لقد جنيت عليها فى أول طريقها الى الحياة ، فجاءت بهم، وتريد أن تجنى عليها ثانية بالانفصال عنهم من أجل فكرة لا تدرى ان كانت قائمة فى نفسك أم غير قائمة •• لا أدرى •• ولكنى أريد أن أرى زوجتى •• أهى لهو هذه الوشائج التى تقطعها ، وهذه الآمال التى تمزقها •• أهى عبث أطفال •• انها الحياة •• انها آمال قوم ، ومستقبل أطفال سيطالعهم غدا بحديث أم تركتهم من أجل رجل آخر، ومستقبل طفل هو طفلك سيلقاه الزمان وهو مجرد من حنان الأبوة

الذى نعمت أنت به والذى صرت بفضله الى ما صرت . ألا تدرى ..
ألا تدرى ؟

ومد وصفى يده الى التليفون ، وأدار القرص ، دورة واحدة ،
وطلب من الترنك أن يوصله بعزبة زوجته .

١٣

دلفت سهير الى القصر فوجدت القصر مائجا ، فالخـــادمات رائحات غاديات فى شغل شاغل عنها ، فمنهن من تحمل زجاجة وتهرول بها ، وأخرى منهن تقف الى جانب التليفون فى ذعر لا تكف يد لها عن ادارة القرص ، بينما انهمكت اليد الأخرى فى وضع السماعة ورفعها فى حركة آلية ليس فيها من فهم أو عقل •• ووقفت سهير فى البهو حائرة تلاحق كل سائرة ، أو مشغولة بعينيها ذاهلة النظرة ، مفتوحة الفم ، لا تملك أن تضم شفتيها لتكون سؤالا واحدا يشرح لها الجواب عن هذا الذعر الذى يسود القصر •

واستطاعت احدى الخدم أخيرا أن تجمع شتات نفسها وتراها وكأنما انتشلت الخادمة من وهدة عميقة الحيرة :

ــ ستى •

ــ خير يا نبوية !

ــ سيدى أحمد يا ستى •

ولم تزد الفتاة ، وما كانت بحاجة الى زيادة ، فقد اندفعت سهير فى ثورة مجنونة الى حجرة ولدها :

ـ ابنى •• ابنى •

ووجدت ولدها شاحب الوجه ملقى لا حراك به على الفراش ، وقد تفتحت عيناه لا تريان شيئاً ، يجتذب أنفاسه وكأنما ينازعه عليها خصم عنيف قوى الأسر ، فما يكاد صدره يخرج الا حشرجة مجهودة متقطعة غير مكتملة • وارتمت أمه بجانبه :

ـ أحمد •• مالك يا أحمد ؟

ولو كان أحمد يستطيع نطقا لما كان هذا الذعر الذى انقض على القصر • وقالت الأم :

ـ دكتور •• أين الدكتور ؟

وجاءت الخادمة التى بجانب التليفون وهى تقول لاهثة :

طلبته يا ستى ، سيأتى حالا •

وفزعت الأم اليها :

ـ طلبته ! ألم يذهب أحد اليه •• أين السيارة ؟ •• أين عم دهب •• لماذا لم يذهب الى أى دكتور فى الجوار ؟ دكتور ؟ •• أما زلتن واقفات ••

وانتبهت الخادمات الى صراخ سيدتهن ، فتسارعن الى السلم يدعون عم دهب •

وجلست الأم الى جانب ولدها •• ولدى •• اياك أن تتركنى •• انك كل شيء لى •• انك أنت •• أنت وحدك الذى أحيا له وبه •• ولدى •• اياك أن تتركنى •• اننى الوحيدة بين الأمهات التى منحت وليدها ما منحت •• لقد تلقى الأخريات أولادهن وحب آبائهم يكلأ الجميع •• أما أنا فعانيت من أجلك يوم حملتك ، وعانيت من أجلك سنوات طوالا عشتها الى جانب أبيك من أجلك •• لم أترك أباك

فى كل هذه السنين من أجلك أنت •• حياتى الماضية أنت والمستقبل وما بعد الممات ، فالى أين تاركى •• أحمد •• لولاك لكنت تركت أباك من زمن بعيد •• أحمد •• أنت لا تدرى ما أنت لى •• الأمهات حياتهن موزعة بين أزواجهن وأولادهن •• أما أنا •• أنا وحدى بين كل الأمهات التى تتمثل حياتها فى ولديها برغم أبيهما •• أنت جهادى لنفسى السنوات الطوال ، أنت الشىء الذى قلبت من أجله أبهى سنوات حياتى الى أنكدها ، ان أحب الأمهات أبناءهن لأنهم أبناؤهن ، فأنا أحبك أنت وأختك ، لأنكما أبنائى ، ولأننى قاسيت من أجلكما المرارة والبؤس والشقاء والألم ، قاسيت أن أحيا مع زوج أكرهه وأبذل له نفسى ، أحتقره ولا أتركه أمقته وأظل الى جانبه زوجه •• أحمد •• لى فيك ولى عليك حق الأمومة ، ولى فيك ولى عليك حق الشقاء الذى ألقاه ، والشباب الذى يمر والسنين التى مضت •• سعادة الأمهات بأبنائهن مجرد سعادة ، أما أنت فجزائى عن الشقاء بأبيك ، فأنت كل شىء •• فان يكن لحياتى معنى •• فأنت •• أنت وأختك •• أحمد •• لا تتركنى •• ارحمنى يا رب •• دع هذا الطفل لى يا رب •• فما الحياة بغيره •• ارحم يا رب ••

ويدخل سليمان هالعا :

ــ خير ماذا به يا سهير ؟

ــ سليمان •• ماذا تنتظر ؟ •• دكتور يا سليمان •• أسرع •

وخرج سليمان من فوره حائرا لا يدرى أين يذهب ، لم يعد يذكر طبيبا واحدا ممن يعرفهم ، فهو يذهب الى التليفون ، ثم يبحث عن المذكرة التى بها الأرقام التى يحتاجون اليها ، ثم يترك هذا جميعه ويهرول الى السلم ، فما ان يبلغ منتصفه حتى يصعد مرة أخرى الى التليفون ، ثم يتركه ويهم بأن يقصد الى حجرة ولده ، متخيلا أنه قد صنع شيئا ، واهما أن طفله قد أفاد شيئا من هذه الهرولة التى ذرع

بها البهو والسلم ، وقبل أن يصل الى الحجرة يسمع صوتا من أسفل يقول :

ــ الدكتور •• جاء الدكتور •

ويسرع سليمان الى السلم ، ويلقى الطبيب فيرجوه أن يسرع ولا يجد الطبيب فرصة يسأل فيها عما دعى له ، وانما هو يقاد الى حجرة أحمد • ويفتح الطبيب حقيبته ويخرج حقنة صغيرة يملؤها دواء ، ثم ما يلبث أن يغرس ابرتها فى فخذ الطفل ، ثم يوالى اسعافاته وهو لا يكف عن ترديد :

ــ خير يا ستى ان شاء الله •• بسيطة ان شاء الله ، لا شيء يا ستى •• مجرد اغماء بسيط •

وما ليثت أنفاس الطفل أن هدأت شيئا فشيئا ، حتى انتظمت ، وغمغم :

ــ نينة •

وصاحت الأم :

ــ أحمد •• نعم يا احمد •• أنا هنا •• الحمد لله على سلامتك يا احمد •

ونام الطفل هادىء الأنفاس ، وطلب الطبيب أن يتركوه ليستريح، ولكن الأم أصرت على البقاء ، وخرج سليمان مع الطبيب •

وما ان خلت الحجرة بالأم وطفلها ، حتى ألقت رأسها على سرير الطفل ، وانطلقت تبكى فى نشيج يمنعه خوف الأم من ايقاظ ابنها أن يعلو ، وانما هو بكاء حار مكتم النشيج ، دفاق العبرات ، ولكنها تمالكت أمر نفسها فجأة ، وقامت الى البهو ، فأحضرت التليفون ، وعلى الضوء الخافت أدارت القرص ، ولم تلبث أن وضعت السماعة،

فقد حمل اليها أزيز الرقم مشـــغولا عن طلبها ، وبعد دقائق رفعت السـماعة مرة أخرى ، وأدارت القرص نفس الدورات ولم تلبث أن قالت :

ـ وصفى •

ـ نعم •

ـ أأستطيع أن أكلمك ؟

ـ أنا وحدى •

ـ لا يمكن يا وصفى •• لا أستطيع •

ـ نعم أعرف •

ـ فلتكن صداقة •

ـ صداقة عميقة ودائمة يا سهير •

ـ الى اللقاء يا وصفى •

ـ الى اللقاء يا سهير •.

١٤

كانت الصلاة جماعة فى المسجد الكبير بقرية العواسجة ، ولم يكن وراء الشيخ الا قلة من الفلاحين ، وقفوا وماء الوضوء يقطر من وجوههم ، وكان يتقدم هؤلاء الفلاحين نفر من الطلبة ارتدوا الجلاليب الأفرنجية ، وغطوا رءوسهم بالمناديل ، وألقوا بعيونهم الى الأرض فى تخشع . كان ضــوء المصباح المرتعش ينسكب على وجه جامد النأمات ، مسبل العينين ، تقوم من تحته بنية قوية التركيب ، ثبتة القوام ، وقد ارتدى صاحبه جلبابا أبيض موشعا بالخطوط الحمراء ، وأحكم على رأسه منديلا كان ناسجه يريد له اللون الأبيض لونا ، ولكن عدا على ارادته أيد كثيرة العبث قليلة العناية نزرة النظافة ، ذلك هو السيد أفندى عبد البديع النجل الأكبر لعبد البديع أفندى الدكر وزوجه محبوبة . حصل فى عامه هذا على شهادة التوجيهية ، وعاد الى القرية ليهنأ بين أمه وأبيه وآله بلذة النجاح .

انتهت الصلاة ، وخرج بعض المصــلين من الجامع ، وبقى فيه السيد والتلاميذ الآخرون وقلة ضئيلة من الفلاحين لم يتركوا الجامع، بل ان منهم من استقر على الجلسة التى كان يقرأ بها التحيات ، ومنهم من أخرج قدمه من تحت جسمه وأدارها ، فأصبحت مثنية أمامه ،

ثم ألقى ذقنه الى يده ومد بصره فى تشوف الى السيد . واتخذ السيد جلسة مستقرة بعد أن أدار ظهره الى القبلة وراح يبسمل ويحوقل متهيئا لالقاء درسه الدينى ، وقد خلا له الجو ، وانفرد فى الجامع بالفلاحين ، ومن يصغرونه من الطلبة ، منتهزا فرصة جهلهم جميعا ، وفرصة علمه الضئيل المليء بالخزعبلات والأحاجى . وراح الفلاحون — قبل أن يبدأ — يمصون شفاههم ، كأنهم يختبرون الصوت الذى يصدر عنها ، أشبه ما يكونون بأفراد تخت موسيقى يجربون آلاتهم قبل البدء فى عزف الدور الذى سيعزفون .

وبين أصوات الشفاه يمصها الفلاحون ، وأسئلة صغار الطلبة يطلقونها لاثبات وجودهم ، بدأ الدرس وانتهى .

وخرج سيد منتفخ الأوداج ، مزهوا أن ألقى الدرس على هؤلاء القوم المساكين ، وزاده كبرا وزهوا اثنان من مريديه لحقا به ، وراحا يسألانه فى اكبار واجلال :

— منذ متى يا سيد وأنت منضم الى الشعبة الرئيسية فى المديرية ؟

— من زمان .
— ولم تخبرنا يا أخى ونحن معك كل يوم ؟
— لا بد أن أثق بكما أولا لأخبركما .
— وهل لك فئة خاصة تتفرع من هذه الشعبة ؟
— نعم .
— وما اسمها ؟ .. أهى الأسرة التى يقولون عنها ؟
— هذا سر .
— ومن رئيسها ؟

ـ لا أستطيع أن أقول .. هـذا أيضـا سر لا أسـتطيع البوح به ..

ـ لا بد أنك أنت الرئيس ..

وعلى خيوط القمر الزرقاء رأى الصاحبان شبح ابتسامة تلوح مخايلها على شفاه السيد ، فصاح أحدهما قائلا :

نعم انه هو .. يا حسين .

وقال السيد نافيا فى لهجة تزيد ظن الصاحبين اثباتا :

ـ لا يا شيخ .. لا يا محمد .. هذه أسرار يا رجل .. أستغفر الله العظيم .

وسأل حسين :

ـ ولكنك يا سيد لا لحية لك .

وقال السيد مغيظا :

ـ أنا بلا لحية .. ألا ترى لحيتى ؟

وقال حسين فى بلاهة :

ـ لا ..

وقال السيد فى حدة :

ـ هات يدك .. هات .

واجتذب يد حسين المسكين وحك بها ذقنه فقال ذاهلا :

ـ آه صحيح !

ـ لقد بدأت فى اطلاقها قريبا .

وكانت يد حسين لا تزال على لحية السيد حين انغرز كوع محمد فى بطنه ، وهو يهمس :

ـ انظر .

ونظر حسين الى حيث يشير محمد فرآها ، فاذا هو بغير وعى منه . يضرب محمدا بكوعه ويضع سبابته أمام شفتيه ويهمس :

ـ اسكت .. أجننت ؟

وكانت أنظار سيد كلها ناشبة فى الفتاة التى تمر منهم على مقربة، تمشى زهوا فى خفة واصرار ، ولكن أذنه كانت صاغية الى همس صاحبيه ، فهو يقول :

ـ ماذا يا محمد .. ؟

وسارع حسين قائلا فى لعثمة :

ـ لا شىء .. لا شىء يا سيد .. لا شىء والله .

فقال سيد :

ـ يا أخى أنا لا أسألك .. أنا أسأل محمد .

وقبل أن يلفظ حسين مجموعة أخرى من اللاشىء ، قال محمد فى صوت تبين فيه الرغبة اللاهبة فى أن يلقى ما يزدحم فى نفسه من أسرار .

ـ لا .. لا شىء .

وقال سيد :

ـ وأنت أيضا تقول لا شىء .. يخيل الى أن هناك علاقة بين ناعسة وبين حسين .

واذا محمد يقول فى فرحة غامرة :

ـ شفت يا عم .. أنا لم أقل له .. عرفها هو وحده .

وقال سيد :

ـ أى علاقة بينكما يا حسين ؟

وتلعثم حسين ، بينما استطرد سيد قائلا :

ـ قل يا أخى .

وازدادت لعثمة حسين ، واشتعلت رغبة السـيد فى أن يعرف تفاصيل هذه العلاقة .. كان يريد أن يعرف تفصيل كل وشيجة من هذه العلاقة ، ولم يجد غير مركزه الدينى يركبه ، ليصل الى ما يريد، قال السيد ضائقا :

ـ قل يا أخى .. فكل انسان عرضة للخطأ ، ولكن الاصرار على الخطأ هو الشرك والكفران .

قال حسين فى تردد :

ـ لا شىء يا سيد .. لا شىء الا ..

ـ هيه .. الا ماذا ؟

ـ بوسة .

وقال سيد وقد اتسعت عيناه ، وجف ريقه ، وسرت فى دمائه نشوة ثائرة :

ـ بوسة ؟ .. أين ؟

وتمالك حسين أمر نفسه بعض الشىء وهو يقول :

ـ فى خدها .

ـ لا ! أنا أقصد أين كنتما حينذاك ؟

ـ أتعتقد ان لمكان وجودنا شأنا كبيرا من الناحية الدينية ؟

وآن للسيد أن يتلعثم بعض الشىء وهو يقول :

ـ لا .. لا طبعا .. وانما .. أحب أن أعرف المكان ، وسأخبرك لماذا .

ــ فى الذرة

وقال محمد :

ــ وقعت يا بطل .

وصاح سيد فى لهجة ظافرة :

ــ آه .. أرأيت ! لم تكن قبلة على الخد اذن .. لقد كانت قبلة فى الفم .. فى صميم الفم يا أستاذ .. الذرة لا يذهب اليها من يريد قبلة على الخد .. هيه ما قولك ؟!

ــ والله يا سيد مرة واحدة فقط ، وتبت بعدها ورجعت الى الله .

ــ هذا حرام يا حسين .. لا بد أن تتوب الى الله .. وترجع الى الله .. لا حول ولا قوة الا بالله .. انا لله وانا اليه راجعون .. لماذا يا حسين .. لماذا .. وماذا فعلت معها ؟

ــ ماذا ؟

ــ ماذا فعلت معها .. لعلك ان شرحت لى ، استطعت أن أطمئنك انك لم ترتكب الا اللمم ، وحسابه عند الله يسير ..

اشرح لى يا حسين .. اشرح لى بالتفصيل .

وراح حسين يشرح ، وكلما أغفل هنة نبهه اليها السيد فى يقظة صاحية ، لا ينى عن القول كلما توقف حسين ليلتقط أنفاسه « يا سلام » ودون أن يحس حسين يجيب فى ذهول نشوان « والله » .

وأتم حسين القصة وصمت ، وظل ناظرا الى السيد ، منتظرا منه أن يقول شيئا ، وظل السيد ناظرا الى حسين ، متوهما أو متمنيا أن تكون للقصة بقية ، وظل الاثنان يحملق كل منهما الى الآخر فترة لم يدريا أطالت أم قصرت ، حتى تنبه حسين أخيرا وتلفت حوله :

ـ الله .. محمد مشى .. أنا أعرف أين ذهب .. مسـكين سيمرض من كثرة اختلائه بنفسه .

وقال السيد :

ـ ماذا ؟

لا شيء .

ـ هيه .. وبعد ؟

ـ وبعد فيم ؟

ـ فى حكايتك .

ـ حكايتى !؟ .. حكايتى انتهت من زمان .

ـ وكم دفعت لها ؟

ـ ربع جنيه .

وهمس السيد لنفسه : ربع جنيه بنت الكلب .. النهاية .

ثم عاد الى حسين :

ـ هيه .. وبعد ؟

ـ وبعد فيم ؟

ـ فى حكايتك .

ـ انتهت ؟

ـ أقول لك انتهت .

ـ نعم .

ولكن السيد لم يقتنع بهذه الاجابة ، بل انه راح يسـأل مرة أخرى عن تفاصيل معينة ، فى اهتمام شديد ، وانصات واع الى أن استعاد القصة جميعها على طريقة سقراط من أسئلة وأجوبة .. حتى اذا فرغت أسئلته ، ظل محملقا فى وجه حسين ، وظل حسين محملقا فى وجهه هنيهة هو الآخر ، ثم قال :

ـ هيه .

وقال السيد وهو فى غمرة من الأفكار :

ـ هيه ماذا ؟

ـ أحرام ما فعلت ؟

وانتفض السيد متذكرا السبب الذى أبداه ليستدرج القصة الى الخروج ..

ـ آه .. آه .. حرام طبعا .. حرام يا بنى والله .. حرام .. ولكن الله غفور رحيم .. اذهب الى البيت وصل .. وارج الله أن يغفر لك .

وانصرف حسين خجلا يتعثر فى مشيته ، مزمعا فى نفسه توبة لا يعود بعدها الى هذا الاثم .

واقترب السيد من الطريق الذى عبرته ناعسة ، وأقام مستخفيا يرصد الطريق من حيث ذهبت ، فهو يعلم أنها عائدة ، فما كانت وجهتها الى بيتها ، ولا بد لها أن تعود وانه لمنتظر .

كانت ناعسة فتاة ريانة العود ، مليحة القسمات ، وكان أبوها قد زوجها الى رجل عجوز ، طامعا أن يعوض الرجل ابنته عن شبابه بالمال الوفير . ولكن الرجل خيب ظن حميه ، فهو وان ملك مالا ، الا انه لا يملك الجرأة على اخراج المال ، ففقدت ناعسة فى زوجها الحسنيين من شباب ومال . ولم تجد ناعسة خيرا من بيع محاسنها لتكسب بذلك كل ما خسرته فى زواجها .

ولم يعرف سيد هذه التجارة التى افتتحتها ناعسة الا حين عاد الى القرية ، وقد تقبل هذه الأنباء فى تأفف ظاهر ، وفى رغبة مختفية أن يكون زبونا لها . ولكن عاقه عن ذلك أمران : أولهما تظاهره بالتقى ، تظاهرا يسد عليه المسالك أو يكاد ، وثانيهما قلة المال فى يده ، ولو كانت ناعسة قد بدأت تجارتها قبل أن ينحاز سيد الى ناحية

الدين ، لأصبح شأنه غير هذا الشأن ، ولاحتال على المال ، وبلغ به من ناعسة ما يريد ، ولكنها تأخرت . واتخذ هو مظهره هذا الذى يضيق به غاية الضيق . فما كان مؤمنا بما يقول أو يفعل ، وانما انضم الى فئة الدين حين أعجزته الحيلة أن ينضم الى فئة الفجرة ، وان كان الى هذه الفئة الثانية أشد ميلا وأكثر شوقا . على أن هذا لم يفت فى عضده ، فقد وعد نفسه خيرا ، وطلب اليها الصبر الى أن تحين فرصة فى طريق خال .

وها هو ذا الطريق خلا ، وناعسة تقترب منه :

ــ مساء الخير يا ناعسة .

ــ مساء الخير يا سى سيد أفندى .

ــ الى أين ؟

ــ الى البيت .

ــ وفيم العجلة ؟

ــ تأخرت .

ــ أريدك فى كلمتين .

ــ وأى كلام بيننا يا شيخ سيد .

ــ كلام مهم والله .

ــ تفضل . قله .

ــ لا .. لا ينفع الكلام هكذا .

ــ وما الذى ينفع

تعالى .

ــ الى أين ؟

ــ الى الذرة .

ــ الله .. شيخ سيد !

ــ ماذا ؟

ــ شيخ سيد .. حتى أنت يا شيخ سيد ؟

ـ لا والله ، وانما كنت أريد أن أكلمك .

ـ تكلم .. المكان الذى نحن فيه يصلح للكلام ، أما الذرة يا شيخ سيد ..

ـ شيخ سيد .. شيخ سيد .. هل شفتنى ألبس العمامة والجبة ؟

ـ لا ، ولكن شفتك فى الوعظ يا شيخ سيد !!

ـ يا شيخة .. تعالى .

ـ عيب يا شيخ .

ـ العيب ما فعلتيه مع حسين .

ـ أقال لك ؟

ـ نعم .

ـ طيب .. هل معك المبلغ ؟

ـ والله ليس حاضرا معى .. أعطيك غدا .

ـ غدا لا ينفع يا شيخ .. يا سيد أفندى .. كيف أستطيع أن أطالبك غدا .. الدفع مقدما يا سيد أفندى .

ـ وان كنت مفلسا ؟

ـ فلا أعطلك .

ـ ولكنى أريد أن تعطلينى .

ـ هات كيلة ذرة .

ـ كيلة ؟!

نعم .. كيلة .

ـ فانتظرينى حتى أحضرها .

ـ أين ؟

ـ فى ذرة أبى .. على طرف الغيط من ناحية الترعة .

ـ لا تتأخر .

ـ حالا .

وانصرف سيد الى بيتهم مسرع الخطو ، فما ان بلغه حتى خلع حذاءه وتسلل على أطراف أصابعه الى الحجرة التى يعلم أن بها الذرة ، وملأ طرف جلبابه ذرة تزيد على الكيلة ، فما راجعها فى الكمية الا حبا فى المراجعة ، وخرج سيد متلصصا كما دخل ، ونفض المكان بعينيه ، وخيل اليه أنه لم ير أحدا ، ومشى سبيله الى المكان ، وما ان بلغه حتى همس :

ـ ناعسة .. ناعسة أين أ ..

ولم يكمل الكلمة ، فقد انصبت على قفاه يد حديدية صاحبها صوت أبيه مغيظا صارخا فى حنق ، دون أن ترتفع نبراته :

ـ أهى ناعسة يا ابن الكلب .. وعامل لى شيخا تنقصك العمامة يا ضال يا زانى يا ابن الكلب .. قدامى الى البيت .. قدامى أنت وذقنك .. والله لتسافرن غدا الى مصر .

ـ أبى ؟

ـ اخرس وامش .. امش .. امش .

ـ انها .. انها ..

ـ اخرس قلت لك .

ومشى سيد يتعثر فى خطاه ، ومن ورائه أبوه ، حتى اذا بلغا البيت قاد الوالد ولده الى المخزن ، وأعاد الذرة الى مكانها ، ولم يستطع أن ينتظر حتى يخرجا من الحجرة ، بل هو يقفل الباب ويحكم رتاجه ، ويمسك بتلابيب ولده ، ويخلع النعل من قدمه ..

١٥

كان أحمد جالسا الى أمه فى احدى غرف القصر حين دخل اليهما حسام الذى حيا خالته وقبلها ثم جلس .. وقالت سهير :

ــ كيف حال سميحة وأختك نوال ؟

ــ بخير والحمد لله .

ــ لقد قالت لى أمك اليوم انها ستأتى .

ــ والله لا أعرف ، فأنا لم أقل لها انى قادم اليكم .

وسكتت سهير ، وران الصمت عليهم بعض الحين ، ثم قطعه حسام متسائلا ، وهو يظهر عدم الاهتمام ، فيخيب تظاهره :

ــ أين هناء اذن ؟

وقالت الأم :

ــ يا سيدى صممت أن تشترى هى لأخيها ما يلزمه من أقمشة للحلل والقمصان ليدخل بها الكلية .

ــ ولماذا لم تذهب أنت يا أحمد ؟

ــ يا أخى .. أنا لا تهمنى الأناقة ، ولكن نينه هى التى تريد

أن تشترى لى ثيابا جديدة ، وقد صممت هناء أن تختار هى الملابس .

وقال حسام :

ـ وهل نزل معها عمى سليمان ؟

فقال أحمد فى شبه سخرية :

ـ وما شأن عمك سليمان بهذا ؟

فقال حسام متلعثما :

ـ لا .. لا شىء .. ولكن هناء وحدها ؟

وابتسمت سهير فى فرح وهى تقول :

ـ لا تخش شيئا يا سى حسام .. لقد خرجت فى السيارة مع السائق ، ولن تذهب الا الى محل واحد ، وتعود فى السيارة .. اطمئن يا حبيبى ، والله لولا مرضى لخرجت معها .

وازدادت لعثمة حسام ، وقد أحس أنه قد كشف خبيئة نفسه :

ـ لا .. لا شىء .. لا شىء ولكن ..

وحينئذ جاء الخادم ليعلن الى أحمد مجىء فوزى عبد المجيد ، ووجد حسام طريقا آخر يسلك فيه بحديث جديد ، فقال :

ـ يا أخى فوزى .. هذا لا أطيقه أبدا .

فقال أحمد :

ـ ولماذا يا سيدى .. ألأنه يقول الحق ؟

ـ أكان حقا هذا النقد الذى راح يكيله لعمى وصفى باشا .

فقالت سهير فى اهتمام :

ـ ينتقد وصفى باشا .. وأمامك يا أحمد ، كيف تسمح له ؟

فقال أحمد فى لعثمة :

ـــ انها مرة واحدة ، وقد رددته فى خشونة ، وأخبرته أننى لا أحب أن يذكر أمامي عمى وصفى باشا الا بالخير .

وتدخل حسام ثانية قائلا :

ـــ ليس هذا فقط ، ولكنه كثير الانتقاد للأغنياء ، وكثير الكلام عن الغنى ، فهو لا ينسى مرة أن يقول : ان الغنى لا بد أن تصاحبه الميوعة والجمود ، وعدم الاحساس بالفقراء ، وكدحهم وشقائهم .

وسارع أحمد قائلا :

ـــ أليس هذا صحيحا ؟

ودهشت الأم من كلام أحمد ، فسارعت تقول :

ـــ لا يقول هذا الا حاقد .. انما الغنى والفقر بيد الله ، والغنى رجل كد واجتهد حتى أصبح غنيا .

فقال أحمد :

ـــ أنا لا أرى أبى قد كد واجتهد .

وأرتج على سهير هنيهة ، ثم قالت :

ـــ بل انك تعلم أن أباك قد نال دبلوم الهندسة ..

فقاطعها أحمد قائلا فى سخرية خبيثة :

ـــ من أوربا .

وأحسست الأم تهكم الابن ، ولكنها تجاهلته ، وقالت :

ـــ وهل ترى أباك غنيا ؟

ـــ هو غنى بلا شك .. انه يعيش عيشة الأغنياء .

ـــ أنت تعلم أنه ليس غنيا .

ـــ اذن فأنت الغنية .. كم اجتهدت أنت وكم كدحت ؟

ـــ أبى كد واجتهد ، حتى يوفر لى السعادة .

ـــ أبوك اجتهد ، فلماذا تستفيدين أنت ؟

ـ انه لولاى ما اجتهد .. أى غريبة فى ذلك ، انها سنة الكون الأبناء يخلقون الطموح فى نفوس الآباء ، انك غدا حين تنجب أطفالا ستعلم كيف يكون الطموح ، وحينئذ تسعى الى أن تجعل أولادك أغنى الأولاد . تلك يابنى حكمة الله وسـنته ، وبها تدور عجلة الحياة .

ـ نعم أعرف .. فكلما أريد لنا أن نسكت فلا نفكر ذكر الله . فلماذا لا يعطل الله تفكيرنا حتى لا نفكر فى عدله وحكمته وسنته وكل هذه الأشياء التى تبدو لنا ، وغيوم الشك تغشاها .

وصاح حسام :

ـ أرأيت يا خالتى هذه أقوال فوزى .

فقال أحمد :

ـ وانها حق .

وأصبح وجه الأم باسرا قلقا :

ـ ما هذا الكلام يا أحمد .. ما هذا الذى تقول ؟

ـ رأيى .

ـ لا تظن أنك بهذا الرأى تبدأ طريقا جديدا .. انها طريق سبقك فيها الكثيرون ، وعادوا عن رأيهم .

ـ انهم سجناء .. جبناء لا يقوون على فك قيودهم .. انهم سجناء العادة والوهم والتقاليد ، لو أمعنوا التفكير وفكوا قيودهم لما عادوا . انهم القطيع .

ورأى حسام ان النقاش سيحتدم ، ورأى وجه خالته يحتقن ، وخشى أن تصاب بالنوبة القلبية التى تعاودها ، فسارع قائلا :

ـ قم .. قم يا عبقرى انزل الى صاحبك العبقرى الآخر ..

وفهمت سهير ما أراد اليه ابن أختها ، فسكتت مذعنة ، فما كانت تطيق أن تغضب ابنها ، وقال أحمد :

ـ وأنت .. ألا تنزل معى ؟

ـ نعم سأنزل معك ، وأمرى الى الله .

وصاحت سهير بالخادمة :

ـ يا نبوية .. هات سجادة الصلاة .

ونزل الشابان ، وأقامت سهير الصلاة . وبينما هى تصلى دق جرس التليفون وأجابت نبوية فسمعتها سهير وهى تقول :

ـ لا يا سعادة الباشا .. انه ليس هنا .

ثم سمعتها تقول :

ـ انها تصلى .

ثم قالت :

ـ لا .. لن تتأخر .

وتركت السماعة الى جانب التليفون ، وسرعان ما أنهت سهير الصلاة ، وانفلتت الى التليفون ليقول لها وصفى :

ـ أين سليمان ؟

ـ خرج .

ـ أنا فى البيت ، بمجرد مجيئه أخبريه انى منتظره .

ـ هل حصل شىء يا وصفى ؟

ـ لا أبدا .. ولكن أريد أن أراه فى مسألة تهمه .

ـ طيب .

وبدت هناء صاعدة من السلم ، حتى اذا بلغت مجلس أمها رأت على شفتيها مخايل ابتسامة يحيط بها شيء من الفرح ، فقالت لأمها :

ـ خير .. ما هذه الابتسامة ؟

ـ لا .. لا شيء ، ولكن ابن خالتك حسام كان هنا ، وزعل لأنك خرجت وحدك .

فتجهمت هناء قائلة :

ـ وما شأنه هو ؟

ـ شأنه .. ان له شأنا ليس لأحد .. انه يحبك .

ـ وأنا أحبه أيضا .. أحبه كما أحب أحمد .. لقد ربى معى ولا أستطيع أن أنظر له الا كأخ .

فقالت الأم فى جد :

ـ اسمعى يا هناء .. مسألة الأخوة هذه عذر فقط ..

ثم تنهدت من أعماق ذكرياتها ، وقالت :

ـ من قال ان القريب لا يحب . هنـاء .. هذا عذر فقط فاذكرى لى الحقيقة .

ـ الحقيقة انى غير معجبة به ..

ـ لماذا ؟ انه شاب غنى متقدم فى دروسه .

عقليته يا نينا .

ـ مالهـا ؟!

ـ عادية .. انسان عادى جدا .

ـ ألا يشفع له غناه ؟

ـ على العكس .. أنا أريد انسانا فقيرا ، يغنى بعمله واجتهاده ونكبر معا .

ـ هذا هراء يا بنتى .. فأنت غنية ، واذا تزوجت فقيرا ، فسوف يركن الى غنائك ، ولا يسعى للغنى .

ـ يا نينا لا أستطيع أن أفكر فيه كزوج .. انه ابن خالتى مثل أخى تماما .

ـ عدنا الى هذا .. وأنا ألست متزوجة من ابن عمى ؟

وترددت هناء هنيهة ، ونظرت الى حيث لا تلتقى عيناها بعينى أمها :

ـ وهل أنت سعيدة يا نينا ؟

وأرتج على سهير ، فما تدرى بماذا تجيب ابنتها ، وقبل أن تصوغ جوابا ، سمعت أقدام سليمان صاعدة على السلم فنادت :

ـ سليمان .

ـ نعم .

ـ وصفى منتظرك فى بيته ، ويريدك أن تذهب اليه الآن .

ـ الآن ؟

ـ نعم .

وعاد سليمان طريقه الى الباب الخارجى ، وما كاد يتركه حتى دخل البيت عبد البديع ووراءه السيد حاملا حقائبه .

وأرسل عبد البديع الى سهير يستأذنها أن يلقاها فأذنت ، وصعد اليها ينبئها أنه جاء بسيد ليقيم لديهم ، فرحبت به وطلبت الى عم دهب أن يعد حجرة للسيد ، وينصرف عبد البديع داعيا لسهير وأولادها بطول العمر والرفاهية ، ولا ينسى عبد البديع ألا يدعو لسليمان بأى خير ، فما كان يرجو له خيرا .

١٦

كان وصفى جالسا فى بيته ثائر الأعصاب يفكر فى هذا الأمر الذى لقيه به وزير الأشغال فى يومه هذا •• أى مخجلة تلك التى يطالعه بها أقاربه •• وأى قريب •• انه زوج سهير ، لا يطيق وصفى أن يروع حياة سهير وأولادها بأكثر مما روعها •• انه يشعر أنه المسئول عن هذا الزواج الذى ألقيت اليه سهير •

لم يشأ جعفر أن يترك أباه فى زحمة من ضيقه هذا ، بل هو يدخل اليه يطلب بعض المال ليشترى كتبا جديدة ظهرت ، وقد تعود وصفى ألا يرد لابنه طلبا مثل هذا ، ولكنه فى ضيقه هذا يوشك ألا يحفل أمر ابنه ، ثم ما يلبث أن يعطيه ما طلب ، ويخرج جعفر ، وما هى الا بعض دقائق حتى يدخل سليمان :

ـ خير يا باشا ؟

ـ أى خير يا سى سليمان ؟

ـ ماذا •• ماذا حصل ؟

ـ يا سليمان أنت تعلم كم جاهدت من أجلك ، حتى تصل الى مركزك هذا •

ــ نعم أعلم .

ــ أيليق بك بعد هذا أن تلوث سمعتنا ، ونحن نعتمد على الشرف فى حياتنا ، ونحارب أعداءنا بنزاهتنا ، ماذا يقول الناس عنا .. ؟

وأحس سليمان أن وصفى عرف ما ارتكبه ، وأوشك أن يمارى الحق ، ولكنه عدل عن ذلك وارتأى أن يستمر فى تغابيه :

ــ ماذا ؟

ــ احسان بك عبد الفتاح .

وارتج على سليمان لحظة ، ثم قال :

ــ ما شأنه ؟

ــ ماذا جرى يا سليمان ؟ .. أتراني فارغا لهذا التغابى ؟ .. لقد كنت عند وزير الأشغال الآن وهو الذى أخبرنى ..

ــ أخبرك بماذا ؟

ــ بأنك أخذت رشوة من احسان .

ــ أنا ؟ .. أنا ؟

ــ نعم أنت .

ــ لماذا ؟

ــ لتحفر له ترعة فى أرضه التى اشتراها حديثا بعقد عرفى .

ــ انه لم يقل انها رشوة .

ــ فماذا قال ؟ .. هدية !؟

ــ أبدا ، وانما قال انه يتبرع بها .

وقال وصفى ساخرا :

ـ يتبرع بها •• ؟! لماذا •• ؟ هل أصبحت جمعية خيرية على آخر الزمن ؟

ـ لا ولكن كنت أفكر أن أشترك فى جمعية العميان ، وكان الحديث معى فى ذلك الشأن يجرى أمام احسان بك فتبرع بالمبلغ •

ـ بخمسمائة جنيه ؟! أهذا تبرع ؟ •• انها رشوة يا باشمهندس رشوة ••

وحاول سليمان أن يفتعل ثورة :

ـ لا •• أنا لا أقبل الرشوة •• لا أبدا ••

وقطع وصفى افتعاله فى جمود :

ـ اسمع •• هات الفلوس •

وامتقع وجه سليمان :

ـ ماذا ؟

ـ أقول هات المبلغ •

ـ ولكنه ليس معى •

ـ انه معى أنا •

ـ لا أفهم •

ـ لقد دعوت احسان ، وهو قادم الآن ، وقد أعددت له المبلغ ، وسأعطيه له الآن ، فاكتب أنت لى شيكا بالمبلغ •• الآن •

ـ أكتب شيكا ؟!

ـ نعم •

ـ ولكن ليس معى دفتر الشيكات •

فقال وصفى فى حزم صارم تمور فيه ثورة وتهديد :

ـ سليمان اكتب الشيك على ورقة بيضاء •

وفهم سليمان كل المعانى التى تصاحب هذا الأمر فسارع يكتب الشيك مذعنا ، وما ان فرغ من كتابته ، حتى جاء الخادم يعلن قدوم احسان بك ، فأذن له وصفى ودخل ، وما كاد يجلس حتى أخرج وصفى من جيبه ظرفا وأعطاه لاحسان قائلا :

ــ خذ هذا .

ــ ما هذا يا باشا ؟

ــ الرشوة التى دفعتها لسليمان .

وتلاقت عيون احسان وسليمان ، ثم أطرق احسان خجلا قائلا :

ــ ولكنها ليست رشوة يا باشا .

ــ اسمع .. اما أن تأخذ المبلغ ، فأعتبر المسألة كأن لم تكن ، وأجعل طلب الترعة الذى تقدمت به يسير فى طريقه الطبيعى بلا عرقلة ولا محاباة ، واما ان ترفض قبوله فأعلم أن الترعة لن تشق أرضك ما دمت أنا على وجه الحياة .

ووضع احسان المبلغ فى جيبه فى تخاذل ، وهو يقول :

ــ أمرك يا باشا .

ــ على ألا تعود الى هذا يا احسان بك .

ــ أمرك يا باشا .

ــ شكرا .

ــ تسمح بالانصراف ؟

ــ لا مانع .

وخرج احسان دون أن يدعوه وصفى ليشرب القهوة ، فقد رأى فيه صورة بشعة تشبه المرأة الداعرة التى تغرى الشباب بالخطيئة . وحين أراد سليمان أن ينصرف استبقاه وصفى ليقول له :

ـ أتذكر حديثا بيننا منذ سنوات بعيدة .. بعيدة جدا حين جئت لتطلب أول درجة ارتقيتها فى سلك الحكومة .

ونكس سليمان رأسه قائلا :

ـ نعم أذكر .

وقال وصفى فى حزم :

ـ حسنا ، فأنا لا أحب أن أعيد هذا الحديث ثانية ، وبطبيعة الحال لا لزوم أن تعرف سهير شيئا من هذا ، فمرض القلب الذى تعانيه لا يحتمل هذه الأزمات ، قل لها اذا سألتك عما أردتك فيه .. قل لها اننى .. اننى ..

وداخل صوته شىء من السخرية وهو يقول :

ـ قل لها اننى أردت أن أبلغك رضاء الوزير عنك .

وأطرق سليمان ، لأنه لم يعرف أين يولى وجهه ، وقال وهو خارج :

ـ نعم .. هذا ما سأقول .

وخرج .

١٧

شهور مضت تليها شهور وأنا هنا حبيس فى هـذا البيت أو القصر أو أى شيء كبير ، لا أملك أنا فيها شيئا الا هذه الملابس التى أتلقفها من أحمد بك • شهور مضت وتلتها شهور ، وأنا حبيس لا أصنع شيئا الا أن أجلس مع أحمد بك ومع صديقه ، هذا المتذاكى الذى لا يكف عن الانتقاد والسخط •• شهور وأنا أرى هناء •• هناء هانم تأتى الينا فى حجرة المكتب ثم تتركنا بعد أن تسمع الحديث الطويل الذى برع فيه السيد الحكيم ، العالم النابه فوزى عبد المجيد، ذلك الحديث الذى يلقيه فلا يجد أحدا يرده ، فالجميع به معجب ، وأى جميع ! انهم أو انهما أحمد وهناء ؟ ألا تكفى هناء حتى أقول الجميع ، انها الجميع لا شك ! انها كل شيء حين أنا لديها لا شيء • وماذا أكون أنا ، وأنا لا أتحدث فى أى موضوع ، اننى حتى حين حاولت أن أظهر علمى الدينى لقيت من الجميع سخرية وهزؤا ، فما الدين عند ثلاثتهم بالأمر الخطير الدين جميعه لا يهمهم فى شيء ، فكيف أحادثهم عن أركان الوضوء واقامة الصلاة وغير ذلك مما كنت أنال به فى العواسجة التبجيل والتوقير والاحترام • ان هذا الفوزى لا يترك مجالا لأحد أن يتكلم الا اذا جاء جعفر بن وصفى باشا فهو

وحده الذى يقف له بالمرصاد ، ويرده فى عنف حينا وفى لطف أحيانا،
أما حسام فلا شأن له بأى موضوع يتكلم فيه أحد . كل ما يعرفه
أن يظل رانيا الى هناء ، نظرات تحسها هى ، ثم ما تلبث أن تنفضها
عن نفسها فى زهو وخيلاء انها كعبة أنظار ، ثم لا تفعل بعد ذلك شيئا
الا أن تعجب بفوزى عبد المجيد وحديثه الطويل عن الغنى والفقر
والظلم والعدل والديمقراطية والاشتراكية .. أين يجد هذا الكلام .

وأنا ماذا ألم بى .. لماذا لا أخرج .. لقد ضرب على عم دهب
حصارا عنيفا ، فأنا لا أخرج الا وهو على علم بكل مكان أقصد اليه ،
وأنا لا أنال من النقود الا صبابة لا تغنى ، وكنت فرحا أننى آت الى
مصر أعوض فيها ما فوته على أبى حين أمسك بى عند الذرة ، فاذا
بيده التى انصبت على قفاى لا تزال تلاحقنى هنا بقبض المال عنى ،
وبعيون محم دهب الرواصد على . وأحببت هذا الحبس أول الأمر ،
فرحان أن أكون الى جانب هناء ، فاذا هناء لا تحس بى ، وكيف لها
أن تحس ، وأنا مهما أكن طالبا فى الجامعة فلن أزيد على ابن
عبد البديع ، فان احترمتنى فأنا ابن عبد البديع أفندى ولا زيادة ..
شهور مضت وتلتها شهور ، أفأظل هنا قابعا الى فتاة ما أظن أنها
ستحس بى يوما ، أما آن لى أن أخرج الى الحياة .. لقد رفضت
أن أشترك فى أى نشاط فى الكلية ، حتى تظل فترة المساء كلها
خالصة لهناء ، ولكن ماذا جنيت من كل هذا ؟ لا شىء .. ضياع فى
مجالات الهوى ، وضياع فى مجالات المجد لقد رفضت حتى أن أشترك
فى نشاط الجماعة فى الكلية .. والله لن يكون هذا منذ اليوم ،
اننى الى الحياة خارج .. فافتحى لى صدرك أيتها الحياة .. الى أين
.. أين يمكن أن ألتقى بالحياة ؟ على أولا أن أحدد الجهة .. انها
شارع فؤاد لا شك فى ذلك ، فالحياة تمور فيه مورا ، والنسوة
لا ينقطعن عنه ذهابا وجيئة .

ولكن أى منطقة فى شارع فؤاد خليقة أن أجعلها مرقبى .. انها تلك التى يقع فيها محل الأمريكين .. ان هناك اتفاقا غير مكتوب بين الفتيات والفتيان أن يلتقوا فى هذا المكان ، فاليه ..

دارت هذه الأفكار فى ذهن سيد ، وهو يختار أجمل ملابسه ، ويضعها على نفسه ، حتى اذا أتم زينته ، خرج من باب حجرته ، وصعد بضع درجات ، فأصبح على سطح الأرض .. أرض الحديقة .. وتلفت حواليه فاطمأن الى أن عم دهب غير موجود ، فعبر الحديقة مسرعا يتحسس الجنيه الذى أوهم عمه دهب أنه سيشترى به كتابا لا بد منه للكلية . وبعد حين كان سيد عبد البديع يلوب فى مكانه حول باب الأمريكين ، والنساء يتهادين أمامه ، يرى الواحدة منهن فيوشك أن يتقدم منها ، ثم يثنيه عن الاقدام خوف راعد يملأ نفسه ، وطال به الأمر وهو حائر لا يدرى كيف يبدأ حديثه ؛ وأخيرا رأى الى جانبه فتى شديد الأناقة يقف فى مكانه متحفز النظرات ، لا تستقر قدماه على حال ، ولا يستقر رأسه الى جهة ، فهو دائم التلفت ، يتربص بالشارع جميعا ، حتى مرت به أخيرا فتاة غيداء ، أنيقة غاية الأناقة ، ما كان سيد ليجرؤ أن يرفع اليها نظره ، فهى حلوة المشية ، متعالية رفيعة النظرات ، لا تذكره الا بهناء فى ترفعها وكبرياء تصرفاتها .

اقتربت الفتاة منه ومن هذا الفتى الذى يقف الى جانبه ، وكان الفتى اليها أقرب ، فسارع اليها قائلا :

ـ مساء الخير .

وذهل سيد حين سمعها تقول فى هدوء :

ـ مساء الخير .

ماذا .. مساء الخير .. دون أن تضربه أو تدفعه عنها ، أو حتى تسير ولا تلتفت اليه .. أهى مسألة ميسورة سهلة الى هذا الحد ..

مساء الخير ، ثم أضع ذراعى فى ذراعها ونمضى • وأنا هنا واقف منذ ساعات أقدم رجلا وأؤخر ستين رجلا •• ما أغبانى !!

وتربص سيد بالطريق ، وما هى الا دقائق حتى مرت فتاة أخرى ، ان تكن أقل أناقة من سابقتها ، الا أنها لا بأس بها . ولو أنها كانت أقل من هذا بكثير لما تورع عنها •• وأين أولئك النسوة ، أين هن جميعا من أجمل فتاة بقرية العواسجة ، أين هذه الملابس المهفهفة ، والنحور العارية ، والأثداء المشرئبة ؟ أين هذا جميعا من ذلك الثوب الأسود الذى ترتديه فتيات العواسجة ، خيبة الله عليهن •• واقتربت الفتاة من مكانه ، فسارع اليها قائلا :

ــ مساء الخير •

ونظرت اليه الفتاة فى سخرية ، وسارت فى طريقها دون أن تجيبه أو تشعره أنها أحست به • ولكنه وقد بدأ الحديث ، أبى أن يترك الفرصة ، فهو يترك مرصده ويسير خلفها :

ــ مساء الخير •

ولم تلتفت اليه الفتاة ، بل ظلت سائرة فى طريقها ، وأعاد هو التحية مرات ومرات ، والفتاة على حالها من الجمود والتجاهل ، وظن سيد أنها ما دامت لم تزجره ، لن تلبث أن تجيب تحيته ، وعلى هذه الأمنية سار خلفها •• دقائق •• وسمعها تقول شيئا :

ــ ياشاويش •• ابعد هذا الأفندى عنى •

وسمع السيد ما قالت ، فثبت مكانه كالتمثال المنصوب ، ولم يفق من ذهوله الا على الشاويش ساعيا اليه ، فاذا هو ينفض الجمود الذى أمسك بأقدامه ويروح يعدو عائدا ، حتى اذا وجد الطوار مزدحما بالمارة ، وخشى أن يلحق به الشرطى ، قطع عرض الشارع غير آبه بالسيارات التى تسعى فيه ، ولولا أنه كان يعدو كالصيد

يروغ من صائده ، ولولا لطف الله لما وصل السيد الى الشارع الجانبى سالما .

ووقف سيد يلتقط أنفاسه .. ويفكر فى هذه المصيبة التى كانت موشكة أن تصب عليه .. لن أعود لهذا .. لن أعود أبدا .. وفى خطوات حازمة مشى السيد الى هدف آخر ، وقد تحدد مقصده ، وتبين له الطريق .

وقف السيد أمام شاب وقور السمت ، نامى اللحية ، فى وجهه عزم واصرار ، وفى عينيه ثورة يخفيها هدوء يغشى ملامحه جميعا . وكان يجلس الى مكتب متواضع ، وقف أمامه سيد يقول :

ـ أريد طلب انضمام .

ـ وأين تحية الاسلام ؟

ـ السلام عليكم .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. ما اسمك ؟

ـ السيد عبد البديع الذكر .

ـ تشرفنا ، أنا عبد العاطى بسيونى .

والتقت يدان فى مصافحة قوية .

١٨

كان أحمد جالسا الى فوزى فى حجرة المكتب التى خصصت لأحمد فى القصر .. انها حجرة جده ذاتها ، وكان فوزى جالسا فى عظمة ، وقد وضع ساقا فوق ساق ، حين قال له أحمد فى مرارة :

ـ أرأيت ! لقد رفضت المجلة نشر مقالتى الأخيرة أيضا .

ـ طبعا يا أخى .. ان كتابتك تقدمية لا تقبلها هذه المجلات البورجوازية .

ـ ان جعفر ينشر مقالاته بانتظام بها .

ـ وفيم يكتب جعفر ؟ .. مقالات تافهة لا أفكار فيها ولا جرأة .

ـ نعم ولكنه ينشرها .

ـ لا بد أن أباه أوصى به رئيس التحرير .

ـ أبدا يا أخى ، عمى وصفى لا يتدخل فى هذه الأمور أبدا .

ـ اذن فرئيس التحرير يجامله من أجل أبيه .

ـ فلماذا لا يجاملنى أنا من أجل عمى ؟

ـ مقالاتك لا تصلح لمثل هذه المجلات التافهة .

ـ فأين أنشر اذن ؟

ـ سيأتى اليوم الذى تكون لنا فيه مجلة ، وسأنشر أنا لك فيها ؛ ولكن اسمع ..

ماذا ؟

ـ الليلة اجتماع الخلية ، وستلتقى هناك بفؤاد زين العابدين قبل سفره الى موسكو ، فقد عين فى السفارة المصرية بها .

ـ يا أخى دائما تخطىء ؛ ان اسمه زكى .

ـ هذا اسمه الحركى .

ـ والمفروض أننا لا نعرف الا اسمه الحركى .

ـ طيب ياسيدى .. علمنى .. علم .

ـ وأين الاجتماع ؟

ـ فى مكانها .

ـ ألم يتغير بعد ؟

ـ لا .. لم تصدر الأوامر بالتغيير .

ـ يا أخى أنا غير مرتاح لهذا المكان .

ـ أنت محق .

ـ وبعد ؟

ـ لا شأن لنا .. علينا أن ننفذ الأوامر .

ـ الأوامر .. الأوامر .. أليس لنا رأى ؟

ـ الرأى رأى المحترف يا أحمد ، ماذا ؟ أنسيت ؟

ـ لا .. لم أنس ، ولكنى أخشى .

ـ المفروض أننا لا نعرف الخشية .
ـ أعرف .
ـ موعدنا الليلة الساعة التاسعة مساء .
وطرق باب الغرفة ، ودخل سيد :
ـ السلام عليكم ورحمة الله .
ـ أهلا أبا السيد .. ذقنك .
ـ مالها ياسى أحمد .. دع ذقنى فى حالها .. يكفينى ما بى .
ـ خير ياسيد .
ـ من أين يأتى الخير ؟
ـ من ذقنك يا أخى .
ـ يا أخى صل على النبى ..
ـ لا .. لا لزوم لذلك .
ـ أنت حر .. الليلة اجتماع الأسرة .
فقال فوزى مسرعا :
ـ أين ؟
ـ لا شأن لك ياسى فوزى .. نحن أيضا لنا أسرارنا .
ـ طيب وماذا يضايقك فى هذا .
ـ يضايقنى أننى لم أذاكر منذ أسبوع ، والعوض على الله فى هذه السنة .

فقال أحمد :
ـ الملحق يا أبا السيد .. البركة فى الملحق .

كل عام ملحق .. أنت لا تعرف الذل الذى أراه من أبى حين يعرف أن عندى ملحقا .

فقال فوزى :
ـ لا عليك .. الملحق فى سبيل الله .. فى سبيل الحق .

فقال سيد :

ــ ماذا جرى يا سى فوزى ؟ •• على كل حال أحسن من الملحق فى سبيل الرفيق •• فى سبيل الشيطان •

وقال أحمد مغيظا دون أن يبين عن غيظه :

ــ أى شيطان ياسى سيد ؟

وقال السيد متخاذلا :

ــ الشيطان الرجيم ياسيدى •• الشيطان الرجيم •

وفتح باب الحجرة ودخلت هناء :

ــ مساء الخير يا جماعة •

فسارع فوزى قائلا :

ــ ان تحيتك هذه للسيد وحده •• فهو الجماعة •

فقال سيد فى هدوء :

ــ لا ياسيدى ، فسيد وحده هو المستثنى من التحية •

فقالت هناء :

ــ مساء الخير يا أولاد •

فقال فوزى :

ــ عظيم •• أصبحت التحية لنا جميعا •

والتفتت هناء الى أحمد تقول له :

ــ أقرأت خطبة عمى وصفى فى البرلمان ؟

ــ لا ••

ــ انها •• رائعة ••

وقال فوزى فى تعاظم :

ــ أما تزالون تهتمون بهذه التفاهات ؟

فقالت هناء فى تعجب :

ــ خطبة وصفى باشا فى البرلمان تفاهة •

ــ طبعا •

ـــ الجرائد كلها تعلق عليها ، والناس لا حديث لهم الا الخطبة .

ـــ الجرائد عبارة عن كتاب مأجورين ، والناس ماهم الا ببغاوات .. لا أعتقد أن فتاة لها عقليتك الواعية الذكية تهتم بآراء الجرائد أو قطيع الناس .

وقال سيد مغيظا :

ـــ الناس ببغاوات وقطيع ، والجرائد مأجورة ، ومجلس النواب تفاهات ، فما الذى يعجبك فى مصر ؟

فقال فوزى فى كبر :

ـــ أنا .

وقال سيد فى ثورة يحاول جهده أن يكتمها :

ـــ فقط ! .

ـــ ومن يرى رأيى .

ـــ ومن يخالفك ؟ .

ـــ لا يخالفنى الا مغرض جبان مقيد بالتقاليد العفنة وبالرغبات الحقيرة .

وتلعثم سـيد ، وحاول أن يجمع اجابة ترد فوزى الى بعض تواضع ، ولكن قبل أن يتكلم دخل جعفر وحسام ، وقبل أن يتبادل الداخلان التحية مع الجالسين ، سارع سيد قائلا ، وكأنما هو غريق يجد منقذه :

ـــ الله أكبر .. جعفر بك جاء .. سـيريحنا أو سيريحنى أنا شخصيا من الرد عليك .. أنقذنا يا جعفر بك ـــ أنا فى عرضك ـــ فوزى ياجعفر بك .. فوزى يا أخى سيقتلنى بغروره .

ـــ أولا وقبل الكلام عن فوزى ، ما هذه البك التى عادت الى الظهور فى كلامك ؟

ـ والله تعودت ، ســمعت أبى يقولها •• تعودت يابك •• يا جعفر •

ـ نحن زملاء ، ولا أحب مطلقا هذه الطريقة •• والآن فلنعد الى فوزى •• ماله •• فيم يتعبك ؟

ـ لا يعجبه أحد فى البلد الا نفسه•

ـ هذا من حقه يا أخى •• ومن يعرف ؟ لعلنا جميعا نعجب بنفوسنا هذا الاعجاب •

فقال فوزى :

ـ أنا أتكلم عن الجرائد والناس ؛ وأرى الجرائد كلها مأجورة، والناس قطيع وبغاوات وجهلة •

فقال جعفر :

ـ أى ناس ؟

ـ الشعب •

ـ الشعب ؟! الشعب الذى تريد له المساواة قطيع وبغاوات •

ـ وما دخل هذا فيما أريده له ؟

ـ سبحان الخلاق العظيم •• ان مذهبك يرمى الى جعل الشعب على درجة متساوية فى الغنى ، ومستوى المعيشة •

ـ لا ياسيدى ، ليس هذا فقط ما أريد ، وانما أريد أن أثقفه •

ـ من هذا الذى يريد ؟

ـ المذهب الذى أراه •

ـ وهل المذهب سيثقف الشعب من تلقاء نفسه ؟

ـ لا •• سيقوم بذلك زعماؤه •

— ومن سينتخب هؤلاء الزعماء .. هل الشـــعب هو الذى سينتخبهم ؟

— نعم .

— أهذا ما يحدث ؟

— انهم الآن فى فترة انتقال ، ولا بد أن يفرض الزعماء لفترة معينة ، ثم ينتخبهم الشعب .

— ومن الذى يفرضهم ؟

— هم يفرضون أنفسهم .

— ومن يعطيهم هذا الحق ؟ .. كيف لهم أن يعرفوا أنهم أصلح الناس للحكم ؟

— لا بد ممن يحكم ، وهم يملكون الجرأة .

— الجرأة وحدها ؟!

— لا أفهم .

— بأى قوة يفرضون أنفسهم .

— بقوة السلاح .

— اذن فأنتم ترغمون الشـــعب أن يقبل حكاما لا يريدهم ، وترغمون الشعب أن يرضى بلون من الحكم لا تعرفون رأيه فيه ، وترغمون الشعب على أن يقبل نوعا من الحياة لم يتعودها ، ثم تتغنون بالحرية التى يجب أن يتمتع بها الشعب وبحق الشعب فى الحياة ، ولا تخجلون مع هذا أن ترموا الشعب بالجهل وبأنه قطيع .

— انها فترة انتقال .

— ان فترة الانتقال فى ظل الدكتاتورية لا تنتهى .. لأن الحاكم حين يصل الى كرسى الحكم ، يعلم أنه وصل اليه على غير حق ، فهو

يحيط نفسه بالحرس ، ويفرض أوامره ، فاذا هي قوانين ، وينهب الأموال ، ويعش عيشة رغدة بلا رقيب ولا حسيب ، فالذين حوله جميعا يتمتعون بما يتمتع به من رغد ، وتنشأ طبقة حكام أغنياء ، وطبقة محكومين فقراء ، وبناء على نظريتكم ، لا بد أن تقوم ثورة أخرى لتتم المساواة في الرزق ومستوى المعيشة ، ويسقط هؤلاء الحكام ، ويتولى الحكم حكام آخرون ، وتتكرر المأساة ، وكل حكم جديد يحتاج الى فترة انتقال .. فان سألت : انتقال الى ماذا ؟ والى أي مدى يدوم هذا الانتقال ؟ فلن تجد جوابا ، ولكننا نحن نعرف الجواب .. انه انتقال الى الآخرة .

ـ نحن .. عن أي نحن تتكلم ؟ .

ـ نحن أعداءكم الذين نحب الديمقراطية .. الشعب يختار حكامه ، ويختار من يمثله ليحاسبهم ، وتقف مهمته عند هذا ليفرغ الى حياته .

ـ تقف مهمته ! .. والذين يمثلون الشعب هؤلاء .. أيقف عملهم عند محاسبة الحاكمين ؟ أم أن عملهم الأساسي الرجاء لدى الحاكمين ، والسعي لانجاز الخدمات والمصالح ؟

ـ أولا أنا أحادثك عن النظام الديمقراطي في عمومه ، وأنت تحادثني عن النظام الديمقراطي في مصر .. وعلى كل حال الذين يسعون لدى الحاكمين يريدون أن يصنعوا خيرا لأفراد من الطبقة التي لا تستطيع الوصول الى هؤلاء الحاكمين ، وما أرى في ذلك بأسا .

ـ والرشاوي التي يدفعها هؤلاء الفقراء ؟

ـ ذلك هو الفساد ، وهو فساد أشخاص ، وفساد الأشخاص لا يعني فساد نظام .

ـ نظام متعفن •• رأسمالى اقطاعى يقوم على النهب ؛ واستلاب أموال الناس ، قلة ضئيلة تبتلع أموال أمة •

ـ اذا بدأت الشتيمة فى النقاش ، فمعناها أن الحجة ضاعت ؛ وعلى كل حال أنت تجور فى حكمك ، لأن هؤلاء الذين تقول عنهم أنهم يأكلون أموال الأمة هم الذين يدفعون الضرائب ، وهم الذين يعولون من حولهم من الفقراء ، ويمدونهم بالعون •

ـ يعتقدون أنهم متفضلون •• انهم يعطون الفقراء من حقهم •

ـ لا يا سيدى •• ان الله قد شرع نظاما للزكاة ، وان كثيرا من الأغنياء يطبقون هذا النظام ، وان الضرائب التى تفرضها الحكومة هى نوع من الزكاة التى شرعها الله •

وتدخل أحمد فى الحديث :

ـ الله •• الأفيون •• المخدر الذى تسكتون به القطيع من أبناء الشعب •

ـ أحمد •• أنت فى أشد الحاجة الى هذا المخدر •• لن أناقشك فى الله •• فاننا نحسه أولا ، ونؤمن به ، ثم نفكر فيه •• فحين تؤمن به وتحسه ، سأناقشك •

ـ تهرب من النقاش ؟

ـ لا ، وانما أكبر الله أن يكون محل نقاش تافه كهذا •• سبحانه ، اننا نؤمن به ، ونحب أنفسنا ، لأنها تؤمن به ••

وقفز سيد واقفا :

ـ بسلم فمك ياجعفر بك •• بك واحدة •• يا جعفر باشا يا جعفر ملك •

وقال أحمد ضائقا :

ـ هرج يا أخى هرج •• يا أخى ألا تتوقر من أجل ذقنك هذه ؟

وقال حسام فى ضحكة عريضة :

ـ هرج يا أبا سيد هرج ، ولا تهمك الذقن ، فوالله لا يعجبنى فيك الا قلبك الأخضر مع ذقنك الوقور هذه •

وخرج فوزى من الحجرة جادا ، وترك من فيها يضحكون من سيد ، وما لبث أن عاد وهو يقول :

وقبل أن يتكلم أحمد ، مد يده مضمومة الى هناء ، فمدت يدها اليه لتستقبل تحيته ، فاذا أنامله تنفرج فى يدها عن ورقة صغيرة محكمة اللف ، وذهلت هناء هنيهة ثم ما لبثت أن تمالكت أمر نفسها ، وسحبت يدها من يده ، وقد أصبحت الورقة فيها •

وكان أحمد مشغولا باثارة جعفر ، وحسام مشغولا بالسخرية من السيد ، ولم يكن منتبها الى هناء الا السيد الذى رأى كل شىء ، فانعقد لسانه واجما فى ذهول حيران ، يهم أن يمسك بتلابيب فوزى ويقتله ، ولكن يرده عن ذلك خشيته أن يذيع ما ينبغى له أن يخفى من أمر هناء ، ويرد نفسه الى الصمت فتثور عليه فى عزة الفلاح ، وكبر المحب ، ووفاء المعترف بالفضل لهؤلاء القوم الذين يمهدون له أسباب الحياة • وينشغل القوم فى توديع فوزى ، ويجد السيد أن لا سبيل أمامه غير الصمت ، فيصمت على ثورة فى نفسه تغتلى ، لا يهدأ لها أوار •

وما يكاد فوزى يخرج حتى يقول حسام :

ـ هناء •• هل رأيت سيارتنا الجديدة ؟

فما يند عن هناء غير « هيه » ذاهلة ، فيقول حسام :

ــ هوه •• أين أنت •• أقول لك هل رأيت سيارتنا الجديدة •

ويقول السيد في نفسه : « يا خيبتك الكبيرة •• أتسألها أين هي سارحة •• اعلم يا خائب أنها سارحة في شيء قريب جدا منك ومنها •• في جيبها يا خائب •• مد يدك الى جيبها •• ولكن لا •• لا تفعل ، فأنا أخشى عليها أن تفجع في سرها •• وقاها الله السوء •• ولكن السوء كله في جيبها هذا •• أدركني برحمتك يا رب •• ألهمني الرشاد ماذا أفعل ؟ •• أتراني أفكر في أمرها من أجل وفائي لأهلها ، أم من أجل حبي لها •• سؤال عجيب ، لماذا لا يكون للسببين كليهما •• المهم ألا أترك ابن الضائعة هذا يأخذ الفتاة من أهلها •• وهل أستطيع •• نعم اني أستطيع •• اني سأرقب هذا الفتى ، فما أجعله يغيب عني لحظة •• وكيف •• اني ذاهب الآن الى اجتماع الأسرة •• لن أذهب •• طيب ، وكيف أستطيع أن أراقبه اذا ركب سيارة أحمد •• ما أظن أني في حاجة للمراقبة عندئذ ، فانه لن يذهب في صحبته الى لقاء غرامي مع أخته •• وما البأس على اذا أنا راقبت هناء •• هذا أجدى •• أم تراه أمتع •• يا أخي فكر في هذه المصيبة أولا ، ثم فكر في حبك اليائس •• على كل حال أنا هنا •• رقيب عليك يا ست هناء •• أينما ذهبت ، فأنا حيثما تذهبين » •

وصحا السيد من غمرته ليجد النقاش لا يزال يدور حول سيارة حسام ، فجعفر يقول :

ــ عجيب أنت يا أحمد •• تركب سيارة فاخرة وتعيش في قصر باذخ ، ثم تأخذ على الناس أن يركبوا ما تركب ، ويسكنوا في مثل ما تسكن •

ــ هذه ليست سيارتي ، ولا هو بيتي •

ــ يا أخي •• بع السيارة وتصدق بثمنها على الفقراء •

ـ هذه مشكلة تافهة ، فما ثمن سيارة وسط مستنقع الفساد ..
النظام جميعه فاسد ، رأسمالي بورجوازى .. اننى بسيارتى أخدم
الهدف الذى أسعى اليه ، ولو أن هذا سر ما كان لى أن أبوح به .

ـ والله ان لم تبح به لما أحسست بالمتعة التى تحسها فيه ..
انك لا تمشى خلف مذهبك هذا الا من أجـــل ما تتوهم أنه أسرار ..
تهاويل وطقوس ومراسم هى التى تغريك .

ـ هذا كلام الانحلاليين .

وقفز حسام عن كرسيه فى غضب :

ـ ليست هذه عيشة .. ان واحدا منا لا ينطق بكلمة حتى تنقلب
الى مناقشة وبورجوازية وانحلالية وديمقراطية وزفتية وبعد ، ألا نرتاح
من هذه المصائب لحظة .. قل لى يا حبيبى يا أحمد .. قل لى يا أخى
أتعتقد أن الرفيق الأعلى ، وأقصد ستالين بالطبع .. أتعتقد أنه لا يضحك
أبدا .. أتعتقد أنه لا يتكلم فى شىء آخر غير هذا الهذاء الذى تقوله
.. اذن فعيشته سوداء .. أنا خارج يا أخى .. واستمروا أنتم فى
نقاشكم ..

وضحك جعفر ، وهو يقول :

ـ اقعد .. اقعد .. ولن نتكلم فى هذا .. اقعد وهرج كما
تشاء .

ـ لا يا أخى لن أقعد .. أنا ذاهب يا أخى الى أصدقاء حمير
مثلى .. يتكلمون عن .. النهاية .. هناء معنا .. يتكلمون يا أخى
كخلق الله الآخرين .. نضحك يا أخى نتمتع بحياتنا ولا نتكدها ،
السلام عليكم .. يا هناء قولى لخالتك اننى خرجت ، وسأرجع متأخرا
بعد السينما .

وقالت هناء :

ــ خالتي هنا .

فقال حسام وهو واقف بالباب :

ــ نعم انها في الدور الأعلى مع خالتي ومعها نوال .

وخرج حسام ، وقامت هناء وهي تقول :

ــ سأصعد الى خالتي فاني من زمن لم أرها .

وقال جعفر :

ــ وأنا أيضا سأصعد معك لأرى عماتي .. ألا تأتي معنا يا أحمد ؟ .

وقام أحمد متثاقلا وهو يقول :

ــ آتي .

وخلت الغرفة بالسيد ، فأبقى بابها مفتوحا ، واتخذ لنفسه كرسيا مواجها للباب ، ليرى هناء ان هي حاولت الخروج .

صعد الثلاثة الى الدور الأعلى وتبادلوا التحيات ، وجرى الحديث بين الجميع ، والتقط جعفر طرفا منه وراح يتحدث ، ورأى أحمد الجميع ينصتون الى الحديث ، يضحكون أو يبدون اهتماما يرتاح اليه المتكلم .. وراح يسائل نفسه .. لماذا لا يستطيع هو أن يتكلم .. بل لماذا لا يستطيع أن يفعل شيئا على الاطلاق .. جعفر يكتب في المجلات ، وأنا أكتب ولا أستطيع أن أنشر شيئا .. بل انني لو خلصت الى ضميري لحكمت على ما أكتب بأنه غير صالح .. ولقد لجأت الى الكتابة بعد أن حاولت الرسم فلم أفلح فيه .. ولن أنسى يوم أحضرت لي أمي هذه الكمنجة الفخمة ، ثم لم أستطع أن أعزف عليها شيئا .. لا شيء أنا .. لا شيء على الاطلاق .. اللهم الا المذاكرة والنجاح . المصيبة أن جعفر والرسامين من اخواني والموسيقيين ،

أغلبهم يذاكر وينجح ، فبماذا أمتاز عليهم . انني فى هذا البيت اله .. ان أحداً لا يتمتع فى بيته أو فى ملكه كما أتمتع أنا ، اشارتى أمر ، وكلمتى تقديس ، وأوامرى تنزيل من حكيم عليم ، على حد احترامهم للحكيم العليم .. ولكنى اذا تركت البيت فما أنا .. أنا لست شيئا الا منذ انضممت الى اخوانى هؤلاء .. أحسست أنى أفكر للكون جميعه، وأرسم الخطة للعالم أن يسير عليها .. أنا فى ذلك المكان شىء خارج عن قطيع الناس ولكنى أريد أن أكون فيه ذا سلاح .. نعم لم يبق لى الا القلم .. انه أسهل الفنون ، فما يحتاج الأمر فى الكتابة الا أن أخط على الورق .. ولكن هؤلاء الصحفيين لا يعترفون بى .. يقول جعفر « اقرأ » فهل قرأ هو .. نعم .. أظنه فعل .. ولكن جعفر آسن العقل ، لا حرية فى تفكيره ، ولا فى اتجاهه .. مقيد بالتقاليد الآسنة .. الحمد لله أنه كذلك .. والا انضم الى جماعتى .. وحينئذ لن أكون أنا شيئا .. بينما أنا الآن بينهم كاتبهم الأوحد .. لأن أحدا منهم لم يحاول الكتابة .. ولكن ماذا أكتب لهم ؟! .. بحسبى أنهم يطلقون على لقب كاتبهم .. وما هو بالشىء الهزيل .

ونظر أحمد فى ساعته ثم قال :

ـــ سأترككم أنا فانى على موعد .

وقالت أمه :

ـــ أى موعد ؟

فأخطأ أحمد عن عمد وهو يقول :

ـــ اجتماع .

ثم قال وكأنه يستدرك :

ـــ اجتماع مع بعض أصدقائى .. سنذهب الى السينما .. سلام عليكم .

وكان جعفر مدركا لكل التصنع الذى افتعله أحمد ، ولكنه سكت .. بينما تعلقت عينا هناء بأخيها هنيهة ، حتى اذا خرج من باب الغرفة لحقت به ، وقبل أن يهبط الدرجة الأولى من السلم قالت له :

ـ أحمد .

ووقف أحمد :

ـ نعم .

ـ تأكد من خلو المكان من الجواسيس يا أحمد .. واذا شككت فى شىء فارجع يا أحمد .

فقال أحمد فى تعاظم :

ـ لا تخافى .

ثم راح يهبط السلم وهو يحس بعينى أخته وهما ترقبانه ، فزاده هذا شعورا بالكبر والأهمية . وما لبث أن نفض عن ذهنه كل ما فكر فيه حين كان جعفر يتكلم .. فهو الآن واثق .. واثق كل الثقة أنه شىء .. بل إنه كل شىء .

١٩

قصد حسام الى بار الشباب حيث تعود أن يقصد ، كلما ضاق باعراض هناء عنه ، أو كلما شقى بهذه الأحاديث الطويلة التى يسود بها جعفر وأحمد وفوزى الحياة فى وجهه .

الى هذا المكان يقصد ، وفيه أصدقاؤه الذين نبتوا معه من مغرس واحد وفى هواء واحد ، تنفسوا الطفولة معا وها هم أولاء يتنفسون شبابهم فى اقبال عليه وتقدير له والتذاذ بكل لحظة تجمعهم حول شبابهم هذا المرح الطليق .

انهم أبناء الحى ، جمعهم السكن ، وأحاطت بهم جدران الأفنية وأسوار الحدائق منذ هم أطفال يحلمون ، أو منذ هم أطفال يتعثرون، ثم ما لبثت أن ضمتهم جدران الفصول وأسوار المدارس ، فأصبحوا وهم متلازمون قل أن يتفرقوا ، ثم اتجهوا الى الجامعة وقد مال أغلب جمعهم الى اختيار كلية واحـدة ، لا عن رغبـة فى هذه الكلية ، وانما كان شأنهم فى ذلك شأن القطيع ، يسير خلف واحد من أجزائه ليس بأحسنه ولا هو بأحكمه ، وانما سار طريقا معينا بلا سبب ولا باعث ، وسار القطيع من خلفه ليعفى نفسه من التفكير فى طريق آخر .

وكان أصحاب حسام يأخذون حياتهم فى يسر كما يحب أن يأخذها هو ٠

آباؤهم يقومون عنهم بما يحتاجون اليه ، وهم الى الدرس وعنه رائحون غادون بياض النهار ، ثم هم مجتمعون على لعب حين كانوا أطفالا ، وقد راح هذا اللعب يتطور مع أعمارهم ، فبعد أن كان جريا بلا هدف ، شب قليلا ، وأصبحت الكرة تحدد أهدافه ، ثم شب مرة أخرى فأصبحت المرأة هى التى تحدد الأهداف والمتجهات ٠ وقد يتخلف فى مرحلة من مراحل اللعب فرد من القطيع ، ولكنه لا ينى عن ملاحقة اخوانه فى مراقى حياتهم ، فان أحب واحد من الأصحاب الكره وظل يلعبها ، فما يثنيه ذلك عن أن يحب المرأة ، بل لعله أحب الكرة ليغرى بها المرأة ، أو لعله أحبها كبقية من ذكرى الطفولة ، وأخلاف من عسر حبيب ، وهكذا سار القطيع ، ان تخلف فرد تخلف بفلذة من كيانه ، ولكنه هو بجميعه يظل سائرا حيث يسيرون ٠

وكان « بار الشباب » أحدث مكان تواضعوا على الالتقاء فيه ، فهو حجرة قابعة فى حى العباسية ، لا تكاد تتسع لغيرهم ، وأمامها رحبة بدائية الاعداد ، ويتنقلون هم بين الرحبة والحجرة حسبما يكون الجو ، ويتصدرهم أينما يجلسون سعد الصاحب أعظمهم جسما، وأطولهم لسانا ، وأكثرهم حديثا عن مغامراته مع النساء ٠ وقد حلت النساء عنده محل الكرة التى كان يروى لهم أيام غرامهم بها ، كيف هو قدير على التحكم فيها واصابة الهدف بها ، فان سألوه كيف وهو على هذا السمن المفرط ، ضحك وأخبرهم أن سمنه هو الذى يسهل الأمر له ، فما على زملائه فى الفريق الا أن يسلموا الكرة الى قدمه ، وقدمه ــ من بعد ــ كفيلة بأن تصيب بها الاصابات جميعا ، وما عليه هو الا أن ينقل قدميه فى هدوء وعظمة ، حتى يصل الى الهدف ، فما يجرؤ واحد من الفريق الآخر أن يتقدم منه ، وكان اخوانه

لا يحاولون أن يختبروا هذه العظمة فيه ، فهم يعرفون قدرها تمام المعرفة • وكبرت الكرة وأصبحت امرأة ، وأصبح يقص على اخوانه تجاربه مع النساء •• مع جمع كبير من النساء ، فما كان يكتفى بغير الكثيرات منهن •• وقد كانت قصصه عن النساء أمتع ، وكان اخوانه يحبون منه هذا الحديث ، لأنه خفيف الظل حين يسوقه ، ولأن هذا الحديث بالذات يدغدغ فيهم كوامن رغبات لاهبة •

على أنهم كانوا يعرفون طريقهم الى النساء ، وكان سبيلهم الى ذلك عبد الجواد أفندى الذى يبيع لهم السجائر فى « بار الشباب » وكانوا اذا شاءوا ، طلبوا اليه امرأة أو امرأتين حسبما يكون عددهم يوم يطلبون ، كان عبد الجواد أفندى يهيىء لهم كل ما يحتاج اليه الأمر من غرفة الى غير الغرفة ، وكان سعد دائما يشاركهم فى هذه الاجتماعات ، فما يفت ذلك فى عضده ، أو يثنيه عن ذلك القصص الذى يرويه عن النساء •

وكان حسام من أهم أعضاء الندوة ، وما كان حبه لهناء ليمنعه عن شىء مما يفعلون ، فقــد كان الأمــران فى ذهنه مختلفين كل الاختلاف ، وقد كانت هذه الطريقة فى التفكير مسيطرة على أذهان اخوانه جميعا • فهناء حب وزواج وبيت وأولاد وصلاح وتقوى ، وأما بار الشــباب وعبد الجواد أفندى فضحك ومزاح وسخرية من كل شىء واقبال على كل شىء ، واستقبال للحياة كأروع ما تستقبل الحياة ، فما عرف هؤلاء الأصدقاء أحلى من هذه اللحظات التى كانت تجمعهم مهما يكن سبب اجتماعهم هذا •

وقد كان حسام لا يجرى وراء امرأة ، ولا يستخدم سيارته فى تصــيد محيــات الســيارات ، فما كان يحب من النساء الا هنــاء والا ما يحضره عبد الجواد أفندى وبتوصية من الاخوان ، وبحيث

يشارك هو فى الموضوع بالمقدار الذى يشاركون به • ثم لا يهتم بأمر من النساء بعد ذلك أبدا •

ولم يكن « بار الشباب » مكانا لا تقدم فيه الا الخمر ، بل ان الصحاب قليلا ما تناولوا الخمر ، فان فكروا فيها فالمامة العازف عن الشيء لا يوغل فيه • وكذلك كان شأن حسام ، فما أحب الخمر يوما، وما شربها الا مكرها ليجارى الرفاق ، ولا يتخلف عن شيء يفعلون ، ولكنه لم يزد ، لأنهم هم لم يزيدوا الى الدرجة التى تتحول بهم من حساة الى سكارى •

قصد حسام الى بار الشباب فى يومه هذا ، فوجد الجميع قد سبقوه ، ووجدهم واجمين بعض الشيء ، وسعد بينهم ، وأمامه كأس مترعة ، وعلى وجهه أمارات ألم يحاول أن يخفيها ، فتنحسر حينا عن وجهه لتبدو على وجوه اخوانه جميعا ، ثم يختطف الكأس فيفرغها فى جوفه سريعا ، ويطلب أخرى ويتكلم فى محاولة هزيلة للمرح لا تلبث أن تعيد الألم متنقلا بين وجهه ووجوه اخوانه ماثلا دائما فى الجو المحيط بهم •

وقعد حسام باهتا دون أن يدرى ما هم فيه ، ولا ما يرويه عليهم سعد ، فما تعود من سعد أن يروى غير ما يزيل كربهم ويروح عنهم ، وسمعه يقول :

ـ أراكم متألمين •• أيهمكم شأن هذه البنت •• ما أكثر البنات اللواتى وقعن فى حبى •• ألم يبق الا هذه القبيحة ، أنا لم يضايقنى الا قولها يا « سمين » •• وكنت طول هذه السنوات أحبها •• وكنت أظنها تحبنى •• هات كأسا أخرى يا بنى •• والمصيبة أن أباها • عمى هذا الجلف يطردنى من البيت • أنا لم أصنع شيئا حتى يطردنى •• لم أصنع شيئا على الاطلاق ، ولكن كيف لم أصنع ! •• ان أبى فقير

•• فقير كأبيها يا ناس ، ولكن جاءها الولد ومعه العربة فأنا سمين وأبى فقير بنت الـ •• النهاية •. ولكن أبوها عمى •• يطردنى وأنا لم أقل شيئا ، طردنى والله ، لأنى أنتقد أن تخرج بنت عمى وحدها مع شخص غريب •• كفرت •• ؟! هات كأسا يا ينى •

وقال حسام :

— لا تحضر شيئا يا ينى • ما دخل ينى فى هذا الذى ترويه ؟

وسالت الدموع على خدى سعد الكبيرين :

— تصور يا حسام ، من أجل سيارة •• سيارة أقل من سيارتك بكثير •• يطردنى الرجل من بيته ، وتقول هى ما شأنك يا سمين •• أين الكأس يا ينى ؟

— يا أخى اترك ينى •• وقم •• قوموا يا أولاد •• سنركب سيارتى ونمر بها عند بيتها ، وسأجعلك أنت تقود السيارة •

ويقول سعد ثائرا :

— أنا •• أنا أذهب الى بيتها •• أو فى شارع بيتها ثانية •• أبدا أين الكأس يا ينى •• أنت عارف يا حسام كم امرأة وقعت فى غرامى ، ولكنى كنت أحبها • أحبها هى •• مالكم هكذا ؟ اضحكوا ماذا ؟ أهى مصيبة ؟

وأحضر ينى الكأس أخيرا ، وحاول حسام أن يمنعه من تقديمها ، ولكن سميح مال الى أذنه وقال له :

— اتركه يشرب ، فان الخمر تريح فى مثل هذه الأحوال •

وترك حسام الكأس تأخذ طريقها الى سعد ، وقال هو لسعد :

فى رجلك •• والله ان « زعلت » تكن امرأة •• أى امرأة تلك التى تبكى من أجلها •• نصف نساء البلد يحببنك •

ودارت أنظار الصحاب الى حسام يعجبون من جرأته فى الكذب، وزاد عجبهم من سعد أن صدق هذا الكذب وهو يقول فى بعض راحة :

ـ أنت تعرف ذلك ، أليس كذلك ؟

وقال حسام :

ـ وكلنا يعرفه .. أين عبد الجواد أفندى .. أين عبد الجواد يا سميح ؟ ألم تره اليوم ؟

وانصرفت الجماعة الى البحث عن عبد الجواد أفندى ، حتى اذا ما عثرت عليه راحوا يهيئون معه سهرة الليلة ، فانشغل معهم سعد ناسيا أمر عمه وحبه الضائع ، ولم يعد يذكر شيئا الا عبد الجواد أفندى وما يعده لهم .

٢٠

كانت هناء قد اختلست التليفون الى حجرتها ، وأقفلت رتاجها فأمنت أن يعتدى أحد على خلوتها وأقامت تنتظر •• ولم يطل بهـا الانتظار ، فقد دق جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، ولكنها لم تسمع من الطرف الآخر صوتا حتى قالت هى :

ـ نعم •

وتكلم الصوت همسا كمن يريد أن يخفى حقيقة نبراته !

ـ هناء •

وقالت هناء :

ـ نعم •

ـ كيف أنت ؟

ـ الحمد لله •

ـ هل أقلقتك ؟

ـ لا أبدا •• ما أخبارك ؟

ـ لا أخبار •• لم يطلع الفجر بعد ، ولكنه سيطلع حتما على هذا المجتمع الآسن ، وعلى هذه العقول الرجعية الجامدة •

ــ قل لى يا فوزى ، أنا أعرف أنك ذكى ، ولكن ألا يعجبك أحد آخر فى هذه الدنيا ؟

ــ أنت .

ــ فقط ؟

ــ فقط .. الآخرون كلهم يتعبوننى فى افهامهم . انهم يخشون الحقيقة .. انهم مقيدون برجعيتهم ..

ــ كلهم ؟!

ــ كلهم الا أنت .. أنا معجب بك .. معجب بعقلك !! أنت غير الناس الذين أراهم فى بيتك جميعا ، ان أفكارك تقدمية واعية ، وتقبلين الآراء الحرة فى جرأة .

ــ أفكارى أحسن من جميع الذين تراهم .

ــ جميعا .

ــ حتى جعفر .

ــ أغرك هذا التافه بحديثه المنمق .. أم لعله يعجبك لأنه غنى وابن باشا .. طبعا هذه مسائل أخرى لا طاقة لنا بها .

ــ على العكس .. أنا أرى أنه لا عيب به الا غناه .

وقال فوزى :

ــ أترى هذا رأيك حقا ؟ أم أنك تجاملينني ؟

ــ بل أنت تعرف أنه رأيى .

ــ أنت أعظم الناس .. ولكن لماذا .. لماذا يا هناء .. لماذا تكرهين الغنى ؟

ــ أكره المـال . آكرهه لأنه .. أكرهه والسـلام . ما يهمك أنت .. ؟

ـ متى أراك ؟

ـ غدا .

ـ الساعة السادسة ؟

ـ الساعة السادسة .

ـ في نفس المكان ؟

ـ ولم لا ؟ .

ـ والله لا أعرف .. أخاف أن يرانا أحد .

ـ أنا لا أراك تخاف أحدا .

ـ أنا لا يهمنى أحد الا أنت .. أنت وحدك التى اهتم بها .. وأحيا لها .. أنت ..

ـ على مهلك .. ان كلامك هذا يناقض أفكارك واتجاهاتك .

ـ وما هى أفكارى واتجاهاتى ؟

ـ أنت تقول : انك تحب أن ترانى لأنك معجب بعقليتى ، وتحب أن يلتقى عقلانا بعيدا عن أعين الناس وعن تفاهاتهم .

ـ وهل يمنع هذا من الحب .. ؟

ـ ولكن الحب ضعف وتخاذل وابعاد عن التفكير العملى السليم، ووقف لميكانيكية الحياة ، والحب عاطفة ، والعاطفة تفسد الأعمال الكبرى التى يجب أن نضطلع بها فى هذه الفترة .

ـ لكن ماذا يمكن أن نفعل .. كيف نتحكم فى قلوبنا ؟

ـ عجيبة .. أتسألنى يا أستاذ .. أنا أعيد ما أسمعه منك .

ـ حين نلتقى نبحث فى هذا .

ـ أمرك يا أستاذ .

ـ فى نفس المكان ؟

ـ فى نفس المكان .

٢١

كانت الأضواء المتهافتة تنبعث من المصابيح فى خوف ، فما يستطيع نورها أن يفسح لنفسه مكانا وسط الظلام ، فالمكان مرتعش الضياء ، تتبين فيه الهيـاكل والشـخوص ، ولا تتبين الملامح أو القسمات •

وكان فوزى جالسا مع بعض شباب آخرين تبدو على وجوههم سيماء الاهتمام الكبير •• منهم من يصطنع هذا الاهتمام ، ومنهم من لا يستطيع أن يضع على وجهه تعبيرا آخر غير هذا ، لأن وجهه جاد بطبيعته ، فما يملك أن يكسبه غير ما يكسوه من حزم وصرامة ، ويبدو بعض منهم آخر مهتما غاية الاهتمام بما يتخذه من هيئة وأردية ، فالقميص أسود ، ورباط العنق أحمر ، وشعر رأسه كث غزير ، وعيناه تستتران وراء منظار ، وهو لا ينسى بين هنيهة وأخرى أن يرفع احدى يديه الى شيء من هذا المهرجان الذى يتخذه •• فقد يصلح شأن رباط رقبته ، أو قد يمسك بطرف نظارته فى وقار شديد ، أو يمر براحته على شعره ، وهو يأتى جميع هذا متظاهرا بأنه لا يهتم بشأن شيء مما يتفقده ، ولكن هذه اللمسة الصغيرة تبين لمن يراه أنه لا يهتم الا بشعره وقميصه ورباطه ونظارته •

وكان المكان زاخرا بالهمس ، يتجمع فيصبح ضجيجا لا ترتاح اليه الأذن . وكان فوزى منهمكا فى حديث مع بعض اخوانه حين أحس بهذه الضجة ، فلم يلبث أن نظر فى ساعته ثم قال :

ــ أيها الرفاق ، اجتماعنا اليوم مهم غاية الأهمية ، فالرفيق زكى قد عاد من موسكو ، وسيروى علينا ما شاهده هناك ، وما يجب علينا أن نفعله حتى نصل الى الكمال المذهبى .. ولكن ينقصنا واحد ، هو الرفيق صالح .

وحينئذ قال أحد الرفاق فى جد :

ــ طالما قلنا ان الرفيق صالح لا يصلح لنا ، ونحن حين نقبله نخالف تعاليم أحد فلاسفتنا ، وأظنه انجلز الذى يعتقد ان ضم الأغنياء الى حظيرتنا خطأ كبير ، لأنهم يضطرون الى معــارضة مصــالحهم الشخصية ، ولأن العدالة التى نهدف اليها لا بد أن تصيبهم هم اصابة بالغة .

ورد فوزى فى اصرار مدافعا عن صديقه أحمد .. فلم يكن صالح هذا الغائب الا أحمد فى اسمه الحركى ، قال فوزى :

ــ ان الرفيق صالح معنا منذ وقت طويل ، وقد أثبت جدارته فى أشياء كثيرة ولا ننسى أنه كان يمدنا بالمال ، حين كان المال يتأخر عنا ، ثم أنت تنسى أن مولوتوف من الأغنياء .

ــ هذا خطأ لا بد أنه سيصحح .

ــ أظن أننا لم نصل الى درجة انتقاد الحزب .

وقبل أن يتمادى بهم النقاش ، دخل أحمد وهو يقول :

ــ أنا آسف أيها الرفاق تأخرت مرغما .

وسارع فوزى قائلا :

ـ لا بأس يا أحمد .. يا رفيق صالح . آن لنا أن نسمع الى الرفيق زكى .. أينسمح حضرة المسئول بأن يطلب اليه الكلام .

ووقف فى صدر القاعة شاب قصير القامة ، يضع على عينيه نظارة سوداء قاتمة ، وتكاد النظارة تخفى خديه الغائرين اللذين يحيطان بفم دقيق ، فيه صرامة ، وفيه احتقار لكل شىء ، وفيه حقد على كل شىء .

ذاك هو المسئول ، وهو رئيس هذه الخلية .. وقف فلم يزد على أن قال :

ـ الرفيق زكى يتفضل .

ولكن أحدا لم يتقدم .

فقال المسئول مرة أخرى :

ـ الرفيق زكى .

فامتدت أيد كثيرة الى ذراع شاب طويل القامة ، أشهب اللون ، مشدود جلد الوجه ، جامد القسمات ، فقام فى تؤدة قائلا :

ـ أيها الاخوان ، ان اسمى فؤاد زين العابدين .

فثارت فى القاعة ضجة كبيرة ، ودق المسئول النضد الذى أمامه بعنف وقال :

ـ ننبه الرفيق زكى انه يفشى سرا ما كان له أن يبوح به .

فاستأنف فؤاد حديثه وكأنه لم يسمع شيئا :

ـ ان اسمى هو فؤاد زين العابدين ، وكلكم يعرف ذلك ، وقد قصدت أن أجىء اليوم اليكم لأكشف عن عيونكم عصابة من الجهل .. أنتم فى خطر ..

وثارت الضجة مرة أخرى ، وقال المسئول بعد أن دق النضدة :

ـــ اذا كانت السلطات الغاشمة تبحث عنا ، فليس للرفيق أن يفضى بهذا للرفاق ، وانما كان عليه أن يبلغنى أنا لأبلغ المحترف وتتلقى منه الأوامر •

وقال فؤاد دون أن يلتفت الى المسئول :

ـــ ان الخطر فى أنفسكم •• لقد جئت منذ أيام قليلة ، ولا أعرف شيئا عن السلطات هنا •• أيها الاخوان ، من شاء منكم أن يتخلى عن انسانيته ، ومن يشأ منكم أن يصبح قطعة حقيرة من جماد ، ليس فيها من مشاعر الانسانية الا شعور الخوف الراعد ، والفزع والقلق ، ومن يشأ منكم أن يصبح شيئا بلا حرية ولا شعور ولا تفكير ، شيئا ليس فيه بقية من آدمية الا أن يسمع فيطيع ، والا أن يظل مرتعشا أن يكون قد أخطأ السمع ، أو أخطأ الطاعة ، من يشأ أن يفقد انسانيته جميعا •• من يشأ أن يصبح كذلك ، فليظل على هذا المذهب الذى تعتنقون •

وثارت الأصــوات بالقاعة ، فمن قائل « مروق » ومن قائل « خيانة » ومن قائل « برجوازية » ومن قائل « انحلال » ومن قائل « رجعية » •

وثار بالقاعة أيضا جو قاتم عقد ألسنة كثيرة من الخوف ، وعقد ألسنة أخرى من الدهشة •• حتى المسئول ظل فترة طويلة لا يملك زمام نفسه ، ثم انتبه آخر الأمر الى موقفه هذا ، فدق النضد بيده ، ثم قال :

ـــ نعتقد أن الرفيق •• آسف أن فؤاد زين العابدين قد أصبح برجوازيا ، وأنه اتصل بأصحاب المذاهب الرجعية ، وبهذا أصبح خارجا عن خليتنا ، وانى أعلن فصله عنا •

وأكمل فؤاد حديثه :

ـــ الآدميون هناك لا قيمة لهم •• لقد قال لى بعضهم : انهم يحيون

شعور الخوف ويغذونه فى أنفسهم ، لأنه الشعور الوحيد الذى يربطهم بالآدمية ، وهم لا يريدون أن يتخلوا عن آدميتهم .. لايريدون برغم اصرار السلطات على افتقادهم لهذه الآدمية ..

الانسانية التى يتغنى بها المذهب لا وجود لها على الاطلاق .. هناك كل شيء الا الانسانية .. الانسان قطعة من الهمل .. السلطة تهتم بمسار فى آلة أكثر من اهتمامها بحياة انسان .. الفقر مدقع ، والحكام يعيشون فى بذخ دونه بذخ القياصرة .. كل ما يتغنون به من حقوق الانسان كلام أجوف لا تطبيق له .. الأفراد والأسر يعيشون عيشة الحيوانات المذعورة التى تعلم أن الصياد وراءها دائما ، والصياد لا يرتاح ، والحيوانات لا تستقر .. الخوف والرعب هما كل الحياة، المقدسات لا وجود لها .. أيها الاخوان ، لو لم أر هناك الا الخوف والرعب اللذين يحيا فيهما القوم لكان هذا كافيا لأن أعتزل مذهبهم .. أيها الاخوان ، سأترككم بعد أن ألقى عليكم تحية الاسلام دين المشورة ، ودين الأمن والاستقرار وأرجو أن تجيبوا تحيتى وتتبعونى الى الهواء الطلق .. السلام عليكم ورحمة الله .

وبهذه الجملة الخطابية خرج فؤاد من القاعة فى هدوء ، وكأنه لم يستثر كل هذه المشاعر .. وران الصمت على القوم .. صمت حائر لا يدرون أيصدقون هذا الوافد عليهم من مصدر مذهبهم ، أم لا يحفلون بما قال .. تزعزعت الثقة فى النفوس ، ولكن المسئول سارع قائلا :

ـــ لا شك أنكم تعرفون أننا نحارب بكل الوسائل والطرق ، ولا شك أنكم قد سمعتم هذا الكلام قبل اليوم ، فهو كلام أعدائنا ، ولقد انضممنا الى هذا المذهب بعد أن وثقنا به كل الثقة . فاذا كان لهذا الحديث الذى سمعناه الآن أى أثر فى نفوسنا فمعنى ذلك أننا نستهين بعقولنا ، ونستهين بكرامتنا ، وبمبادئنا .. ولا أظن أننا

ضعاف العقيدة لدرجة أن حديثا كهذا يجعلنا نشك فى المبدأ الذى ضحينا فى سبيله بكل شيء •

والتمعت ابتسامة على شفتى فوزى ، فهو يعلم أن المسئول لم يضح بشيء الا بتوقيع شهرى يقبض فى مقابله مبلغا من المال ضخما ، ولكن هذا لم يمنعه أن يقول :

ـ بطبيعة الحال أيها الرفيق ، هذا كلام انحلالى ، رجعى ، بورجوازى ، واننا نسمعه كل يوم ، فنرجو منك أن تعتبر الأمر كأن لم يكن ، وتدخل فى جدول الأعمال •

وكالقطيع التائه راح الآخرون يرفعون ثغاءهم مؤيدين قول فوزى ، وأخذ المسئول فى حديث آخر •• حديث متخبط ، فما كان يدرى ماذا يقول ، بعد أن أفسد عليه فؤاد برنامج الليلة •

وانتهى الاجتماع ، وخرج أحمد ، مسرعا متجاهلا نظرات فوزى اليه ؛ التى كانت تدعوه لينتظره ، لم يكن يريد أحدا ليسير معه •• كان يريد أن يخلو لنفسه •

يبدو على فؤاد زين العابدين أنه صادق فيما قال ، ولكن كيف يترك الخلية •• ماذا يصبح اذن ؟ •• انها كل شيء له •• كيف يترك هذا العمل الكبير •• ؟ أهو العمل الكثير الذى يجذبه اليها ، أم تلك التهاويل والطقوس ؟ أهو العمل الكبير ما يجذبه اليها ، أم أنه أصبح وله اسم آخر ، وأنه يتخفى من العيون ، وأن عيون السلطات تتابعه ، وأنه ذو أهمية بالغة فى دوائر الحكومة والأمن العام ؟ • انه يهرب الى هذا المذهب من الفراغ الذى يعانيه فى حياته ، انه يهرب الى الرفاق من فشله فى كل شيء حاوله ، وهو الذى لم يعرف فى بيته الفشل أبدا ، لم يسمع كلمة « لا » فى بيته أبدا ، ولكنه سمعها حين أراد أن يكون موسيقيا ، وسمعها حين أراد أن يكون رساما ، وسمعها حين أراد أن يكون كاتبا •• سمع « لا » صارمة ليس فيها

رقة ولا مجاملة •• لقد رفضه الفن •• ولم تقبله من جنبات الحياة الا هذه الخلية التى يستخفى فيها من حقيقة فشله ، ومن حقيقة الحياة التى أبت أن تعطيه الا مالا ضخما هو أمه ، دون حتى أن تكمل هبتها بأب يستطيع أن يحترمه •• ويله من أبيه •• انه هو من جر عليه كل هذا البلاء الذى يعانيه •• انه أب بلا ضمير ، بلا كرامة •• بلا تقدير لأى معنى كريم •• لماذا تعطى الطبيعة لجعفر أبا مثل وصفى باشا ، وتبخل عليه بأب شبيه •• لقد كان يريد أى أب يحترمه •• لا ضرورة أن يكون باشا ، ليكن مثل عمه سامى زوج خالته •• انه رجل محترم •• ولكن هذا الأب الذى رماه به الزمان والذى يأبى أن يحترم نفسه فى أى مكان •• حتى فى وظيفته حقير •• انه أوشك أن يلوث وصفى باشا •• بل ان جريدة معارضة لوصفى باشا عرضت برشوة معينة •• أخزاه الله •• لقد كفرت بالله من أجله •• لم أتصور أن يقول الله العالم بعباده ان الرجال قوامون على النساء •• أمثل هذا يكون قواما على أمى •• فى أى شريعة يكون ذلك •• لا •• أنا كافر بهذا الدين ، وكافر بهذا الله الذى يقول ان أبى قوام على أمى •• والذى يقول واخفض لهما جناح الذل من الرحمة •• أخفضه لأمى •• نعم ، ولكن لأبى هذا كيف •• ؟ ألا أقول له أف •• أقسم •• أقسم بماذا ! •• أقسم بشرفى اننى أقول أف كلما ذكرت أبى •• أقولها فى نفسى ولو كانت لى بعض جرأة لواجهته بها •• بل انى كثيرا ما أجيب حديثه بشىء من الكبر •• لا •• لا أستطيع أن أحترمه •• ولا أن أحترم دينا يحترمه •• كيف أترك مذهبى اذن ؟ •• والى أين مصيرى ان تركته •• فى أى ناحية من نواحى الحيـاة يكون تفوقى •• الشهادة الجامعية فى يد الآلاف ، لا بد أن أكون شيئا غير هذه الشـهادة ، وأى شىء يمكن أن أكون ؟ لا مكان لى الا هذه الخلية •• هى مجدى •• وهى مجالى •• وليقل فؤاد ما يشاء أن يقول ، فما أستطيع أن أطيعه •• لا •• لا أستطيع •

٢٢

على المقاعد الحجرية .. فى مرفأ القـــارب .. جلس فوزى مطرقا مفكرا .. أيستطيع أن يصل ؟! وكيف !؟ أتصبح هناء ابنة سهير هانم ابنة أحمد باشا شكرى لى ؟ .. أيمكن هذا ؟ .. ولم لا ؟ والا فما مجيئها الى ، وما اهتمامها بى ؟ وحرصها على حديثى .. ؟ نعم ، ولكن أيمكن هذا ؟ أنسيت من أنا ؟ وكيف تلتقى بأمى وأبى ؟ كيف ؟ أبى !! أبى ذلك الرجل الذى لم أعرف فى يوم من الأيام نوع تفصيل الحلة التى يلبسها ، ذلك الموظف الصغير .. الصغير جدا بوزارة الأوقاف ، والكبير .. الكبير جدا فى العمر يصبح حما هناء .. وأمى .. ماذا هى قائلة لها ؟ .. أمى تصبح حماتها ؟ أمى التى لم أسمعها يوما تتحدث الا عن مهارتها فى صنع الملوخية .. كيف أصل بينها وبين هناء ، وفى أى موضوع يمكن أن يدور الحديث بينهما ، وكيف ستحس أمى بالراحة وهى تتحدث الى هناء .. وأبى .. نعم عودة الى أبى .. ذلك الرجل الذى لا يزال كل بضعة أيام يدخل الينا شاحب الوجه ، مضطرب الحديث ، راعش الأوصـــال ، فنعرف أن رئيس القلم ـــ نعم رئيس القلم فقط ـــ قد استدعاه ، وكلفه ببضعة أعمال .. أبى هذا يصبح حماها .. كيف سيحادثها ، كيف سيكون الحال بينهما

•• كيف سيعاملها •• ؟! ما شـــأنى أنا بكيف ســـيعاملها ، وكيف ستعامله •• انها ستصبح لى •• هى بكل أمجادها •• ومالى أخشى أن أقول •• هى بكل ثروتها •• أليس هذا التفكير بورجوازيا •• نعم •• انه يصبح بورجوازيا لو أفصحت عنه ، ولكن ما دام فى نفسى لا تعرف به الا نفسى ، فهو بعيد عن البورجوازية كل البعد •• أظن أننى كنت موفقا كل التوفيق فى ، التأثير عليها ، وما أظن الا أنها ستقبلنى ••

ولكن ماذا هى قائلة لأبيها •• أقصد لأمها ، فما أبوها بذى شأن •• لا أدرى •• ولكن أترضى بى ؟ •• ولم لا ؟ •• انها خيالية فى تفكيرها ، وقد تقبل الزواج لتحقق آمالها من الزواج بفقير ما الذى يدعوها الى هذا •• لعله زواج أمها الفاشل ، ولكن أباها نفســه فقير بالنسبة لأمها فيما أعلم ، لا أدرى •• ان للأغنيــاء جنونا •• وما أحب هذا الجنون الى •• فبه أستطيع أن أصل الى الأمل المنشود •• ومالى ولأمى حينذاك ولأبى •• على أن أشق طريقى فى الحياة •• فاذا تزوجتها فطريقى رغد وهناء ••

وقطعت هناء تفكيره بقدومها :

ــ هناء •

ــ تأخرت عليك ؟

ــ نعم •

ــ دقائق •

ــ هى عندى سنوات •

ــ لا •• كنت أنتظر تعبيرا جديدا •

ــ وأى جديد تريدين ؟

ــ لا أدرى ، ولكن هذا التعبير استعمل كثيرا •

ــ وما أدراك ؟

ـ اقرا •

ـ آه •• صحيح •• نسيت أنك تكثرين من القراءة •• فأنت من قراءتك فى أحلام لا تنتهى •

ـ وأنت ، ألا تقرأ ؟

ـ بالقدر اللازم •• فالقراءة البورجوازية تفسد الأفكار •

ـ أهناك قراءة بورجوازية ؟

ـ نعم قراءة القصص •

ـ كل القصص ؟

ـ لا بالطبع •• القصص التى لا تتحدث الا عن الحب والعشق والهيام •• هذه قصص لا فائدة منها •

ـ أرأيت ؟! ومع ذلك تحدثنى عن الحب •

ـ نعم •

ـ كيف ؟

ـ هذه مشاعر لا يمكن التحكم فيها •

ـ ولكن هذا يخالف مبدأك ؟

ـ لا أبدا •• أنا أقصد الحب غير عملى •• أما حبى لك فعملى واضح •• ولولا أننى أخشى من أشياء كثيرة لطلبت يدك •

وأطرقت هناء فى خجل ، وأكمل هو حديثه :

ـ ان ذكاءك أعظم من الخجل •

وظلت هناء على خجلها ، واستطرد هو :

ـ طبعا ياستى •• وأين أنا من حسام ، أو من جعفر ، أو من هؤلاء الأغنياء الذين يتمنون رضاك •• أنا رجل فقير ، أبى موظف صغير ، وسيظل صغيرا الى أن يخرج الى المعاش ، وأمى امرأة بسيطة

وكل ثروتنا لا تتعدى نصف البيت الذى نعيش فيه ومرتب أبى ؛ أين أنا .. ؟

وأحس فوزى أنه يمسك بالخيط البـالغ الى قلبها ، فلم يترك هذا الحديث ، واندفع فيه فى اسهاب وقدرة واستغراق ، حتى لم يحس بسيد ، وهو يطل عليهما من الحديقة ، ولم يحس به وهو ينصرف عنهما .. لم يحس شيئا من ذلك ، ولم يسكت الا حين رفعت هناء وجهها عن الأرض ، والتقت العيون .

كانت سهير جالسة بالدور الأعلى حين أقبل عليها عم دهب ، فعجبت من صعوده ، فما تعود ذلك الا اذا كان يريد أمرا هاما .

ــ خير ياعم دهب .

ــ والله ياست لا أدرى .

ــ وكيف لا تدرى ؟

ــ السيد بن عبد البديع أفندى .

ــ ماله ؟

ــ يريد أن يقابل سعادتك .

ــ يقابلنى أنا ؟!

ــ نعم .

ــ لماذا .

ــ والله لقد رفض أن يقول لى .. رفض رفضا باتا لم أتعوده منه طول عمره .

ــ عجيبة .. دعه يصعد .

ولم يتكلف عم دهب أكثر من أن نادى :

ــ يا سيد أفندى .

ورجع صدى صوته بسيد ، وحيا السيد سهير فى أدب ، ثم نظر الى عم دهب الذى انصرف متعجبا ، وأقفل السيد باب الحجرة ، ووقف فى اضطراب ، وقد أخذت لحيته ترتعش مع شفته ، حتى استطاع أخيرا أن يقول :

ــ ياستى سهير ، أنا وأبى وجدى نشأنا فى بيتكم ، فان لم نحفظ لكم الفضل ، فنحن كفار .

ــ قل ياسيد ما تريد .

ــ ستى هناء ..

وفرجت سهير فاها ، وأنعمت فيه النظر فى دهش ، واستطاعت بصعوبة أن تقول :

ــ مالها ؟

ــ والله ياستى أنا حائر لا أدرى ماذا أقول ، ولكنى أيضا لا أستطيع أن أسكت .

وقالت سهير وهى واجفة لا تزال :

ــ قل مالها .

ــ انها تلتقى منذ زمن بعيد بفوزى صديق أحمد بك .

ــ ماذا ؟

ــ وفوزى هذا ولد ضائع .. وقد رأيتهما الآن معا .. ياستى أنا آسف ، ولكنى لم أستطع أن أسكت .

وقالت سهير ذاهلة :

ــ أشكرك ياسيد .

ــ أستأذن ياست هانم .

واستدار السيد يريد أن ينصرف ، فاذا الباب يفتح ، وتدخل منه هناء ، فيتنحى السيد عن فرجة الباب ويطرق برأسه الى الأرض ، وتنظر اليه هناء بدهشة بالغة ، وتظل رانية اليه لحظات ، ثم يبين على وجهها كأنها فهمت ، فتصرف عنه عينها وتدخل الحجرة، ويخرج هو متعثرا مطرقا لم يرفع رأسه .

ونظرت هناء الى أمها ، فوثقت أن ما فهمته هو الحقيقة .. ووجدت هناء نفسها مضطربة ، فقد كانت تعد نفسها لأن تقول هى لأمها ما انتوت .. أن ما أن يسبقها النبأ .. وتلاقيها أمها بهذا الوجه المكفهر . فهذا ما لم تكن تتوقع .. ولكن ما يهم .. انها قد عزمت .. قالت الأم :

ــ أصحيح ما سمعت يا هناء ؟

وقالت هناء فى حزم :

ــ نعم .

ــ صحيح ؟

ــ نعم .

ــ كيف .. كيف يحدث هذا ؟

ــ أليس لى الحق أن أختار ؟

ــ تختارين ولدا ضائعا فقيرا لا يملك شيئا !؟

وقالت هناء فى ثورة :

ــ أنا أكره المال .. أنا أكره المال وسيرة المال .. أبى تزوجك من أجل المال فقط ، فانظرى الى حياتك .. أبى لا يهتم بغير المال .. جمع المال وبدد احترامنا له .. وفقد احترامك .. وفقد احترام الخدم .. أنا أكره المال .. أكرهه .. لا أحب الغنى ، ولا أحب الأغنياء ، ولا أريد المال .. لا أريد المال .

وطفرت الدموع من عينى سهير ، ولكنها تمالكت أمر نفسها سريعا ، وجففت دموعها ، محاولة أن تخفى الدموع ، وتخفيها عن ابنتها ، وحاولت ببقايا روحها المبهورة الكسيرة أن تلتقى بابنتها فى ثورة كثورتها !

ــ حمق .. حمق هذا الذى تقولين .. حمق وخرافة .. ان كان أبوك قد تزوجنى من أجل المال فأفسدت حياتى ، فلأى سبب تعتقدين أن هذا الولد يطلبك .

ــ لا أدرى لأى سبب ، ولكن ليس من أجل المال .

ــ أيتها الحمقاء .. كيف تعرفين ؟

ــ أنا لست طفلة .. كلامه لا يدل على أنه يريد مالا ..

ــ لن يكون هذا .. لن يكون هذا أبدا .

وقالت هناء فى حزم :

ــ أظن أنه يحسن أن يتم هذا برضاك .

وفطنت سهير لما تقصد اليه ابنتها ، ولكنها لم تصدق ما سمعت ، فهى تقول :

ــ ماذا تقولين ؟

وأعادت هناء الحديث فى اصرار :

ــ نعم يحسن أن يتم هذا برضاك .

وقالت الأم ذاهلة .

ــ ألهذا الحد ؟

وقالت هناء وهى على اصرارها لا تزال :

ــ نعم .

ثم تركت الغرفة ، وخرجت واثقة الخطوات ، حازمة القسمات ، وظلت أمها تنظر الى ظهرها وهو يغيب عنها ، فما ردها غيابه عن أن تظل مثبتة العينين الى حيث اختفت ابنتها ، ذاهلة النظرة ، والهة حسرى ، تتنزى نفسها أملا وخوفا وحيرة .

٢٣

كان أحمد جالسا فى حجرة مكتبه حين دخل اليه السيد حليق اللحية ، لا يزال الدم ينهمر من مواضع كثيرة فى وجهه ، من أثر السرعة التى أزال بها لحيته ، وكانت عيناه تائهتين فى نظرة هالعة ، وجسمه جميعه ينتفض فى خوف راعد ، ولم يلتفت أحمد من أمره الا الى هذا الجديد الذى طرأ عليه ، فقال فى سخرية ضاحكة :

ـ الله .. شيخ سيد .. ذقنك .. أين المرحومة ؟

وأجاب سيد فى هلع غير مكترث بمزاح أحمد :

ـ أحمد .. البوليس يبحث عنى .

وارتسمت على وجه أحمد أمارات الجد وهو يقول :

ـ ماذا ؟ .. البوليس ؟ لماذا ؟

ـ منذ مقتل النقراشى والحكومة تقبض على أفراد الجماعة جميعهم .

وضحك أحمد محاولا أن يهدىء من روع السيد ، وقال له :

ـ ما هذا الكلام ؟ .. وانت ما دخلك بمقتل النقراشى ؟

ـ لقد قبض على جميع زملائى ، وأعتقد أنهم سيقبضون على حالا •• أحسن طريقة أن أترك البيت •

وقال أحمد ساخرا ، فما كان يعتقد أن للسيد هذه الأهمية كلها :

ـ ما هذا الكلام الفارغ ؟ •• أنت تخيف نفسك بلا مبرر •• وعلى كل حال ماذا تريد أن تفعل ؟

ـ أريد أن أهرب ، وسأتصل بك يوميا فى التليفون ، فاذا لم أتصل بك يوما فاعلم أنهم قبضوا على ، واتصل بوصفى باشا فورا •

ـ وصفى باشا ؟

ـ قل له اننى سأترك الاخوان •• أرجوك يا أحمد ، أنت لا تعرف مقدار شقائى بالسجن ان أنا سجنت ، أنا أمل عائلة ، ونحن قوم نريد أن نعيش ياسى أحمد ، وقد كان طيشا وسأتركه ، أرجوك يا أحمد بك •

ـ يا أخى ، أنت لا تحتاج الى هذا الرجاء الطويل •• وماذا تظننى كنت فاعلا •• طبعا كنت سأذهب الى وصفى باشا •

ـ طيب سلام عليكم •

ـ وعليكم السلام •• انتظر •• أين ستختفى ؟

ـ هل معك نظارة سوداء ؟

ـ نعم ها هى ذى •• أين ستختفى ؟

ـ لا أدرى •• قد أخبرك حين أتصل بك •

ـ وكم معك ؟

ـ ماذا ؟ فلوس ؟ معى جنيهان ؟

ــ مبلغ لا يكفى طبعا •• خذ •• أنا ليس معى الا أربعة جنيهات ، خذها •

ــ شكرا •• أظن أن ما معى يكفى •

ــ خذ •• وحين تكلمنى أكون قد أعددت لك مبلغا آخر

وأخذ السيد الجنيهات الأربعة ، واستدار ليترك الغرفة • ولكن الباب فتح ودخل منه ضابط وشرطيان ، ونظر السيد الى أحمد يائسا ، ونظر أحمد اليه دهشا ، فقد كان يظن أنه يضفى على نفسه من الأهمية ما لا يتمتع به •

استقبل وصفى أحمد متجهما بعض الشىء ، الأمر الذى عجب له أحمد ، فما تعود منه هذا •• وسأله وصفى :

ــ خير ؟!

ــ لقد قبض البوليس على السيد بن عبد البديع أفندى •

ــ لماذا ؟ •• أهو من الجماعة ؟

ــ نعم •

ــ هيه •• ومتى سيقبضون عليك ؟

وفغر أحمد فاه وانفرجت عيناه عن نظرة دهشة واسعة :

ــ على أنا ؟

ــ نعم أنت •• أتظننى لا أعرف •• ألا تفكر فى أمك المسكينة •• ألست انسانا ؟ •• ماذا جنت حتى تفعل بها هذا أنت وأختك •• ألا تعلمان أنها مريضة بالقلب •• ألا تخشى عليها أن تموت ؟

ــ أنا ، ماذا فعلت ياعمى ؟

ــ أنت شيوعى ياسى أحمد ••

ومست قلب أحمد فرحة أنه مثار اهتمام ، وأن عمه وصفى باشا يعرف أهميته . ولكنه قال :

ـ من قال ياعمى ؟

ـ لا تحاول أن تنكر ..

ـ ولكن يا عمى ..

ـ وحياة والدك لا لزوم لهذه الطريقة الصبيانية ، أرجوك .. من أجل أمك .. أشفق عليها يا أخى من أجل مرضها على الأقل .. وثق يا أحمد أنه اذا قبض عليك ، فانه يصعب جدا أن تعتمد على كما تريد أن تعتمد على الآن فى مسألة السيد .

ـ والله ياعمى ..

ـ والله يابنى أنا حذرتك وأنت حر .. اترك حكاية السيد . ولا تنتظر أن تنتهى بسرعة ، أمامها مدة .

ـ شكرا ياعمى .

ـ الشكر يكون بمراعاة أمك ياسى أحمد .. مع السلامة .

٢٤

كان القصر يرزح تحت رزء كبير ، فقد كان زواج هناء خطبا فادحا حاول الأب أن يمنعه بسلطته المتهالكة فلم يستطع ، فقد أفهمته سهير أن الزواج فى البيت برضائهما خير من أن تخرج الفتاة عن طوعهما للتزوج وحدها ، وتضعهما أمام الأمر الواقع ، ولن يجديهما يومذاك أن يلوذا الى القضاء ، فأمامه ستعلن فضيحة ينبغى لها أن تستتر • بل ان سهير أفضت الى سليمان بما يراودها من خوف أن تخرج الفتاة عنهما بلا زواج على الاطلاق ، وما يراودها من خوف أن ينفرد بها هذا الصعلوك ، وينتهز فرصة مقاطعتهما لها فلا يستطيعان لها عونا ان هى احتاجت لعون • فاقتنع سليمان •

وحاول وصفى أن يعين سهير فى محنتها ، وعرض عليها أن ينقل فوزى من وظيفته بالقاهرة الى الأقاليم ، ولكن الرأى استقر بينهما على أن هذا لن يجدى فى شىء •

وهكذا تم عقد القران فى مأتم بلا معزين ، الا أهل القاتل وأهل القتيل ، فقد جاءت أم فوزى ، واستطاعت أن تزيد النـــار اشتعالا فى نفس سهير ، وان كانت لم تستطع أن تجعلها تخرج عن صمتها اليائس الحزين ، فقد كانت آمه معجبة بنفسها ، تحاول جاهدة

أن تصبح ندا لهذا التيت الذى تناسبه • أما الأب فقد كان أكثر ادراكا للموقف ، فاتخذ لنفسه مكانا قصيا ، وصمت حتى انتهت المراسم ، وغادر البيت وجلا كما دخله •

وأغضى سليمان على النار عرفها لأول مرة تنتاش فؤاده ، وخجل أحمد من الهدية التى قدمها الى القصر ، ونسى حينذاك مبدأه وأفكاره وفلسفته ، وكره هذا اللص الذى تسرب تحت وقاء من الصداقة ، واختلس أخته فى ضباب من النظريات والألفاظ البـارقة ، والغش الخادع الخسيس •

ولم يكن أحمد ليغبى أمر فوزى ، وان يكن قد قبل أن تتوطد بينهما الصداقة • ولم يكن يتوقع أن أخته تقبل أن تلتقط هذا الفتى من عرض الطريق لتجعل منه زوجا لها ، وفى غفلة من عدم التوقع هذه لم ينتبه أحمد الى الذئب يجوس فى عقر داره • وقد عزم أحمد على أن يقطع علاقته بفوزى ، ثم سمع هذا الحديث من أمه ، فعزم على أن يجعل صلته بفوزى بحيث لا ينتبه أحد الى انقطاعها ، وأصر فى نفسه على ألا يدخل بيت أخته مهما تكن الأسباب والدواعى •

وكان موقف سميحة من هذا الزواج هو موقف أختها سهير ، وقد حز فى نفسها الألم الذى ترى آثاره على ابنها بياض النهار ، اذا رأته بياض النهار ، والذى ترى آثاره فى غياب ابنها عن البيت الى أعماق الليل ، أو هامات الصباح ، دون أن تدرى أين يغيب ، الأمر الذى كانت تجهد نفسها أشد الجهد فى اخفائه عن زوجهـا وتمويه حقيقته عليه •

وكان الخدم فى القصر جميعهم يشعرون بالتعاسة التى ترزح على القصر وساكنيه ، وكانوا يدرون مبعثها ، وكان حزنهم لها عميقا ، فقد كانوا يتمنون أن يفرحوا بستهم هناء ، وقد كانوا يتمنون أن

تتزوج من رجل يستطيعون أن يحترموه ، فما كان زوجها أمامهم الا شخصا يتسقط على مائدة أحمد بك ، ثم لا شيء بعد ذلك .

هكذا كان القصر جميعه ، واقعا تحت هم واسب ثقيل ، فلم يضم بين جدرانه الا شخصا واحدا لم يحفل هذا الاعراض وهذا الحزن ، هو هناء نفسها .. فقد اندفعت في حمأة زواجها كشيء ألقي بنفسه الى منحدر يصب في هاوية فما يفكر لأنه لم يعد يملك التفكير ، وما يرتد ، لأنه لم يرغب في هذا الارتداد . لم يكن حبها لفوزي حبا جارفا يقتلع العوارض والعراقيل ، ولكنها استطاعت مع ذلك أن تحطم كل ما وقف في سبيلها ، وهي نفسها عاجبة لماذا تبذل كل هذا الجهد !! انها تعلم أنه ليس حبها لفوزي ما يثير في نفسها كل هذه القوة . كانت تظن أن كرهها لأبيها ولما أنزله بأمها هو ما يبعثها الى العنف والاصرار ، ولكنها كانت تعود فتفكر أنها هي نفسها بما تعمله تنزل بأمها أقسى ألوان العذاب ، وهي تعلم أنها مفئودة ، وأنها تتعرض بهذا العذاب الى نوبة قد تودى بها ، وتترقرق في عيني هناء الدموع اذا جرى بها التفكير الى هذا المتجه ، ولكنها تعود الى دموعها فتحبسها ، والى النسمة الهادئة التي تراوح قلبها فتعصف بها في قسوة ، ان كل هذا أهون من أن تتزوج شخصا لم تختره هي ، ولم تصل بينها وبينه أوشاج من الهوى ، مهما تكن أوشاجا هينة ، كهذه التي تربطها الى فوزي . ان هذا جميعه أهون من أن تختار أمها لها أو يختار أبوها ، لقد كانت خليقة أن تقبل حسام لو لم يكن ابن خالتها ، ولو لم يكن أبوها وأمها راغبين في تزويجها منه أشد الرغبة ، ولو لم يكن غنيا ، لقد كرهت الغنى كما قالت لأمها .. كرهته حين رأت أباها ولا هم له الا أن يصبح غنيا مهما يجنح به هذا العزم الى انتهاب أموال أمها وخالتها التي لجأت آخر الأمر الى زوجها أن يحميها ، ولن تنسى هناء يوم تمت القسمة بين أمها وبين خالتها ، ولن تنسى تلك الدموع التي سفحتها أمها ، مع أنها

هى التى ألحت فى تنفيذ هذه القسمة ، حتى تنقذ أختها من يد زوجها الغائلة ، وحتى تنقذ أولادها مما قد يكون بين سامى وسليمان من فضائح .. فقد كانت تعرف زوجها .

وتجمعت البواعث فى نفس هناء ، ولم يكن أقواها حبها لزوجها ، ولكنها بواعث قد تعبرها عين الناظر اذا عرضت عليها متفرقة، فان تجمعت جعلت من هناء هذا الاعصار الذى يدور فى القصر فينفذ ما يشاء فى تبجح هادىء فما كانت تحتاج الى ثورة .

لم تكن لهناء من مطالب بعد أن تم عقد القران ، وحين فكرت أمها فى جهازها ، سكبت دموعا غزيرة ، ان الله لم يشأ أن تفرح بجهاز عروس أبدا ، ان جهازها هى اختير لها ، ولم يكن لها فيه رأى، وحين أنجبت هناء ، كانت تمنى نفسها أن تعوض فى جهازها ما فرتته على نفسها أيام عرسها ، ولكن ها هى ذى ابنتها تخذل آمالها ، كما خذلت هى آمال نفسها حين تزوجت . وكانت حين تحاول أن تخفف من ألمها بعض الشىء ، حين تهمس الى نفسها أن لعل ابنتها تسعد فى ظل زوج أحبته ، ولكنها حين تذكر قسمات ابنتها وهى تفضى اليها باصرارها على الزواج ، وحين ترى ابنتها رائحة فى البيت غادية ، جامدة النأمات ، صلبة الوجه ، وحين تراها مستسلمة لمصيرها هذا الذى اختارته .. وحين ترى فوزى وترى مقدار تبجحه على البيت ، واقباله على قوم يعلم أنهم عازفون عنه .. حين تذكر وترى هذا جميعه ، ما تلبث أن تذوب الومضة الضائلة فى طوفان من هم كبير .. فما هذه تصرفات فتاة فى قلبها هوى ، وما هذا الفتى يستطيع أن يثير فى فؤاد فتاة حبا .

ولكن هذه الأفكار جميعها لم تمنعها من أن تسأل ابنتها عما تريده فى جهازها ، وقالت الفتاة :

ـ لا أريد الا أشياء بسيطة نسنعيش فى شقة صغيرة .

وارتاحت الأم أنها تنتوى أن تبتعد عنها بزوجها هذا الكريه ، ولكنها رأت أن تقول لها على سبيل المجاملة :

ـ ولم لا تعيشان معنا هنا ؟

وقالت هناء فى حزم ، شأنها منذ أعلنت عن رغبتها فى هذا الزواج :

ـ لا •

ولم تجد الأم وسيلة تقطع بها الحديث أن يطول ، الا أن تعطى ابنتها ألفى جنيه تفعل بهما ما تشاء ، وقبلت هناء المال ، ووضعته فى صوانها ، وضمت اليه مائة جنيه ، دفعها زوجها مهرا ، وانتظرت أن تسأل زوجها عما يفعلان •

وفى يوم جاء فوزى وطلب الى هناء أن يخرجا للنزهة ، وخرجت معه فى سيارة أبيها ، وما ان تركا البيت ، حتى استوقف فوزى السائق ، وأمره فى ثبات أن يترك السيارة ليقودها هو • ودهشت هناء بعض الشىء من طريقته فى اصدار الأوامر ، ومن اعطاء نفسه الحق فى قيادة سيارة لا يملكها ، ولكن دهشتها لم تزد على غصة فى نفسها ، وسألت فوزى :

ـ أتعرف كيف تسوقها ؟

وأجاب فوزى فى اقتضاب :

ـ نعم •

وقبل أن تسأله هناء كيف تعلمت ، قال هو فى نغمة ساخرة بعض الشىء :

ـ طبعا لم تكن عندى سيارة ، ولكنى تعلمت كيف أسوق بسيارة أخيك أحمد •

وسكتت هناء ، ولكن السائق لم يصدع بأمر فوزى ، فما تعود أن يتلقى منه أوامر ، ورأت هناء تردد السائق ، فسارعت تقول :

ـ اذهب انت الى بيتك يا أسطى عبده .

وصدع السائق بالأمر فور سماعه ، وانتقل فوزى الى مقعد القيادة ، وانتقلت هناء الى جانبه ، وأحس فوزى بتردد السائق ، ولكنه أغفل أمره ، فقد ذكره اسم أحمد بأن يسأل هناء :

ـ وحتى أحمد غير موافق على زواجنا .

وقالت هناء فى استسلام :

ـ وما يهمك أنت ان كان يوافق أو لا يوافق ، ما دمت أنا موافقة ، وما دمنا قد تزوجنا فعلا ؟

وقال فوزى فى غير اكتراث :

ـ على رأيك .

ثم قال :

ـ اننى معد لك مفاجأة هائلة .

ـ خير ؟

ـ وكيف تكون مفاجأة اذن ؟

ـ ومتى أراها؟

ـ نحن فى طريقنا اليها .

وصمتت هناء ، واتخذت السيارة طريقها الى الزمالك ، وأمام عمارة فاخرة ضخمة ، أوقف فوزى السيارة وقال لها :

ـ انزلى .

ونزلت هناء ، وقد حزرت ما هى مقدمة عليه ، ولكنها لم تشأ أن تصدق حدسها ، فان العمارة التى يدخلانها باذخة الفخامة ،

لا تتناسب اطلاقا مع ما كانت تهيىء نفسها له من بيت متواضع يتفق وقلة المال عند فوزى ..

ولم يكن ثمة مجال لكثير من التفكير ، فقد وجدت نفسها فى مصعد أنيق ، ثم وجدت نفسها أمام باب شقة يفتحه فوزى بمفتاح معه ، ثم وجدته يلتفت اليها قائلا :

ــ هيه .. أتريدين أن أحملك كما يفعل الغربيون ؟

ولم تضحك هناء من محاولة المزاح ، ودخلت البيت ، وراعتها أناقته ، وأذهلتها سعته .. ست حجرات وبهو .. لماذا هذا جميعه ؟ وسمعت فوزى :

ــ وطبعا سأتفق مع مهندس لتزيين الجدران ، ورسم الأثاث .

وازدادت هناء ذهولا ، وقالت :

ــ ولكن أليس كبيرا ؟!

فقال ساخرا :

ــ أهو كبير ؟ .. وأين هو من القصر ؟

فقالت هناء :

ــ ولكن هل يكفى مرتبك لهذا البيت ؟

وقال فوزى وهو يقطع الكلام :

ــ هذا أمر تدبره .

ولم تزد هناء شيئا . وظلت صامتة وهى [illegible] فى تجميل الشقة ، وفى اختيار الأثاث ، وفى [illegible] وفى أن مكان مبيت السيارة لا يؤخذ عليه أى [illegible] السيارة سمع هناء ، فنظرت اليه ، ولكنها لم تتكلم [illegible] صمتها .. لازمت الصمت وهو لا ينقطع [illegible] الصمت وهما فى الطريق الى سيارة أبيها ، [illegible] يحييها مودعا ويترك مكانه من السيارة [illegible]

صعدت الى الطابق الأعلى من البيت ، وحين رأت أمها جلست أمامها صامتة ٠٠ وطال بها الصمت هونا ، ثم تماوجت دمعات في عينها ، سارعت باخفائها دون أن تلحظ أنها تأخرت في هذا الاخفاء ، فقد كانت الأم مثبتة النظرة اليها ، ترى وجهها فكأنما ترى كل ما تخفيه خلفه ٠٠ وأخيرا قالت هناء :

ـــ نينا ٠٠ لن يكفيني ألفا جنيه للجهاز ٠

وقالت الأم في تؤدة وهي ناظرة الى ابنتها لا تزال :

ـــ نعم أعرف ٠

٢٥

أقبل حسام على بار الشـــباب ، فتطلع اليه الرفاق فى حب واشفاق ، شأن الكريم هان بعد كرامة ، أحس حسام بالاشفاق فى نظرتهم ، فقال غاضبا:

ــ مالكم ! • ما هذه النظرة وكأنى مسكين تعطفون عليه •• هات كأسا يا ينى ، وكان سعد أسرعهم الى الحديث وأجرأهم فيه :

ــ نعم •• أنت مسكين بهذا السم الذى تطفحه كل يوم •

ــ ولماذا ياسيدى ؟ •• منكم نستفيد ، ألم تكن أنت تطفح منه يوم طردك عمك ؟!

ــ كنت أهبل •• وكنت أهبل لمدة يوم واحد ، أو ساعة واحدة، ثم عقلت ، ولكنك أنت مصر على هبلك •

ــ يا أخى ، أنا حر •

وقال سميح :

ــ ما هذا الكلام الفارغ ؟ •• لا يا أخى ، أنت لست حرا •• ما معنى أن تأتى الى هنا كل يوم ، وتظل تشرب حتى لا تعى ، ونظل

نحن ناظرين اليك . كأنك مريض بيننا .. ان كنت مجنونا يا أخى فلماذا لا تذهب الى المستشفى ؟!

وجاء ينى بالكأس ، فشربها حسام دفعة واحدة ، وطلب أخرى . ونظر الى سميح قائلا :

ـ نعم ياسى سميح .. ألست أنت من قلت لى ان الخمر مفيدة فى هذه الأحوال ؟

ـ يا أخى غلطت ، وهل تراها حضرتك مفيدة ؟!

ـ نعم .. انها مفيدة .. انها تنسينى ما أحب أن أنساه .

وضحك أصدقاؤه وقال سعد :

ـ يا عم صــل على النبى .. والله ان بنت الكلب هذه تزيد الانسان تذكرا .. كيف تنسى شيئا لا تزال تفكر فى أنك تريد أن تنساه .. هذه خرافة وشرفك .

وقال حسام وهو يشرب الكأس الثانية :

ـ ما هذا الهجوم ؟ .. أنا سأشرب ..

وقال سعد :

ـ اسمع .. ان عبد الجواد أفندى أعد لنا الليلة شيئا ..

وقبل أن يكمل سعد حديثه ، قاطعه حسام :

ـ قديمة .. هذه لعبتى أنا يا حبيبى .. أتضحك على بما كنت أضحك به أنا عليك ؟

وضاق الرفاق بالحديث ، ورأوا أن لا فائدة ترجى من حسام ، وأحس حسام بضيقهم ، فما وقف به هذا عن ابتلاع الكئوس مترعة متلاحقة ، حتى لم تمض ساعة الا كان سكران ، وحين قام الرفاق ليمضوا الى عبد الجواد أفندى ، تخلف سـعد لأنه رأى حسـام

لا يستطيع أن يقيم أوده ، فبقي سعد ، وقال يحثه على القيام ، حتى قبل آخر الأمر ، وقام متعتعا يتكفى ويهذي بحديث لا يكتمل ، حتى وضعه سعد في السيارة وركب الى جانبه ، وراح يقود السيارة في طريقه الى البيت .

وحين وصل الصديقان الى بيت حسام ، كان حسام نائما لا يحس شيئا مما حوله ، وحاول سعد أن يرده الى الوعي ، ولكن محاولته فشلت فشلا تاما ، فلم ير بدا من الالتجاء الى البواب ليحمله خفية الى حجرته .

وجاء البواب يستغفر الله آسفا أن يرى سيده على هذه الحال ، وتعاون هو وسعد على حسام ، وكلاهما متطامن الجبين ، باهر الأنفاس ، وصعدا الى الدور الأعلى ، وكانت نوال جالسة في البهو تتحدث في التليفون ، فحين رأت أخاها محمولا ألقت بالسماعة ، ودقت صدرها بيدها ، وأسرعت تسأل عما أصابه في لهفة ألهتها عن أن تخفض صوتها ، فأشار اليها سعد أن تحذر ، وهمس لها بالحقيقة ، ولكن سعد جاء متأخرا ، فقد كان سامي جالسا الى زوجته في حجرتهما فما استطاعا ما أثار لهفة ابنتهما ، وطالعهما ابنهما محمولا خائرا ، وانتفضت الأم والهة وجمد الأب مكانه واجما ، ولم يجد سعد بدا من أن يفضي اليهما بالحقيقة ، فقد وجدهما أهون مما يخشيانه ، أو خيل اليه أنها أهون مما يخشيان . وحاولت الأم أن تقود حاملي ابنها الى حجرته ولكن الأب قال في صرامة قاسية :

ــ ألقيا به الى الأرض .

وتردد سعد والبواب ، ولكن صوت الأب أوجد في حسم :

ــ ألقيا به الى الأرض .

فانفرجت يدا البواب عن قدمي سامي ، ووضع سعد رأس حامله على الأرض ، ولم يكد حتى انفتل الى السلم يطويه أربعا أربعا .

يقع بجسمه الضخم على درجاته ؛ ثم يقوم كأنه لم يقع ، حتى غاب عن الأنظار التى تبعته فى وجوم ، وأمر الأب بالماء فأفرغ على وجه ابنه حتى أفاق ، ووقف حسام مترنحا وأمه شاخصة اليه ، حائرة لا تستطيع لأبيه دفعا ، هو فى خمار السكر غير مقدر للموقف الذى ألقى بنفسه اليه ، ولم يمهله أبوه ، فراح يصفعه بحدة وهو يتقى يد أبيه بيد مترنحة ، لا تستطيع أن تثبت على مكان ، حتى اذا هدأ أبوه هونا ، راح يدفعه الى الحجرة وهو يقول :

ــ منذ الغد لن ترى القاهرة يا كلب ، منذ الغد سألقى بك الى العزبة يا سكير .

وحين أصبح حسام فى الغرفة أقفل أبوه عليه الباب ، وعاد الى حجرته دون أن يلتفت الى زوجته أو ابنته ؛ ونظرت سميحة الى نوال ، والتقت بعينيها نظرات ابنتها حسيرة ، وفهمت كلتاهما مايدور بنفس الأخرى ، فجرت الدموع فى عيونهما .

وتذكرت نوال التليفون الذى كانت ممسكة بسماعته حين جاء حسام .. أو حين جىء بحسام ، فنظرت الى حيث تركت السماعة، ولكنها لم تتحرك ، فقد أدركت أن هناء لا يمكن أن تظل منتظرة طوال هذه المدة .

ونظرت الأم حيث نظرت ابنتها ، ثم أطرقت وعادت الى زوجها ولم تجد نوال شيئا تفعله ، فعادت الى السماعة ، وهمت أن تضعها على الحامل لولا أنها سمعت :

ــ آلو .

ــ آلو .

ــ ماذا جرى يا نوال ؟

ــ هناء .. هناء .

وانخرطت نوال فى بكاء غزير الدموع ، وهنـاء على الطرف الآخر لا تزال تلح عليها أن تطمئنها .

وأخيرا قالت نوال :

ــ انه ما فعلته بنا ياهناء .. انه ما فعلته بنا ..

ــ أنا ؟

ــ نعم .. أنت .. وياليتك سعدت . اذن لارتحت أنا بعض الشيء ، وعزيت نفسى عن شقاء أخى بسعادتك أنت .. ولكنك حتى لم تسعدى نفسك يا هناء .. وتأبين الا أن تزيدى شقائى فلا تجدى الا أنا ، لتبثيها ما تلاقينه من زوجك وأهله .. أنا وحدى فى العائلة التى أتحمل الشقاء شقاءين .. شقاء أخى بك ، وشقاءك أنت بغير أخى ..

ولم تر نوال الدموع الجارية على خدى هناء ، ولم تحس النار اللاهبة التى ازدادت اشتعالا فى نفس بنت خالتها التى اتخذتها أختا .. لا لم تر نوال الدموع ، ولا أحسـت النار .. أو لعلها أحسـت وميضا خابيا من هذه النار ، حين طرقت أذنها سماعة هناء ، وهى تستقر فى مكانها من الحامل منهية الحديث .

٢٦

قام فوزى من نومه مبكرا ، شأنه كل يوم ، فوجد زوجته قد صحت وجلست تنتظره ، لتتناول معه طعام الافطار ، وحين جلسا الى المائدة قال فوزى :

ــ ماذا .. فول ؟

ــ نعم وما عيب الفول ؟

ــ كل يوم ! .. بعض الرحمة .

ــ انى أقدمه لك أحيانا فى الفطور فقط ومعه أصناف أخرى.. كفرت ؟!

ــ ياستى أنا لم أقل شيئا .. وهل أستطيع أن أقول شيئا .. فكله من خيرك .. ان كان فولا فأنت من تدفعين ثمنه ، وان كان قشدة فأنت من تدفعين ثمنها .. هل أستطيع أن أتكلم ؟

ــ ما معنى هذا الكلام ؟ .. انك دائما تعيرنى بأنى أدفع ثمن الأكل .. ماذا تريدنى أن أفعل .. يا أخى قل لى ما تريدنى أن أفعله وأنا أنفذ ..

ـــ ياستى العفو •• وهل أستطيع •• انما يأمر الرجل الغنى الذى يستطيع أن يدفع ثمن ما يطلبه •

ـــ يا أختى مرنى ولا تدفع •• ولكن فقط لا تنكد على عيشتى كل هذا النكد •• ماذا جنيت ؟

ـــ ياستى ماذا أكون أنا حتى أنكد عليك ؟ •• العفو العفو •• !

ولم تستطع هناء أن تكمل طعامها ، بل انها لم تستطع أن تبدأه، فقامت عن المائدة مغضبة وهى تقول :

ـــ لا •• لا أستطيع •• لا يمكن •

وأسرع فوزى قائلا :

ـــ خادمتك •• أمى ستأتى اليوم ، فأرجو أن تتكرمى باعداد شيء لها •

وسمعت هناء الحديث وانصرفت دون أن تلقى اليه التفاتا ، وفرغ هو من طعامه هادئا ، وقام الى الباب الخارجى وصفقه من خلفه ومضى •

وظلت هناء فى حجرتها تبكى بكائه مرا ، ولكنها لم تكد حتى سمعت جرس الباب ، فظنت أن زوجها نسى شيئا فعاد لاحضاره ، ولكنها دهشت حين سمعت صوت حماتها يرن فى البهو قائلة للخادمة :

ـــ أين سيدك ؟

وقبل أن تجيب الخادمة ؟ سارعت تقول :

ـــ وأين ستك ! •• أهى نائمة ؟

وقالت الخادمة فى جمود :

ـ سيدى وستى تناولا الافطار معا ، ونزل سيدى الى عمله ، وستى صاحية فى غرفة نومها •• سأناديها •

ودخلت الخادمة عند هناء ، ولم تمهلها هناء لتعلن اليها قدوم الست الكبيرة ، بل عاجلتها قائلة :

ـ احضرى التليفون •

وحاولت الخادمة أن تقول شيئا ، ولكن هناء سارعت قائلة فى حزم :

ـ أحضرى التليفون •

وخرجت الخادم لتعود بعد لحظات حاملة التليفون ، وأدارت هناء القرص ، وما لبثت أن قالت :

ـ من ؟ •• لواحظ ؟ •• أين ستك نوال ؟ •• أيقظيها •

وبعد لحظات من الصمت قالت هناء :

ـ نوال •• سآتى اليك الآن •• سأخبرك حين آتى ، المهم أن ترتدى ثيابك وتنتظرينى •• نعم فورا •

ووضعت هناء سماعة التليفون ، وقامت الى ثيابها فوضعتها على نفسها دون عناية ، ومدت يدها الى درج خفى فى صوانها ، فأخرجت منه كل ما فيه من مال ، ووضعته فى حقيبة يدها الصغيرة ، ولم تلق الى المرآة نظرة ، وخرجت الى البهو لتجد حماتها قد جلست على الأريكة فى عظمة تقول لها :

ـ صبح النوم يا هانم •

ـ أهلا تيزة •

ـ أهلا بك يا أختى .. أيصح أن تتركينى ساعة أنتظرك ، افرضى أنى جائعة وجئت أتناول الفطور عندك .. أهذا يليق ؟ ولكن لم لا .. أين نحن منك .. طبعا وهل نتوصل ؟

وقالت هناء فى هدوء بارد :

ـ كنت ألبس يا تيزة .

ـ وما لزوم اللبس يا أختى .. أم تريدين أن تشعرينى أنى جئت مبكرة .. حسبت أنى أجىء الى بيت ابنى فى أى وقت .. نسيت يا حبيبتى أن البيت ليس بيت ابنى .. نسيت .. لا مؤاخذة .

ـ لا أبدا يا تيزة .. هو بيت ابنك كما حسبت تماما ، هو بيتك .

ـ العفو .. ومن أين لى ببيت كهـذا ؟ .. والله يا حبيبتى اضطررت أن آتى الآن ، لأن عمك ـ لا مؤاخذة ـ أقصد زوجى ، ينزل الى الديوان الآن ، فنزلت معه ، لأنى لا أستطيع أن آتى وحدى، ولكن لا تخافى يا حبيبتى .. لقد تناولت فطورى قبل أن أجىء .. وسأقعد معك أسليك حتى يجىء زوجك .

ـ أشكرك ياتيزة .. ولكن هل تسمحين لى أن أنزل لأغيب عنك نصف ساعة فقط ، ثم أعود ..

الآن .. والساعة لم تصل الى التاسعة ؟

ـ نوال بنت خالتى تريدنى فى شىء مهم .. سـأصل اليها وأعود .

ـ ان كنت ضايقتك أنزل أنا .

ـ أبدا .. البيت بيتك وسأعود حالا .. أتركك بخير .

وقبل أن تسمع هناء كلمة أخرى من هذا الحـديث الذى لم تسمع غيره منذ تزوجت ابن هذه المرأة ، سارعت الى الباب الخارجى للشقة وانفلتت منه الى الخارج ، وهى لا تكاد تصدق أنها أصتحت فى الطريق ، ونزلت الى الشارع ، ووجهها كله عزم واصرار ، ونادت أول سيارة أجرة ، وأعطت السائق عنوان خالتها •

وعند الباب الخارجى نزلت ، وطلبت الى السائق أن ينتظر ، وقفزت السلالم قفزا سريعا متواثبا الى حجرة نوال ، فوجدتها قد ارتدت ثيابها وجلست تنتظرها •

ـ نوال •

ـ ماذا ؟

ـ قلت لى : ان لك صديقة ذهبت الى يهودى أجرى لها عملية اجهاض ، لأن زوجها فقير لا يريد أطفالا أكثر مما لديه •

ـ نعم •

ـ ما عنوان هذا اليهودى ؟

ـ وكيف لى أن أعرفه ؟

ـ طبعا صديقتك ليس لها تليفون •

ـ بالطبع لا •• انها صديقتى من المدرسة ، وقد قصـت على هذا الحديث حين زارتنى •• ما الذى أذكرك به ؟

ـ أريد أن أذهب الى هذا اليهودى •

ـ هل أنت مجنونة ؟!

ـ أريد أن أذهب الى هذا اليهودى •

وكيف لى أن أعرف مكانه •

ـ ما عنوان صديقتك •• أنت تعرفينه •• لقد قلت لى انها اصطحبتك يوما الى بيتها •

ـ ماذا تريدين أن تفعلى ؟

ـ هل تعرفين عنوانها ؟

ـ نعم •

ـ فقومى معى •

ـ هل أنت مجنونة ؟

ـ ليس بعد ، أنا الآن فى تمام عقلى ، وسأكون مجنونة اذا لم أفعل ما أنا مقدمة عليه •

ـ ماذا تريدين أن تفعلى ؟

ـ أنا حامل فى شهرى الثانى ، وأريد أن أجهض نفسى الآن •
ودقت نوال صدرها بيدها قائلة :

ـ ماذا ؟

ـ اسمعى •• أمى أضاعت حياتها من أجل أخى أحمد ومن أجلى •• لا أريد أن أضيع حياتى •• لا أستطيع العيش مع فوزى ، لقد حاولت •• حاولت بكل ما أستطيع •• لا أطيق العيش معه ، لقد حاولت أن أكتم عن أمى ما أقاسيه لأننى أنا من اخترته ، أما الآن فلا يهمنى ما تفعله بى أمى ، لا يهمنى شىء فى الوجود الا أن أنقذ نفسى من هذه النار التى ألقيت بنفسى اليها ، أنا أكره فوزى •• أكرهه بدمى جميعا ، بل ان شعورى نحوه أشد من الكره •• لا ليس شعورا ما أحسه نحوه •• انه اسقاط له من حياتى جميعا : انه شىء حقير قذر ، دنس فترة من حياتى ، ولا أريده أن يدنس حياتى جميعها •• لا أستطيع العيش معه •

وترقرقت الدموع فى عينى نوال وهى تقول :

ـ وما ذنب طفلك ؟

ـ انه لم يعد طفلا بعد •• ولا أريده أن يتحمل حياة لم يجن هو شيئا فيها •• نعم انه لا ذنب له ، ولذلك أريد أن أنقذه من أبيه حين يكبر ، وأريد أن أنقذه من العيشة بلا أب قبل أن يكبر ، وأريد أن أنقذه من الحقيقة التى كشفتها فى أبيه •• انه شىء بلا أخلاق •• بلا أخلاق على الاطلاق •• ليس لأى شىء قيمة فى نظره •• أريد أن أنقذ ابنى من أبيه ، وأريد أن أنقذ نفسى من أمومة أشك فى أنها ستكون صالحة •• ان هذا الجنين الذى فى أحشائى لا يزال جنينا •• أريد أن أخلصه من الحياة قبل أن يلتقى بالحياة •

وكانت الدموع تنهمر من عينى هناء وهى تتحدث ، كما كانت تنهمر من عينى نوال ، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تقول أقسى قول يمكن أن يقال لهناء فى لحظتها تلك :

ـ أليس هذا هو فوزى الذى أشقيت به المسكين حسام ؟

ونظرت اليها هناء نظرات آلمة حزينة ، ثم أطرقت وهى تقول :

ـ لا •• ليس هو •• لم أعرفه الا حين لم تعد لمعرفتى به فائدة •

وقالت نوال فى حزم :

ـ قومى •

واستأذنت نوال من أمها ، وخرجت مع هناء ، وما هو الا بعض الحين حتى كانتا بالمكان الذى يقيم به اليهودى ، وما هو الا بعض آخر من الحين ، حتى أصبحت هناء وهى لا تحمل الا روحا واحدة هى روحها ، ونزلت الى السيارة ومعها نوال •

وفي الطريق الى البيت انخرطت هناء فى بكاء حاد عنيف، ولكنها لم تجد له فى نفسها ألما ، أحست كأنها انسانة ضحت ، وان حلاوة التضحية تمسح عن نفسها الألم الذى عانته .. ألم الأم تقضى على ابن أحشائها .

ووقفت السيارة عند باب القصر العتيد ، ونزلت هناء وانية شاحبة اللون ، وصعدت الدرج فى اعياء تساندها نوال، فما ان بلغت أمها حتى هبت اليها الأم مذعورة تسألها ما بها ؛ ولكن هناء لم تستطع اجابة ، فقد اجتمع عليها الألم والاعياء والحزن واليأس ، فلم تجب أمها ، وانما سارت فى خطواتها الوئيدة المتهالكة الى حجرتها ، وفتحت بابها فى ضعف ، وأمها من ورائها لاتنى عن سؤالها عما بها ، وهى لاتنى عن الصمت ، حتى اذا بلغت السرير ارتمت عليه ، وصعدت شهيقا عميقا ، كأنها تطرد به من نفسها كل الآلام التى قاستها ، ثم قالت فى همهمة :

ـــ أخيرا .. الحمد لله .

وتولت نوال ابلاغ الأم بما كان من ابنتها وزوجها والحياة النكدة التى لقفتها منذ تركت القصر . وظلت نوال تحكى حتى أتت الى آخر المطاف عند اليهودى ، وجزعت الأم من هذه الحادثة وقبل أن تجيب نوال الى حديثها ، قامت الى التليفون ، فاستدعت طبيبها الخاص ، ليطمئنها على صحة ابنتها ، وحين رجعت الى نوال قالت لها :

ـــ ان اجهاضها لنفسها يمنع أى محاولة للاصلاح .. أرجو الله أن يقدرنا على الخلاص من هذا الشاب ، فأنا أعرف هذا الصنف من الناس .. ولكننا سنتخلص منه على أية حال .

ودخل أحمد الى الغرفة مذعورا بعد أن أنبأه الخدم بمجىء

أخته ، وبالحال الذى جاءت عليه ، وحين أنبأته نوال بما أنبأت به أمه ، قال فى هدوء وجد :

ـ لقد كنت مقدرا لهذا جميعه .. على أية حال سيطلقها ، فما أظنه سيجرؤ على عدم الطلاق .

ونظرت اليه أمه فى ابتسامة ساخرة :

ـ أتظن ذلك ؟ .. أتظن أنك ستقول له طلق فيطلق .

فقال أحمد فى وثوق :

ـ طبعا .

ـ ما زلت صغيرا يا أحمد .

ـ انه صديقى وأنا أعرفه .

ونظرت اليه أمه نظرة عميقة وقالت :

ـ أتعرفه حقا ؟

فتلعثم أحمد هنيهة ، ثم قال :

ـ على كل حال لا أظن أنه سيمانع فى الطلاق .

وقالت الأم فى وثوق :

ـ سترى .. قم الى التليفون واطلب اليه أن يأتى .

وقام أحمد وطلب فوزى فى التليفون ، ووعد فوزى أن يأتى فورا ، وقبل أن يأتى جاء الطبيب وأجرى الفحص على هناء ، ثم نظر الى أمها وقال :

ـ أما هناء فبخير والحمد لله ، ولكن أنت .. أنت التى لا بد لك أن تستريحى يا سهير هانم .

قالت سهير :

ـ نعم أعرف .

ــ يخيل الى أنك لا تعرفين أبدا .. اننى بغير أن أفحصك أرى أنك مجهدة كل الاجهاد ، ولا بد من الراحة التامة .

ــ أعرف يا دكتور سأستريح .

ونزل الدكتور ، وبعد حين جاء فوزى ؛ ورآه أحمد يدخل من الباب الخارجى ، فسارع نازلا اليه ، وحاولت أمه أن تستوقفه لتنزل معه ، فطلب اليها أن تلحق به .

وفى الدور الأسفل التقى أحمد بفوزى ، وأراد فوزى أن يصعد الى الدور الأعلى ، ولكن أحمد قاده الى غرفة مكتبه التى كانا يجلسان بها ، وما كاد الصديقان يجلسان ، حتى قال أحمد فى تسرع وفى حسم :

ــ فوزى ، أريدك أن تطلق هناء .

وفغر فوزى فاه من الدهشة ، ثم تمالك أمر نفسه وقال :

ماذا ؟

ــ أريدك أن تطلق هناء .

ــ هكذا ، بهذه السهولة .. !!

ــ نعم .

ــ واذا رفضت ؟!

وأخذ أحمد من الطريقة التى يحادثه بها فوزى ، ولكنه صبر نفسه وقال :

ــ لا أظنك ترضى أن تعيش مع زوجة تكره العيش معك .

ودخلت سهير الحجرة فى هدوء ، وقام فوزى فلم تبال قيامه ، وجلست على أقرب كرسى ، وجلس فوزى هو الآخر قائلا :

ـ ما هذا الكلام الذى يقوله أحمد يانينا ؟

لم تستطع سهير أن ترد عن قلبها تلك الغصة التى تحسها كلما سمعته يقول « يا نينا » ، ولكنها أغضت على السوء وقالت :

ـ ماذا قال أحمد ؟

ـ قال انه يريدنى أن أطلق هناء .

فقالت الأم فى هدوء :

ـ لا .. هذا غير صحيح .. انه لا يريدك أن تطلق هناء ، ولكن هناء تريدك أن تطلقها .

ـ ماذا ؟

فقال أحمد فى غضب :

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ ان الأمر كما سمعت .. ألم تكن تتوقعه .

وقال فوزى فى هدوء :

ـ الواقع أننى لم أكن أتوقعه .

فقالت الأم :

ـ على كل حال توقعك لا يجدى شيئا .. ما رأيك الآن ؟

وصمت فوزى بعض الحين ، ثم قال :

ـ أيمكن أن أكلمك على انفراد ؟

وقالت سهير :

ـ أي انفراد تقصد ؟ أنا لا أرى معنا الا ابنى .

وقال أحمد :

ـ أي سر يمكن أن يكون بينك وبين أمي ويختفي على ؟

فقال فوزى :

ـ انها مسائل عملية لا أحب أن أتحدث فيها أمامك .

فقالت الأم :

ـ لن يختفي شيء عن أحمد .. قل ما تريد .

فقال فوزى :

ـ الواقع أنني لا أستطيع العيش بدونها ، فحياتي كلها معلقة برضائها عني ، ولا أتصور كيف يكون حالي اذا تخلت عنى هناء .

وقالت سهير في هدوء :

ـ أنا أفهمك تماما يا فوزى ، ولكنني أريد أن توضح نفسك في جلاء .

ـ الواقع أنني لا أستطيع الطلاق .

فقال أحمد في تسرع :

ـ يا أخي هذه صفاقة .

ونظر فوزى الى أحمد وفي عينيه ثورة مصطنعة ، يخالطها أدب متكلف :

ـ أظن أنه لا معنى للاهانات .

فقالت الأم :

ـ أسكت يا أحمد . أنا آسفة يا فوزى .. قل ماذا تريد اذن؟ وكيف يمكن أن تعيش معها ، وهى لن تعود الى البيت مهما تفعل، لا أظنك تنوى طلبها فى بيت الطاعة .

فقال فوزى متلعثما :

ـ بالطبع لا .

فقالت الأم فى ثبات :

ـ فبيت الطاعة ، كما تعلم ، لا بد أن تعده أنت .

وأطرق فوزى خجلا وقال :

ـ نعم أعرف .

ـ اذن ماذا تريد أن تفعل ؟

وصمت فوزى لحظات ، وأخذ يردد النظر بين سهير وأحمد، ثم قال :

ـ ألا يمكن أن نكون على انفراد ؟

ودهش أحمد من اصراره هذا ، وقالت سهير فى حسم :

ـ لا .

فقال فوزى فى بطء :

ـ اذن فأنت تعرفين أننى فى فترة الزواج هذه قد تعودت نوعا معينا من المعيشة ، وأصبحت لا أستطيع أن أعود الى المستوى الذى كنت أعيش فيه ، فان هذا يخجلنى أمام أصدقائى .

وفغر أحمد فاه من الدهش ، ولم يجد شيئا يقوله ، بينما قالت سهير فى ثبات ، وكأنها كانت تدرك أن فوزى لن يسوق الا هذا الحديث الذى يسوقه الآن :

ـ اذن ماذا تريد ؟

فقال فوزى :

ـ والله أمرك .

ـ أتكفيك السيارة .. ؟

وصمت فوزى ، وقالت الأم :

ـ السيارة وأثاث البيت .

وقال فوزى :

ـ وماذا أفعل بأثاث البيت ، اننى لن أحتاج منه الا الى أثاث ثلاث غرف فقط .. النوم والمكتب والمائدة .

وقالت سهير :

ـ وماذا تريد أيضا ؟

وعاد فوزى يقول :

ـ أمرك .

والتفتت سهير الى أحمد ، وقالت له :

ـ أحمد .. أرسل عم دهب لينادى المأذون .

وقام أحمد والدهشة عاقدة لسانه لا تزال ، وقال فوزى :

ـ ألا نتفق أولا ؟

ودق أحمد الجرس ، وعاد الى مقعده ، وقالت أمه وهى على هدوئها :

ـ سنتفق يا فوزى .

وقال فوزى :

ـ ماذا ترين ؟

وقالت الأم لابنها :

ـ هات دفتر الشيكات من الدور الأعلى يا أحمد .

وقام أحمد ، وقبل أن يغادر الحجرة ، أقبل عم دهب تلبيـــة

لنداء الجرس ، فأمره أحمد أن يستأجر سيارة ويحضر بها المأذون فورا ، ثم خرج ينفذ أمر أمه . ولم تتكلم سهير ، ولم يتكلم فوزى ، حتى عاد أحمد ومعه الدفتر ، وأخذته منه أمه ، وطلبت اليه قلما ، وكتبت شيكا وقعته وفصلته عن الدفتر ، ثم نظرت الى فوزى قائلة :

ـ هذا هو الشيك .. اسمح لى ألا أعطيه لك الا بعد أن توقع الطلاق .

وقال فوزى مصطنعا الحياء :

ـ ألا أعرف الرقم ؟

وقالت الأم فى حسم :

ـ ألف جنيه .

وهم فوزى أن يقول شيئا ، ولكنه رأى النظرات الجامدة فى عيون أحمد وسهير . وظل ثلاثتهم صامتين ، حتى جاء المأذون . وطلب اليه أحمد أن يجرى اجراءات الطلاق ، وحين حاول المأذون أن يلقى خطبته التقليدية ، قطعها عليه أحمـــد ، وطلب اليه أن يمضى فى اجراءاته بلا اطالة .

وتم الطلاق ، وتسلم فوزى الشيك ، وهم أن ينصرف ، ولكن أحمد أمسك به من طرف سترته وقال له :

ـ اسمع .. ان أشد ما آسف عليه أننى عرفتك ، فاننى أحتقر تلك الفترة فى حياتى التى جمعتنى بك ، لقد خلقت فى نظرى مستوى جديدا للانحطاط لم أكن أتصور أن يرتمى فيه أحد .. وكل رجائى اليوم ألا أراك أبدا ، وألا أذكر هذه الفترة التى عرفتك فيها .

وفى جمود نظر فوزى الى الأرض وقال :

ـ أشكرك .

ثم انفتل خارجا يتحسس جيبه الذى وضع فيه ثروته الجديدة .

٢٧

كان سيد فى طريقه الى بيت وصفى باشا حين التقى به فجأة زميله فى الجماعة عبد العاطى بسيونى ، وحاول سيد أن يروغ من اللقاء ، ولكن عبد العاطى لم يتح له فرصة ، وأمسك به :

ـ أين أنت يا أخى ؟

ـ فى الدنيا .

ـ لقد أرسلنا اليك بعد خروجك من المعتقل فلم تأت .

ـ آتى الى أين ؟

ـ الى الأسرة .

ـ أى أسرة ؟

وذهل عبد العاطى ، وقال له فى سخرية :

ـ ألست السيد عبد البديع الدكر ؟

ـ هذا أمر لا شك فيه .

ـ هل جننت فى المعتقل ؟

ـ لا .. بل عقلت .

ـ ألا تعرف الأسرة ؟

ـ لا •• ولكن أعرف أن الجماعة قد حلت ••

ـ لكننا نجتمع •

ـ لا شأن لى باجتماعكم •

ـ أكفرت بمبادئنا ؟

ـ نعم وآمنت بنفسى •

ـ أتحنث فى يمين أقسمتها ؟

ـ أنا لم أقسم على القتل •

ـ هذا مروق !!

ـ اسمع •• أنا فى طريقى الى وصفى باشا شكرى بناء على طلبه ، وأعتقد أنه قد أعد لى وظيفة ، وسأقبلها فورا ، وقد خطب لى أبى عروسا من أقربائنا وسأتزوجها ، فأرجوك أن تعتبرنى مستقيلا من الجماعة •• أنا لم أعد عضوا •• أنا أريد أن أعيش يا أخى •• ابعدوا عنى •

ـ ان لنا يوما سيأتى •

ـ فليكن هذا اليوم لكم وحدكم ، كل ما أريده وظيفة •

ـ أنت مارق •• تتصل بأعداء الله وتخالف تعاليم الشريعة •

ـ أبدا وشرفك •• اننى سأصلى الخمس ، وسأصوم الشهر ، وسأحج ان استطعت سبيلا ، وسأؤدى الزكاة اذا وجبت على الزكاة ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله •

ـ خدعتك الدنيا •

ـ بل انى أعمل للآخرة أيضا •

ـ سترى •• دولة الظلم ســاعة ، والحق الى قيام الســاعة

ــ انتظروا أنتم قيام الساعة ، وأما أنا فسأعمل بقول ربى :
« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ــ ولكن أولى الأمر لا يطيعون الله . لو أكملت الآية لذكرت قول ربى : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » صدق الله العظيم .

ــ فدعوهم لله يحاكمهم .. كيف تعرفون أنتم الحق من الباطل من أعطاكم الحق فى الحكم على الناس وعلى أعمالهم ؟!

ــ كتاب الله نطبقه .

ــ كتاب الله للجميع .. وانه يقول : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فمالكم أنتم تتصدون للمحافظة عليه وحدكم ؟ .. كيف تعرفون أن أحكامكم على الناس هى الصادقة ، وكيف تثقون أن تفسيركم أنتم لآيات الله هو التفســير الحق .. الدين للديان يا عبد العاطى .

ــ هذا فراق ما بينى وبينك .. أنت كافر .

ــ مع السلامة يا عبد العاطى .. مع السلامة يا أخى .. دعنى أعيش يا أخى .. مع السلامة .

ومشى عبد العاطى مغضبا دون أن يرد تحية أخيه سابقا ، وأكمل سيد طريقه الى بيت وصفى باشا .

وحين أذن له الباشا بمقابلته قال له :

ــ ستذهب غدا الى سكرتير وزير المعارف ، وستجد طلبك عنده مؤشرا عليه بالتعيين .

ـ أطال الله عمرك يا سعادة الباشا .

ـ فى هذه المرة استطعت أن أنقذك ، فى المرة القـادمة لن أحاول .

ـ أطال الله عمرك يا ..

ولم يكمل ، فقد دق جرس التليفون ، وسمع الباشا يقول فى جزع :

ـ ماذا يا هناء ؟

ثم سمعه يقول :

ـ متى ؟

ثم وضع الباشا السـماعة وهو يقول « لا حـول ولا قـوة بالله .. » .

ولم يستطع سيد صمتا ، فقال للباشا دون وعي :

ـ خير يا سعادة الباشا ؟

فقال الباشا فى ذهول :

ـ هـذه آخرة لعب العيال .. لقد قبض على أحمـد بتهمة الشيوعية .. ماذا تفعل الآن .. الأمر فى يد النيابة ، ربنا يلطف بأمه .

وثبت سيد فى مكانه دهشا قانطا ألما ، لم يستطع الا أن يقول فى حسرة وذهول :

ـ أحمد بك .

٢٨

عرف أحمد السجن ، وما كان يتصور أن يعرفه .. قاده اليه شرطى فظ ينفذ الأوامر فى خشونة صماء ، فالجميع عنده سواء ، لا فرق ثمة بين متهم فى سياسة ، أو متهم فى جريمة ، وانما كلهم فى عرفه مساجين ، ثم لا شىء بعد ذلك ، ألقى أحمد فى حجرة ضيقة، أدار عينيه فيها فرأى دلوين . وما احتاج لسؤال ، فقد كان يعرف أمرهما .. أحد الدلوين للشراب ، والآخر لافراغ الشراب ، وغير الشراب ، وهكذا يلتقى الانسان بالحيوان فى كثير من الأحيان ، أى فارق اذن بينه وبين البهم فى حظيرته ، يفرغ طعامه حيث يأكله ، ويلقى بجسمه الى الأرض فى مساواة بينه وبين الدلوين ومساواة بينه وبين الحيوانات .

كان يفرح أنه مسقط العيون من الأمن ، وكان يفرح أنه مثار اهتمام من السلطات ، وكان يفرح باسمه الحركى ، وبالأسرار والتهاويل والطقوس . وكان يفرح بلهفة أخته عليه ، وكان يفرح بأنه متحرر الفكر . لا يدين بالله ، كما يدين عامة الناس والغوغاء الذين يطالب لهم بالانصاف من الأغنياء ، وكان يفرح أنه قطعة خارجة عن نظام القطيع الذى يسعى للحياة فى طريق تقليدى ، يسير على آثار السابقين،

وكان يفرح بأنه مهدد بالخطر ، وبأن أصدقاءه يخشـون عليه هذا الخطر .

أما وقد وقع ما كان مهددا به ، فذاك ما لم يتوقعه ، فجميل أن يكون ذا أهمية ، وأن يشعر بأنه ذو خطر يسعى رجال الأمن خلفه ، ولكن ليس جميلا أبدا أن يوقع به رجال الأمن فى السجن ، فالواقع أن أحمد ، برغم أنه كان فرحا بأنه مهدد ، الا أنه لم يكن يتوقع أبدا أن يدخـل السـجن ، فما كان يتصـور أنه هو .. ربيب القصر ، وحاكمه ، والسيد الأول فيه والأخير ، يدخل السجن ، وما كان يتصور أن يلقى الى السجن ، وعمه وصفى باشا يتمتع بهذا النفوذ . كان فى عميق نفسه يستبعد فكرة دخوله السجن ، ولكنه كان يترك هذه الفكرة طافية على سطح شعوره ليستاف منها هذا الأريج الحلو من الاحساس بالأهمية .

وأجال أحمد نظرة ثانية فى حجرة السجن ، وعاد الى نفسـه يسألها ، اذن فهذا هو السجن ، فمن هنا اذن عرف الناس الحرية ، وذكرته كلمة الحرية بالخطبة التى ألقاها فؤاد ، جميلة هى الحرية .. ان شيئا فى العالم لا يساوى الاحساس بالحرية .. حرية الحركة ، وحرية الشعور ، وحرية التفكير ، وحرية القول .. من هنا يستطيع أن يدرك قيمة الحرية .. لم يستطع أن يدرك قيمتها الا حين فقدها .. كم هو غبى وان ادعى تحررا فى التفكير .. كيف قبل أن يؤيد نظاما لا يعترف بالحرية ، ويرى فيها معنى رخوا لا يسـير بالحيـاة الى أهدافها السامية .. وما أهداف الحياة السامية ؟ أليست هى معانى تقف الحرية منها موقف الزعامة .

ان الله أعطى عبيده حرية التفكير والعمل ثم حاسبهم ، الحرية أساس النظام الذى أقامه الله .. سبحانك يا رب .. يارب .. فك قيدى لأقدس الحرية .. انى ألجأ اليك يا رب ؟!!

يا ماذا ؟ ماذا أقول..أأقول يارب؟ يا للضلال الذى كنت فيه!.
لجأت اليه عند أول نازلة ، وكفرت به فى النعمة .. أى هباء كنت أعيش فيه ؟ . أأقول يا رب بهذه البساطة ، وكأننى لم أكفر به ، ولم أخرج عليه ، ولم أعتبر التابعيه بهائم مخدرين ، أأقول يا رب ، وأجد لها فى نفسى هذا الرنين ، بل انى أحس الآن أنى قريب اليه ، وأحس أملا يشيع فى نفسى من بعد ضيق ، وأحس صدرى وقد أشرقت فيه أضواء جديدة باهرة حلوة . أكل هذه المعانى تتواكب فى نفسى المظلمة من كلمة واحدة تنطلق من صميم الفؤاد .. يا رب .. نعم اننا نحسه ولا نحلله ، اننا نؤمن به فنصل اليه ، ولكننا لا نفحصه ولا نضعه على أسس من المنطق والعقل ، والا فما هذا الشعور الحلو الذى ينساب فى نفسى ، ما قول المنطق والعلم والفلسفة فى هذا الشعور ؟ ما رأى العلوم جميعا فى هذه الراحة التى أتسلاها منذ قلت يارب ، وما رأى المذهب الذى أدين به فى هذا الهدوء الذى يتمشى فى أوصالى من بعد اضطراب وضيق ويأس ، لا يفصل بين الشعورين الا كلمة واحدة قلتها .. يا رب .. فاذا أنا سعيد ..

أى ضلال كنت أسعى فيه ؟ . ان مذهبى فيما أذكر تعرض لهذا الشعور الذى أحسه ، نعم انى أذكر نظريته فى هذا الصدد ، لقد أحسوا بالخطر الذى يطالعهم من قول الناس « يا رب » فأنشأوا نظرية ليحاربوا بها الخطر .. يقولون اننا لو هيأنا للانســان حياة مستقرة ، ينال فيها ما يطمح اليه ، ومشت به الحياة فى الطريق الهادىء الأمين ، لو فعلنا ذلك ما احتاج الانســان أن يقول يا رب . يا للضلال الذى كنت فيه ! وهل حياة الانسان كلها مادية لا يحتاج فيها الا لمطالب الجسد التى يريد مذهبهم .. أليس للانسان رغبات أخرى .. ألم يدركوا تلك الحياة التى تمور فى نفس الانسان ، متقلبة بين السخط والرضى ، أو الاقبــال أو النفــور ، أو الانشراح ، بلا داع الى السخط أو الرضى أو الاقبال أو النفور أو الضيق أو الانشراح . أين

نولى وجوهنا عند الضيق ، وأين نولى وجوهنا عند الرجاء ، وأين نولى وجوهنا عند الخوف ، وأين نولى وجوهنا عند المرض ، ولماذا هذا التساؤل جميعا ؟ .. أين نولى وجوهنا فى هذا السجن الذى ألقيت اليه .. أنا الآن لا أحتاج الى طعام ولا شراب ، بل اننى هنا فى السجن مكفول الرغبات ، مهما تكن هذه الرغبات محققة بأبخس ما تقبله النفس من خبز أسود وأدم حقير ، الا أننى على أية حال مكفول الرغبات .. فهل أنا مستقر الحياة ، هادىء على الطريق ، لا أحتاج الى أن أقول « يا رب » ، فمالها انطلقت من صميم الفؤاد ، مالى وجدت نفسى أقول « يا رب » ، دون أن أفكر فى قولها .. اننى الانسان . أنا عالم فى نفسى . عميق الغور ، جموح العواطف ، موار الأمواج . وويل للانسان ان ضحل غوره ، أو هدأ عاصفه ، أو استكانت الأمواج فيه . ان جمال الانسانية فى هذه الاشراقات التى تعقب الضيق ، وفى هذا التقلبات التى لا يستقر بها قرار ، فمن لى فى هذه الأنواء ، وماذا أقول ان لم أقل يارب .

لقد فكر المذهب فى كل شىء ونسى الانسان الكامن فى نفس الانسان .. الطبيعة الانسانية هى أشد أعداء المذهب عنفا .

ولكن مالى أجهد فى اقناع نفسى بأن أترك اقتناعى بمذهبى ، هل مر على حين من الأحيان كنت فيه مقتنعا بمبدئى كل الاقتناع ، هل أذكر لنفسى فترة كان المبدأ خلالها مستقرا فى عميق ايمانى ؟ .. لا أذكر .. أنا لا أذكر أننى كنت عميق الايمان بشىء على الاطلاق . لم أكن خالص الايمان بمبدئى ، كما لم أكن خالص الايمان بشىء . كان هذا هو سر شقائى .. حاولت أن أهرب من القلق والفشل الى المبدأ ، فخيل لى أننى مؤمن به ، ولكننى كنت أعلم دائما اننى أحب فيه الاسم الحركى ، وأحب فيه الاستخفاء عن الأمن ، وأحب فيه اثارة هذه السحابة من الابهام والغموض والاسرار حولى ، وأحب فيه لهفة أختى على كلمـا رأتنى نازلا على موعد اجتمـاع وأحب

فيه الاجتماع نفسه ومناقشة أمور الكون جميعا كنا نتحـدث عن العالم أجمع ، وكأننا نحن حكامه ، وكنا نتخذ العالم أجمع مجالا لتطبيق النظريات التى تعلمناها ، والمبادىء التى نعتنقها •• كنت أرى نفسى فى هذا الاجتماع ندا لله ذاته ، فحق لى اذن أن أبحث فى وجوده وفى تعاليمه •• لم أكن أحسه فكفرت به ، واعتقدت أننى آمنت بمبدئى ، ولو أننى أزلت عن نفسى ما تتخذه من أقنعة ، ولو أننى التقيت بنفسى لقاء خالصا من كل زيف تتستر خلفه ، لعرفت أننى كنت أومن بمظاهر مذهبى ، دون أن أومن بمذهبى ذاته •

انى أعرف ذلك فى نفسى ، ولن أنسى تلك الانتقاضات التى كنت أواجهها من نفسى بين حين وآخر ، ولن أنسى أننى كنت أقر مضطربها وأسكن مائجها ، لقد كنت محتاجا لمذهبى ، لأقنع نفسى به أننى ذو شأن •• لم أستطع أن أكون ذا شأن فى شيء ، فاتخذت هذا المذهب ، وانه والحق يقال ، يمد النفس بشعور ضخم من الأهمية ، ان هذه مشكلة لا بد لى أن أواجهها الآن ما دمت ألتقى مع نفسى فى هذه الصراحة التى لم تتعودها ، وما دمت أنتوى أن أترك المذهب •• هل سأتركه ؟ •• نعم ، لقد آمنت بالله وأحسسته ، والمذهب لا يقبل مؤمنا بالله •• اذن ففيم يكون تفوقى ؟ لو أن المذهب يقبل منضما له ومؤمنا بالله ؟ اذن •• ؟ اذن ماذا ؟ اذن لظللت منتظما فى سلكه ، ان للمذهب ألفاظا حلوة الرنين ، سريعة النفوذ الى الاحساس •• كان يعجبنى فيه أنه لا يســاوينا بالقطيع •• ولكن أى قطيع يقصد •• أليس القطيع هو الشعب الذى يريد المذهب له العدالة والانصاف من الأغنياء ، ويريد أن يسوى بينه وبين جميع الأغنياء ، فلا يكون فى العالم غنى ، ولا يكون فى العالم فقير •• لا شك أن هذا معنى من معانى القطيع •• وهناك معنى آخر •• قطيع الذين سبقونا • ولكن أليس المذهب نفسه يقدس قطيعا سبقه من الذين أسسوه ووضعوا

دعائمه الأولى ، قطعان نحن فى كل منحى من مناحى الحياة • ولكن ماذا يضيرنا أن نسير فى طريق قطعه من قبلنا ، بل كيف نعرف أخطاء السابقين ، اذا كنا لا نرود طريقهم ، بل كيف تتقدم اذا نحن لم ندر أين وقفوا •• ان نقطة النهاية فى سير من سبقونا ، هى نقطة البداية فى سيرنا ، وهكذا يتقدم العالم • لا يستطيع كل جيل أن يكفر بما سبقه ، والا ظل العالم واقفا فى مكان واحد لا يتقدم •• ان تقدم العالم خطوات من الأجيال المتلاحقة ، واعتراف من اللاحق بفضل السابق ، وتصحيح من اللاحقين لأخطاء السابقين •• وهناك قيم انسانية وضعتها الأجيال ، ثم لم تغيرها الأجيال ، وهناك مشاعر انسانية بدأت مع الانسان ، ولم يستطع الانسان أن يغيرها ، لأنها جزء منه . هل يحق لنا نحن اللاحقين أن نعدو على هذا القيم فنغيرها ، أو هل يحق لنا أن نغير هذه المشاعر •• هل يجوز لنا أن نغير ما استقرت عليه الأجيال من تقديس الحرية والعدالة والآداب العامة التى تعارف الناس عليها ، والأمانة والشرف والوطنية •• هذه القيم وأمثالها ، هل يجوز لنا أن نعدو عليها •• لا نستطيع ، فهل يجوز لنا أن نغير المشاعر ؟ •• السؤال فى ذاته غير جائز ، لأنه ليس فى طوع الانسانية أن تغير المشاعر •• كيف نغير مشاعر الحب والبغض، والضيق والسرور والفرح والألم ، والراحة والاضطراب ، أجيال مضت وأعقبتها أجيال ، والقطيع سائر يتقدم فى العلم وفى الفن ، ولكنه يقف عند هذه المشاعر، كل جهده ازاءها أن يحللها ويصفها ويرسمها ، ولكنه أبدا لم يستطع أن يغير منها شيئا • فالقطيع اذن كلمة نقولها فنبغضها ، ولكننا اذا مشينا قليلا وراء معناها ، وجدنا أن سير القطيع هو الذى بلغ بالمدنية الى هذا المدى الذى بلغته اليوم •• على أن يكون فى القطيع عقول واعية تدرس وتفكر وتطمح الى التقدم ، وتسعى اليه وتبلغه ، أو تترك من الآثار ما يجعل الانسانية تبلغه •• هو ليس قطيعا اذن •• انه الانسان يسير فى طريق الحياة ، وله هدف محدد واضح ، هو

نمو الانسانية وتقدمها وبلوغها الى أسرار الكون ، وانتفاعها بهذه الأسرار فيما يفيد الانسانية جميعا .. الانسانية اذن تجمع السابقين واللاحقين ، ومن يخرج عن ركابها عضو أبتر فلا نفع فيه ، ان من يقف على حافة الطريق ، ويسخر من السائرين ولا يشجعهم ، عضو أشل ضعيف ، أشفق من السير ، وخاف الطريق ، فوقف يريد أن يعرقل السائرين ويعوق تقدمهم ، ولكن الانسانية أقوى منه ، ومن كيده ، فهو يسخر ثم لا يصنع شيئا .. لقد كنت كذلك .. اننى لم أسر مع أحد .. لم أسر مع مذهبى ولم أقتنع به ، ولم أسر مع غير مذهبى ، وسخرت منه ، لقد كنت اذن على هامش الطريق . الانسانية لم تستفد منى شيئا .. لعلى كنت مشفقا لأنى لم أستطع أن أكون ذا موهبة فى شىء .. ولكن هل لا بد لى أن أكون حتى أسير الطريق .. هل كل انسان فى العالم ذو موهبة ، كيف تستقيم الحياة ، وكيف يكون صاحب الموهبة فذا ان كان يستوى فيها مع الناس أجمعين ؟ .. اننى الآن أعرف أننى لست صاحب موهبة ، ولكننى أيضا تبينت الطريق والهدف ، ان خير ما أستطيع أن أفعله أن أكون انسانا .. انسانا يسع العالم أجمع فى قلبه ، يشـفق على الضعيف ويعينه ، ويفرح للناجح ويشجعه ، ويؤيد القوى ان كان على حق ويضعه على الطريق ان أخطأ ، ويثور فى وجهه ان عدا وظلم وبغى ، فلن ترى الانسانية أبشع من قوى يظلم ولا يجد من يقول له ظلمت .. اننى الانسان ، أهم عنصر فى هذا الوجود الضخم .. المواهب جميعها تسعى لاسعادى أنا الانسان .. فهل أستطيع أن أكون انسانا يستحق ما تقدمه له المواهب ؟ هل أستطيع أن أتذوق الفنون وأحسها ؟ وهل أستطيع أن أتابع التقدم العلمى وأعينه بجهدى الذى لا يتمتع بموهبة . وقبل كل هذا هل أستطيع أن أسع فى قلبى المخطىء ، ولا أهينه ، والمحسن ولا أحقد عليه ؟ وهل أستطيع أن أغالب نفسى فلا تسعى الى الشر ، بل هل أستطيع أن أتيح لخير نفسى أن يتغلب على شرها ..

لكن هل أصادق الشرير ؟ •• لا •• فليس هذا من الانسانية فى شىء • فصداقته تشجيع له على المضى فى شره •• فهل أجازيه الشر بالشر ؟ •• ان اقتصر العقـاب عليه فنعم • هل أسـتطيع أن أحب الجميع ؟ •• هل أستطيع أن أحب أبى ؟ •• نعم •• نعم ؟! •• اننى أدرى أنه هو الذى ألقانى الى هذا الشك ، والى هذه الحيرة ، لم أستطع أن أحترمه أبدا •• ولكن ما ذنب أبى •• ان فى نفسه عوجا ، ولكن من يستطيع أن يحتمله ان لم أحتمله أنا ، ومن يعينه ان أنا لم أعنه • اننى أريد أن أكون انسانا •• فهل أستطيع •• الطريق وعر ، ولكننى سأستطيع •

٢٩

كانت سهير لائذة بسريرها ، مرغمة على الاستلقاء فيه ارغاما، ولو تركت وشأنها ما استقر بها قرار ، ولظلت حائرة بين السجن وأولى الأمر ، ولكن تكاثروا عليها وأرغموها على أن تظل بسريرها ، وكانت أقوى حجة فى يدهم أن وصفى قطع الأمل عندها أن يستطيع أحد من ذوى السلطان عملا ، فابنها متهم فى جريمة يعاقب عليها القانون ، والقضاء وحده هو المختص ، ولا سبيل لأحد عليه • ولكن ماذا يجدى استلقاؤها هذا ، وقلبها هو المريض ، والألم يعتصر قلبها ، وسيظل يعتصره مهما تلجأ الى الراحة . ان المرض فى نفسها ، فأين لها المهرب من نفسها ؟! • أحمد فى السجن •• ويلى مما صنعت الأيام !! ••

ودق جرس التليفون ، وكان المتكلم هو وصفى باشا ، وقد ألقى اليها أنه استطاع بعد جهد أن يجعل النائب العام يعجل بالتحقيق مع أحمد ، وقد تقرر أن يبدأ التحقيق معه فى الغد •

وما لبث سليمان أن دخل الحجرة فأنبأته ، فما زاد على أن أطرق صامتا ، وراحت سهير تنظر اليه وتطيل النظر ، لقد رأت فى وجهه معالم حياة •• لقد رأته يتألم ، وأحست ألمه •• كانت تحس

ألمه فى نفسها ، كما تحســه فى وجهه ، لقد التقيا آخر الأمر على احساس واحد ، وان يكن هذا الاحساس هو الألم ، الا أنهما التقيا عليه آخر الأمر •• عجيبة هذه الأيام ؟ أكان لا بد لنا من هذه الفواجع حتى نلتقى ؟! وهل كان لا بد لنا من اللقاء ؟ •• عجيبة ؟ •• ان التنافر الذى كان بيننا هو الطريق الذى أدى الى لقائنا اليوم • لقد نشأ ولدانا فوجدانا متنافرين ، لم نتحد يوما على تربيتهما ،ولم نتآزر يوما من أجلهما ، كانت الصلات بين الأبوين مفككة هشة فنشأت أخلاق طفلينا مفككة هشة • بذلت أنا الأم ما فى وسعى ، ولم يكن للأب وسع ، فلم يبذل شيئا •• ولكن هل بذلت ما فى وسعى حقا •• أترانى كنت أقوم بما يجب على ؟ •• أكان كل واجبى أن أحقق رغبات طفلى مهما تكن هذه الرغبات •• أكان يجــدر بى أن أترك أباهما أمامهما يتضاءل ويضمحل حتى يصبح شيئا كالهباء من العدم ، فاذا هما ينشآن بلا قدوة أمامهما ، ولا ايمان بشىء ولا احترام لشىء • أكنت أستطيع أن أقيم من سليمان شيئا •• ما أظننى كنت مستطيعة ؟ ولكن هل حاولت ؟ لا •• لم أفعل •• ولم أحاول حتى أن أقيم خلق طفلى : لم أحاول لهما شيئا الا أن أنفذ ما يريدان ، ثم أنطوى على ألمى ضنينة به ، أخشى أن يزول ، كنت ألتذ ألمى ، لأنه يحمل لى ذكريات من الشباب والهوى ، وفى غمرة من اللذة والألم والذكريات والشباب والهوى ، لم أحفل أمر ولدى فنشأ ضائعين فى بيداء لا هدف لهما فيها : تائهين لا يحدد أملهما مطمح أو غاية •

كنت ضــعيفة أمام ألمى ، كما كنت ضــعيفة أمام طفلى • كنت ضعيفةأ أمام ألمى منذ اللحظة الأولى ، لقد هيأت لنفسى حينذاك أننى قوية ، وأننى أنتقم لحبى المهجور •

فاذا بى أنتقم من نفسى ، وخيل لى أننى فى انتقامى لنفسى قوية ، ولكن هأنذى على الأيام أتبين أننى ما انتقمت الا عن ضعف ،

فالانتقام جميعه ضعف .. انه لا يصدر الا عن انسان عجزت نفسه أن ترد الشر الصاخب فيها ، ولا يصدر الا عن انسان هانت عليه نفسه ، فعقله ضئيل ، وعاطفة النقمة عنده طاغية ، فهو مغلوب على أمره من عاطفته ، ومن عاطفة شريرة فيه .. كنت ضعيفة حين تزوجت سليمان ، هدني هجر وصفي لي ، فلم أتمالك أمر نفسي وقسوت ، ثم .. هأنذى أرى أن قسوتي لم تكن مني الا ضعفا ..

وكنت ضعيفة أمام طفلي .. فما زلت أجسم لنفسي أن ليس لي الا هما ، فضعفت وكنت أعلل ضعفي دائما بأنني لا أمل لي الا هما ، ولو كان هذا المعنى عميق الغور في نفسي لاستطعت .. أو لحاولت على الأقل أن أجعل منهما شيئا آخر غير هذا الذي صارا اليه .. ولكن الواقع أنني عشت في الألم الذي خلقته لنفسي منذ أول حياتي ، ثم أبيت أن أخرج عن هذا الألم ، فكان ما أقاسيه الآن من ابنة مطلقة ، وهي لا تزال في أول بواكير الشباب ، وابن سجين وهو لا يزال في أول بواكير الحياة .

بكرت الأشعة الأولى من الشمس ، فلم تجد سهير في فراشها ، بل كانت استيقظت في زوال الليل ، وارتدت ملابسها ، ومكثت تنتظر أن تعلن اليها هذه الأشعة أن اليوم الجديد قد جاء ، وأنها تستطيع أن تلتقي بابنها .. على أي حال ستراه ؟ .. انها لا تدري ولا يهمها أن تدري ، كل ما تصبو اليه أن تراه .

واستيقظ سليمان مبكرا ، وعجل بارتداء ثيابه ، ونزل هو وزوجته الى مقر النيابة التي سيحاكم فيها أحمد .

ودخلت سهير المحكمة .. الله للأيام ، لماذا يقسو عليها الزمان هذه القسوة ، أتدخل هي المحكمة لترى ابنها مقبوضا عليه ؟! ..

وفي ساحة المحكمة رأت سهير المساجين ، والشرطة ، يروحون بهم ويغدون ، وهم كالشياه المستسلمة لا تملك من أمر نفسها أمرا ،

القيود فى أيديهم ، والملابس الزرقاء ملقـاة عليهم ، واليـأس يملأ عيونهم ، والمذلة تغشاهم . أهذه هى نهاية المطاف ؟ أيقدر لى أنا أن أرى ابنى ندا لهؤلاء ، بعد أن أفنيت عمرى من أجله ، أكل ما قد فعلته ، وكل ما قد امتنعت عن فعله ، لا يثمر لى الا هذه النهـاية الكالحة الشوهاء .. أمن أجل هذا أهدرت شبابى ، ولذات حياتى ، وآمال المطالع الأولى من اشراقات عمرى ، أمن أجل هذه النهـاية لازمت سليمان ، وقطعت كل خيط يصلنى بأمل من سعادة ، وحييت ألمى وأحييته كلما آذن بضعف ، وكلما أشرف به النسيان من الزمان على وهن . أأنا من صنعت هذا المصير ، أتراى أنا من مهدت له ، أتراى أنا قد شغلت بألمى عن ولدى ، فكان هذا المصير الذى ألتقى به فى أخريات العمر منى ، وفى أوائل العمر منه أو كنت أقدر ؟ أم هل كنت أفكر ؟ .. لا .. ما فكرت فيما قد يصير اليه ولدى ، ولا حتى فكرت فيما قد أصير اليه أنا ، ولكن هل أخطأت الى هذا الحد ؟ هل كان خطئى كافيا وحده ليقودنى الى هذا المكان ؟ .. هنا مع زوجات المجرمين وأمهاتهم ، أى فارق بينى وبين هذه المرأة هنالك ؟ .. تلك التى تحيط بها أجواء من الجهل واليأس والألم ، وأى فارق بينى وبين تلك التى هنا تحمل طفلها على كتفها ، وترنو الى زوجها الشاب ، يقاد الى حيث لا تدرى ولا يدرى من مصير .. لعل هذه الأم خير منى ، لعلها هى لم تخطىء ولم تكن لها يد فى الجريمة التى ارتكبها زوجها ، ولعلها ترعى وليدها خيرا مما رعيت أنا وليدى .. ولكن أكان خطئى يستحق هذا جميعه ؟ .. أم أن سليمان كان مخطئا معى ؟ لا .. لا أرى سليمان أخطأ فى شىء ، لقد جرى على طبيعته لم يغيرها ، وكان على أنا أن أعوض ولدى عن أبيهما .. لا بالمال وحده ، ولكن بالرعاية والتقويم أيضا ، ولكن ماذا يفيد الندم الآن ؟ بل ماذا يفيد أى شىء الآن ؟ .. لا .. ما أظن شيئا يفيد !!

وبينما سهير فى غمرة من هذه الأفكار والذكريات ، أقبل وصفى اليها مصطحبا صديقه المحامى الكبير مصطفى باشا حسنى ، وما ان رأته حتى عصفت بنفسها نوازع شتى من الألم والاطمئنان والحسرة والجزع •

قال وصفى :

ـ لماذا تجلسين هنا ؟

فقالت سهير :

ـ ان سليمان يقول انه سيمر من هنا •

فصمت وصفى هنيهة ، ثم التفت الى صديقه يقول :

ـ تذهب أنت الى غرفة المحامين يا باشا •

وقال مصطفى باشا :

ـ وأتركك •• لا يا أخى •• لا طبعا •• سأنتظر هنا معكم ، حتى يبدأ التحقيق •

فقال وصفى :

ـ ألا تبلغ وكيل النيابة أنك هنا ؟

فقال مصطفى باشا :

ـ حين يجىء المتهم سأدخل لوكيل النيابة ، لا تنشغل يا باشا ، كل شىء سيكون على مايرام •

ومست كلمة المتهم قلب سهير ، ولكنها ما لبثت أن سخرت من نفسها وهى تسائلها ، وبماذا يمكن أن يسمى •• انه متهم •• وليس له هنا اسم آخر ••

وبينما كانت سهير شاخصة الى الباب ، لا تميل ببصرها عنه ، مال وصفى على سليمان :

ـ سليمان •• سهير متعبة ، التعب يبدو على عينيها بشـكل واضح ، أرجوك أن تأخذها الى البيت بمجرد أن ترى أحمد •

ـ نعم يا باشا سأفعل •

وشمل الصمت أربعتهم بعض الحين ، ثم ما لبثت سهير أن رأت السيد عبد البديع يدخل من باب المحـكمة مضطربا بادى الألم ، ورآهم السيد ، فأقبل اليهم مسرعا ، وحياهم جميعا فى أدب حزين ، ثم أراد أن ينتحى ناحية ، ولكنه رأى جعفر وحسام يدخلان الساحة، فوقف حيث هو ينتظرهما ، وقصد الشابان الى حيث كان الجميع يجلسون ، وقالت سهير :

ـ كيف أنت يا حسام ، متى جئت من البلد ؟

ـ أمس مساء •• طلبتنى أمى .

ثم التفتت سهير الى جعفر :

ـ كيف حالك ياجعفر ؟

ـ بخير يا عمتى •• الحمد لله •

ثم انتحى جعفر وحسام بالسيد ناحية مستترة ، وراحوا يدخنون فى صمت ، وأنظارهم الى الباب تنتظر مجىء أحمد •

ولم يطل بهم الانتظار ، فسرعان ما جاء أحمد مرتديا ملابسه العادية ، لم يزد عليها الا القيد الذى يكبل يديه •• ونظرت سهير اليه ، وزأرت فى صدرها صرخة مجنونة ، لم يمنعها من الانطلاق الا أنها فى صدر سهير تمور •• ولم تجد الصرخة سبيلا الى الهواء الا فى كلمة واحدة ، قالتها الأم فى صوت خفيض كسير ، ملتهب النغمات ، واله الرنين :

ـ أحمد .

ونظر سليمان الى ابنه يقترب منه والقيد فى يديه ، ابنه المتكبر الذى لم يره فى القصر الا عالى الرأس ، حاسم الأوامر ، شـديد الترفع ، قليل الحنين لأبيه ، قليل الاحتفاء به .. أحمد الذى لم يستطع رغم علمه بما يدور فى نفسه نحوه الا أن يحبه أشد الحب ، حبا يستخفى ، لأنه لا يجد فرصة للظهور .. أحمد المتكبر الحبيب ، يقاد وفى يديه القيد .. وكالنبع تسـده الصخـور عن الجريان ، فيحطمها ويسيل ، سالت الدموع من عينى سليمان .

واقترب أحمد ، وراع القوم المنتظريه اشراقة فى وجهه ، لا تتدفق الا عن نفس مطمئنـة هادئة ، ونظرت الأم الى ابنها ، وحاولت أن تبتسم ، وجاهدت لتفرج فمها عن ابتسامة تصحب ابنها الى التحقيق، ويسر لها الأمر ابتسامة عريضة طالعتها من ولدها ، فلاقتها بابتسامتها هى المخضلة بالدموع ، ثم لم تزد .

والتفت أحمد الى أبيه فى اشفاق وحب واهتمام :

ـ لا ترع يا أبى .. لن يكون الا ما يسرك .. أقسم لك يا أبى .. أقسم بحياتك أنه لن يكون الا الخير كل الخير .

وخفق فؤاد سليمان فى وجيب متدافع .. بحياتى أنا .. أبحياتى أقسمت يا ولدى .. أحياتى عندك قسم .. الى حياة عندك يا ولدى .. حذار يا ولدى أن يختطفك منى السجن .. فى رعاية الله ياولدى .. دعاء تردد فى قلب الأب .. فى كل خلجة من خلجات قلبه ، ولكن لسانه ظل مذهولا بالمفاجأة ، معقودا بالدموع ، لا يطيق أن يصـل بهذا الدعاء الى أذن ابنه ، ولكنه كان واثقا أن الدعاء قد بلغ آذان السماء .

ونظر أحمد الى عمه وصفى باشا ، ومد له يده ، فوجد يده

الأخرى تصاحبها ، فأطبق بيديه كلتيهما على يد عمه ، وقال ودمعة متألقة تموج فى عينه تظل بها لا تسيل :

ــ ياعمى ، أنا مقدر مجيئك ، ومقـدر كل ما تبذله من جهد لأجلى .. أشكرك لا تكفى ، ولكنى لا أجد غيرها .. أشكرك .

وقال وصفى باشا فى ثبات :

ــ أى شكر يا أحمد ؟ .. أنت ابنى .. أريدك أن تثبت ، بل لا أريد منك شيئا ، فهذا الذى أراه فى وجهك فوق ما كنت أنتظر .

وأقبل الشبان الثلاثة على أحمد يحادثونه ، وحاولوا أن يبتعدوا بحديثهم عن العواطف ، وعن السياسة ، وعن التحقيق ، فلم يجدوا الا كلاما أجوف وقع فى نفس أحمد موقعا حلوا . لقد كان يدرى ما يدور فى نفوسهم ، وكان يقدره .

قص حسام عليه ما صنعه فى البلد ، وما ضاق به فيها ، وما سره ، وقص عليه السيد أمر عروسه وفرحها بأنها ستأتى الى مصر ، ووقف جعفر يعلق على الحديث جميعه ، محاولا المرح ، ما أتاحت له نفسه هذا المرح ، حتى جاء الحاجب آخر الأمر يستدعى أحمد للتحقيق الذى سبقه الى غرفته محاميه مصطفى باشا . وقال الشبان لأحمد : انهم منتظرون ، وودعته أمه وأبوه بدعوة تتصاعد الى السماء من عيونهم ، ومن دموعهم ، وقال له وصفى باشا :

ــ كن كما أنت الآن يا أحمد ..

ودخل أحمد غرفة التحقيق .

وحاولت سهير أن تعود الى مجلسها ، ولكن وصفى وسليمان والشبان أقنعوها أن التحقيق سيطول ، وأنها لا تستطيع الانتظار ، وكانت الأم فى حال لا تحتمل معها كثرة اللجاج أو العناد فخضعت ، وخرجت يصحبها سليمان ووصفى .

مكث الشبان الثلاثة ينتظرون نتيجة التحقيق ومر بهم ضابط بوليس دخل غرفة التحقيق ، ومكث بها بعض الحين ، ثم خرج واتخذ لنفسه كرسيا بجانب باب الغرفة .

وبعد ساعات طويلة انتهى التحقيق ، وخرج أحمد وانضم اليهم والاشراقة لا تزال ماثلة فى وجهه ، تشيع الاطمئنان حوله ، وتبعث به دافئا الى قلوب اخوانه ، وسألوه عما دار بالتحقيق ، فأنبأهم بأنه لا دليل لدى النيابة ضده .

وقال السيد عيد البديع :

ــ أنا واثق ان التحقيق سيحفظ .. لقد حفظ التحقيق مع فوزى عبد المجيد ولكن ..

ولكنه لم يكمل الجملة ، وكأنما آحس أنه ما كان له أن يذكر اسم فوزى .. أشعره بذلك هذا الوجوم الذى لصق بوجه حسام ، ولكن أحمد كان مصغيا للحديث باهتمام ، فهو يقول لسيد محاولا أن يخفف عنه الحرج الذى وضحت آثاره عليه :

ــ اذن فالقضية جميعها لا دليل فيها .. أنا واثق من ذلك .. لقد أرحتنى ياسيد .. لأنك بشرتنى بأننى سأخرج .

وقال السيد فى اطراق :

ــ ان شاء الله .

وقال أحمد :

ــ يا أخى ، ليست هذه لهجة المتفائل .. ألم تقل ان فوزى قد أفرج عنه ؟!

وقال السيد فى ألم ووجوم :

ـ لا •• لم أقل انه أفرج عنه ، ولكننى قلت ان التحقيق حفظ لعدم كفاية الأدلة •

وقال أحمد :

ـ التحقيق حفظ يعنى أن فوزى أفرج عنه •

وقال جعفر فى ثبات :

ـ لا •• النيابة أفرجت عنه ، ولكن البوليس اعتقله •

وبهت أحمد هنيهة ، ووجم حسام ، ولكن جعفر سارع قائلا :

ـ أظن أنهم لن يعتقلوا أحمد ، فاذا فعلوا ، فأعتقد أن أبى سيجعلهم يطلقون سراحه •

وقال السيد :

ـ طبعا •

وقال جعفر :

ـ لقد كنت أعلم أن فوزى معتقل ، فقد جاءنى صديق لى وله ، ورجانى أن أكلم أبى ليشفع له فى الافراج عنه •

وامتقع وجه حسام ، وسارع السيد قائلا :

ـ بعد ما فعله ياجعفر بك !!

فقال جعفر :

ـ والله أنا أيضا لم أكلم أبى ، رغم أن صديقه أخبرنى أن أبا فوزى قد أصيب بالشلل ، ولم يعد للبيت رجل غير فوزى •

وظل حسام على وجومه ، وارتبك سيد فلم يقل شيئا ، وقال أحمد فى هدوء وثقة :

ـ ولماذا لم تكلم عمى ؟

وعلت وجوه الشبان الثلاثة دهشــة ، كان جعفر أسرعهم فى التخلص منها ، وقال :

ـــ الحق ، خشيت أن أغضب اثنين •• خشيت أن أغضبك ، وخشيت أن أغضب أبى ذاته •

ومست قلب حسام غصة لأن جعفر لم يخش أو لم يقل انه خشى أن يغضبه هو أيضا ، فقد كان يحب أن يرتبط اسمه بأسرة خالته • وقبل أن يجيب أحمد ، خرج مصطفى باشا من غرفة التحقيق ، وعلى وجهه فرحة متحفظة ، وشخص أربعتهم اليه ، وهو يقترب منهم ، حتى بلغهم وقال :

ـــ مبروك يا أحمد •• لقد حفظ التحقيق لعدم كفاية الأدلة ولكن ••

وقال أحمد :

ـــ ولكن ماذا ؟

ـــ أظن أن الأمن العام سيظل متحفظا عليك فترة أخرى •

وأطرق أحمد ، ووجم السيد وحسام ، وقال جعفر :

ـــ المهم ياسعادة الباشا •• هل النيابة أمرت بالافراج ؟

فقال الباشا :

ـــ نعم •

فقال جعفر :

ـــ ألف شكر •• لا تخف يا أحمد •• كل شيء سيكون على ما يرام •

وقال أحمد فى ثقة :

ـــ نعم ، أعرف •• كل شيء سيكون على ما يرام •

واقترب الضابط الذى كان جالسا الى جانب غرفة التحقيق ، وأمر الشرطى حارس أحمد أن يتبعه والسجين ، وفى صمت مشى الموكب حتى بلغ الباب الخارجى ، ووقف الضابط أمام سيارة ذات صندوق كبير مغطى بالقماش ، وقف الركب خلفه ، وتقدم الشرطى الى باب الصندوق الخلفى ، ووقف بجانبه ناظرا الى أحمد الذى صعد فى سكون درج السيارة ، وجلس فى هدوء واطمئنان ، وجلس الشرطى الى جانبه ، وصعد الضابط الى جانب السائق ، وأمره أن يسير ، وانطلقت السيارة ، وتبعتها عيون الشبان الثلاثة ، حتى غابت عن الأنظار ، فأفاقوا الى وقفتهم ، وسارعوا الى سيارة حسام يركبونها صامتين •

٣٠

دخل الشبان الثلاثة القصر ، فوجدوا وصفى باشا جالسا فى البهو منكس الرأس ، ووجدوا الاضطراب يسود القصر جميعا ، حتى لم يلحظ أحد دخولهم ، على رغم الأنباء المهمة التى يحملونها ، ولم يرهم وصفى الا حين اقترب ابنه منه يسأله :

ـــ أبى ، ماذا حدث ؟

وانتبه وصفى الى ابنه ورفع اليه عينين ، رأى جعفر فيهما آثار اضطراب وحيرة ، ولو أنعم جعفر النظر ، ولو كان رأى أباه يبكى قبل اليوم ، لأدرك أن ما بعينى أبيه آثار دموع ، ولكنه لم يلحظ شيئا من هذا ، وانما شغله أبوه بسؤاله :

ـــ ماذا فعلتم ؟

وأنهى جعفر الى أبيه ما يحمله من أنباء ، فقفز وصفى عن كرسيه ، وهو يقول لابنه :

ـــ سهير حالتها خطيرة ، فاسألوا الأطباء عما يجب أن يقال لها ، وما لا يجوز أن يقال ، وأنا ذاهب الآن الى وزير الداخلية .

وخرج وصفى مسرعا ، وصعد جعفر وحسام الى الطابق الأعلى فوجدا باب سهير مقفلا عليها ، أو لا يكاد يقفل ، فالخدم داخلون خارجون منه ينفذون أوامر الأطباء فى وجوم وسرعة واضطراب ، فاختار الشابان مكانا لا يعوق الأرجل المتسارعة ، وجلسا فى البهو ، وبعد حين خرجت هناء من حجرة أمها وهى تقول :

ـ ألم يأت الأكسوجين ؟

وسارع اليها حسام يسألها :

ـ هناء ، هل أستطيع أن أعمل شيئا ؟

وفى غمرة الخطر المرفرف فى القصر نسى الاثنان ذكرياتهما ، والتقيا على هذه الأحداث المحيطة بهما ، ولكن هناء لم تستطع رغم هذا أن تمنع هذه الحمرة من الخجل أن تصعد الى وجهها ، دون أن يكون لها تأثير فى استئنافها الحديث مع ابن خالتها وكأنها لم تصرع آماله •• لم تتلعثم رغم اللهفة التى رأتها فى حديثه اليها •• لهفة محب لم تستطع أن تختفى فى جلال الموقف الذى يجمعهما يصفح عن حبيبته ، ويهفو اليها ، ويأمل أن تقبله أملا لا يشوبه ذكريات زواجها من غيره •• فى لحظة عابرة رأت هناء فى عينى حسام صفحا وحبا، وفى لحظة عابرة رأى حسام فى عينى هناء اعتذارا واشفاقا •• واقبالا •• لحظة أومضت فى الحوالك التى تحيط بهما ، ثم عادا الى الدوامة التى تصخب حوليهما ، قالت هناء :

ـ ماذا فعل أحمد ؟

فأنبأها حسام متلاحق الأنفاس ، وطلب اليها أن تسأل الأطباء ان كان يمكن أن يبلغا خالته •• وجمعهما الخطب ، وتبادلا جملا متقطعة عما يجب أن يفعلاه •• دارت هذه الجمل عن المرض وعن السجين، وأحس حسام من هذا الحديث القاتم اشراقا ينساب الى نفسه ، وملأه فرحا أن مشاعر متحدة تجمعه وهناء فى أحداث واحدة ، كلاهما

مهتم بها . وطلبت اليه هناء آخر الأمر أن يتعجل أنبوبة الأكسوجين، فسارع يثب السلم والفرح يغمر نفسه ، ويزجر هذا الفرح عن نفسه أنه غير خليق به أن يفرح ، وخالته أم هواه تنتزع أنفاسها انتزاعا ، وأحمد ملقى فى السجن ، وتنحسر موجة الفرح هونا لتفسح مكانا لبعض شفقة ، أو بعض اشفاق ، ثم ما تلبث موجة الفرح أن تطغى مرة أخرى هازئة بما يجب أن يحسه فى لحظته تلك ، ساخرة مما تريد الظروف أن تفرض عليه من احساس ، محطمة كل ما يحاول أن يقف فى طريقها من عقل أو منطق أو مشاعر غير الحب والفرح بهذا الحب .

كان مرض سهير أقوى حجة فى يد وصفى حين قصد الى وزير الداخلية ، فما زال به حتى أصدر أمرا بالافراج عن أحمد ، وسارع وصفى الى السجن ، ليصحب أحمد الى البيت . وعلى باب السجن قال أحمد فى هدوء ووثوق :

ــ عمى ، انى أشكرك ، ولكن لى رجاء عندك ؟

وقال وصفى باشا :

ــ اركب أولا يا أحمد ، وقل رجاءك فى السيارة .

ولم يحفل أحمد اضطراب عمه ، بل قال فى هدوء :

ــ فوزى .

وقطب وصفى جبينه ، فما كان ينتظر أن يسمع هذا الاسم الآن ، ومن أحمد ، وفى هذا المكان ، وانتزعته الدهشة هنيهة من اضطرابه ليقول :

ــ ماله ؟!

ــ معتقل ، وأبوه مشلول .

ونظر وصفى فى عينى أحمد بانعام ، وقد ازدادت الدهشة على وجهه ، يخالطها اعجاب واكبار ، ولكنه عاد يسأل فى تشكك :

ـ أما يزال صديقك ؟

ـ أتظن أنه يمكن أن يكون صديقي ؟

وأفاق وصفي الى الاجابة ، وأصبحت نظرته الى أحمد اعجابا خالصا ، وازداد تحديقا فيه ، وطالعته معارف سهير من وجه أحمد ، فانتفض جازعا وقال :

ـ طيب .. اركب .. اركب الآن يا أحمد .

ـ ولكن ياعمى أتعدنى ؟

ـ يا أخى أمك مريضة جدا .. أسرع .

واضطرب أحمد لهذا النبأ ، وأسرع يركب السيارة ، ولم ينتبه أنه سبق عمه فى الركوب ، وركب وصفى ، وأمر السائق أن يسرع الى القصر . وفى الطريق زاح أحمد يسأل عن تفاصيل مرض أمه ، ووصفى يجيبه ذاهلا ، حتى اذا لم يجد أحمد أسئلة أخرى ، غاص الى نفسه .. أتموت أمى ؟ .. أأكون أنا قاتلها ؟ .. أى حياة سألقاها من بعد ؟ .. حذار .. حذار أن أجر على نفسى الخسران فى دوامة هذه الأفكار .. ان الموت والحياة بيد الله .. الرحمة يا رب .. نجها يا رب .. أأطلب منه نجاتها لأنى أريدها ؟ .. أم لأنى لا أريد أن أكون أنا قاتلها .. انى على الحالين أنانى .. فأنا هى الباعث فى هذا الدعاء على أية حال .. أهذه هى الانسانية التى أريد أن أبلغ فيها شأوا ؟ وماذا بيدى ؟ .. كيف أسيطر على هذه الأفكار التى تمور برأسى ؟ .. نعم انى أستطيع ، ونظر الى وصفى وقال :

ـ أنا لن أذكرك بفوزى ثانية ياعمى .

ودهش وصفى هنيهة ، ثم بدا وكأنه قدر ما يعتمل بنفس الشاب ، فقال له فى ثقة :

ـــ لن تحتاج الى ذلك •

وبلغت السيارة باب القصر ، وجرى أحمد ملهوفا الى حجرة أمه ، وفتحها ودخل ، فوجد أمه تلقف أنفاسها من كمامة متصلة بأنبوبة موضوعة الى جانبها ، وما ان رأته حتى أزاحت الكمامة عن فمهـــا وهتفت :

ـــ أحمد •• ابنى •

وارتمى أحمد على صدرها يقبلها فى كل مكان ، وراحت الأم تجذب أنفاسها ، وتقبل ولدها لحظات ، ثم لم تستطع ، وأحس أحمد ضعفها ، فسارع يبتعد عن وجهها ويعيد الكمامة اليها ، وهو راكع لا يزال بجانب سريرها ، وأحس أحمد يدا رقيقة تربت ظهره ، وسمع صوت أبيه يقول :

ـــ الحمد لله على السلامة يا أحمد •

ونظر أحمد فوجد أباه جالسا على طرف سرير أمه ، ينظر اليه فى حدب ، فوضع رأسه على ركبته ، وانطلق فى بكاء صامت ، تنسكب دموعه من فؤاد جازع حزين • ورأت سهير ما فعل ابنها ، واستروحت المنظر •• وهدأت أنفاسها قليلا ، وراحت فى ســبات عميق •

٣١

أيام قليلة مرت •• أيام قليلة استطاعت فيها سهير أن تنعم بهذه الاشراقة التى أصبحت لا تفارق وجه ابنها ، فتبعث فى نفسها راحة تعينها على آلامها ، واستطاعت فيها أن ترى اقبال ابنها على أبيه ، اقبالا فيه اشفاق ، وفيه حب ، وفيه تمهيد للعذر ، وتقدير للطبائع ، وكادت سهير ترى خوالج ابنها الجديدة مجسمة أمامها ، ينبض بها قلب كبير بعيد عن الأنانية • وسمعت سهير ابنها يدعو الله أن يشفيها •• سمعت الله يهتف به أحمد ، فخيل اليها أن قلبه هو الذى خفق بالهتفة خفقا شديدا ، كان أعلى دويا من حركة الشفاه واللسان •

ورأت سهير حسام لا يكاد يفارق بيتهم ، ورأت هناء تقبل عليه فى غير ما تكلف وفى ود ، ورأت فى عينى بنتها معانى اطمأنت لها نفسها ، وهدأ لها هذا المضطرب الذى يعصف بها عصفا جائحا ••

أيام قليلة •• رأت سهير فيها سليمان يقبل على أحمد اقبال أب ، ويهتم بأمره فى حدب ، ويلتقى واياه على الطريق الذى سار فيه أحمد من حب •• حب بذل سليمان غاية جهده ليضع معالمه ، ويظهر معارفه : ولم يكن لسليمان جهد كبير فى هذا الشأن ، ولكنه على أية حال يحاول ، وسهير تحس بمحاولته •

أيام قليلة •• رأت فيها سهير البيت كما كانت تتمنى أن تراه •• أو كما كانت تريد أن تصنعه •• وانها لتفكر أنه كان خليقا بالبيت أن ينشأ ويظل على ما هو عليه الآن لو كان سليمان هذا شخصا آخر • نعم وصفى الذى كان لا يكاد يغيب عن القصر لحظة فى هذه الأيام الأخيرة •• وصفى هذا •• ولكن ماذا يفيد الآن •• وما البأس بنا الآن •• أنا لا أتمنى شيئا اليوم الا أن أشفى •• فهل أشفى ؟

ولم يشأ القدر أن يحقق هذه الأمنية ، فماتت سهير ، وكان موتها بعد حين قصير من خروج الطبيب المعالج ، باسم الثغر ، يهنىء الأسرة والقصر بقرب شفاء المريضة العزيزة •• لم يكن الطبيب خاطئا كل الخطأ ، لقد شفيت من آلامها جميعا •• من آلام نفسها ومن آلام جسمها ، وانتقلت روحها الى عليين لدى ملك لا يمنع الظل لائذا ، الرحمة الكبرى وراء سمائه ، تلف التقى فى سيبها والمعاصى •

أقبل المعزون ، ووقف سليمان وأحمد ووصفى يستقبلونهم ، لا يكاد واحد منهم أن يقيم أوده من الحزن ، وكان وصفى أشدهم ألما ، وأكثرهم اضطرابا ، لأنه الوحيد بينهم الذى لا يستطيع أن يتيح لألمه طريقا يخرج منه الى الحياة •• كانت الدموع تسور فى عينيه فيحبسها ، فالعرف والتقاليد سياج حولها أن تسيل ، وتزحم الدموع نفسه• انها دموع سنوات كثيرة••انها ذكريات الشباب، الأولى والساعات المشرقة فى حياته •• انها دموع تحمل فى رقراقها صور الماضى كلها ، والماضى قطعة من نفسه ، بل انه عند وصفى فى موقفه هذا النفس كلها •• ويلجأ وصفى الى القصر يبحث فيه عن مكان يستر دموعه المائجة فلا يجد ، ويخرج من القصر الى الحديقة ، وينفض المكان بعينيه ، فيرى جميع من فى الحديقة مشغولا بأمر المأتم، وكما كان يفعل فى الأيام الخوالى ، يسير الهوينا فى المماشى حتى

يبلغ السلم .. السلم القديم فينفض المكان مرة أخرى دون أن يفكر فيما يفعل ، ثم ينزل السلم وثبا ، كأنه ذلك الشباب الذى كانه منذ حين بعيد .. بعيد غاية البعد ، وما يكاد وصفى يصل الى المقاعد التى شهدت قطعا كثيرة غالية من حياته ، ما يكاد حتى يرتمى الى أحدها ، وينخرط فى بكاء عالى النشيج ، يستره القرآن الذى يتصاعد من المأتم أن يبلغ الى أذن ، ويحيط به هذا القرآن نفسه فى حنان واشفاق وسمو .

كان فوزى بين المعزين ، وقد انتهز فرصة انفرد فيها أحمد ، وجاء ليجلس الى جانبه :

ــ البركة فيك يا أحمد .

ونظر اليه أحمد ، ثم لم يجب ، فقال فوزى :

ــ خرجت بالأمس من المعتقل ، وقد جئت أعزيك وأشكرك ، فقد عرفت أنك رجوت وصفى باشا من أجلى ، ولولاه لكنت معتقلا حتى الآن .. لقد كنت نبيلا يا أحمد ، وكنت رجلا .

وقال أحمد فى هدوء وفى صوت خفيض :

ــ أقبل عزاءك مع الشكر ، أما شكرك فلا أقبله بحال من الأحوال ، فقد سعيت لاخراجك اشفاقا على أبيك المريض ، وأمك التى أصبحت بلا عائل الا أنت ، وان رأيى فيك الذى قلته لك يوم طلقت هناء يزداد عمقا فى نفسى .. وان وصفك لى بالنبل أمر آخذه أنا على محمل الهجاء لا الحمد ، فمديح مثلك مسبة للممدوح ..

وما زلت أرجو ألا أراك أبدا بعد اليوم .. أشكرك .

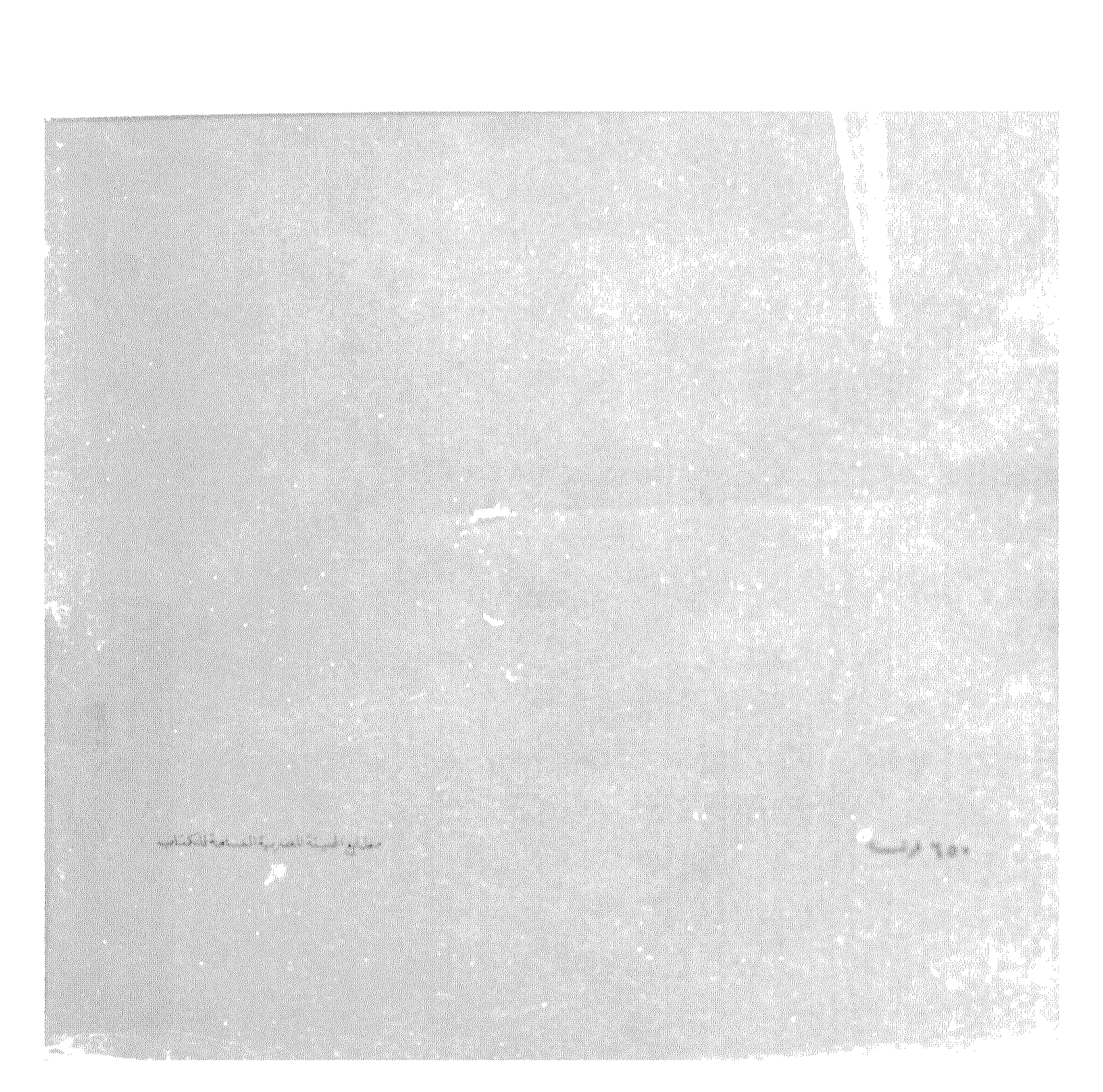
وقام أحمد عن فوزى فى نفس الهدوء الذى كان يلقى به هذا الحديث .. ولم ينظر أحمد وراءه ليرى فوزى وهو ينصرف ، ولكنه أحس على رغم قسوته أنه يسير فى الطريق التى يريدها لنفسه .

انتهت الليلة ، وبحث أحمد عن أبيه فى السرادق فلم يجده ، فصعد الى الدور الأعلى من القصر ، وقصد الى حجرته ، ولكنه لم يجده ، فعجب بعض الشيء ، وقصد الى غرفة نومه هو ، وراح يخلع ملابسه ، وما ان استبدلها بملابس النوم ، حتى جلس قليلا مطرقا ، ثم قام فى هدوء خارجا من الغرفة ، قاصدا الى غرفة أمه ، يسير اليها وكأنه يتوقع أن يجدها •• وفتح أحمد باب الغرفة فطالعه ظلام زاده قتاما أن أغلق الباب من خلفه ، وقصـــد أحمد الى حيث كان رأس سهير ، وركع الى جانب السرير ، وغمر وجهه فى الوسادة ، ولكن صوت نشيج ما لبث أن علا الى أذنه يأتى اليه من قريب ، ورفع أحمد رأسه وأدار عينه الى حيث النشيج ، ثم مد يده فلمست كتفا عرفها ، وزحف أحمد الى جانب أبيه ، واحتضنه بذراعه ، وربت كتفه ، والتفت اليه أبوه ، وكانت عينا أحمد قد تعودتا الظلمة ، فاستطاع أن يرى على ضوء شعاع ينسكب من زجاج الباب وجه أبيه مغطى بالدموع ، واضطرب أحمد لدموع أبيه العصية ، وازداد اضطرابا حين وجد أباه يرتمى بين أحضانه ، وكأنما هو الابن فقد أمه •• اضطرب أحمد هنيهات ، ثم تمالك نفسه ، وسكن جأشه ، واحتوى أباه بذراعيه فى حنان •• والتقت الدموع •• !

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/٤٠٧١

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٠٤٣ - ٠٤



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب